سمكة الرمل

سمكة الرمل

مها قرقاش

رواية

Qindeel | قنديل

The Sand Fish

MAHA GARGASH

(Novel)

سمكة الرمل

ترجمة: غالب مصري

© 2017 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، و بأي طريقة، سواء
أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلاف ذلك،
إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

موافقة « **المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: 158568 تاريخ (25/10/2016)

ISBN: 978- 9948- 23- 376- 3

إن الأحداث والشخصيات المذكورة في هذه الرواية هي من محض خيال الكاتبة ولا تعبر
عن أحداث أو أسماء على أرض الواقع، كما أن الناشر لا يتبنى بالضرورة الأفكار والتوجهات
المذكورة في الرواية.

Qindeel | قنديل

للطباعة والنشر والتوزيع

Printing, publishing & Distribution

ص.ب: 47417 شارع الشيخ زايد

دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر 2017

الطبعة الأولى: كانون الثاني / يناير 2017 م – 1438 هـ

إهـــداء

إلى والديّ

ملاحظة المؤلفة

إن جميع الأماكن والمجتمعات الواردة في هذه الرواية هي من خيال المؤلفة، غير أنها مستمدة من المجتمعات المختلفة التي عاشت في المنطقة التي تتكون منها دولة الإمارات العربية المتحدة وشبه جزيرة مسندم في عُمان، وذلك في بداية خمسينيات القرن الماضي. وقد اختارت المؤلفة أسماء وهمية للمدن والقرى والمجتمعات؛ وذلك لسببين: أحدهما، أن بعض هذه الأماكن والمجتمعات لم يعد لها وجود، والسبب الآخر هو أنها أرادت أن يكون لديها مزيد من الحرية في إضفاء الحياة عليها.

الفصل الأول

وصلن الآن؛ النساء الغريبات اللواتي قدمن إلى بيتها ليقررن مصير حياتها.

استطاعت نورة أن تسمعهن بوضوح من داخل بيتها الحجري، وهن يطلقن شكاواهن بأصوات أشبه ما تكون بقرق دجاجات تتنافس للظفر بالحبوب. كن متعبات وساخطات، هذا جل ما عرفته نورة. وأخيراً، عبرن جبالها المقفرة في رحلة استغرقت منها جلّ وقتها.

«صرنا أكواماً من العظام الهشة، يا سكينة، هذا ما نحن عليه».

«نعم يا كلثوم. تهزهزتُ كثيراً على ذلك الحمار .. وما زلت أشعر بالهزهزة».

كان الأمر كما توقعت .. أصوات الخطّابات: كان صوت كلثوم غليظاً وأجشّ، أما صوت سكينة فكان أكثر رقة، تخامره ارتعاشة خفيفة جعلته أقرب إلى الملاطفة.

عندها سرت رعدة في أوصال نورة، حيث أصغت إلى صوت أخيها وهو يقدم لهما الماء والتمر ليخفف من إعيائهما. لعلها كانت تود لو أنها تهز يديها وتصرخ، وتطلق العنان لنشيج كان يزلزل أضلاع صدرها، لكنها بدلاً من ذلك راحت تلكمه، وأنشبت أظافرها في أعماق غدره بها. شقيقها .. رفيق طفولتها: صقر الذي كان يصغرها بعام، بينما كانت هي في السابعة عشرة من عمرها، وكان أقصر منها بقليل، ومع ذلك فقد كان يريد التخلص منها، تماماً على تلك الشاكلة.

حضنت نورة صدرها وأحست بنضج ثدييها. سرعان ما سيأتي رجل غريب عنها ليغدو زوجها، ويحطم تلك النعومة. ماذا سيحطم غير ذلك أيضاً؟ أحنت كتفيها، وانكفأت منطوية على نفسها إلى أعتم ركن في بيت الحجر. كانت امرأة في ظاهرها، أما في أعماقها فكانت تضج بالصراخ رغبة منها في أن تحظى بالحماية الحنونة التي تتوق إليها نفس الطفل.

«تمام. أين البنت؟» سألت كلثوم بصوتها المدوّي.

استقامت نورة في جلستها وأسدلت شيلتها حتى غطت وجهها، وشاهدت الخطّابتين من خلال الشيلة السوداء الشفافة وهما تدلفان إلى داخل الكوخ. وبعد إلقاء التحيات المعهودة جلستا أمامها بتثاقل وعرّفتا بنفسيهما على أنهما شقيقتان موهوبتان في تجهيز العرائس لحياة الزوجية.

قالت كلثوم: «أنت فتاة محظوظة! فالفرصة لا تتاح لكل فتاة أن ترضي رجلاً بمثل غنى ووجاهة الرجل الذي ستتزوجينه».

كم كان سهلاً عليها أن تقول ذلك؛ فهي لم تكن الفتاة التي ستغادر منزلها وتوجه أشرعة حياتها نحو إحدى القرى البعيدة. أجل، لم تكن هي التي سيتعين عليها مشاطرة غريب فراشه. لم يكن بمقدور نورة مشاركة كلثوم في حماسها، ولذلك أحدقت بنظرها إلى الأمام وانتظرت بصمت لترى ماذا سيحدث.

قالت لها كلثوم بلهجة الآمر: «والآن يا عزيزتي، أريد منك أن تقفي وتمشي قليلاً».

نهضت نورة، وبينما كانت تلف شيلتها بإحكام حول صدرها، خطت خطوة نحو المدخل.

«لا، لا، ارفعي ثوبكِ. أريد أن أرى حركة قدميك».

رفعت نورة ثوبها إلى الأعلى، مبدية سرواها الفضفاض الذي يضيق عند كاحلها، وتابعت ببضع خطوات مترددة. ألقت نظرة من فوق كتفها لتلمح الشقيقتين تومئان أمارةً على الموافقة. فقد بدتا ببرقعيهما اللذين غطيا معظم وجهيهما «الجبين والأنف والفم» مثل صقرين على وشك أن ينهشا لحم فريستيهما.

«حلو جداً». تهدج صوت سكينة تخامره البهجة، «ما شاء الله! الله يحفظ! لا عَرَج ولا منحنيات قبيحة».

قالت كلثوم: «يمكنك الجلوس الآن حيث أنت، بجوار الباب».

«اجعلي وجهك نحو الضوء، حبيبتي!»

غاصت نورة إلى الأرض، بينما أقبلت الخاطبتان نحوها تزحفان على أردافهما التي تشبه ثمرة الكمثرى، حيث شكلتا معها مثلثاً أنيقاً.

أخذت كلثوم نفساً عميقاً وشمرت عن ساعديها: «والآن دعينا ننظر إليك». وجذبت شالتها فانزلقت على كتفي نورة.

أرخت الشقيقتان عنقيهما يتراقصان بغرابة في عملية فحص جرئية، وراحتا تهزان رأسيهما من جانب إلى آخر ومن أعلى إلى أسفل. وانطلقت أعينهما من خلال شقوق برقعيهما الغليظين تنظر هنا وهناك على نحو يبعث على الإرباك. وتحت وقع نظراتهما الفاحصة والصامتة، شعرت نورة بحمرة الخجل تغمر وجهها. كان ذلك عندما حانت منها التفاتة إلى وجناتهما المتجعدة والمنتفخة تحت عيونهما، فقد كانتا تبتسمان.

قهقهت سكينة وقالت: «صعدت حبات الرمان إلى وجنتيها يا أختي».

قالت كلثوم، وهي تمد يدها إلى إحدى ضفيرتي نورة الكستنائيتي اللون، وتلمس بأصابعها أطرافها: «عروس خجلى أخرى. طرية ولكنها مهملة. هل ترين يا أختي؟».

«نعم يا أختي، ولكن هذا كله تمام». قالت ذلك سكينة، وهي تربت على أطراف خصلات شعر نورة العريضة التي،

كما تقضي العادات، كانت مشذبة للأعلى لكي يظهر جبينها كله. «إنه شعر جميل، انظري كيف يلمع هذا الجزء هنا، قليل من زيت الياسمين سوف ينعش بقية شعرها». جفلت نورة حينما زحفت أصابع سكينة الخشنة إلى أسفل وجهها وعادت للأعلى إلى وجنتها. توقفت عند الأذنين لتجذبهما واحدة تلو الأخرى، ثم تقول: «ناعمتان ونظيفتان، لا شيء هناك».

امتدت يد كلثوم إلى ذقن نورة، وحينما جذبت وجهها نحو الضوء، أغمضت نورة عينيها قليلاً؛ فقد كانت تعلم ما سيحدث عندما يقع الضوء عليهما، إذ سوف تلتمعان ببريق وكأنهما زمردتان. ذلك عندما تكون في أشد حالات جاذبيتهما، وكان أملها أن يفوت ذلك نظر كلثوم فلا تراه. ولكن كلثوم كانت تتمتع بالجرأة والتمحيص؛ فقد أمسكت بجفنيها لتفتح عينيها وشاهدت كل ذلك اللمعان، مدمدمة علامة على الموافقة، قبل أن تفرك وجنتي نورة بأصابعها الثخينة، وتقول: «البشرة خشنة قليلاً، غير أن مزيجاً من حب الهال والحليب سيمنحها طراوة». شعرت نورة بحرارة نخير كلثوم عند رقبتها وهي تقول: «لا تعجبني هذه، هذه الندبة تحت ذقنك. ماذا حدث؟».

أجابت نورة، مستغربة من الفتور الذي بدا في صوتها: «وقعت على صخرة عندما كنت صغيرة».

تراقص لسان كلثوم في فمها وهو يصدر أصوات طقطقات

متلاحقة، ثم قالت: «حسناً، لا يمكننا فعل شيء حيال ذلك، أليس كذلك؟» وأقحمت إبهامها وأصبعين من أصابعها لتفتح بها شفتي نورة، وتعاين أسنانها.

«سليمة، باستثناء هذه المنطقة هنا».

قالت نورة: «إنها بسبب السقوط نفسه». قالت ذلك على أمل أن تعيبها هذه العقبة في أعينهما فتصرفان اهتمامهما عنها، لكنهما انتقلتا إلى مواضع أخرى من جسمها، تعجنان وتتعاملان معها كما لو كانتا تعالجان قطعة من العجين لتتوصلا إلى القوام المناسب. أمسكت كفان بمؤخرة عنقها، بينما راحت الأخرى تفرك ظهرها.

جفلت حينما غرزت سكينة أصابعها الثقيلة في أرياش كتفها، كانت لمستها أقوى من صوتها. وبعد أن ضغطت بيديها بضع مرات توصلت إلى استنتاج وقالت: «ليس لديها شحوم المدللات. نحيلة جداً، ولكن عظامها قوية، ما شاء الله، ليست مريضة، وهي جيدة للأعمال المنزلية».

تحسست كلثوم بطنها: «جيدة، ومتممة. ممتازة للحمل والولادة».

دورت كفيها وضغطت بقبضتها على فخذها حتى وصلت بها إلى الركبة.

همهمت برضا: « همم! الساقان مكتنزتان، وقويتان بما يكفي لحمل ثقل الحبَل».

رددت سكينة: «أمامها عمل كثير بانتظارها».

قالت كلثوم موافقة: «نعم. ولكن يمكننا إعدادها، سوف نجعلها أنيقة ومرتبة». تفحصت داخل الكوخ كما لو أنها تراه للمرة الأولى: «من الجيد أنك تحافظين على نظافة البيت، ولكن هل تتقنين الطبخ؟»

غمغمت نورة قائلة: «نعم خالتي».

تمتمت سكينة: «مسكينة!» ولأول مرة لاحظت نورة شيئاً من الحزن في عينيها وهي تقول: «عالقة هنا بلا أم، بينما ذهب أبوها إلى أخرى الله أعلم من هي».

قالت كلثوم، وقد تخلل صوتها المبحوح فورة من الحماس: «ليس هناك وقت للحزن، لدينا مهمة: أن نأخذ هذه الطفلة وأن نجعلها زوجة محترمة لرجل مهم». ثم التفتت إلى نورة وأضافت: «سوف نجهزك، إن شاء الله، سنأخذ دور أمك ونعلمك كل ما تحتاجين إلى معرفته».

قالت سكينة ضاحكة: «ولديك نحن الاثنتان، ولذا فأنت تحظين ببركتين».

«هناك الكثير الذي تحتاجين إلى معرفته، والقليل من الوقت.

النساء اللواتي اتبعن نصائحنا أصبحن من خيرة الزوجات». قالت ذلك سكينة وهي تتغنى بصوت مفعم بالفخر: «لم يشتكِ أي من الأزواج».

في تلك اللحظة فهمت نورة حينما شاهدت عيني الشقيقتين تلمعان وهما تهنئان بعضهما بعضاً بصمت: «لقد اجتازت الاختبار».

ما تلا ذلك كان خبرتهما التي التصقت بذاكرتهما خلال أعوام عديدة قضتاها خاطبتين. استنشقت الأختان هواء النجاح بسعادة، ثم انهالتا بقائمة من التوجيهات المصممة لضمان سعادة الزوج.

بدأت كلثوم: «تذكري، سوف تصبحين جزءاً من بيت زوجك».

وقالت سكينة: «الطبخ والتنظيف ...»

«انتبهي، يجب أن يكون مظهرك جميلاً طول الوقت».

«ورائحتك طيبة: عطر الورد خلف الأذنين، وثيابك وجسمك مطيبان بالبخور».

قالت كلثوم محذرة: «كفي عن عاداتك المتوحشة في هذه الجبال. لو كان يريد واحدة بهذا الشكل لاختار همجية من أدغال أفريقيا».

قالت سكينة برعشة خفيفة في صوتها المتهدج: «يجب أن تكوني رزينة محتشمة».

«خلال هذه السنة الأولى، يجب ألا يراك تمضغين».

«ما عليك سوى أن تحركي فمك بهذا الشكل». وعلى الفور،

توقفت الأختان لتوضحا لها عملياً. بقي فم كل منهما مختفياً خلف برقعيهما، وشيئاً فشيئاً انحل الخيط الذي كان يثبت برقع كلثوم فمال إلى أحد الجانبين، وظهر طرف أنف صغير ارتفع بأناقة. رفعت نورة حاجبيها بتعجب؛ فذلك الأنف الجميل كان يمثل تباينا حاداً بالمقارنة مع مزاج كلثوم الفظ.

تنحنحت كلثوم وتابعت وهي تعدل برقعها: «نصيحة مهمة: عندما تلفظين نواة التمرة في الصينية، احرصي على ألا تصدر صوتاً».

تساءلت نورة كيف يمكن ذلك؟

ضحكت سكينة بعصبية: «لا أحد يصدق أن ذلك ممكن، ولكنه ممكن». التفتت إلى أختها قائلة: «تذكرين بنت المقبالي عندما لم تستطع أن تفعلها. لكن مع قليل من الممارسة، ما شاء الله، تمكنت من لفظ النواة لتستقر على الصينية بنعومة وكأنها ذرة رمل».

دفعت كلثوم بمزاج أختها السلس جانباً؛ فهي لم تفرغ من الكلام بعد: «لا تبتسمي»، قالت ذلك محذرة نورة.

أوضحت سكينة قائلة: «إن كان لا بد من ذلك، فاخفضي رأسك وابتسمي في ذهنك. لا تحركي شفتيك».

«لا تتكلمي كثيراً».

قالت سكينة بصوت يشبه الزعيق: «أوه .. لا .. لا .. لا تتكلمي كثيراً أبداً .. سوف يظن أنك سهلة».

توقفت المرأتان عن الكلام مع أن نورة واصلت هز رأسها بالموافقة؛ فكلما كانت عملية الفحص ستنتهي بسرعة أكبر كان ذلك أفضل لها.

بعد ذلك سعلت كلثوم، وهي سعلة مهمة تنقي الأجواء وتزيل سوء الفهم، وخمنت نورة بأنها كانت على وشك أن تقدم أهم معلومة ضرورية.

قالت كلثوم: «والآن، ما سأقوله الآن هو لمصلحتك، وأنا أقدم لك النصيحة لتتبعيها».

نظرت نورة إلى سكينة بانتظار إيعاز أو لمحة، ولكن سكينة أطرقت برأسها وعينيها نحو الأرض، وكانت تنقر بأصابعها على ركبتيها بصمت.

قالت كلثوم بلهجة الآمر: «انظري إليَّ، الحقيقة أنك عنيدة، وأنك تريدين فعل كل شيء على هواكِ. هل هذا صحيح؟»

«لا يا خالتي». هل يا ترى قال صقر هذا الشيء عنها؟ شعرت بوخزة في عينيها من غدر أخيها وإفشائه دائماً لأمورها. أين كان في تلك اللحظة؟ هل كان يسترق السمع من الخارج. هل كانت ترتسم ابتسامة متعجرفة على محياه؟

تابعت كلثوم بصوتها المدوي والمشحون بالمعاني: «لا يمكنك أن تكوني فخورة متعالية يا بنتي. ليس هذا جيداً؛ فأنت فقيرة، ولكن ستحظين بميزة العيش الميسور. تذكري ذلك، واستوعبيه

جيداً. إذا كبّرتِ رأسك وتدلّلتِ فقد يطردك زوجك «برّة!» .. ولن يكون لديك مكان تذهبين إليه».

والآن عاد صوت سكينة للمشاركة في الحديث. قالت وعيناها ترفان بسرعة: «مسكينة. قسونا عليها كثيراً».

«نحن نقول لها ذلك لمصلحتها، يا أختي!»

قالت سكينة، وقد غلب الحزن على صوتها: «لا يمكننا أن نلومها. فكري .. تربت طول عمرها وحيدة، بمنأى عن الناس، ليس هذا عدلاً. ماذا كان والداك يظنان، عزيزتي؟»

قالت كلثوم: « كان عليهما أن يزوجاها قبل أن تعي وتفكر».

قالت سكينة، وهي تغرد بصوتها من جديد: «نعم، بمجرد أن أصبحت ناضجة».

قالت كلثوم: «بل حتى قبل ذلك، حتى تتعود على بيت زوجها قليلاً قبل أن يتمكن من لمسها. ولكن لا فائدة من التفكير فيما كان. علينا الآن التركيز على ما سيكون. أنت فتاة محظوظة. لديك الآن رجل غني، كوني حامدة شاكرة».

أكدت سكينة كلامها: «أجل، كوني ممتنة».

استمرت الأختان تغرسان في نورة فكرة ضرورة الحشمة كبنات جنسها والخجل الذي يرافق الفقر. تصاعدت ثخونة صوتيهما مع كل كلمة وهما تحيكان شبكة التقييد

بالزوجية، إلى أن شعرت نورة بأنهما مزقتا كل خيط من أمل كان كامناً في صدرها.

كانت الخاطبتان تقتحمان حياتها بقوة زوبعة ترابية متصاعدة، لا تترك وراءها سوى طعم الرمل في فمها. وكان يتعين عليها أن تبتلعه. والآن، حينما نهضتا لكي تغادران، تساءلت نورة ماذا حدث للنسر في داخلها. متى ترنح الصوص الضعيف ليحل محله؟

كانت أضعف من أن تقاوم. لقد حدث الكثير في ذلك الوقت القصير للغاية: لسعة الغدر، وأذى الوعود الكاذبة، وألم الخسارة. والآن، حينما جلست وحيدة في ذلك الكوخ المبني من حجارة متراصة، وواجهت الطرد والإبعاد، حاولت أن تحدد متى بدأ ذلك كله. ولعلها على الفور تذكرت سمكة الرمل.

الفصل الثاني

على الجبال المنتصبة على حافة شبه الجزيرة العربية، كانت الأرض في الغالب أكثر عطشاً.

تسلقت نورة السالمي قمة الحيد الذي ارتفع فوق بيتها، ومشت إلى حافته. جالت بعينيها على طول الكتلة المقفرة من القمم المتكسرة. وفي الغرب، كانت تتجمع مرة أخرى السحب نفسها التي كانت تراها كل يوم خلال الأسبوع السابق، تعنفها من بعيد. أما في صباح هذا اليوم، فقد كانت أشد ظلمة ولعلها كانت تدرك أنها محملة بالمطر.

لعقت شفتيها، وابتلعت الجفاف في مؤخرة حلقها. كانت تتوق إلى المطر الذي كانت تحمله تلك السحب. هذا الحرّ، حرّ عام ١٩٥٠، استمر تسعة أشهر كاملة، وهي أطول فترة تذكرها على الإطلاق. لقد جف ضرع السماء في اللحظة نفسها التي توفيت فيها أمها، بسبب مرض غامض أفنى قوتها وأنحل جسدها حتى غدت «لحماً وعظماً». أما الآن فقد أصبح الماء في بئرهم مراً، وسرعان ما يجف ويتلاشى تماماً.

تنهدت نورة واستدارت مبتعدة، وفي تلك اللحظة هبت فجأة نسمة هواء قوية أطاحت بشيلتها، فتبعتها وهي تتراقص وتدور في الهواء مندفعة مع الريح التي حملتها بعيداً، وشعرت أن الأمل كان يجري مبتعداً معها أيضاً. كان يمكن لتلك الريح أن تسوق تلك السحب المشبعة بالمطر فوق بيتها، وأن تتحول إلى عاصفة هوجاء، ثم يهطل المطر الذي يسلك طريقه إلى بئر العائلة.

طفت شيلتها بمحاذاة حافة الحيد حتى حطت على الأغصان المتشابكة لشجرة أكاسيا منفردة. وفي تلك اللحظة التي التقطتها من فوق أشواك الشجرة، ووضعتها على رأسها، وقعت عيناها على السقنقور الذي كان يتعرض لأشعة الشمس وهو جاثم على الحصى بجوار الشجرة.

تراءى لها أنها قد شاهدت جميع الكائنات في جبالها، غير أن هذا الكائن كان مختلفاً، كان أشبه بأفعى منه إلى سحلية؛ إذ لم تكن له عنق واضحة، بل كان ثمة تضيق في جسمه عند كلا الطرفين: أنف طويل أشبه بالإسفين، وعينان على الجانبين، وذيل قصير استدقّ حتى تحوَّل في نهايته إلى رأس دقيق.

«صقر» نادت أخاها، ولم يرد عليها، فنادته من جديد.

وصل في الوقت المناسب ليمسك به وهو ينزلق كالأفعى إلى صخرة صغيرة برزت بين شجرة الأكاسيا والحيد، كان يتحرك كالأفعى أيضاً.

قال أخوها: «إنها سمكة الرمل».

قالت نورة وهي تحدق بعينيها نحوه، إذ كانت تغبطه لمعرفته: «سمكة رمل؟ أي نوع من الأسماء هذا؟» وعندما لم يبد جواباً، عادت وتفحصت السحلية مرة أخرى؛ فقد كانت أكبر قليلاً من كفها، وجسمها مغطى بحراشف ناعمة براقة، وحتى في ضوء الفجر المفعم بالسكون، كان ظهرها يلمع باللون الأصفر الفاقع، تتخلله شرائح بنية مائلة إلى السواد على طول ظهرها.

قال صقر: «لا أدري ماذا تفعل هنا».

«تتدفأ بالطبع».

«لا، أنت لا تفهمين، لا توجد سمكات رمل هنا، إنها تعيش في الصحراء».

ردت نورة بصوت يشبه الشخير: «سمكة الرمل، يا للأسماء التي تخترعها».

قال مقعراً كفه وهو يحركها وكأنها تسبح: «إنها تسمى كذلك؛ لأنها تقفز في الرمل وتسبح فيه، انتظري، سأريكِ».

«لا ...»

لكن فات الأوان، فقد انحنى بالفعل تحت شجرة الأكاسيا، غير أن غترته التي غطى بها رأسه بأناقة علقت بالشجرة، برزت جدائل شعره، وعلقت هي أيضاً بالشجرة. تلك

الجدائل الناعمة: أصبحت شيئاً فشيئاً النعومة الوحيدة التي كان يمكنها أن تراها فيه. كان جسمه مكتنزاً وكأنه جلمود من صخر. كانت بشرته خشنة، وكانت مقفرة من اللون الذهبي الذي أضاء بشرة نورة. وبدلاً من ذلك كان ثمة بقع ذهبية تلمع في عينيه، مثل عيني والده تماماً؛ لكن النقاط الدقيقة في عيني صقر كانت على الأغلب مثل عيني والدهما. غير أنَّ النقاط الدقيقة في عيني صقر كانت على الأغلب مستترة في ظل جبينه الناتئ.

راحت نورة تبتسم وهي تراقبه يلفظ الشتائم ضد شجرة السمر، وكلما كان ينفتل ويصارع، كانت الشجرة تحتضنه بإحكام: «سمكة رمال، بالفعل».

قال صقر، وقد أفلح أخيراً في تحرير شعره: «لمَ يا ترى أزعج نفسي؟» وحينما تسلل خارجاً كوّر فمه وتكور معه خيط دقيق من الشعر الناعم الذي كان في طريقه إلى أن يصبح شاربين، «لماذا أضيع وقتي معك بينما لدي الكثير من المسؤوليات؟»

مرة أخرى تتكرر تلك الكلمة الكبيرة، تلك الكلمة الرجولية: المسؤوليات؛ كم جعلته تلك الكلمة يشعر بالأهمية! وشيئاً فشيئاً كان يعجبه أن يقذف بها في وجهها، وكأنها رمح يغرزه في حلقها كي لا تستطيع أن ترد عليه. قالت له: «لا يزال أبونا موجوداً، ما زال هو رب الأسرة».

قال صقر: «ليس دائماً»، وهو يعيد غترته ويثبتها بإحكام

على رأسه، بينما ينفض الغبار عن دشداشته. «ما دام عقله خارج هذا العالم ولا يدري به فإنه يتعين علي أن أفكر لمصلحة هذه العائلة. عليَّ أن أتخذ جميع القرارات المهمة».

كانت على وشك أن ترد عليه عندما هبت عليهما زوبعة أخرى اهتزت من هولها الشجرة وأجفلت السحلية، اصطدمت سمكة الرمل بجدار الحيد الذي أصاب خطمها.

فغرت نورة فاها، وفجأة اندفعت هي وأخوها إلى أحد جانبي شجرة الأكاسيا ليريا ماذا يمكنهما فعله، مما أصاب سمكة الرمل بمزيد من الذعر، وحاولت مراراً الهرب بالطريقة الوحيدة التي كانت تعرفها. لا ينبغي لها أن تلبث في مكانها، ومرة بعد أخرى كانت تهشم خطمها، وأحست نورة بألمها: انقباض مزعج تحت سرتها تماماً، في عمق بطنها.

نادته نورة قائلة: «لا بد لنا أن نفعل شيئاً».

أجابها صقر: «لن تنجح، وليس في أيدينا ما نستطيع فعله».

كانت هناك خطوط دقيقة من الدماء تشبه خيوط الحرير، رسمت خطوطاً على خطمها، وجرح في الجانب اللامع من ظهرها الأصفر. كانت نورة على يقين من أنها ستفقد قدمها الشائكة بينما كانت تراقبها وهي تكشط الصخر القاسي، كانت تحاول أن تسبح فيه.

قالت بلهجة الآمر: «افعل شيئاً».

دفع صقر بيده بين الشجرة والحيد وحاول أن يمسك بها، مرة .. مرتين .. وأطبقت يده عليها، ولكنها انزلقت من بين أصابعه، وأخيراً اصطدمت سمكة الرمال بشجرة الأكاسيا.

زعقت نورة. كانت تتلوى في الهواء، غير قادرة على الهبوط؛ فقد كانت محتجزة، وانغرزت في ذيلها إحدى الإبر الغليظة من الشجرة، لكن صقر أقحم يده خلال أشواك الشجرة وأمسك بها.

صرخت نورة: «هناك، هناك، هناك. خذها إلى هناك»، قالت ذلك وهي تشير له إلى أعلى الوادي، حيث كانت التربة هشة ومفتتة، ومن السهل عليها أن تغوص فيها.

لكن سمكة الرمل الدامية والمتلوية لم تكن لتبقى ساكنة، إذ انزلقت من قبضة صقر وتسلقت على صدره، ثم قفزت في الهواء فيما تيقنت نورة من أن ذلك سيكون فيه نهايتها. وضعت راحة كفها على فمها لتخنق صرختها.

انفتلت سمكة الرمل في الهواء والتوت، ثم نزلت لتصطدم بالحصى. سلخت الصدمة قطعة من ذيلها طارت جانباً وراحت تخترق الهواء على غير هدى.

ولكن سمكة الرمل كانت لا تزال حية. كانت سمكة الرمل تجري صاعدة إلى أعلى الجبل.

قال لها صقر: «هلمي، دعينا نذهب، علينا أن نذهب ونحصل على الماء».

بعد أن ذهبت آثار الصدمة، أرادت نورة التأكد من أنها قد وصلت إلى تربة أكثر طراوة: «دعنا نرى ...»

قال صقر: «انظري.. ما دمنا قريبين منها فسوف تسعى للهرب، وتحاول الاختباء بالطريقة نفسها، سوف تضرب رأسها حتى تقتل نفسها، دعينا نذهب».

الفصل الثالث

انطلقا مع بزوغ خيوط الفجر الأولى. كانت نورة تحمل دلواً من جلد الماعز له حبل طويل مثبت بقبضته، وقد علقت «مثل أخيها» قربتين من الجلد على عاتقيها، كانا يضربان خاصرتها وهي تشق طريقها إلى أعلى المنحدر الجبلي البسيط. وكانت تحاول طول الوقت العثور على سمكة الرمل.

«كيف وصلت إلى هنا برأيك؟» سألت بمجرد وصولها إلى السهل المنبسط العريض عند القمة.

«لا أعرف». قال صقر، ولبث واقفاً خلفها على بعد بضع خطوات.

توقفت واستدارت لتواجهه: «قصدي أن الصحراء بعيدة جداً من هنا».

«ليس مهماً». قال ذلك ووجهه صارم كالحجر، وجه شاب يسعى جاهداً لأن يبدو كبيراً في السن: «ومن يأبه على أية حال».

ومـع ذلـك فقـد كان يأبـه بالفعـل. لقـد رأت الألم باديـاً عـلى وجهـه وهـو يحاول إنقـاذ ذلـك المخلـوق البائـس. تغضنـت ملامح وجهـه كـما لـو أنـه عـصر ليمونـة مـرة في فمـه. أمـا الآن فقـد كان لـه وجـه مختلـف، وجـه اسـتطاع أن يخفـي عواطفـه ... وجـه جعـل منـه رجـلاً.

شـاهدت نـورة الحجـارة المتخلخلـة تتدحـرج تحت وقـع قدميـه وهـو يـدوس بجوارهـا. تلـك المشـية كانـت حازمـة، وكأنهـا تقـول لهـا إنـه خلّـف طيـش الصبـا وراء ظهـره.

قالـت نـورة في نفسـها وهـي تتبعـه إنـه جـاد بالتعامـل معـي في هذه الأيـام. كانـت تـدرك أن صقـر قلـق عـلى أسرتـه، ولديـه إحسـاس بالواجـب، لا سيما الآن بعدمـا انسـل أبـوه إلى عـالم آخـر. ولكـن لماذا يدفـع بهـا بعيـداً ليتخلـص منهـا، لم تسـتطع أن تفهـم ذلـك.

تمتمـت لنفسـها: «إننـا وحيـدان، معـزولان. ينبغـي أن يكـون ذلـك كافيـاً لأن نبقـى قريبـين مـن بعضنـا عـلى الـدوام».

«ماذا؟» قال ذلك، وهو يلقي عليها نظرة من فوق عاتقه.

«لا شيء».

توقفـا عنـد منحـدر حـاد، يطـل عـلى مجموعة من أشـجار الأكاسـيا الصحراويـة. هنـاك خلـف الأشـجار كان مصدرهـم المخبـوء للـماء: خـزان صخـري قديـم مجـوف. رفـع صقـر دشداشـته فـوق ركبتيـه وشـكَلها عنـد خـصره، ثـم هبـط إلى أسـفل المنحـدر بشـكل متعـرج.

وبعد ذلك فعلت هي الشيء نفسه بثوبها، واستعدت للهبوط بطريق متعرج من جانب لآخر. كان ذلك أسلم طريقة.

حينما مدت ساقها للأسفل، تمزق سروالها مبدياً ركبتها ومقدمة ساقها. فقطبت جبينها عابسة كما لو أن تقطيبة وجهها تسعى للملمة ثوبها الممزق، كي يتصل منظر الأزهار الوردية الصغيرة على القماش الأزرق الباهت. حينئذ فقط انتبهت لنظرة صقر المستاءة.

قال لها آمراً: «خبئي ساقيك».

صرخت: «إنه مشقوق. سوف أصلحه عندما أعود، ولكنني أرخي ثوبي وأشده للأسفل. قد يعلق تحت قدميّ، فأتعثر وأسقط». وبدأت تحاكي الانزعاج البادي على صوته. «ومهما يكن، لماذا تنظر إلى ساقيّ، بهذا الشكل الذي يدل على عدم الاحترام؟ التفت بعيداً بوجهك ولا تنظر». لاحظت صعود الدم إلى وجنتيه قبل أن يغض بصره إلى الأرض. شعرت نورة بالفرحة إذ وضعت حداً لتنمره. أشاح صقر بنظره إلى الأشجار، ولكنها لم تنته بعد، حيث انزلقت وهي نازلة على الحصى المتفتت في آخر المنحدر، واصطدمت بظهر أخيها.

تعثر صقر وسقط، وكاد رأسه يصطدم بأغصان الأكاسيا الشائكة. فغرت نورة فاها بلهفة، ولطمت فمها؛ فهي لم تفعل ذلك عن قصد، بل كانت اندفاعة قصدت منها اللعب واللهو. وعندما انحنت عليه لتساعده في النهوض أبعدها عنه بمرفقه.

قال لها صقر بعد أن نهض: «المشكلة هي أنك لا تعرفين متى تمزحين ومتى لا تمزحين، وما يجب أن تأخذيه على محمل الجد وما ليس كذلك».

«لم أقصد أن أدفعك هكذا».

«لا يهم. هذا .. هذا .. هو شأنك وديدنك.. لن ينفع معك».

«ماذا تعني؟»

«انظري لحالك ..» بدأ، وهو يلوح بأصابعه الخمسة نحوها. ثم توقف وبرزت شفتاه أمارة على التجهم والشعور بالخزي، في اشمئزاز واضح مما كان على وشك أن يقوله.

ثم اندفع قائلاً: «أصبح لديك منحنيات، في كل مكان». ولوح بذراعيه في الهواء: «لم تعودي بنتاً .. أنت امرأة. هذه المنحنيات والمنعطفات موجودة لتذكرك بضرورة التوقف عن الجري والقفز، حتى تهدئي وتصبحي ربة منزل. لذا ابدئي بالتصرف كامرأة».

فغرت نورة فاها باستغراب منه: «وإن كنت امرأة، فما معنى ذلك؟ ماذا يحدث الآن؟» وجذبت شيلتها فوق وجهها وتركتها تنزل لتكشف عينيها فقط. كانت تعلم أن صقر لن يرى روح الفكاهة في تصرفها المبالغ فيه والذي يكشف عن نقطة ضعفها، غير أنها استمرت رغم ذلك. وراحت ترف بأهدابها، وأبطأت من حركتها حتى تحولت إلى نظرة محتشمة مطرقة إلى الأرض. قال لها: «رأيتِ؟ أنا لا أستطيع حتى أن أتكلم معكِ. أنتِ

فوضوية. حتى إنك لا تسرحين شعرك في الصباح. أنت تشبهين بربرياً سقط في حمأة من طين».

أحست نورة بأضلاعها ترتجف ولها أصوات صليل. كان أول أضواء النهار يتجه بسرعة إلى أن يصبح فجر مواجهة: «حسناً، ماذا تريدني أن أفعل إذن؟»

أجابها: «امكثي في البيت أكثر، وافعلي كل الأشياء التي خلقت النساء لها، ودعي الأعمال الشاقة لنا نحن الرجال».

قالت وقد تضيّقت عيناها: «ماذا تقول إذن؟ هل تقول إنك تود أن تحمل أربع قرب ماء مملوءة بالماء الثقيل في طريق العودة كله بدلاً من اثنتين؟ هل أنت قوي بما فيه الكفاية؟»

«أنا أقول إن عليك أن تغيري عوائدك؛ هذا التجوال بين الجبال وكأنك من رجال القبائل .. يجب أن يتوقف».

«لماذا؟»

«لأن .. لأنه ضروري. عليك الآن أن تتصرفي بشكل مناسب؛ فأنت لا تودين أن يراكِ الناس ويحسبوا أنك امرأة مجنونة».

نظرت إلى قمم الجبال البنفسجية وقالت: « أي ناس؟ هل ترى أحداً؟» كانت نورة تعلم أنهما وحيدان تماماً. فأقرب مجتمع إليهما كان يعيش على بعد مسافة السير فترة الصباح كاملة، في معزولة. أما القوافل العابرة، فلعلها رأت نيرانها كالنجوم المتألقة أثناء صعودها الجبل، وإن حدث

في حـالات نـادرة أن شـاهدت مسـافراً منفـرداً قـد تجـرأ عـلى اقتحـام غمـوض جبالهـا، فـكان يتبـع قوانـين النوايـا السـليمة غـير المكتوبـة بـالإسراع في جعـل حضـوره واضحـاً، بـأن يصـل في ضـوء النهـار وينصـب خيمـة في مـكان مكشـوف عـلى الجبـل؛ فذلـك خـير طريقـة لتجنـب تعرضـه لهجـوم مباغـت، قـد يحـدث في أي وقـت، مـن أي عشـيرة مـن عشـائر الحراريـس، وهـو الاسـم الـذي يطلـق دون توخـي الدقـة عـلى الجبـال التـي تشـبه قممهـا الوعـرة الحـراس الصامتـين.

قلـة مـن النـاس هـم مـن اجتـازوا القمـم العدائيـة التـي كانـوا يعيشـون في وسـطها، مفضلـين أن يسـلكوا طرقـاً أكثـر التفافـاً في رحلاتهـم مـن الصحـراء إلى السـاحل، ثـم في طريـق العـودة. كانـوا يخشـون مواجهـة السـكان القدمـاء مـن قبيلـة الحراريـس وجهـاً لوجـه. وممـا كان يثبـط الغربـاء عـن الاقـتراب أصـوات العـواء الطويلـة التـي كانـت تـتردد أصداؤهـا وترتـد عـن جوانـب الجـرف المنحـدرة، لتعطـي الانطبـاع المنشـود عـن جيـش عـدواني جاهـز للهجـوم مـن مراكـز مسـتورة. وقلـما كان المسـافر يـدرك أن أهـل الجبـال كان لديهـم خـوف وحيـد، خـوف تولـد مـن خـلال الحاجـة لحمايـة مائهـم.

زمجـر صقـر، وأمسـك بقُـرَب المـاء والدلـو، قائـلاً: «لا طائـل مـن الحديـث معـك».

قالت: «لا حق لك في أن تقول لي أي شيء؛ فأنا أكبر منك سناً».

لم يُجِرْ جواباً، وما كان منه إلا أن أخذ وضعية القرفصاء تحت تيجان الأكاسيا التي تشبه المظلات لكي يشق طريقه.

نادت وراءه قائلة، وفي صوتها لهجة التحدي، وهي ترفعه كلما ابتعد: «لا يحق لأحد أن يقول لي ما يجب علي فعله سوى أبي. إنه والدي، رب الأسرة».

سمعت صقراً يطلق ضحكة فاترة قبل أن يختفي في ظلمة مقدمة الصخرة المجوفة.

صاحت به: «سوف أتصرف كما أريد، وأمشي كما أشاء، وأجلس بالطريقة التي تعجبني». ثم نزلت إلى الأرض، وبينما كانت ترخي ثقلها على كفيها، رفست بساقيها نحو الأمام. لم يكن ذلك لائقاً تماماً، ولكنها لم تكن تأبه.

سمعت أخاها ينخر ويخور، وعرفت أنه يدفع الحجر الضخم الذي غطى الخزان. كانا دائماً يدفعان الحجر معاً، ولكن في هذه المرة لم تكن نورة لتساعده، وتمتمت قائلة: «دعيه يفعلها بنفسه، الرجل الكبير القوي».

لماذا كان صقر يهتم كثيراً بمظهرها وتصرفها؟ باستثناء توبيخاته الآنفة، لم يكن أحد غيره يبالي. كان بيتها فردوساً تغيب فيه الكلفة والرسميات: لا قواعد ولا مجتمع يرسم ذلك الخط الرفيع الذي يفصل بين المقبولية أو الوجاهة والعيب.

سمعت صوت الارتطام حينما تحرك الحجر، ثم طقطقة

الحصى الأصغر حجماً تحت ثقله. وثار غضبها؛ فقد كان يتدبر أمره من دونها. صرخت به: «وبالإضافة إلى ذلك، أنا حاولت، ولم ينجح ذلك».

لم يردّ صقر.

كانت تومئ بقوة تأييداً لنفسها. كان ذلك صحيحاً ، لقد جربت بالفعل.

ذات مرة، منذ سنوات عديدة، عندما ظهرت عليها علائم الأنوثة لأول مرة، كانت أمها قد حاولت أن تزرع فيها بعض الرقة والحياء اللذين تتصف بهما المرأة ويرى المجتمع أنهما مرغوبان. طلبت فاطمة إلى نورة أن تمشي بخطوات أقصر، وأن تتحدث بصوت لطيف، وبدلاً من أن تضحك، أن تخفض بصرها وتضحك بهدوء ورصانة. وكانت فاطمة قد أوضحت أنه عندما تتزوج نورة في يوم ما سيتعين عليها أن تتبع القواعد داخل منزل زوجها.

وجدت نورة أن قائمة نصائح أمها جذابة، واهتمت بمشيتها وبصوتها استعداداً لحياتها الزوجية المستقبلية. وعندما كانت تجلب الماء كانت ترفع طرف ثوبها وتمضي في مشيتها بخطوات صغيرة صاعدة الجبل. كان المشوار يستغرق معها ضعف الوقت. في ذلك الوقت، كانت تدعو إخوتها إلى الغداء بألطف صوت، ولكنهم لم يكونوا يسمعون صوتها مطلقاً. ولذلك كانت تثني تلك الزاوية الصغيرة نفسها من ثوبها

وتمشي برفق على رؤوس أصابعها نازلة إليها لتعثر عليهم. كان ذلك يستغرق وقتاً أطول من المعتاد أيضاً. وأخيراً كانت هناك الضحكة، فقد تمرنت على غض بصرها وإطلاق ضحكة خجولة. ولكن بسبب غض بصرها وخفضه كان يفوتها جميع التعابير المسلية التي كان والدها يقوم بها، الأمر الذي كان يتركها محبطة وغاضبة. كانت تظن أن هؤلاء النساء لا بد أنهن يبقين غاضبات طوال الوقت.

بعد ذلك جاءت أمها بمجموعة أخرى من التعليمات حول نظرات نورة. كان على نورة أن تنقض جدائلها ثلاث مرات في اليوم لتمشط شعرها وتحافظ على أناقتها ونظافتها من الغبار.

اعترضت نورة قائلة: «ولكنه لا يحتاج إلى كل هذه العناية، يا أمي».

ردت عليها أمها: «بل يحتاج. أنت تعتنين بعينيك، أليس كذلك؟ تكحلينهما مثلنا. فلماذا لا تعتنين بشعرك أيضاً إذن؟ أنت لا تريدين له أن يتساقط، أليس كذلك؟ ولتحافظي على قوته لا بد لك من العناية به وفركه بزيت السمسم».

«وماذا يفترض بي أن أفعل بالغبار؛ فهو يحيط بي؟»

«احرصي على أن تنفضيه من ثيابك دائماً».

وهكذا كانت نورة تمشط شعرها، وتبلله بزيت السمسم كل صباح وظهر ومساء. وفيما بين هذه الأوقات كانت تتهزز

في فستانها لكي تنفض الغبار عنه. وطوال الفترة كانت تشعر أن المشية السخيفة، والضحكة المثيرة للشفقة، والشعر المتطاير، والغبار الغدار، كل ذلك زاد من تعقيد حياتها أكثر من اللازم. ومما زاد الأمر سوءاً، أن جهودها لاقت عيوناً عمياء؛ إذ لم تلق أي ثناء أو تشجيع من أبيها أو إخوتها.

وأخيراً استسلمت نورة وعادت إلى عاداتها القديمة. وقررت أن تتبع قواعد الحشمة عندما يصل زوجها الجديد. وحتى ذلك الوقت كانت قانعة بمعرفة ما يلزم فعله. وبدت فاطمة راضية أيضاً؛ فقد قامت بواجبها كأم، وقد استطاعت الآن أن تنسى الموضوع تماماً. وهي مثل نورة بدا أنها قررت أنه لم يعد ثمة شؤون مهمة.

نعم لقد حاولت.

تثاءبت نورة، فهي تهدئ من روعها الآن. شعرت كما لو أن تمزقاً آخر أصاب مع مد ذراعيها فوق رأسها. كان هذا أصغر، مجرد ثقب على طول الدرزة تحت كم فستانها الأحمر المعرق بالأزهار. وتنهدت؛ فقد كان ذلك هو الجزء الوحيد من دروس أمها عن الأساليب النسائية التي ثبتت فائدتها، وتميزت بها: تلك هي الخياطة. كانت أصابعها تتحرك بسرعة ودقة عندما كانت تخيط، تاركة وراءها خطاً متيناً من الدرزات أكثر أناقة وترتيباً من خط موكب النمل.

سقط الدلو في الخزان، ليستقر بصوت ارتطام قوي في

القاع، ومن ثم عاد إلى الأعلى دون انسكاب منه أو امتلائه بإفراط. حينما استمعت نورة لذلك الصوت، وفيه من الصخور أكثر من الماء، شعرت بالغضب يعاودها. لماذا كانت تنتظر صقراً؟ ودونما أي خاطر آخر، نهضت وبدأت بالصعود عائدة إلى السهل لتسلك طريقها إلى البيت؛ ليحمل هو قرب الماء الأربع بنفسه.

الفصل الرابع

كانت طبيعة الأمر تسير هكذا؛ عندما كان الأولاد والبنات، والإخوة والأخوات، يكبرون ليصبحوا رجالاً ونساء، حيث يصبح عالم كل منهما مستقلاً عن الآخر.

في الوقت الذي وصلت فيه نورة إلى حافة السهل، كانت الشمس قد قفزت إلى كبد السماء، وألقت ببياضها على الجبال وغلفت به الأرض. كانت حارة كالغضب الذي كانت نورة لا تزال تحمله.

توقفت نورة برهة لتلقي نظرة على واديها. كانت تنتصب هناك البيوت الحجرية الأربعة التي تكوّن منها بيتها: غرفتا المعيشة والنوم، وحظيرة الماعز والدجاج، والمستودع. كم كانت تبدو موحشة.

جالت بعينيها صعوداً وهبوطاً نحو قبة منحدرة. كانت إلى جانبها الأطلال والخرائب التي كانت فيما مضى مسكن جدها الأول. وتحت بريق أشعة شمس الصباح، لم تكد تتبين معالمها؛

فالكتل البيضوية غير المصقولة كانت مموهة ومطموسة بشدة حتى غدت جزءاً من الجبل المجدب الذي كانوا ملتصقين به.

كانت تعرف كل صغيرة وكبيرة، وكل جذاذة وصدع في كتل تلك المباني التي فككتها عوامل الطقس والتعرية وحولتها إلى تلك الأطلال. كانت هي وصقر يلعبان هناك عندما كانا صغيرين. لقد كانت برج مراقبة طفولتهما، حيث كانا يمارسان ألعابهما: يختبئان ويظهران، ويبنيان ويخربان. تظاهرا بأن الجدران المتداعية يمكن أن تحميهما من تلك المخلوقات الضخمة والخطيرة التي كانت تجوب الجبال: كل تلك الذئاب التي كانا أحياناً يسمعان عواءها دون أن يرياها في الواقع، وكل تلك الفهود التي تخيلا أنها تتسلل حول الأكواخ في ظلام الليل، والأفاعي والعقارب بالطبع. كان أخوها مختلفاً في ذلك الوقت، فقد كان معتاداً على الضحك والصراخ، وكانا يضحكان ويصرخان معاً.

أما الآن فقد كان صقر يرسم الخط الذي يفصل بينهما. لقد أراد أن يشفّ ذلك الخط نفسه الموجود في كل مجتمعات الحراريس. ولكن لماذا يتعين عليه فعل ذلك؟ فقد كانا يعيشان في بقعة منعزلة من الجبال، ولم يكونا يتبعان لأي من تلك المجتمعات.

سارت نورة للأسفل واتجهت نحو الأكواخ. كان أبوها

يشعل النار ليصنع الفطور. كان إعداد الطعام من مهام المرأة، غير أن أباها – بمجموعة القواعد التي كان يؤمن بها – اعتاد على صنع القهوة وخبز الخُبز كما لو كان ذلك مهامَّ طبيعية لرجل يقطن الجبال. كان الأمر دائماً كذلك؛ إذ كان أبوها، إبراهيم، يخلط أدوار الرجال والنساء حتى غدت متبادلة فيما بينهما. كان ذلك هو ما رباهم عليه، قبل أن تلج الأصوات رأسه وتجعل منه امرأً يصعب التكهن به.

لاحظت التغير الذي طرأ عليه بعد وفاة أمها بوقت قصير (وإن كانت تشك الآن بأن الجنون كان كامناً فيه قبل ذلك بوقت طويل). كان يجلس في وسط الوادي، صلباً كالصخر، وشفتاه تتمتمان بكلمات لم تفهم منها شيئاً. شعرت وكأنها خفية وهي تحاول أن تلفت انتباهه. ظلت عيناه تبرقان بينما انسلخ هو إلى ذلك العالم الآخر ليتحاور مع وساوس في رأسه.

عبرت نورة من فوق فتات الحصى، وبعد أن اقتربت من أبيها نظرت بعمق في عينيه. وهمست بأذكار الحفظ من الله: «ما شاء الله، ما شاء الله!» وما لبثت أن توصلت إلى أنه كان وحده، لم تكن ثمة أصوات تكدر صفو عينيه العسليتين.

كم كانت تحب عينيه، وقد بدتا أفتح لوناً داخل إطار من الكحل الأسود. كانت فيهما نقاط ذهبية صغيرة تتألق كما يتألق الماء حينما تسقط أشعة الشمس عليه. كانت تفضل تألقهما المفعم بالحيوية على خضرة عينيها الداكنة، إذ كانتا أقرب شبهاً

إلى البقايا الموحلة المتخلفة في برك الماء الراكد الصغيرة التي تعيش فيها شراغف الضفادع.

سأل، حينما لاحظ أنها تحدق في وجهه: «ماذا؟»

«لا شيء». قالت ذلك، ثم انكفأت خطوة إلى الخلف.

تطاير بعض الشرر في الهواء حينما قام بتهوية النار: «جائعة؟»

أومأت برأسها، وانكفأت جالسة على ردفيها، وهي تبتسم في نفسها. بإمكان صقر أن يحضر كل ما كان يريده، ولكن أباها مازال في عقله السليم، ويتمتع بالقدرة على تولي زمام المسؤولية عن البيت. تحولت ببصرها نحو الماعز والدجاج وقد انطلقت مسرعة من حظيرتها الليلية. وكان الحمار قرب بيتها، حيث كشر عن أسنانه والتقط بها كتلة صفراء من العشب المستقر في الأرض الجافة. وكان بإمكانها أن تسمع أخويها الآخرين الأصغر سناً، عبود وحمود، يلعبان عند الأطلال. ملأتها عفوية المشهد بالدفء، إلى أن التفتت عائدة إلى أبيها.

كان إبراهيم يحدق النظر شمالاً، نحو قمة بعيدة. كانت تعرفها جيداً .. كانت تلك قمة جبل حنيش. كانت القبة العمودية ترتفع بشكل حلزوني مثل الأفعى التي سميت باسمها. كانت عشيرتها، آل سالمي، تعيش هناك. أما الآن، فكل ما تبقى على قمة الجبل المنبسطة هي الهياكل الحجرية لبيوتهم المهجورة.

كان جبل حنيش جزءاً من قصة ضياع إبراهيم، فقد حكاها لها عندما كانت فتاة صغيرة، وسألته لماذا لم يكن لديها بنات عم أو أعمام أو عمات. قال لها: «نحن كل من تبقى من آل سالمي. قبل أن تولدي بوقت طويل اجتاح قحط رهيب القرية التي كان أهلنا يعيشون فيها، هناك في جبل حنيش. فقد جفَّت البئر ومصادر المياه الجوفية، وعندما ماتت ماشيتهم لم يعد أمام العشيرة سوى أن تغادر وتطوف بحثاً عن الماء. فقد انطلق القادرون، وسافروا أياماً بلياليها مسافات بعيدة.

كم كانت مفتونة، ففي عقلها وهي طفلة صغيرة كانت تتخيل صورة موكب طويل من الرجال منحدرين إلى سفح الجبل الوعر، وماضين في رحلة إلى المجهول. تخيلت الجماعة تترنح من العطش، ولا خيار لديهم سوى أن يلحسوا قطرات الندى من نباتات الصباح.

أزالت هذه الذكرى من رأسها، ونهضت وأمسكت بملة الفخار من الجدار المنخفض بجوار الموقد، ونادت: «أبي .. ها هي الملة .. خذ الملة». كانت تريد أن تثنيه. وكلما تحدث عن هزيمة عشيرتهم وجبنها كان يقع في غيبوبة يلبث فيها أياماً، لا تتخللها سوى نوبات من الذكريات المريرة والكآبة السحيقة. أخذت كرة من العجين ورفعتها إلى وجهه وقالت: «أبي. لنخبز الخبز».

تجاهلها وأبقى نظره مثبتاً على الجبل. قال: «يمكن أن يكون

الجبل خادعاً. ما يبدو مجرد صخور وحجارة مصمتة يمكن أيضاً أن ينطوي على نعم وبركات، من ماء في أعماقه. ولكن عشيرتنا لم تستطع أن تجده».

دارت دورة أمامه، وحاولت أن تخلصه من ربقة هيمنة جبل حنيش عليه، ولكن فات الوقت على ذلك، فقد توقفت النقاط الذهبية في عينيه عن الحركة.

«دعيني أحدثك عما حدث لعشيرتنا». تغضن جبينه شاعراً بالأهمية وأضاف إيماءة رصينة. «عشيرتنا دمرها رجل واحد، رجل أناني: أحمد السالمي» كان ذلك هو اسمه. كان زعيمهم، وقد قادهم إلى الجحيم. فقد وجد بئراً، وكان عطشه كبيراً حتى إنه اتجه إليها على الفور». توقف إبراهيم ليلعنه. «كواه الله بنار جهنم».

«ذهب الآن، لذا ...»

«ذلك الغبي الأناني ساعده على الوصول إلى الماء دونما تفكير بالنتائج. هل تعرفين ما يحدث للأشخاص الذين يأخذون ماء شخص آخر، يا نورة».

قالت نورة وهي تشير إلى النار: «نعم يا أبي، إنهم يُقتلون. انظر .. انظر .. الجمر جاهز. يجب أن نخبز الخبز، بسرعة قبل أن تخمد النار».

لم يلتفت إبراهيم. «لقد فهم أحمد السالمي نظام الحراريس:

فمسّ ماء شخص آخر دون إذن لا يجلب سوى مأساة. وأحمد السالمي لم يحترمه».

لعلها تستطيع أن تجعله يتابع بسرعة. «وقد قتلته عشيرة الحاتمي التي كانت تملك البئر، وهكذا كان مصير كل شخص آخر تجرأ على لمس الماء، وقد هرب البقية وجروا عائدين إلى القرية».

«ركضوا إلى القرية مثل الكلاب الجرباء». قال ذلك وهو يبصق على الجبل، حيث وقعت بصقته في الموقد ولها صوت طشيش.

«ولكن ما الفائدة؟ كان الانتقام سيلحق بهم. وصل آل الحاتمي بعيون غاضبة ورفعوا أيديهم بالفؤوس (الجرز) الحادة».

كانت ذراع إبراهيم مرفوعة الآن، وهو يمسك فأساً كاذبة، الفأس الصغيرة الرأس التي كان جميع الجبليين يحملونها لتقطيع الحطب، أو يستخدمونها في المعارك.

لوح بذراعه نحو الجبل، بينما كانت مقلتاه تتراقصان في عينيه، وقال: «بدلاً من أن يقاتلوا فقد هربوا. ترك آل السالمي بيوتهم وهربوا. وتمت مطاردتهم حتى البحر. آمل أنهم غرقوا في ذلك البحر؛ جبناء، كلاب وسخة عديمو الخجل والحياء، حيوانات قذرة». كان صوته يفقد زخمه متحولاً إلى نعيب غارق في الإحساس بالمهانة. «هم اختاروا الهزيمة على موتة كريمة

باسم حماية أصولهم. نورة .. لقد تركوا بيوتهم!» بقيت ذراعه معلقة فوق رأسه، وخده ملتصقاً برقبته. جاءت الحركة الوحيدة من خلال وميض البقع الذهبية التي كانت تسبح في عينيه.

ظنت نورة أنه سينهار؛ إذ بدا مطحوناً. وسألت: «لماذا يهاجمنا آل حاتم أيضاً؟» بالطبع، كانت تعرف ذلك الجانب من القصة أيضاً، ولكنها كانت تحاول أن تعيده إلى البيت، إلى الناس الذين كانوا يحبونه: عائلته.

في البداية ظنت أن ذلك كان ناجعاً. هز إبراهيم رأسه كما لو كان يستيقظ من حلم غريب. أجاب ببساطة: «لأن بيتنا كان بعيداً جداً. كما ترين، آل حاتم لم يفكروا بالنظر هنا. لم يكونوا يعرفون أين آل سالم، وهم بالتأكيد لم يكونوا يعرفون أن لدينا مصدر الماء الخاص بنا. وفي الوقت الذي وصل الخبر إلى جدي عما حدث، كان الوقت متأخراً جداً. فقد تشتت العشيرة، وانتصر آل حاتم». وأشار إلى الأطلال. «تعلمين أن جدي كان يعيش في الأعلى هناك».

«أعرف .. أعرف .. ألست جائعاً يا أبي؟»

«همم؟»

«جائع؟ الفطور؟» أعادت الملة إلى يديه الضعيفتين. أجل، كان يتعافى الآن. أجل، وسوف يخبز الخبز الآن. أو أنها ظنت كذلك.

ترك الملة تنزلق من بين يديه لتتكسر على الأرض، ثم شرد مبتعداً.

وبـدلاً مـن أن تتبعـه، سـارعت نـورة لإنقـاذ مـا اسـتطاعت مـن العجـين قبـل أن تبتلعـه الأرض تمامـاً. رغيفـان، وربـما ثلاثـة أرغفـة، مـن الخبـز، كـما قـدرت حينـما فـردت العجينـة في صينيـة معدنيـة رقيقـة ووضعتهـا في الموقـد.

خبـز مـع بعـض الرمـل: ذلـك مـا سـيكون عليهـم أن يأكلـوه في هـذا الصبـاح.

الفصل الخامس

أرادت لليوم أن ينتهي.

لم تكد تخيط التمزقات في ثوبها وسروالها حتى انهمكت في دوامة من النشاط المحبَط. وشعرت أن يدها تجذب بشدة وهي تحلب العنزات، وتكنس بمساحة أوسع وهي تنظف الأكواخ. وفي وقت الأصيل كانت تعزق الحشائش الضارة من ساحة بيتهم. وكانت لا تزال الشمس متوهجة، تلقي طبقة من السديم المتراقص فوق الصخور والحجارة في الوادي. لقد جعلت تلك الحرارة كل شيء يتحرك ببطء. وتذكرت نورة أمها.

«الحجارة .. كله بسبب الحجارة». ذلك ما قالته فاطمة مراراً وتكراراً، كلما تكلمت عن الجنون الذي أصاب العديد من أجداد زوجها. فقد قالت أمها بإصرار: «كل تلك الأشعة المحرقة ترتد من الحجارة وتحرق العقل. لقد جعلتهم جميعاً يعيشون داخل رؤوسهم، ويتبادلون الأسرار بأصوات لم يستطع أحد غيرهم سماعها. وبفضل الله لم يتأثر أبوكِ».

تمتمت نورة في قلبها وهي تنكش الجذور بعمق لاستخراج الأعشاب الضارة العنيدة تحديداً: «بفضل الله لم يتأثر وأنت حية». وهي فتاة، لم تكن نورة تصدق أمها، أما الآن فقد تساءلت عما إذا كان ما قالته صحيحاً، فها هوذا والدها، في أسفل الوادي، لا يزال كالجلمود الذي يجلس عليه، وهناك الصخور والحجارة تهاجمه من كل اتجاه. سقطت أشعة الشمس الضاربة ساخنة على رأسها، فأسرعت في ذعر مفاجئ لتحتمي بالظل.

نقلت نورة لوح الخشب الذي كان يسد مدخل المستودع، وانهار في الركن بين مكاييل الذرة والبصل التي تم جنيها من باحة دارهم. كان هناك في الركن الآخر نصف كيس من الدقيق، وعلبة من السمن، وسلة من التمر، تستند إلى بضعة قدور وصوانٍ وأوعية فخارية. ففي كل بضعة أشهر كان صقر وأبوه يقومان بالرحلة إلى قرية نسايم الساحلية للحصول على تلك المؤن مقابل الحطب الذي كانا يجمعانه من الجبال. أما هذه المرة فلعل صقراً سيذهب وحده. ثم رق له قلبها حينما أدركت أن الواجب أصبح ثقيل الوطأة على عاتقيه.

أضف إلى ذلك أنها لن تظل غاضبة منه إلى الأبد.

حطت ذبابة خضراء مكتنزة على أنفها، «كشّتها» ومدت يدها لتحرك كيس الدقيق الذي كانت وراءه سلة مستطيلة الشكل. وبعد أن رفعت الغطاء، غمست يدها داخل كتلة قصاصات القماش المربعة والمثلثة، التي كانت تستخدم لترقيع

التمزقات في ثيابهم. حركت أصابعها في الأسفل متحسسة قماشه الخشن، مروراً بأسنان المشط المثلوم الذي لم تعد تستخدمه، وجفلت من صورتها التي انعكست في السطح الخشن لمرآة اليد المصاحبة للمشط. بدت وكأنها امرأة شابة، وليس الفتاة التي كانت لا تزال تشعر أنها هي. من عظام الوجنتين المرتفعتين امتد وجهها إلى أنف دقيق بدا وكأنه يجذب كل شيء آخر نحو السماء. هزته فارتجفت مقدمة شفتيها الورديتين مثل الأوراق التويجية من زهرة حلوة في نسيم الصحراء.

فتشت مرة أخرى، لتعثر أخيراً على صرة الحجارة المعقودة التي كانت تبحث عنها. كانت تلك تشكيلتها من الحصى الجميلة التي التقطها صقر من الجبال، واختارها خصيصاً من أجلها.

بعد حل العقدة هوت على بطنها وثبتت رأسها على كفيها من أجل إجراء عملية فحص متروية. حتى في ظلمة المستودع كانت تلك الحجارة تلمع. كانت ناعمة، ومتميزة، وبعضها باهت اللون، مع خطوط وامضة ذات ألوان زاهية: صفراء بلون الزعفران، أو جيرية اللون، وبعضها الآخر قاتمة اللون مبقعة بلون الذهب والفضة، تتراقص كالماء في الليل.

أجل، لم تستطع أن تبقى غاضبة منه إلى الأبد.

تسلل التثاؤب إلى مؤخرة حلقها، وتراخت أهداب عينيها، وهوى رأسها في مرفقيها المنخفضين، وراحت في سبات عميق.

كانـت الذبابـة الخـضراء المكتنـزة هـي التـي أيقظتهـا مـن ذلـك السـبات بطنينهـا المحمـوم، أو هكـذا خيـل إليهـا، إلى أن سـمعت العـواء: كان مخيفـاً ولكنـه مألـوف. ثـم سـاد الصمـت، ولكـن عينيهـا لبثتـا مفتوحتـين عـلى أيـة حـال. ومهـما اتسـعت عيناهـا فلـم تكـن لتسـتطيع رؤيـة شيء في ذلـك الظـلام الدامـس الـذي أحـاط بهـا. ولم يصـفِّ ذهنهـا المثقـل بالنـوم سـوى رائحـة الغبـار المتعفـن وأوراق النخـل القديمـة. كانـت لا تـزال في المسـتودع.

سـارت متعثـرة إلى البـاب، متسـائلة لمـاذا لم يوقظهـا أحـد، وشـاعرة بالانزعـاج مـن أن أحـداً لم يشـعر بالقلـق بسـبب غيابهـا، وعندهـا سـمعت صـوت العـواء مـرة أخـرى. كان الآن أكثـر نعومـة، صـوت بـشري قـادم مـن حيـوان، أو أن الأمـر عـلى العكـس مـن ذلـك؟

في وقـت مـا أثنـاء الإغفـاءة، كانـت السـحب قـد تجمعـت ونـشرت غطـاء عظيـماً ابتلـع النجـوم والقمـر. بقيـت عينـا نـورة مفتوحتـين بينـما كانـت تمـشي مـروراً بالكوخـين نحـو المـكان الـذي كان الصـوت قادمـاً منـه. وكان ذلـك عندمـا شـاهدت الظـل الـذي كان هـو أباهـا. فقـد كان في أسـفل الـوادي، متربعـاً بـلا حـراك عـلى ذلـك الجلمـود نفسـه. كـم مـضى عـلى جلوسـه هنـاك؟

سـألت نـورة قائلـة، عندمـا أصبحـت قريبـة بـما يكفـي لأن تتكلـم بهـدوء بحيـث لا تجفلـه: «أبي .. لمـاذا أنـت في الخـارج هنـا؟»

كان الأنـين الصـادر عنـه يجمـع بـين الاضطـراب والحـزن، نشـيج

ذكّـر نـورة بحيـوان مكلـوم. تمتـم قائـلاً: «لقـد ذهبـوا .. ذهـب الجميـع الآن .. أنـا وحيـد الآن».

قالت نورة: «لم يذهب أحد».

وحاولـت أن تـرى وجهـه في الظـلام. «نحـن جميعـاً هنـا، إلى جانبـك. لقـد كنـا دائـماً هنـا».

شـبك إبراهيـم يديـه وتـرك رأسـه يهـوي إلى صـدره، ثـم كـرر القـول: «ذهبـوا .. ذهبـوا جميعـاً».

لمست نورة ذراعه: «لنعد إلى الكوخ، ونَنَمْ».

تلاشـى صـوت إبراهيـم ليصبـح همسـاً ناعـماً. «أنـتِ، أنـتِ، أنتِ ...» وبـدأ رأسـه يميـل مـن جانـب لآخـر، مثـل صخـرة متدحرجـة للأسـفل وللأعـلى، مـرة تلـو المـرة، عـلى جانبـي وادٍ أملـس.

وكررت القول: «نحن هنا .. نحن ه..»

وقفـزت متراجعـة للخلـف بصرخـة حـادة حينـما رفـع ذراعيـه في الهـواء. «لمـاذا غادرتـم بيتكـم؟ لمـاذا لم تدافعـوا عـن شرفكـم؟».

أضـاء بريـق الـبرق السـماء وجعلهـا بيضـاء، فبـدا بريـق الذهـب في عينيـه: بـدا وكأنـه مسـكون ومطـارد. كان يقـاوم، كانـت تلاحـظ ذلـك، يصـارع تلـك الأصـوات الجانحـة. لقـد عذبـت عقلـه، وجعلتـه يتخيـل أشـياء، كـما جعلتـه ينسـى مـن هـو: أبوهـا، الشـخص الـذي كانـت تحبـه، الشـخص الـذي دللهـا عندمـا كانـت

فتاة، الشخص الذي تركها تفعل ما تشاء كامرأة. وكان يسعى جهده ليطارد تلك الأصوات، وكان عليها أن تساعده الآن.

تراجعت نورة للخلف، بعيداً عن متناوله، من باب الاحتياط، واستعدت لأن تتصرف بشجاعة. فبمجرد أن يدرك ما يحدث معه سيكون قادراً على محاربة تلك الأصوات. ابتلعت ريقها وأبعدت الخوف عن صوتها: «أبي، إنها الحجارة. تلك هي التي جعلتك هكذا».

صمت.

على الأقل توقف عن التلويح بيديه. تابعت نورة القول: «دماغك متعب. كما ترى، تأخذ الأحجار الحارة وتصوبها إلى رأسك. ومن ثم يحدث هذا».

حدّب إبراهيم كتفيه ورفع ركبتيه، مكوماً جسمه مثل شكل الكرة، وكأنه فأر مرعوب.

شعرت نورة بالشجاعة، واقتربت منه بضع خطوات، وتابعت بإصرار أمٍّ تنصح ولدها: « يجب أن تجتنب الحرارة الصادرة عن الصخور الساخنة. إنها تدخل مباشرة من خلال عينيك وإلى مؤخرة رأسك حيث تفعل الأفاعيل بك».

كان يتنفس بسرعة، ويميل بجسمه للأمام والخلف. كم كان يبدو ضعيفاً!

وضعت يدها على كتفه، وذلك عندما التفت.

أمسك إبراهيم بمعصمها. لقد كانت قبضة ساحقة، فزعقت من هول المفاجأة. وقبل أن تتمكن من فعل أي شيء، نهض واقفاً على قدميه، وأمسك بشعرها بيده الأخرى.

صرخ قائلاً: «ماذا تظنين نفسك؟ تتكلمين معي بهذه الطريقة؟» قالها وهو يهزها كما يهز كيساً فارغاً.

حاولت نورة التملص من بين يديه، وسعت لفك قبضة أصابعه عن شعرها. وكل ما أفلحت فيه هو أن رفست الحصى تحت قدمه، ولكنه كان أقوى مما توقعت.

سخر منها قائلاً: «أعلم أنك تريدين أن تغدري بي. المزيد من آل سالمي يخونون أهلهم!»

صاحت: «لا». وعندها لمعت دفعة أخرى من البرق أومضت منها تلك النقاط في عينيه، وانتابته نوبات من الخفقات الجنونية.

«تفو!» بصق في وجهها قائلاً «أنت تكذبين!» ودفعها على الحجارة، وصاح متوجها نحو السماء: «لماذا تحيط كل هذه الخيانة بي من حولي»!.

أدركت نورة أن عليها أن تنجو بنفسها، غير أن الصدمة من وحشيته خدرتها. ابتعدت عنه، وانكفأت كما ينكفئ الحلزون في قوقعته، وعصرت الألم من معصمها، وفركت لسعة الوجع من جمجمتها، واستغربت من أن شعرها ما زال ثابتاً في مكانه.

لم تسـمعه وهـو يعـود، ولم تـره وهـو واقـف فوقهـا، لم تحـس سـوى بعناقـه السـاحق.

فتحـت نـورة فمهـا، ولكـن لم يصـدر عنهـا زعيـق؛ فقـد حبسـت الصدمـة والخـوف صوتهـا حينـما شـعرت ببراجـم أصابعـه القويـة تغـرز في قفـص أضـلاع صدرهـا. وبينـما كانـت منجرفـة بـين ذراعيه اخترقـت الهـواء برفسـات لا طائـل مـن ورائهـا. حاولـت يائسـة أن تفكـر، وبـدلاً مـن ذلـك فغـرت فاهـا كسـمكة أُخرجـت مـن المـاء.

ثـم شـعرت بصـوت ارتطـام، فقـد أخـلى إبراهيـم سـبيلها، حينـما شـقت صاعقـة مـن الـبرق والرعـد عنـان السـماء.

وأخيراً هطل المطر الذي كانت تنتظره طول كل تلك الشهور.

الفصل السادس

قفزت واقفة على قدميها كحيوان مطارد، وعدت هاربة إلى أعلى الجبل. وفي غمرة العاصفة، بحثت نورة عن حفرة يمكنها التسلل إلى داخلها. كانت تريد أن تخلو بنفسها لكي تداوي جراحها - مزيج فظيع من الألم والعار.

هامت على وجهها كالخلد الأعمى، تحت قبة السماء المظلمة المرعدة، منسلة فوق أنهار من الأرض الترابية المتواصلة، ومتعثرة أحياناً فوق الحجارة المراوغة المتدحرجة في دربها بقوة الريح. أين كانت؟ شعرت نورة ولأول مرة بالضياع في جبالها.

كان ثمة من يناديها. أم إنها كانت الريح هي التي تنعق باسمها؟

«نوووووراااا!».

انبلج القمر كجزيرة في كبد السماء السوداء، ولم يلبث سوى لحظة فحسب، كانت كافية لأن يرسل شعاعاً أزرق بارداً على جسم أي شخص. لمحت أطراف دشداشة، فاستدارت لتجري هاربة.

«انتظري. ارجعي. إلى أين ذاهبة؟».

عرفت صوت صقر، وأدركت أنه كان يدور على غير هدى، قريباً من البيت. كان يلوح لها بذراعه. أقبلت إليه مسرعة وبدأت تساعده على إخراج جميع الأوعية، كل قدر وإبريق استطاعا العثور عليه. وحينما صفّا الأوعية لجمع ماء المطر فيها لمعت السماء بالبرق الذي كشف عن الألم الذي كان ينبض في وجهها.

كان يكفي لنورة طرف من سؤال لكي تفلت لألمها الزمام، عاصفاً كوابل المطر الذي هطل على الجبال. وفي الوقت الذي دلفا فيه مترنحين إلى داخل كوخها ليجففا نفسيهما، هدأت الصدمة والاضطراب اللذان جاشا في نفسها مثل قطرات الماء المتجمدة على أناملها. أما صقر فكان يساوره الغضب. أدركت ذلك من الطريقة التي كان يجفف بها شعره.

قال لها: «لم تعد هناك فائدة من الحديث معه؛ فهو لا يعاني نكوصاً وانسحاباً هادئاً في عقله فحسب، بل أصبح خطيراً أيضاً. وكما تعلمين، فقد لاحظت أموراً فيه من قبيل الغضب، ولكنني تظاهرت أنني لم ألاحظ شيئاً. كانت هناك تلك .. تلك النظرات الشريرة في عينيه».

أرادت نورة أن تقول شيئاً فيه حكمة وتعقل، ولما لم تستطع التفكير بأي شيء تابعت عصر البلل من جدائلها. وعلى أضواء الإعصار كانت تتراقص ظلالهما المتطاولة على الجدران.

قال صقر وهو يمسد خصلات شعره المتجعد بقوة: «لم أكن

أتخيل أنه سيهاجمك بهذا الشكل. وتعرفين ماذا بعد ذلك؟ سوف تسوء حالته. علينا أن نفعل شيئاً...» وفجأة تجمد، وتحول خياله المتراقص إلى كتلة منعكسة على الجدار.

قالت نورة: «ماذا، ما هي؟»

«خطرت لي فكرة. أعتقد أنني أعرف شخصاً قد يستطيع مساعدته».

«من؟»

«زبيدة بنت شير».

«زبيدة؟ لا يمكنها أن تساعده».

أومأ وأفاقت خصلات شعره الذاوية: «أجل، أجل، تستطيع» .

«كيف تستطيع أن تساعده؟ ماذا ستفعل؟ تستشير الجن؟»

توقف صقر عن الإيماء عند ذكر عالم الجن الغامض، تلك الأرواح الخفية المخلوقة من نار، والتي سكنت في عالمنا، ولكنها نجحت أحياناً في الانسلال إلى عالم الإنسان.

سخرت نورة منه: «أنت تصدق حقاً أنها تستطيع التحدث إليهم؟»

«ربما ... أعني، كل مسلم يعرف أنهم موجودون». قال صقر ذلك، وتنحنح ليقصي الرعشة عن صوته: «هذا مثبت في القرآن الكريم».

قالـت نـورة: «حسـناً، لا أعـرف كيـف يمكنهـا مسـاعدة البابـا. أعنـي أنهـا مهتمـة بالنصب عـلى أمـوال النـاس».

«لا .. ليسـت كذلـك، بـل هـي طبيبـة شـعبية، يـأتي النـاس إليهـا مـن كل مـكان لرؤيتهـا، يسـافرون إليهـا مـن الصحـارى والمـدن في البحـر.. يقصدونهـا لـكل شيء: لتجبـير العظـام المكسـورة، والآلام المعمـرة، ومغـص المعـدة ...».

بـدأت نـورة تهـز رأسـها بالنفي رافضـة فكرتـه، حتـى إن بـدأت تبـدو أكثـر معقوليـة. لمـاذا كلـما اقـترح شـيئاً كانـت تميـل دومـاً إلى مخالفتـه؟ لمـاذا لا يمكنهـا فقـط أن توافـق؟

«طـرد الشـياطين، والعـين، والأمـراض الغامضـة، تمامـاً كالمرض الـذي جعـل أبانـا مجنونـاً. زبيـدة مشـهورة بقواهـا الشـافية».

تابعـت نـورة هـز رأسـها. «عـلى أيـة حـال، لـن يـرضى أبي حتـى أن يقابلهـا. فهـو يقـول إنهـا مجـرد سـاحرة تتعامـل مـع الشـياطين».

قـال صقـر: «لعـل لديهـا طرقـاً لجعلـه يسـتمع إليهـا، أو لعلهـا تحـضّر خلطـة يشـفى بهـا». ثـم أطلـق ذراعيـه في الهـواء قائـلاً: «لا أعلـم. كل مـا أعلمـه هـو أن الجميـع يقولـون إنهـا تفعـل المعجزات. وذلـك هـو بالضبـط مـا نحتـاج إليـه: معجـزة».

وأخـيراً بـدأت نـورة تومـئ - ببـطء - وهـي تفكـر بالأمـر: «ولكنـه لـن يوافـق مطلقـاً».

«ليس من الضروري أن يعرف».

«إنه يبغضها».

«لا يهـم». ومـرر صقـر أصابـع كفـه خـلال شـعره «لنذهـب ونرَهـا ونعـرف مـا تقولـه لنـا».

عبرت نورة عن موافقتها بتنهيدة متعبة.

في الوقـت الـذي عـاد فيـه صقـر إلى كوخـه، تحولـت قطـرات المطـر التـي كان وقعهـا كصـوت المطـارق إلى رذاذ خفيـف ناعـم. ارتمـت نـورة عـلى فراشـها، وهـي تسـتمع إلى أصـوات امتـلاء الأوعيـة في الخـارج وانسـكابها، بينـما تنزلـق قطـرات المطـر مـن السـطح لتصـب فيهـا.

مططـت ذراعيهـا فـوق رأسـها، وشـدت قدميهـا إلى حـد مـا، ودلّـت عنقهـا مـن جانـب لآخـر، لكـي تذيـب التوتـر الـذي تعرضـت لـه في ذلـك اليـوم المحمـوم. كان عليهـا أن تأخـذ قسـطاً مـن الراحـة. واتفقـت مـع صقـر عـلى زيـارة زبيـدة عنـد انبـلاج أول خيـوط الفجـر.

ومـع سـاعات الليـل الأخـيرة صفـت السـماء، وأفـاض البـدر نـوره حتـى دخـل كـوخ نـورة فغمـر بوهجـه الياقـوتي الأزرق أرجـاء الكـوخ. وصدحـت جنـادب الليـل بتهويدتهـا في جـو يبعـث عـلى الثمالـة، ببرودتـه التـي تدعـو النفـس إلى نـوم هـادئ. لكـن نـورة ظلـت يقظـة، وهـي تصـارع غضبـاً جليديـاً ودموعـاً حارقـة.

حاولت الليل بطوله ألا تَكره أباها، وبدلاً من ذلك حاولت أن تشفق عليه، ولكنها لم تستطع. فقد تمكن منها غضب وإحباط مستمران، وأطبقا عليها كقبضة قاتلة، وتراءت لها صور حادة كأنها الخناجر، تفجرت في مخيلتها، وذكّرتها كيف قذف بها وحطمها.

ثم سادت ظلمة السحر الأرجوانية فابتلعت الليل. وسمعت جلبة حوافر الحمار فوق الصخور. انتصبت جالسة، وعيناها يقظتان. خطر في بالها أنه قد آن الأوان.

الفصل السابع

«أووواااه! أووواااه!»

تـرددت أصـداء الولـولات المألوفـة في أرجـاء الـوادي. كانـت بالنسـبة إلى نـورة راحـة مسـتحبة بعـد مشـوارها الطويـل مـع صقـر، مشَـتْ صامتـة في سـديم خفيـف، ظلـت فيـه متدثـرة بأفكارهـا. لم يكـن صقـر بالشـخص المحـب للثرثـرة؛ فقـد اكتسـى وجهـه بتلـك النظـرة الصارمـة.

قالـت نـورة: «أظـن أننـا تـم اكتشـافنا». نظـرت بمؤخـرة عينيها، ولكـن كل مـا أمكنهـا أن تـراه كان أولاد عشـيرة «معزولـة»، وقـد جثمـوا عـلى عنـق رفيـع مـن الجبـال التـي تدرّجـت في نزولهـا عـلى شـكل شرفـات و«مصاطـب».

«أووو!»

«تماماً مثل الذئاب الصغار».

أخـيراً افـترّ ثغـر صقـر المطبـق عـن ابتسـامة، وقـال: «لا بـد أن الصغـار يتمرنـون».

اندفع الأولاد الصغار من أبناء عشيرة معزولة من خلف البروزات الصخرية، نازلين من القرية وهم يتعثرون ويقفزون نحوهما في أحجام مختلفة. ألقوا تحيتهم بأصوات كالزعيق مثل الجِديان التي تثغو لتلفت الانتباه إليها.

«مرحباً صقر. مرحباً نورة».

«هيا نلعب .. هيا نلعب».

«هل نستطيع أن نركب الحمار؟»

قال صقر: «لقد أرعبتمونا بغباء بتلك الولاويل». وأنزل الفأس وقربة الماء والملة من فوق ظهر الحمار.

أضافت نورة: «نعم، كنا على وشك أن نستدير ونهرب. ظننا أن إحدى العشائر الشريرة قد استولت على قريتكم».

قال ولد صغير جريء: «لا تظنوا أننا رأيناكم الآن فقط. لقد اكتشفناكم منذ وقت طويل، وتبعناكم قبل أن ننبهكم لوجودنا».

قال صقر: «ظننا أننا سنتعرض لهجوم. الحمد لله أنكم لا تحملون أي أسلحة معكم». قال الولد الجريء وهو يشهر غصناً غليظاً من خلف ظهره: «أسلحتنا معنا، ولكننا لا نشهرها إلا إذا احتجنا لذلك. لن نهاجم إلا إن كنا مستعدين». وأدار رأسه نحو جيشه من الصعاليك، رافعاً يده ليعطي إشارة التأكيد، فشهروا أسلحتهم - أغصاناً وجذوع أشجار وأوراقاً - من تحت دشاديشهم البالية.

حينما اتجه الموكب للأعلى نحو القرية، انضمت إليهم فتيات صغيرات من عشيرةِ «معزولة». أمسكن بيد نورة، وتبعن صقراً الذي كان يحاول السيطرة على الأولاد. «سوف ينهار حماري المسكين»، قال صقر ذلك، حينما لجأ كل ولد إلى استخدام قوته للتنمر على الآخرين وإنزالهم من ظهر الحيوان، أما الحمار فقد نهق وكأنه يشتكي.

حاول صقر من جديد. «هؤلاء ثلاثة منكم على ظهره. انزل يا سالم، أنت كبير جداً عليه. كما أنك ركبت على ظهره لفترة طويلة جداً. دع عمر الصغير يأخذ دوراً الآن». راح أولاد آخرون يتسلقون على كتفيه، ويخنقونه بقبضاتهم العنيدة، وأسقطوا غترته من فوق رأسه. انحنى صقر ليلتقطها، وابتسم مسروراً : «أنتم تخنقونني».

في الوقت الذي وصلوا فيه إلى القرية في الأعلى كان صقر ونورة يسيران وسط بحر من الصغار الذين كانوا يقفزون ويصيحون ويزعقون بحماسة. لم يكن يأتيهم زوار في كل يوم إلى قريتهم.

كانت معزولة مكونة من نحو عشرين بيتاً حجرياً، شكلت دائرة غير مشذبة على السهل المنبسط في أعلى الجبل. كانت النساء يدخلن ويخرجن مسرعات من بيوتهن، منشغلات بمهامهن المنزلية، بينما كان الذين يعملون في الأرض الفضاء خارج البيوت «مع بقية الرجال» هم أصدقاء صقر. وكانوا

قد شاهدوا قدومه الصاخب، واتجهوا إليه الآن والابتسامة تعلو وجوههم.

بادروه بالسلام: «السلام عليكم!».

وردّ صقر عليهم السلام: «وعليكم السلام». وتبع ذلك وابل من العبارات والتحيات المتبادلة التي شاعت بين الشباب في الجبال بلهجتهم الذكورية: «سيف! عبد الله! محمد! مرحباً!».

في الحال شعرت نورة بالخجل. فبعد أن جمعت الفتيات في جانب واحد، رفعت طرف شيلتها، وبينما أمسكتها تحت عينيها، شاهدت أخاها يمد أنفه ليلامس أنوف أصدقائه، فرداً فرداً، بأسلوب التحية والترحيب التقليديين، في ثلاث مسحات بالأنوف: من اليسار إلى اليمين، ومن اليمين إلى اليسار، ومسحة في الوسط. كانت هذه القبلة الأنفية هي السلوك غير المكتوب من العادات والتقاليد المتبعة في التحية بين رجال المنطقة.

وصل خبر وصولهما إلى القرية قبل وقت طويل من سماع ولولة وصراخ الأولاد. وعلى الرغم من عدم وجود أبراج مراقبة في معزولة، فقد كانت أعين الأهالي الجوالة حادة البصر. ولذلك قامت المرأة العجوز، موزة بنت فلاح، من بنات أعمام أمهما، بإعداد طعام الفطور لهما: من القهوة العربية، والرطب، والخبز المضمخ بسخاء بالسمن الجبلي الغني بالطاقة، على السفرة المستديرة المصنوعة من خوص النخل والمبسوطة خارج الكوخ للأولاد. أما نورة فانضمت إلى موزة داخل البيت.

كانت موزة بانتظارهما عند باب كوخها المؤلف من غرفتين، وقد استقرت جديلتاها الفضيتان على صدرها، فوق ثوب برتقالي فضفاض منقط باللون الأصفر، كان شفافاً وخفيفاً حتى إنه كان يبدو وكأنه غشاوة أو سديم رقيق يغطي الفستان الأحمر تحته. قبّل صقر رأس العجوز ويدها، ثم فعلت نورة مثله.

قالت موزة: «ما شاء الله! كم تغيرتما، وكبرتما!» وأمسكت بكمَّي ثوبها الواسعين بإحكام تحت شيلتها، ونظرت إليهما بطرف عينيها من خلال فتحات برقعها، لم أركما منذ أمد طويل».

التقت عينا صقر ونورة في نظرة ذات مغزى. قال صقر: «لا، خالة موزة. أنتِ رأيتِنا من فترة قريبة».

مالت موزة برأسها نحوهما وأدنت أذنها، ولما تذكر صقر ثقل سمعها رفع صوته قائلاً لها: «جئنا عندما توفيت والدتنا».

كانت نورا وأبوها وإخوتها قد حملوا جثمان فاطمة على حمالة طول الطريق إلى معزولة، وذلك لكي يصلي عليها عدد كبير من الناس قبل دفنها. كانت تلك الطريقة الصحيحة، الطريقة الشرعية.

«أمك؟»

كان يقال إن ذاكرة موزة بدأت تعاني انتكاسات قبل ذلك بثلاث سنوات، عندما غاب عنها زوجها واختفى بين الجبال

ولم يعد إليها، كما هي الحال مع الرجال الجبليين الآخرين. بحث أهل القرية عن سلطان بن زهران على مدى أسابيع قبل أن يستسلموا ويتوقفوا عن البحث. ولكن موزة رفضت أن تفقد أملها بعودته. وبالنتيجة، كان سلطان، بلحيته المدببة وعينيه المنطلقتين كالسهم، الغائب الجريء الذي لا يؤبه له. فقد كان يجوب الجبال والصحراء الممتدة وراءها، بحزامه المدجج بالطلقات عبر صدره والمحيط بخصره - يجمع الحطب والعسل، وحتى الأعشاب الجبلية. وكان بعد ذلك يبيع أو يقايض ما استطاع. وكانت موزة تحفظ كل ما كان يعود به في دِرج من الصفيح كانت تحتفظ به في غرفة نومها.

قالت نورة: «هل نسيتِ يا خالتي؟»

قال صقر، وهو يلوح بذراعه فوق كتفه: «دفنّاها في المقبرة الواقعة هناك».

وأضافت نورة: «وبعد ذلك مكثت معك». ثم انتظرت لترى في عيني موزة الكسولتين ما يدل على تذكرها.

طوال أيام الحداد الثلاثة ملأت رائحة الأنفاس المبللة والتأوهات الثقيلة كوخ موزة، حيث قدمت إليها نساء معزولة لتقديم تعازيهن إلى نورة. كانت هناك موجات من الآهات الحزينة (أو ربما الآلام الجسدية؛ لأن العجائز هن دوماً اللواتي يبتدرن طريق الأحزان). ثم أطلقن مناشداتهن ونواحهن:

«الحزن! أطلقيه حتى لا تشعري به بعد ذلك».

«ابكي يا بنتي .. ابكي الآن».

ثم ساد الصمت.

أرادوا لها أن تفرّغ آلام قلبها بسرعة لكي تمضي في حياتها. لقد تعودن منذ أمد بعيد وعرفن أنه ليس من العقل أن يدعن وفاة تفسد التوازن العاطفي في حياتهن لفترة طويلة. كان هناك ما يكفي من القسوة في حياتهن؛ فالشمس التي لا ترحم، وأشعتها القاسية، والعجاج الذي لا يتوقف، وانعدام الماء، كل ذلك أطال من الخط الذي كان يفصل الحياة عن الموت، ومططه حتى أصبح رقيقاً وأوشك على التقصف بطرفة عين. تلك هي طريقة النظر إلى الأمور – الطريقة الوحيدة – في الحراريس. تأوهت العجائز مرة أخرى، قبل حث نورة على أن تتذكر أن الوفاة كانت أمراً صغيراً، وأن الاسترسال في الكلام حولها لا طائل من ورائه: «العالم للأحياء».

«لا تدعي الحزن يعشعش في رأسك. ما عليك سوى أن تستمري في الحياة».

الاستمرار في الحياة! ألم يكن ذلك هو موضوع حياتهنَّ جميعاً؟

أخيراً، وبعد أن أخفق كل شيء آخر، استسلمن لحكمتهنَّ المقبولة.

«لا يمكننا فعل شيء حيال ذلك. الأمر لله».

«ما نحن سوى رعيته وعباده».

يا لهن من بيت خيم عليه الحزن والكآبة، حيث اجتمعن

كلهن حولها بتلك الوجوه الطويلة. لقد حاولن بشدة، ولكن كيف لها أن تبكي وتئن أمام تلك الغريبات؟

أشارت نورة لصقر لكي ينضم إلى أصدقائه، وبينما كانت ترافق موزة إلى داخل الكوخ، حاولت من جديد: «ألا تتذكرين كيف كان بيتك يعج بالنساء؟»

وأخيراً توترت أجفان موزة المثقلة: «اه، اه، اه، نعم أتذكر. الآن تذكرت». جذبت جدائلها الفضية اللون مع عودة الذاكرة إليها. «أنت مكثت معي، نعم. ولكنك لم تمكثي طويلاً، أليس كذلك؟».

قالت نورة: «عشرة أيام».

«عشرة أيام؟» وأصبحت عينا موزة خاليتين من أي تركيز.

هذه المرة لم توضح نورة لها؛ إذ بدا أن العجوز نسيت بسرعة. وحينما جلستا على مائدة الفطور، سألت موزة: «ما الأخبار؟»

أجابت نورة: «لا أخبار، باستثناء أخبار المطر. أمطار غزيرة. ما شاء الله! أمس لم ينقطع المطر».

قالت موزة وهي تحدق النظر في الجو: «آه، المطر ينزل دائماً. وعندما يغادر تظن أنه قد ذهب للأبد ... ولكنه ما يلبث أن يعود».

كان الجمال الذي صاحب المطر العرضي هو كل ما يعرفه أي منهم عن لطف الطبيعة. والآن، الأولاد يتحدثون عنه أيضاً. كان على نورة أن تتكئ إلى الخلف لكي تراهم من خلال مدخل الكوخ المفتوح. كانوا يأكلون، منكبين على المائدة المصنوعة

من خوص النخيل. قال محمد: «لقد استمر بالهطول أسبوعاً كاملاً، ولم يتوقف سوى البارحة».

أخذت نورة قضمة كبيرة من الخبز، وبينما كانت تمضغها كانت تقاوم نوبة مفاجئة من الغيرة اعترتها. هل من الإنصاف أن تحظى معزولة بأسبوع كامل من المطر، بينما تلقت عائلتها يوماً واحداً فحسب؟ قالت في نفسها: حتى السحب تهبّ على نحو أحلى بعيداً عن بيتنا، ثم دفعت بقية الخبز في فمها.

أضاف سيف، وهو يسكب بعض القهوة لصقر: «نعم. جاء متأخراً، ولكنه جاء غزيراً. ما شاء الله، انظروا إلى كثرة الخضرة التي تكسو أراضينا».

بلع صقر القهوة المُرّة دفعة واحدة. ثم نظر من فوق كتفه، وهو يهز الفنجان الذي يشبه ملة صغيرة (علامة على أنه لم يعد يريد المزيد من القهوة).

اشرأبت نورة بعنقها وتابعت نظراته، فلاحظت شرفات متدرجة، حيث راحت تضيق ابتداء من أطراف حافة الجبل نزولاً، وكل شرفة محاطة بجدران حجرية منخفضة. كانت منطقة الحراريس قاعدة صخرية مجدبة، مما جعلها لا تنتج من عشب المرعى كما تنتج الصحارى الرملية في المناطق الداخلية. كانت الجبال تحوي ما يكاد يكفي من التربة لجعل الزراعة الشحيحة ممكنة. ولكن سيفاً كان محقاً؛ فقطع الأرض الضيقة في معزولة كانت زاهية الخضرة.

قال عبد الله: «كان ذلك مطراً غزيراً مذهلاً».

علق محمد: «إنها نعمة».

ردد سيف: «نعمة حقيقية. حتى إننا ذبحنا عنزتين احتفالاً به، ثم قمنا بأداء الندبة».

النَّدبة: لم يكن أحد يعلم تماماً من الذي صنعها، ولكن كلما أقيمت كان جميع الرجال يهرعون للانضمام إليها.

قال محمد: «لا بد أنك رأيتها. يا له من كورس رجالي كنا مشاركين فيه حول رجل عجوز اسمه عبد الرحمن، أمسك جمجمة تلك العنز ورفعها عالياً ، وراح ينبح مبتعداً».

قال سيف: «ما شاء الله، ما زال صوته أحسن الأصوات».

قال عبد الله: «نعم، استطعت أن أشعر بالدم يندفع للأعلى ويدغدغ وجهي في كل مرة كان ينادي هاو».

أطلق الفتيان الآخرون سلسلة من النبحات: «هاو، هاو، هاو»، قبل الانهيار في نوبة من الضحك تركت ابتسامة في وجه نورة. كان ذلك منذ أمد طويل، ولكن تلك الصرخات الغريبة الدالة على التآزر ظلت حية في ذاكرتها. انحنت للأمام وقضمت المزيد من الخبز الطري؛ كانت هذه القطعة الثانية، ومع ذلك لم تمتلئ معدتها.

كانت نورة مجرد فتاة صغيرة، في سن يسمح لها بصحبة الرجال، عندما رفعها أبوها عالياً على كتفه لتتفرّج على

«النَّدبة». كان الرجال يتحلقون في دائرة ضيقة حول «النّدّاب»، وهو رجل كان صوته صدّاحاً على نحو خاص، حيث رفع ذراعيه فوق رأسه وصاح معبراً عن تقديره. وحينما كرر ولاويله الغريبة ردد الجمع خلفه.

التحمت العشيرة مع بعضها بأمواج من القبضات المرفوعة التي جذبت نورة إلى المشاركة في الأداء أيضاً. ارتفع صوتها، كمواء قطة صغيرة، فوق أصوات الرجال العميقة، وواصلت حتى ظنت أنه لن ينتهي أبداً. ولكن بعد ذلك أدى السعال الناجم عن الإرهاق إلى التوقف المفاجئ، وغدت أصواتهم خشنة.

لماذا كانت الأمور الجيدة تتوقف دوماً؟ فجأة، لم تعد نورة تريد أن تذهب إلى البيت حيث يمكن أن يهاجمها أبوها من جديد، وحيث يمكن أن يصبح استخفاف صقر بها أكثر مرارة وبشاعة. اشتاقت إلى أن تبقى هنا، حيث يوجد ناس يفعلون أشياء معاً، ويهتم بعضهم ببعض. كانت تريد أن تشاهد الأطفال وهم يلعبون، وأن تستمع إلى صوت موزة الرقيق.

أحسّت بأن قصبتها الهوائية مسدودة؛ فقد أخذت قضمة ضخمة، ولكن كان هناك الكثير من الخبز في فمها، فاختنقت، وانحدرت الدموع على وجنتيها، وهي تسعل مرات متتالية.

قالت موزة، وهي تربت على ظهرها: «انتبهي، انتبهي، لماذا تأكلين بكل هذه السرعة؟».

بصقت نورة كتل الخبز في راحة كفها.

قالت موزة: «خذي، اشربي بعض الماء». شعرت بصعوبة في رفع جرة الفخار، وإمالتها فوق الكوب المعدني الذي كانت ممسكة به في يدها الأخرى. وعندما أحدقت نورة النظر في مفاصلها المتورمة، قالت: «آلام العجائز. ليست الأصابع وحدها هي التي لا تنثني جيداً، بل الركبتان أيضاً».

«أعرف ذلك يا خالتي. ألا تذكرين كيف كنت أدلكها لك؟ كنت أدلكها لك كل يوم».

«متى؟»

قالت نورة: «لا يهم». وجذبت يد موزة وبدأت تفركها لتخرج الألم من مفاصلها.

أغلقت المرأة العجوز عينيها بإحكام وتأوهت: «لو تجلسين معي قليلاً كل يوم، وتجعلينني أشعر بمثل هذا الارتياح كل يوم».

لم تتردد نورة. «إن شاء الله، سوف أفعل يا خالتي».

من الخارج، صرخ أحد الأولاد: «ها ها، استمر في أحلامك، يا صديقي». كان ذلك محمد، وأطلق الآن ضحكة صاخبة. «تلك المرأة الشريرة لن تأتي إلى قريتنا».

«ذلك صحيح؛ فهي تشكو من أن المسافة بعيدة جداً».

كان ذلك صوتاً جديداً. تابعت نورة تدليك يد موزة، ومالت إلى الوراء لترى من هو ذلك الشخص. كان ثمة صديق

آخر انضم إلى الفتيان، وعلى الرغم من أنه أدار ظهره لها، فقد استطاعت أن تعرف أنه كان أكبر سناً. كان كتفاه أعرض، وصوته أغلظ.

قال سيف: «من القسوة أن تملك اليدين الشافيتين اللتين أنعم الله بهما عليها».

قال محمد وهو يمسح دموع الفرح: نعم، يدان شافيتان تعملان للأيدي التي تدفع».

قال صقر، وهو يبتسم: «حسناً، سوف يتعين علي أن أجمع كثيراً من الحطب، وإذا لم يعد ذلك علي بما يكفي من النقود، فسوف اضطر إلى أن أبقى فترة أطول وأعمل في بضعة أعمال متفرقة هنا وهناك في نسايم».

قال صاحب الصوت الجديد: «العمل غير مجدٍ؛ فزبيدة بنت شير لن تحتاج إلى «بيزاتك» القليلة». حوّمت مجموعة من الذباب فوق الطعام؛ فطافت يده فوق السفرة، وبدفعة واحد كشها جميعاً.

سأل صقر: «لماذا؟ بالتأكيد أي عملة هي عملة جيدة».

أمال الرجل (إذ قررت نورة أنه لم يعد فتى) رأسه قليلاً. لم تستطع أن ترى جانب فكه؛ إذ لم يعد له استدارة وجوه بقية الفتيان. كان حاداً، أشبه ما يكون بقمم جبالهم المتعرجة. كانت على ذقنه بدايات كثّة لما بدا أنه سيغدو «سكسوكة» جذابة. قال: «تفيد الأخبار أنها كانت مشغولة مع زبون جديد، زبون غني جديد».

تابع محمد: «جاء من قرية ساحلية نائية، ليست قريبة من الجبال. كان الطريق إلى هناك يستغرق معه عشرة أيام».

سأل صقر: «إذن من هو؟»

أرادت نورة أن تعرف، أيضاً، غير أن موزة فتحت عينيها وسألت أين كانت هي وصقر متجهين في رحلتهما. أقبلت نورة بوجهها عليها وأخبرتها بسرعة كيف أصبح سلوك والدها غريب الأطوار أخيراً. لم تذكر لها الهجوم؛ فذلك سيؤدي إلى تعكير صفو وداعة المرأة العجوز. «لذا قررنا أن نعثر على زبيدة ونرى ما تستطيع فعله لتساعده».

أخذت موزة نفساً عميقاً. كان من الواضح أنها لم تسمع جميع التفاصيل، وكانت على وشك أن تسأل عن شيء، عندما جذبت نورة إبهامها. أطبقت العجوز عينيها وتنفست الصعداء.

كم فاتها من حديثهم؟ عادت نورة إلى التحديق بضوء الشمس، ممتنّة للعتمة في الكوخ؛ لأنه إن تمكن الفتيان (والرجل) من رؤيتها، فسوف تبدو موضع سخرية، بعمودها الفقري محنياً مثل امرأة عجوز، ورقبتها ملتوية بذلك الشكل.

كانوا يتهامسون وقد دنت رؤسهم المعممة بالغتر من بعضها. قاومت نورة الرياح التي رمت بأصواتهم إلى الجانب الآخر، ولكنها استطاعت التقاط ما تقاطر إليها من حديثهم: «... مشكلات خاصة .. حاول وحاول ...»

«زبيـدة، تقولـين أنـتِ؟» بـدا صـوت مـوزة كـما لـو كان صـادراً مـن بئـر أجـوف.

«نعم خالتي»، قالت نورة ذلك، وزادت من الضغط براحة كفها.

«... يائس .. علاج غير مفيد ... بين الساقين ...»

وطفق محمد وسيف يقهقهان.

قالت موزة: «بعد مطرة طيبة ينشط النحل».

هـزت نـورة رأسـها حينـما انخـرط الفتيـان جميعـاً في موجـة مـن الضحـك، باسـتثناء صقـر (كعادتـه تمامـاً، لا يسـتمتع بالنـكات).

قالـت مـوزة: «العسـل، ذلـك مـا ينبغـي أن تبحثـي عنـه، يـا بنتـي الحلـوة».

استقامت نورة في جلستها: «ماذا؟»

«قلـت لـك العسـل؛ تلـك هـي الطريقـة الوحيـدة لكـي تتمكنـي مـن تحليـة لسـان زبيـدة».

الفصل الثامن

من هو الرجل الذي يتحدثون عنه؟ ما هي مشكلاته؟ تهامس صقر وأصدقاؤه حول قصة مثيرة للاهتمام. بدت على وجوههم آثار الصدمة وعدم التصديق. وقفت حرقة الفضول على رأس لسانها، ولكن كان عليها أن تنتظر إلى الوقت المناسب، عندما تكون وحدها مع أخيها، وعندها تستطيع أن تسأل.

عند بزوغ الفجر التالي، انطلق صقر هو وأخته، وسلكا الدرب إلى نسايم، وفي منتصف الطريق اتجها شمالاً، يجران الحمار في واد واسع بسق فيه العديد من الأشجار. كان هذا وادي سدر، حيث كانوا يجدون أفضل أنواع الحطب.

كانت أشجار السمر والسدر على شكل مجموعات مؤلفة من خمس أو ست أشجار في وسط الوادي، بينما انتصبت أشجار أخرى على الجوانب، حيث انحدرت الجبال شاقولياً من أرض الوادي. وعندما توقفا ليشربا بعض الماء سألت نورة بصوتها الطبيعي: «إذن من هو ذلك الرجل الذي كنتم تتحدثون عنه؟»

كان جـواب صقـر مقتضبـاً وفظـاً يشـبه صفـق البـاب بعنـف: «إنـه حديـث رجـال، وليـس لـك أن تسـمعيه».

أصرت نـورة: «فقـط أخـبرني مـا هـي مشـكلته؟ عـلى أيـة حـال، سـمعت معظـم الـكلام».

«طيـب، كان ينبغـي ألا تسـمعيه»، قـال صقـر ذلـك، وخطـا نحو شـجرة أكاسـيا جميلـة حامـلاً فأسـه. كان جـذع الشـجرة الصلـب خارجـاً مـن الأرض، ومتفرعـاً إلى أغصـان قويـة.

إذن ذلـك هـو مـا سـيكون الأمـر عليـه. راقبتـه وهـو يمسـك بغصـن ويبـدأ بالقطـع، وبعـد عـشر ضربـات اقتلعـه.

قـال وهـو ينظـر إليهـا مـن فـوق عاتقـه: «حسـناً، ألـن تسـاعديني ؟»

مططـت نـورة ذراعيهـا فـوق رأسـها، وقالـت وهـي تتثـاءب: «لا أعـرف. إذا كنـت لا تريـد أن تخبرني كلام الرجـال، إذن لعـلي ينبغـي ألا أفعـل عملـك الرجـالي»، وأطلقـت نحـوه نظـرة متعجرفـة، ولكنـه لم يـزد عـلى أن هـز رأسـه وعـاد إلى الشـجرة.

قَطْـع، قطـع، قطـع! قعـدت نـورة، وبينـما اسـتندت لتسـتريح عـلى مرفقهـا، ابتسـمت مـن الـشيء الوحيـد الـذي أخفـق صقـر في ملاحظتـه. كانـت كل ضربـة جهـداً ضائعـاً؛ فـكل غصـن قطعـه مـن الشـجرة كان عديـم النفـع. دعيـه يتعـب نفسـه، الرجـل الكبـير الذكي. كان يقطـع حطبـاً رطبـاً، حطبـاً لـن يكـون باسـتطاعته أن يبيعـه.

تثاءبت نورة ثانية وأحدقت النظر في الجبال، كانت بساطاً أشعث غير مرتب مؤلفاً من صخور قديمة لامعة، وفسائل صغيرة براقة. لاحظت ذلك جميعاً: أشجار عنيدة برزت أطرافها على شكل أزهار صغيرة حمراء، وبقع بيضاء ذات زغب على شجيرات قوية، وكتل أرجوانية غريبة توجت نباتات الصبار المنخفضة. فمهما كانت تدفقات المطر طويلة أو قصيرة، كانت سرعة الإزهار كبيرة وعاجلة، وكذلك الذبول الذي سرعان ما يلي ذلك.

قطع، قطع، قطع! كان صقر يعالج الشجرة التالية. غمرت نسمة عليلة وجهها، فأغلقت عينيها، وغرقت في أصوات الضجيج الذي أعقب المطر. من بعيد كان هناك غدير فوار، وصوت دمدمة تأتي وتذهب. هل كانت تلك هي الريح؟ بالقرب، كانت الضفادع تنق، والجنادب تصدر صريراً، ومن وقت لآخر كان فرار بعض الحيوانات الصغيرة يحدث أصوات طقطقة في الحصى.

«حسناً؟ هل تخططين للنوم ها؟ قومي وساعدني».

فتحت نورة عينيها مجفلة؛ فقد أخذتها سنة من النوم. كان هناك كومة ضخمة من الحطب المقطوع، وكان صقر قد اختار غصناً وبدأ يكشط الأشواك منه بفأسه. نهضت ومشت نحوه، ثم قالت وهي تجذب الغصن من يده: «لا فائدة؛ فهذا الحطب لا ينفع، انظر»، ومررت أصبعها فوق الطبقة الداخلية الباهتة،

لقد كان رطباً. «أترى؟ لقد جعل المطر الحطب كله مشبعاً بالماء في داخله. لقد أتعبت نفسك بلا طائل».

قال لها، من خلال أسنانه المطبقة: «لا يهم».

قالت نورة: «لن يشتعل جيداً، بل سيصدر دخاناً، ثم سيأتون للبحث عنك، ليقولوا إنك غششتهم وبعتهم حطباً فاسداً. أنت تعرف هذا كله!» وضربت رأسها بباطن كفها الطري. «لماذا لم تفكر قبل أن تبدأ؟»

ابتسمت في وجهه الذي بدا عليه الانزعاج، وقطرات العرق الصغيرة التي بطنت شفته العليا، ثقيلة ودبقة، مثل العصارة اللزجة التي تخرج من بعض الشجيرات الجبلية ذات الأوراق السميكة. ثم اختفت ابتسامتها وتحولت إلى عبوس قوي.

رفس صقر كومة الحطب بقدمه، مما أجفل ضفدعاً وجعله يقفز قفزة هائلة، ليغوص في بركة ضحلة قريبة. «أنتِ تركتِني أقطع وأقطع، ولم تقولي شيئاً؟ لماذا؟»

«لأنك لن تخبرني بشيء، ولأنك في مزاج سيئ دائماً. أنا شاهدت أصدقاءك يقهقهون ويضحكون، ولكن ليس أنت. لا، أصبح وجهك طويلاً كأنه مجذاف. لماذا تحمل دائماً هذا الوجه النكد؟»

تجهم صقر: «لا بأس، تريدين أن تعرفي؟»

أصبح بياض عينيه وردي اللون. لم تكن على يقين من أنها

تريـد بالفعـل أن تعـرف، ولكنهـا أرادت أن توجـه إليـه ضربـةَ تحـدٍّ لـه عـلى كل حـال.

قـال لهـا: «كنـت أفكـر فقـط، يـا أختـي الطيبـة، بمعضلتـك. لقـد كـبرتِ الآن، ومـع ذلـك لم تتزوجـي؛ وكل ذلـك لأن أبانـا الأنـاني يريـدك بالقـرب منـه، وقـد أحزننـي ذلـك. وأعتقـد أن ذلـك هـو السـبب الـذي جعـل وجهـي طويـلاً كالمجـذاف». شـبك ذراعيـه في أعـلى صـدره. «نعـم، كنـت حزينـاً جـداً، يـا أختـي؛ إذ أريـد لـك أشـياء طيبـة ولا أسـتطيع أن أعطيـكِ إياهـا. فكـرت كـم سـيكون ظريفـاً لـك أن تحظَـيْ بشـخص يسـتطيع أن يعتنـي بـك، مثـل ذلـك الرجـل الغنـي الـذي كنـا نتحـدث عنـه. تخيـلي! أن تعيـشي في بيـت حقيقـي، يضـم غرفـاً كثـيرة، وأن تـأكلي طعامـاً طيبـاً: تمـوراً مـن البـصرة، ومانغـو مـن الهنـد، ورمانـاً مـن فـارس، وأن تتزينـي بأفخـر الذهـب». تنهـد وأصـدر صـوت طقطقـة بلسـانه. «ولكـن الآن كـما أرى، كل ذلـك أفـكار ضائعـة».

كان عليهما أن يبدآ من جديد.

تبعـت نـورة أخاهـا إلى عمـق الـوادي، حيـث أصبحـت الجبـال أقـرب جميعـاً، لكـي يجـدا حطبـاً جافـاً. ومـا لبثـا أن مـرّا خـلال شِـعب منحـدر الجانـب، ذكّرهـا بالصـدع الموجـود بينهـما، والـذي كان يـزداد عمقـاً مـع كل لحظـة تمـر، وكل ذلـك كان بسـببها. لمـاذا

تركتـه يسـتمر في قطـع ذلـك الحطـب المبلـل، ويرهـق نفسـه عـلى تلـك الشـاكلة؟ لقـد تحـدث مـن قلبـه - كانـت متأكـدة مـن ذلـك -وقـد تلاعبـت بجدّيّتـه.

اهتـز الهـواء مصـدراً دمدمـة دائمـة وهـو يعـبر الممـر، وكأنـه يهمـس لهـا بـأن تصلـح الأمـر. شـدت الحـمار ونـادت عليـه: «كـما تعلـم، إنـه ليـس مـن الـضروري في الواقـع أن نجـد حطبـاً».

لم يَحِـرْ جوابـاً، بـل صعـد عـلى كومـة مـن الأنقـاض كانـت في طريقهـا. كانـت مقطعـاً مـن الجبـل فككـه المطـر وأطـاح بـه.

تابعـت تقـول: «يجب أن نبحـث عـن أعشـاش. أخبرتنـي خالتي مـوزة أن زبيـدة تحـب العسـل الجبـلي، وأنهـا سـتأخذه كأجـر لها».

لم تكـد تصعـد ذلـك الجـزء المحطـم مـن الجبـل حتـى توقـف صقـر ومـال برأسـه بزاويـة: «حسـناً، مـا رأيـك بــ ...»

رفـع ذراعـه ليسـكتها، وهمـس لهـا: «اسـتمعي»، وأشـار إلى القمـم المتآكلـة «هنـاك، هنـاك».

«ماذا؟»

تراقصـت إصبعـه في الهـواء: «نحلـة، ذاهبـة إلى هنـاك. يوجـد عـش هنـاك في الأعـلى».

ظللـت عينيهـا بيدهـا وأحدقـت النظـر في زرقـة السـماء. «مـاذا، أنـا أذكـر العسـل، وفجـأة أنـت تكتشـف نحلـة؟ أنـا لا أسـتطيع أن أرى شـيئاً». كانـت متأكـدة مـن أنـه سـيثأر لنفسـه منهـا.

«هنـاك! ارتفعـت شرقـاً ثـم نزلـت جنوبـاً». وأسرع إلى الحـمار، وهـو يتمتـم: «رأيتهـا، رأيتهـا»، بينـما كان يمسـك بالملـة والفـأس، صعـد الجبـل عـلى عجـل وأصابتهـا العـدوى منـه.

كان صقـر يتفـوق عليهـا كلـما أراد ذلـك. فسـاقاه القويتـان كانتـا كالمقـلاع تقذفـان بـه للأعـلى في تسـلقه هـذا المنحـدر الحـاد، وبنيتـه المتوازنـة فارقـت يبوسـتها وهـو ينعطـف ويتخطـى ويقفـز برشـاقة هـرّ جبـلي. لم تكـن هنـاك دروب مطروقـة في هـذا الجـزء مـن الجبـل، وقـد كافحـت نـورة لتلحـق بـه. كانـت شـيلتها مثبتـة بإحـكام تحـت ذراعيهـا، وجـرّت الحـمار إلى منطقـة تناثـرت فيهـا أكـوام الحجـارة المفتتـة والمطويـة والمكـسرة بفعـل العوامـل الجويـة حتـى أخـذت أشـكالاً غريبـة. هـل كان يريـد التعويـض بحجـة رؤيـة النحلـة وكل مـا هنالـك لكـي يُتعبهـا؟ نادتـه قائلـة: «لعلـك مخطـئ، فقـد يكـون هـذا مضيعـة للوقـت».

وعندمـا لم يجـب قـررت ألا تقـول شـيئاً بعـد ذلـك. ليتحمـل المسـؤولية، ويلعـب لعبتـه إن كان ذلـك يمنحـه شـعوراً جيـداً. حتـى إن لم يكـن ثمـة عـش، فلـن تسـتغل المسـألة، وسـوف يسـتمر هـو في شـعوره الجيـد. كانـت تلـك هـي الأفـكار التـي شـغلت فكرهـا، ومـع ذلـك اسـتمرت في مسـح الأجـواء عسـاها تعثـر عـلى نحلـة أو نحلتـين.

أوصلتهـا المنطقـة المكتظـة بـركام الصخـور إلى منحـدر صاعـد مغطـى بالحـصى، ومنقـط ببقـع مـن الأعشـاب الهشـة والأزهـار

الصفـراء الصغـيرة. وعندمـا توقـف صقـر وقعّـر أذنـه، فعلـت مثلـه. وفي حـين حبسـت أنفاسـها، اجتهـدت لكـي تسـمع الأزيـز الـذي يصـدره أحـد الأعشـاش، وبـدلاً مـن ذلـك هبـت الريـاح فأوصلـت لهـم صوتـاً آخـر.

هـل كانـت تلـك صرخـة طفـل؟ التفتـت برأسـها في حـيرة نحـو مصـدر الصـوت، ولكـن الريـاح غـيرت اتجاههـا مـرة أخـرى. وهـذه المـرة ألقـت إليهـا بأصـداء أزيـز النحـل. كانـت المفاجـأة صادمـة مثـل رشـة مـن المـاء البـارد. لقـد كان عـلى حـق!

كان هنـاك تراقـص النحـل، حيـث تطايـرت مـن صـدع غـير عميـق في أعـلى الجبـل، وقـد انعكـس عليهـا الضـوء في انعطافـات والتـواءات عشـوائية. كان العـش لافتـاً ومثـيراً للإعجـاب: عـلى هيئـة مثلـث أصبـح عـلى شـكل كتلـة كرويـة في أسـفله، وقـد التصق بغصـن مكسـور مغـروز بشـكل مائـل كالإسـفين في الأرض.

كانـت تريـد أن تشـارك في تحمـل الخطـر، ولكنهـا أمسـكت عـن ذلـك. مـن الأفضـل أن تدعـه يشـعر بالمسـؤولية مـن جديـد. لعلـه سـيفقد ذلـك الوجـه المتطـاول. كان صقـر قـد جثـم بجـوار العـش، وعينـاه تختلسـان النظـر مـن خـلال غترتـه التـي لـف بهـا وجهـه. وراقبتـه وهـو يمـد ذراعـاً ويغـري كتلـة مـن أجسـام النحـل المخططـة بالابتعـاد عـن العـش، فابتعـدت، غـير أن وسـط الخليـة كان جافـاً وفارغـاً؛ فقـد اسـتهلك النحـل هـذا الجـزء مـن قـرص العسـل.

نقف صقر نحلة ليبعدها عن ذراعه، وحاول مرة أخرى، وكنس براحة كفه النحلات عن الكتلة في الأسفل. كان هذا الجزء من العش يلمع من الرطوبة، غير أن صقراً لم يضع وقتاً، وبادر بقطع شريحة نظيفة بفأسه، تاركاً الكتلة تنزلق في ملّته.

اعترض النحل بأزيز جنوني، وارتفعوا في الهواء على هيئة سحابة في حركة مسعورة حول رأسه. أدركت نورة أنه كان يريد أن يهرب، ولكن كلاً منهما كان يدرك أنه سيزيد من ثوران النحل. لحقت بخطواته الحذرة بعيداً عن العش، وهي تشعر بالعجلة والسيطرة اللتين يتعين على اللص أن يتحلى بهما في بيت سكانه نائمون. طارده النحل، معبراً عن احتجاجه الأخير في شكل فورات من الطيران النشيط، حيث سدد له المزيد من اللسعات، غير أن نشوة صقر لم تخمد وهو يحتضن ذهبهم بإحكام.

لقد نجحت المهمة. تحول مزاجه. وعلى الرغم من إخفائه ابتسامته، فقد رشحت من عينيه وجعلت وجهه متوهجاً. غطّى الملة بقطعة قماش من الموسلين وربطها بإحكام على ظهر الحمار. كانت نورة على وشك تهنئته على شجاعته عندما سمعا صيحات الأطفال من مكان ليس بالبعيد، فنظر بعضهما لبعض مرتبكَيْن.

قالت نورة، وهي تومئ برأسها نحو الغرب: «أظن أنني سمعت أصوات بعض الأطفال قبل قليل، صادرة من الجانب الآخر من ذلك الجبل».

هز أخوها رأسه ذات اليمن وذات الشمال، محاولاً أن يحدد اتجاهاته: «أعتقد أننا بجوار نسايم بالضبط. هذا معقول، كما ترين». ثم رسم الاتجاه بذراعه في الهواء بشكل غير واضح، «نحن تابعنا خلال الوادي، ثم اختصرنا الطريق عندما صعدنا هذا الجبل».

قبل أن يتابع، أشارت نورة إلى الأعلى. ومرة أخرى تم اكتشافهما من قبل الأطفال.

الفصل التاسع

كان فتيان نسايم يتظاهرون بأنهم يشكلون جيشاً. كانت مهمتهم أن يرافقوا نورة وصقراً على طول المنحدر الموصل إلى طرف القرية.

«تجنبوا ذلك الدغل؛ فهو يعج بالأفاعي»، كان هذا أمر القائد، الذي كان فتى طويل الأطراف منتفخ الشفتين، وأطول من البقية. كانت المجموعة تتبعه في رتل واحد، فداروا حول الدغل، حريصين على ألا يلمسوا الحواف غير المضمونة.

همس صقر لأخته: «ذلك هو فرج المقامي. إنه الابن الأصغر للشيخ خالد».

أومأت نورة وجرّت الحمار: «في تقديري ذلك السبب وراء إطلاقه الأوامر وكأنه رئيس عشيرة في الحرب».

أطلق فرج أمره التالي: «من هنا، هذه الجهة، ليس قريباً جداً إلى تلك الصخرة. إن تدحرجت فسوف نُسحق تحتها».

لم يكادوا يتجنبوا الامتداد الصخري المشؤوم الذي برز

فوقهم، حتى توقف فرج، وانفرجت شفتاه المكتنزتان، ليقول، مشيراً إلى الوادي: «انظروا، ها هي ذي: الساحرة»، ورفع ذراعيه، ولجأ الأولاد إلى الاحتماء، إذ جثموا وراء ما وجدوه من حجارة، وهمس فرج، وهو يشير إلى نورة وصقر: «ماذا تنتظران أنتما الاثنان؟ اختبئا قبل أن تراكما».

قال صقر متذمراً، رغم أنه ترك نورة تجره خلف لوح من الحجارة الحمراء، وهي تمسك بعنان الحمار لكي لا يبتعد عنها، ثم لبثا يراقبان.

طبعاً كانت الساحرة زبيدة، وكأنها صرة من الثياب السوداء، تمشي مشية عرجاء وهي تصعد هضبة بعيدة. كان كوخها متربعاً على قمة الهضبة، يبدو منعزلاً تحت شجرتَيْ نخيل يابستين.

سألت نورة: «متى سنراها؟».

صقر: «حالما تنتهي هذه اللعبة الغبية».

تثاءبت نورة وتركت نظرها ينتقل إلى وجوه الأولاد الناظرة. كانوا خليطاً من الأنواع والأشكال. لم يكن أبوها معجباً مطلقاً بأهل نسايم. كان يسميهم «دخلاء» لا ينتسبون إلى أصولهم. كانوا مكونين من بحارة من موانئ ومدن بعيدة تخلفوا هنا، ومن سكان الهضاب القريبة، وأهل الجبال الذين فضلوا أن يسكنوا قريباً من الفرص التي كان البحر يأتي بها إليهم. ومع مرور الأيام والسنين تزوجوا من بعضهم، وأصبح السكان الآن

خليطاً واسعاً من الأعراق والألوان: وجوه سوداء وسمراء وزيتية وبيضاء، تتوج رؤوسهم شعور مستقيمة ومموجة ومجعدة. وقد تقبلتهم نسايم جميعاً، غير أن أباها لم يتقبلهم؛ إذ كان يقول لها دائماً، إنه عندما اختلطت العشائر اختلط الأمر فيما بينهم؛ فقد فقدوا طيبتهم ونقاءهم.

«ماذا تريدون منها؟» نادى صقر على الأولاد، حينما أشار فرج إلى الأولاد بالنهوض من مخابئهم، «إنها مثلنا تماماً».

صاح الفتى صاحب الشعر البني الفاتح اللون: «ذلك ما تظن أنت. إنها تتحدث إلى أشخاص غير مرئيين طوال الوقت».

أضاف فتى متورد الوجنتين: «نعم، ولديها أشياء كريهة الرائحة في منزلها».

قال فرج، بصوت يرشح بالمعرفة: «ليس هذا فحسب، بل حولت أيضاً ابنها إلى كلب».

دارت نورة بعينيها بدهشة بالغة: «كلب؟» لا ريب في أن أمواج البحر بثت في عقولهم خيالاً قوياً. كانت على وشك أن تضحك عندما لاحظت شفة فَرَج السفلى تنقلب نحو فكه الأسفل تعبيراً عن العبوس.

«ذلك الابن! من الخارج يبدو وكأنه شخص، أما من الداخل فهو كلب بالفعل، حتى إنها أزالت لسانه».

أخيراً، ضحكت نورة وقالت: «أوه، كلب لا يستطيع أن يتكلم أو ينبح».

والآن فتح فرج فمه فبدا حلقه يلمع، وقال: «اضحكي إن شئتِ، ولكننا شاهدناها: فهي السيدة ، وهو الكلب».

قال الفتى المتورد الوجنتين مقلداً بسخرية: «دور-ماماد الكلب! عندما تريد الماء ترفع ذراعها فيجري هو ليحضره لها».

«وعندما ....» بدأ الحديث فتى ثالث قبل أن يشير إليه فرج ليصمت.

همس فرج: «ها هوذا».

تتبعت نورة وصقر نظرته. كان دور-ماماد في أعلى المنحدر الذي كانوا عليه، وقد اختفى شعره الأشهب وراء صخرة حينما انحنى ليلتقط شيئاً. التفتت نورة خلفها إلى الأولاد وتأوهت، مستمتعة بعقولهم الطفولية، ومتسائلة لماذا نزلوا على ركبهم مثل القطط الجبلية الحذرة.

صرخ فرج: «اهجموا!»

تردد صدى صوته من جوانب الجرف الصخري المنحدر، واندفع الفتيان كالسهام نحو دور-ماماد وهم يصرخون بالشتائم. كانت نورة وصقر على وشك أن يجريا خلفهم عندما سمعت نهيق الحمار وهو مذعور، يرفس في الهواء بقوة، واندفع في الاتجاه الآخر.

صرخ صقر: «العسل»، وقفز على الحمار، ممسكاً بشعر رقبته بذراعيه، بينما أمسكت نورة بأذنيه، وهمست له بكلمة تهدئه، ولكن الحمار لم يصغ لها، وراح يرفس من جديد، وجذبهم بثقله، فترنحا وخلّيا سبيله.

فغرت نورة فاها حينما التفتت إلى الفتيان؛ فقد تحولوا إلى جيش من الأشرار، محيطين بسرعة بدور-ماماد، وراحوا يقذفونه بالحجارة، حيث أصابت إحداها ربلة ساقه، بينما جرحت أخرى ذراعه.

هبت هي وصقر لنجدته، كان رجلاً في منتصف العمر، وقد استجمع قواه استعداداً لما كان منتظراً، وانكفأ على الأرض حينما اجتمع عليه عدد من الأولاد. انكمشت نورة حينما شاهدتهم يشدون شعره، ويضربونه على ظهره.

«ابتعدوا». كان القصد أن تكون صرخة جريئة، ولكن صوت صقر تهدّج من اللُّهاث.

ركضت بأقصى سرعتها، ولكنها اضطرت إلى التوقف عندما وخزتها شوكة بعمق في اللحم الطري بين أصبعَين من قدمها. وبقيت عيناها طول الوقت مسمّرتين على القسوة التي أبداها الفتيان. كان فرج يحاول قلب دور-ماماد، ليُحدث ثغرة يستطيع جيشه المتنمر أن يستغلوها، ويقرصوا خدّي الرجل ويلكزوا أنفه أو عينيه.

ولكـن صقـراً كان هنـاك قبـل أن يتمكنـوا مـن فعـل ذلـك، حيـث أمسـك بفـرَج مـن كتفيـه، وفي حـين جذبـه للأعـلى، صفعـه عـلى خـده، فهـوى فـرَج عـلى الحـصى.

في الوقـت الـذي وصلـت نـورة إليهـم، كان الأولاد قـد استسـلموا؛ إذ تحداهـم صقـر أن يواجهـوه، مؤكـداً قوتـه بدفعـة للصـدر، وقـال: «أي شـيطان أثاركـم؟» والتفـت إلى فـرَج: «هـل أنـت مـن خلـق الله؟».

نظـر فـرج إلى الأعـلى نحـو صقـر، وهـز رأسـه، وبصـق. «إنـه مِسـخ، وعـلى أيـة حـال، فهـو يحـب أن نلعـب معـه».

وبّختـه نـورة قائلـة: «أنـت تسـمي هـذا لعبـاً؟» والتفتت لتشـمل بتوبيخهـا الأولاد الآخريـن، «قـذف الرجـل بالحجـارة، وقرصـه، وشـد شـعره بهـذا الشـكل؟ انظـروا مـا فعلتـم بـه». مـدت بذراعهـا نحـو دور-مامـاد، ولكنـه لم يكـن هنـاك. مسـحت الجبـل بعينيهـا. لا شيء؛ فقـد انسـل دور-مامـاد مبتعـداً بهـدوء وكأنـه شـبح.

أشار فرَج بأصابع الاتهام إلى صقر: «أنت صفعتني!»

انفجـرت نـورة قائلـة: «وسـوف يصفعـك ثانيـةً»، ونفثـت غضبهـا في عيـون الأولاد المترقبـة؛ إذ لم يكـن فيهـا أثـر مـن الشـعور بالذنب. لم تكـن متأكـدة مـا الـذي أجـج غضبهـا أكثـر: هـل هـو وقاحـة فـرَج أم همسـات الفتيـان الحماسـية التـي كانـت تحيـي جـرأة قائدهـم.

صرخ فرج قائلاً: «ليس لديه حق في أن يصفعني؛ فهو ليس أبي».

تجاهلت نورة تأففه والتفتت إلى الفتيان: «أنتم جبناء، جميعكم».

انضم صقر إليها، وتقدم بضع خطوات مهدداً وقد أبرز صدره، وقال مزمجراً: «يجب أن تخجلوا من أنفسكم».

تراجع الفتيان بعيون نافرة.

«ابتعدوا عن ناظري قبل أن أفتل آذانكم واحداً تلو الآخر حتى تنخلع».

غطى ولد صغير أذنيه براحتي كفيه وفر جارياً بجوار صقر ونورة، ثم تبعه الآخرون هاربين نحو القرية. وكذلك فرج نهض على قدميه، وقد سالت الدموع على وجهه، ثم فر هارباً إلى أسفل الجبل.

استمر صقر ونورة في العبوس وهما يشاهدان الأولاد يثيرون الغبار وهم مذعورون خوفاً من الانزلاق. تساءلت نورة عن الفرح الذي حصلوا عليه من ترويع دور-ماماد المسكين. ألم تكفهم قساوة جباههم؟ لعل والدها كان على حق، ولعلهم توحشوا بسبب كل تلك الدماء المختلطة.

استطاعت أن تسمع اعتراضاتهم المجلجلة بعد هدوء الغبار بوقت طويل، وأيضاً بعد أن وصلوا بسلام إلى القرية. لم يتوقف سوى فرَج على بعد مسافة مأمونة منهم تحت هضبة زبيدة، بجوار الحمار. صاح قائلاً: «سأشكوكما لأبي، وسوف يضربكما، ولن يسمح لكما بالقدوم إلى قريتنا مرة أخرى». وبقوله هذا

نـزع الفـأس مـن حبلهـا الـذي كانـت مثبتـة فيـه، وقـذف بهـا بعيـداً بأقـصى مـا اسـتطاع مـن قـوة.

شهق صقر ونورة واندفعا إلى الأسفل.

فتـح فـرج قربـة المـاء وأفرغهـا عـلى الأرض الجافـة، ثـم رمـى بهـا في الهـواء.

«توقف عن ذلك».

لم يسـتجب فـرج، وبحركـة انتقـام أخـيرة، حـل ربـاط ملـة العسـل، وغمـس كفـه وأمسـك بقـرص العسـل، ورفعـه في الهـواء مثـل الجمجمـة المبيضّـة في «النَّدبـة»، ثـم أطلـق صيحـة انتصـاره وهـو يظهـر ابتسـامة متكلفـة: «أووو!».

تأوهـت نـورة، وقالـت: «لا خشـب، ولا عسـل»، وانحنـت لتلتقـط قربـة المـاء، «قمنـا بهـذه الرحلـة بـدون فائـدة، أليـس كذلـك؟» رفعـت نظرهـا إلى أخيهـا، وقـد أحـاط بذراعـه عنـق الحـمار. «أعنـي، أي نـوع مـن الأولاد هـؤلاء؟»

تمتـم صقـر، وقـد نبـض عـرق في صدغـه: «إنهـم مـن النـوع الـذي يـود أن يحطـم كل شيء، وقـد تُركـوا ليتربّـوا مثـل البهائـم».

قالـت نـورة: «حسـناً، لا يمكننـا أن نتجاهـل الأمـر كلـه. هـذا الفتـى فـرَج، قلـتَ إنـه ابـن شـيخ القريـة، هـذا ... هـذا ...

الشيخ خالد. أليس هو الشيخ الحكيم المفترض به أن يسوي المشكلات؟ حسناً، ربما يفترض به أن يسوي هذه المشكلة؛ فهي مشكلة كبرى، في رأيي: اجتماعهم على هذا الرجل البائس، ورمي حوائجنا بذلك الشكل، وسرقة عسلنا. علينا أن نرى هذا الشيخ الأب ونشكو له».

هز صقر رأسه وأطلق آهة استسلام: «ما الفائدة؟ لقد ذهب العسل».

«أنت يلسعك النحل، وهم يأكلون العسل. هذا ليس عدلاً». أطلقت ذراعيها في الهواء، وفتحت صدرها للسماء. وكانت على وشك أن تعبّر عن تأزمها عندما وقع نظرها على زبيدة وابنها ينظران من هضبتهما. همست نورة: «إنهما ينظران إلينا»، ثم خفضت ذراعيها وراحت تنفض الغبار عن ثوبها.

اختفت زبيدة داخل كوخها، ولكن ابنها اندفع نازلاً نحوهما بحماس طفولي. وحينما اقترب منهما، ظنت نورة أنه قد ينقضّ عليهما، وتراجعت بدافع الغريزة، غير أن دور-ماماد توقف فجأة، وبدأ يهمس عبارات الترحيب، بينما قلص التجهم بياض عينيه، وكان وجهه بلون السُّخام من السواد. لم تدعْ خصلات شعره المتراقصة، التي اختلط فيها البياض والسواد، والتي تشبه في كآبتها الليل الذي يخيم عليه الضباب، شيئاً من الإشراق في ذلك الوجه.

حاول دور-ماماد أن يوصل بعض المعلومات بحركات

عشـوائية مـن ذراعيـه. وعندمـا لم تفهـم هـي وصقـر مـا يريـد، تقدم خطـوة إلى الأمـام وقبـل كتـف صقـر، ثـم زرع قبلـة عـلى جبهـة الحـمار، وجـره إلى أعـلى الهضبـة، مشـيراً إلى أن عليهـما أن يتبعـاه.

الفصل العاشر

أمسك دور-ماماد بمعصم صقر وقاده للداخل، ثم عاد إلى الخارج، وأشار لنورة لكي تتبعه. وبعد أن أصبحت داخل كوخ زبيدة، اقتحمت أنفها رائحة العشب المنتن، الجلد القديم، وأظفار أصابع الأقدام، بمجرد أن أحكم إغلاق الباب الذي كان عبارة عن لوح رقيق ينفذ منه خيط من النور.

قالت نورة: «الرائحة كريهة هنا في الداخل. لماذا أغلقت الباب علينا؟»

أسكتها صقر: «كوني مؤدبة. نحن ضيوف هنا».

تململت وانتصبت واقفة عندما مسح شيء ما جبينها، فضربته. كانت قد انتقلت من النور إلى العتمة، واضطرت إلى أن تطرف عينيها بشدة قبل أن تتمكن من رؤية النباتات المعلقة بشكل مقلوب من السقف.

همست نورة: «حسناً، أين هي؟»

قال صقر، وهو يجلس على الأرض ويتربع ثانياً ساقيه: «لا أعلم. ما عليك سوى الجلوس والانتظار».

جلست، وقالت: «ماذا تريد؟»

«لا أعلم».

انتظرا، وبعد أن تأقلمت عينا نورة مع الداخل المعتم، تثاءبت وتركت نظرها ينتقل إلى صف من المرطبانات والقوارير التي كانت مرصوفة على الجدار البعيد. هل كانت تلك الخربشات أفاعي رملية ميتة؟ فغرت فاها بانزعاج: «أف .. هل رأيت ما في تلك المرطبانات؟» هناك في مرطبان آخر، كانت متيقنة من أن بإمكانها أن تستخرج منه أطراف ذيول عقارب جبلية مسحوقة معاً. وكررت القول: «أف ... هذا المكان يصيبني بقشعريرة. لنخرج بأسرع ما يمكن».

سمعت زبيدة قبل أن يتمكن صقر من الإجابة. من الظلام ظهرت «الطبيبة الشعبية»، حيث دلفت ببطء على ردفيها من باب مفتوح على غرفة أخرى لم يرياها. أصدرت ثيابها حفيفاً، وكان هناك صوت طقطقة من قلادة غريبة الشكل. جلست متربعة أمامهما كملكة الظلام وهي على وشك أن تهتم بمحن رعيتها. انتظرت ورأسها مائل إلى أحد الجانبين، وعيناها شبه مغلقتين.

تنحنح صقر وقال: «ابنك أحضرنا إلى هنا».

«نعم، ولكنكما كنتما قادمين لترياني على أية حال، أليس كذلك؟» تدفق صوتها الأجش مثل التيار الخامل.

لا نستطيع أن ندفع لك».

«نعم؛ لأن ذلك الوغد سرق عسلكم».

أيـة دمـاء سـاحرة كانـت تـسري في عـروق زبيـدة، وجعلتهـا تعـرف ذلـك كلـه؟ خطـرت هـذه الفكـرة في رأس نـورة حالمـا تحركـت زبيـدة ومـدت سـاقيها. وقعـت حزمـة مـن الضـوء مـن خـلال البـاب عـلى صدرهـا، عـلى مصـدر صـوت الطقطقـة. لم تكـن تلـك قـلادة غامضـة غريبـة الشـكل! كانـت تلـك تعويذاتهـا مـدلاّةً مـن حلقـات مخيطـة بطـرف شـيلتها. ضغطـت نـورة أنفهـا عنـد الأسـنان والمخالـب والصـدف وصرر القـماش الصغـيرة؛ إذ لم تكـن تريـد أن تعـرف مـا فيهـا.

اسـتدارت زبيـدة برأسـها، وخفضـت نـورة بصرهـا، فأجفلهـا منظـر قدمـي زبيـدة المشـوهتين؛ إذ كانتـا منحنيتـين مـن الكاحـل للأسـفل عـلى شـكل هلالـين ليـس فيهـما شيء مـن جمـال القمـر.

قالـت زبيـدة: «كـما تعلـمان، حاولـت أمـي أن تقوّمهـما عندمـا كنـت صغـيرة، ولكـن ذلـك لم ينفـع». وفتحـت عينيهـا، فأحدقـت كلا عينيهـا بحـدّة في نـورة: عينهـا السـوداء المبـصرة، وعينهـا الزرقـاء المكفوفـة. «كانـت تثبّتنـي بركبتيهـا، وتضـع حجـارة كبـيرة عـلى قدمـي. كـم كان ذلـك يؤلمنـي!».

شعرت نورة بالحرارة تصعد إلى وجهها: «لم أكن أعني أن...»

قالـت زبيـدة: «لا يهمـك ذلـك كلـه. مـا شـاء الله، لقـد فعلتـما أمـراً طيبـاً اليـوم. أنتـم أول نـاس يدافعـون عـن ولـدي». تنهـدت وأصدرت

صوت طقطقة بلسانها. «مسكين جداً. لم تكن الحياة مريحة له، فلسانه يتحرك بلا هدف، وأذناه لا تسمعان صوت الرياح».

تمتم صقر بشيء حول فعل ما هو صحيح عندما أسكتته برفع ذراعها.

«لا! ما فعلتماه كان أمراً مميزاً. دور-ماماد هو ولدي الوحيد، وهو غالٍ علي مثل كبدي. حتى أبوه لم يكن ليدافع عنه كما فعلتما. لقد تخلى عنا، كما تعلمان، عندما كان دور-ماماد لا يزال طفلاً صغيراً». ظهرت دندنة في مؤخرة حلقها، ورفعت أحد الأسنان التي ما زالت ملتصقة بفمها وأطلقت همسة من فوقه. «إلى موسى، أنت أيها الخسيس، حيثما كنت. أرجو أن يفلّ هذا السنّ غرورك، ويجعلك كالكلب الوسخ». ثم تجشأت وأسدلت جفنيها. «والآن، كيف يمكنني أن أساعدكما؟».

أصيبت نورة وصقر بذهول منعهما من الكلام، ولبعض الوقت كان الصوت الوحيد الذي ملأ الكوخ هو تنفسهما المكتوم.

«حسناً؟»

سعل صقر وأطلق مقولة في كلمات كالحشرجة.

أومأت زبيدة وقالت: «نعم، أفهم، أنت لديك بيتك، ولكنه ليس قلعة أمان بعد أن أصبح أبوك مجنوناً». أصبحت هادئة، كالأم الرؤوم تقريباً.

قال صقر مقرّاً: «لا نعرف ماذا نفعل».

«أستطيع أن أصنع لك جرعة دواء، إن شاء الله، تجعله لطيفاً. ولكن الجنون لن يزول أبداً. هذا ما يجب أن تفهمه». وبقولها هذا أخرجت حجرين من وراء ظهرها وضربتهما ببعضهما.

انفتح اللوح، ودخل الضوء، وقفز دور-ماماد إلى الداخل. هل سمع نداءها أم شعر به؟ لم يكن لدى نورة الوقت الكافي لأن تفكر بذلك ملياً؛ إذ أعياها الكلام بسبب اللغة الخاصة التي تكشفت بين الأم والابن، الأمر الذي تركها فاغرة فاها وقد شعرت بأنها عديمة الفائدة.

كان هناك رأس زبيدة مرتفعاً إلى السقف، وكان لسانها يخرج من فمها في ثلاث دفعات حادة، وكان دور-ماماد يحاول الوصول إلى النباتات الذاوية التي أشارت إليها. ثم لكمت راحة كفها بقبضتها فجرى دور-ماماد ليحضر الهاون والمدقة، وعندما عاد لوت زبيدة معصمها في الهواء راسمة شكل قارورة خيالية كان عليه أن يحضرها.

كانت على وشك أن تصنع الجرعة، وأوشك الاجتماع على الانتهاء. استبشرت نورة بالفكرة.

ولكن تغيراً طرأ على زبيدة؛ إذ راحت تقطف الأوراق الفاسدة من جذوعها عندما تدحرج سواد وزرقة عينيها إلى مؤخرة رأسها، وألقت بالنباتات وحدقت نحو الأمام من خلال مقلتيها ذواتَيْ اللون الحليبي. كم كانت تبدو غريبة الأطوار! بدأ كتفاها يهتزان في سلسلة من الرعشات التي هزتها

من مفرق رأسها إلى أخمص قدميها القاسيتين. هل كان الجن يلجون إلى عالمها؟ تطلعت نورة إلى صقر ليُحِيرَ جواباً، ولكنه علِق في غيبوبة زبيدة.

قالت زبيدة: «لم أركما من قبل. هل أنا على حق عندما أقول إنكما جئتما من عمق الجبال؟».

أومأ صقر بالإيجاب، لكن عينيه بقيتا تلمعان وهو يتابع حركة رأس «الحكيمة» المتأرجح.

قالت نورة بنشاط: «نحن أولاد إبراهيم السالمي». كان عليها أن تنهي غيبوبة الذهول التي كان أخوها عالقاً فيها، «نحن نسكن على بعد مسيرة يوم من هنا».

توقفت الرجفات وسقط رأس زبيدة على صدرها، وبدأت تتمتم في برقعها، وكانت كل كلمة تزيد في إبهام الأخرى، وحينما حاولت نورة فهم ما تقول، سعلت زبيدة وقطعت حبل أفكارها وأعادتها للواقع.

رفّت عيناها وتذبذب السواد والزرقة في عينيها. تأرجح رأسها قليلاً، وضغطت على الأرض براحة كفّيها، وكأنها تتأكد من أنها لا تزال موجودة، قبل أن تتحدث إلى صقر: «لديك مشكلات أخرى غير مشكلة أبيك، أليس كذلك؟».

تمتم صقر: «كل شخص لديه مشكلات».

«لكن لديك مشكلة معينة تَخِزك في قلبك، أليس كذلك؟»

تلمست طريقها إلى إحدى الأصداف، وبدأت تربت عليها، «لقد غدوت الآن رجل العائلة، وأكبر هواجسك هي أختك».

خفض صقر بصره وقال: «صحيح، أنا قلق عليها، ولكن أي أخ لا يقلق على أخته؟»

شبكت نورة ذراعيها عالياً فوق صدرها وغمغمت، فقد كانا يتحدثان عنها كما لو لم تكن هناك. إلى أين سيؤدي هذا؟

قالت زبيدة: «هي ترفض الاستماع إليك. ثمة أمر عليك أن تعرفه، وهو أنها مختلفة: عنيدة وعنيفة، ومع ذلك فهذا لا بأس به»، ثم ابتسمت وتابعت: «أنا مختلفة عن النساء الأخريات أيضاً».

قطبت نورة وجهها من مسعى الساحرة لأن تضفي شيئاً من روح الفكاهة على الجدية التي سيطرت على الأجواء: «لست مختلفة لهذه الدرجة، خالتي»، قالت ذلك وتساءلت عما إن كان ينبغي لها أن تناديها «خالتي» بأية حال.

ظلت زبيدة تركز على صقر، مطلقة عينيها في جولة مستمرة عبر وجهه: «كما ترى، كان مكتوباً أنك ستأتي بشأن مشكلة، ولكنك تحصل - بدلاً من ذلك - على حل لمشكلة أخرى، المشكلة الخفية التي تشغل عقلك». لمست زبيدة جبينها بإصبع، «أختك تكبر وستغدو عانساً، وأنت لا تعلم ماذا تفعل».

اعترضت نورة بلهاث حاد يشبه الصرير.

أسكتتها زبيدة بتلويحة من ذراعها، كما لو أنها لا تعدو أن تكون بعوضة، وتابعت مخاطبة صقراً: «أنت تريد الأفضل لها، ولكن لا يخطر بالبال أن تجد زوجاً لأختك؛ فليس ذلك أمراً معتاداً: أن تقذف باسمها هنا وهناك. ذلك عيب، هذا ما تقوله أنت؟ ما أعنيه هو أن الرجل هو الذي ينتقي زوجته، وليس العكس. ولكنني أستطيع المساعدة. كما ترى، تم إخباري عما هو الأفضل لها. لقد أُعطيت الحل».

هل قالت الحل؟ أرادت نورة أن تخرج بسرعة من الكوخ، وتنهي هذه الزيارة الغريبة دون أن تسترسل في التفكير، غير أن نفَسها ثقل بدافع الفضول، وشعرت بالثقل أيضاً في أطرافها. بقيت حيث هي، عالقة في جو مشبع بالترقب.

قالت زبيدة: «يجب أن تتزوج».

آن الأوان لإيقاف ذلك كله! قالت نورة: «أنت لا تعرفين أي شيء عنا، ولا تعرفين ما نريد».

قال صقر بإصرار: «دعيها تتكلم».

كم كان من السهل استغباء صقر! ماذا ستقول له الساحرة بعد ذلك؟

أدلت الساحرة بشيء من المدح: «في رأيي أنت محظوظة بأن يكون لك أخ يهتم بك كل هذا الاهتمام. ما شاء الله! إنه أخ شجاع وشهم!»

تحركت نورة حينما تملّكها إلحاح متجدد بالهرب، وشعرت بغصة من الهواء الراكد، وقالت: «ولكن هذا الاجتماع لا علاقة له بي. نحن أتينا من أجل والدنا»، واستدارت إلى صقر: «قل لها، يا صقر».

قال صقر: «إذا كنتِ لا ترغبين في سماع ما تقول، فيمكنك الانتظار في الخارج».

أحست نورة بوخزات صغيرة من الخدر تغزو وجهها، وبدت لها رائحة النتن الكريهة أقوى مما كانت عليه حينما دخلا في البداية.

قالت: «لعلي أخرج».

نهضت نورة ومشت إلى الباب، وهناك توقفت قليلاً لتلقي بنظرة أخيرة عليهم. كان صقر ينتظر بصبر، وعلى وجهه نظرة فارغة ثبتها على الأرض. أما الساحرة، من جهتها، فكانت تراقبها بإصرار، وفي عينيها وميض الانتصار، العين المبصرة وغير المبصرة على حد سواء.

الفصل الحادي عشر

نادت موزة: «يا حلوة، تعالي هنا».

دخلت نورة إلى غرفة النوم. كانت أرضية الغرفة – مثل غرفة الجلوس – مغطاة بحصير من سعف النخيل. وكان هناك فراشان مطويان في إحدى الزوايا، وفوقهما كانت أثواب موزة معلقة على مسمار مثبت في فجوة في الجدار. وفي الزاوية الأخرى استقر مندوس موزة المعدني المغلق بقفل.

قالت موزة: «حان الوقت لتجهيز الفُرُش». كان لها صوت ناعس بدا دائماً كما لو أنه سيؤدي إلى التثاؤب.

ألقت نورة بإحباطها في الجو، فقد مضى عليها أسبوع وهي في كوخ موزة، ومع ذلك لم يأت صقر ليرجوها أن تعود إلى البيت. لمعت الصور في مخيلتها من جديد: صقر يفتقدها، صقر يشعر بالقلق عليها، صقر يبحث عنها في أنحاء الجبال، صقر لا يستطيع العثور عليها، صقر سيشعر بالأسف.

مدت موزة ذراعيها، وانحنت عليها ببطء، بينما برزت أردافها.

أجـل، فقـط عندمـا يـرى صقـر أنهـا غـير موجـودة، سـيقدّرها. كيـف سـيتدبرون أمرهـم، أبوهـا وإخوتهـا، مـن دونهـا؟ مـن سيصلح لهم ثيابهم؟ مـن سيطبخ وينظـف الكـوخ؟ مـن سـينقل المـاء؟ هـه! أجـل، عندئـذ فقـط سـيعرفون قيمتهـا.

وقعـت عينـا نـورة عـلى أصابـع مـوزة تعبـث بحـواف الفـراش الأول (محـاولات أوليـة لصنـع مقبـض أو ممسـك كانـت بحاجـة إليـه)، فسـارعت لمسـاعدتها، وهـي تقـول: «هنـا، سـأفعلها أنـا»، وأمسكت بالحـواف مـن أصابـع مـوزة التـي كانـت لا تـزال تبحـث عـن ذلـك المقبـض المحكـم. بسـطت نـورة الفـراش، ثـم فعلـت الأمـر نفسـه مـع الفـراش الآخـر. وبعـد أن قربـت الفراشـين بجوار بعضهـا بحثـت، غـير أن مـوزة لم تكـن حيـث تركتهـا.

بسرعـة نـادرة، خطـت العجـوز إلى الجانـب الآخـر مـن الغرفـة، وجلسـت أمـام المنـدوس. التفتـت إلى نـورة ورسـمت ابتسـامة عـلى شـفتيها. أدخلـت يدهـا في جيبهـا وأخرجـت شريطـة حمـراء مـن القـماش علقـت في نهايتهـا مفتاحـاً.

قالت موزة: «هذا المفتاح يفتح القفل».

كان ذلك تسلية مرحباً بها: «ماذا فيه؟»

قالـت مـوزة وهـي تنـاول المفتـاح إلى نـورة: «أوه، كثـير مـن الأشـياء الظريفـة. إنـه مـليء بالأشـياء التـي عـاد بهـا زوجـي مـن تجوالاتـه. افتحيـه وأخرجـي كل مـا فيـه، لكـي تـرَيْ بشـكل صحيـح». قالـت ذلـك بـإصرار.

فتحت نورة القفل، وأخرجت صرة صغيرة معقودة من الأعلى، وحلّت العقدة، وأخرجت حفنة من خيطان الحرير الملونة. أمسكت بكرات الخيطان في راحة كفها، ولمعت عيناها بمختلف الألوان.

شجع هذا الاكتشاف الأول نورة على المتابعة وإخراج بقية المحتويات. وبعد أن كومتها بينها وبين موزة، نظرت العجوز باعتزاز إلى ممتلكاتها: ست قطع من القطن وقماش الحرير بألوان نمطية قوية للأثواب والسراويل، وقطعة زرقاء قاسية من القماش لصنع البراقع، وكانت هناك سلة من قطع القماش الأصغر حجماً لرقع الشقوق والتمزقات، ومقص مثلّم، ومرآتان يدويتان برونزيتان، وقارورة لزيت الياسمين، وأخرى لخلاصة دهن العنبر، وأربعة أمشاط خشبية، وخنجر وسكينتان نصلهما مزين بالتخريم.

قالت نورة: «ما شاء الله، هذا كنز حقيقي».

تلمست يد موزة إحدى قطع القماش القطنية الأكثر سماكة، ذات اللون الأزرق السماوي مع خطوط عريضة زمردية اللون. «انظري إلى هذه القطعة. لماذا يبدد سلطان نقوده بهذا الشكل؟ ففي كل مرة يجلب شيئاً. أنا أخبره أنني كبرت على كل هذه الأشياء». أصبح جفناها الذابلان مشدودين الآن، «أتساءل بماذا سيعود معه هذه المرة؟».

أمسكت نورة بالقماش وفتحته: «لماذا تخزنين كل هذه الأشياء؟».

أدارت موزة رأسها نحو نورة وأبرزت أذنها.

رفعت نورة صوتها: «يفترض بك ألا تخزني هذا الأشياء، بل أن تستخدميها».

«لا أستطيع أن أخيط، ولا أحب الطريقة التي بها نساء القرية... حسناً، هن لسن بارعات في الخياطة».

«لماذا لا تدعيني أخيطها فساتين لك؟ خياطتي نظيفة».

استدارت عينا موزة باندهاش: «ما شاء الله! من علّمك؟»

«أمي».

كان قرار موزة أسرع من حركاتها. «لايزيد طول ثيابي عن هذه النقطة». أشارت إلى ما فوق كاحلها مباشرة. « وإلا فقد أتعثر بها. ولا تنسي أن تضعي قطعة قماش بلون مختلف على طول الثوب من كلا الجانبين، بحيث تكون جميلة بذلك الشكل، دون المبالغة في التطريز حول العنق؛ فهو يخمشني، كما ترين».

وبالنسبة إلى السروال، سيتبع التصميم التقليدي، بحيث يكون واسعاً عند الخصر، ثم يضيق حتى يصبح ضيقاً عند الكاحل، ويتم تثبيت نطاق الكاحل بأزرار من القماش تصنعها نورة.

«بقدر ما شئت من التطريز على طوق الكاحل»، قالت موزة متابعة توجيهاتها، «استعملي كل تلك الخيوط الملونة،

واختاري أي تصميم تريدينه: الخطوط أو المربعات أو الخط المتكسر، أي شيء يعجبك». سكتت قليلاً وفردت قطعة القماش ذات الخطوط الخضراء الزمردية اللون على صدر نورة، وقالت: أه! بالضبط لون عينيك نفسه. يجب أن تأخذيها».

كانت هدية سخية. حاولت نورة أن ترفض، قليلاً فقط.

أصرت موزة: «لا، لا، لا. في بيتي، لا بد أن تحصلي على فستان جديد».

ملأ صنع الملابس نورة بالحماس؛ فهذه المهمة الجديدة ستملأ رتابة الفراغ الذي تعانيه أثناء ساعات النهار، ولم تضيع وقتاً في المباشرة؛ فقد قصت القماش حسب المقاس الصحيح، ثم أسرعت أصابعها على طول الدرزات، تغرز الإبرة في القماش، وتسحب الخيط بنترات سريعة ومنسقة، وفي غضون يومين كان الثوب الأول جاهزاً.

باستثناء ساعات الصباح الباكر، عندما كانت تذهب لتجلب الماء من البئر، كانت نورة تقضي كل أيامها داخل كوخ موزة وحوله، تطبخ الطعام، وتغسل الثياب، وتكنس طبقات الغبار من الغرف، وتعتني بموزة. وفي الوقت الباقي كانت تشتغل بالخياطة.

وفي وقت لاحق في بداية المساء، كان هناك أقدام صغيرة تتراقص خارج الكوخ. كان أطفال «معزولة» ينسلون خارجين

من بيوتهم ليمعنوا النظر فيها، حيث تكون الزائرة في وسطهم، وذلك من خلال الفجوات الصغيرة بين أحجار كوخ موزة. وكانوا يبقون هناك إلى أن تدعوهم أصوات أمهاتهم الحازمة للعودة. وللمرة الأولى في حياتها، تعيش نورة ضمن مجتمع، ومع ذلك فهي ما زالت تشعر كأنها غريبة. فالمعية الجماعية والتآزر الذي كانت تتوق إليه على مدى أسابيع قبل ذلك لم يكونا متوافرين لها هناك.

حينما لف الظلام القرية، حملت الرياح معها آخر أصوات الليل: رجل يتنحنح، وطفل يبث وجعه من خلال البكاء، وأصوات ثغاء ماعز أو اثنتين من هذا الجانب أو ذاك. ولم تَجُلْ الأفكار التي تجاهلتها طوال النهار بخاطرها وتتراكم في رأسها إلا عندما أحاط صرير الجنادب الناعم بهدوء القرية.

لِمَ لم يأت صقر ليأخذها؟ كم يا ترى صدّق من كلام تلك الساحرة؟ وماذا عن أبيها؟ ليلة تلو الليلة، كانت نورة تستلقي بجوار موزة، وبينما كانت موزة تشخر، كانت نورة تصارع لتتمكن من النوم.

جاءتها نوبة من التثاؤب من مؤخرة حلقها. هل سيوافيها النوم؟ أغلقت عينيها وانتظرت. كان شخير موزة يتصاعد من جديد، وازداد زخم الشهيق الخفيف، ووصلت نفثات الشخير الحادة إلى ذروتها، حيث خرج صوت نعيب أجش من أعماق صدرها، وتنامى ليصبح هديراً قوياً.

لا فائـدة. اسـتدارت نـورة نحـو الجـدار، وثنـت ركبتيهـا في شـكل مربـع، وأحدقـت النظـر في أشـعة القمـر الزرقـاء الهادئـة تتسـلل خيوطـاً رفيعـة مـن خـلال الثغـرات الموجـودة في الجـدار الحجـري. ثـم كان هنـاك شيء آخـر: حركـة.

ثـلاث خطـوات عـلى رؤوس أصابـع القدمـين ورفيـف قـماش اخـترق أشـعة القمـر.

كان ثمة شخص في الخارج.

سـمعت استنشـاقاً حـاداً للهـواء، كـما لـو أنـه مسـحوب مـن خـلال أسـنان مطبقـة بإحـكام، وخالـط ذلـك صـوت ألم. كانـت متيقنـة مـن أنـه أيـاً كان الشـخص في الخـارج فـلا بـد أنـه داس عـلى شـوكة. انتظـرت سـماع صرخـة مكبوتـة كان مـن المعقـول أنهـا سـتلي ذلـك، ولكـن شـخير مـوزة المطّـرد مـلأ الغرفـة مـن جديـد؛ حيـث كان يتصاعـد بقـوة وثبـات، مـع فـترات فاصلـة أطـول فيـما بـين حلقاتـه: سـحبة ثقيلـة، ثـم فجـوة، ثـم دفقـة مـن الهـواء مـع الزفـير. تصـورت أن كل وقفـة فاصلـة بـين شـخرتين أصبحـت أطـول مـن سـابقتها. مـاذا لـو أن المـرأة العجـوز توقفـت فجـأة عـن التنفـس؟

سـمعت وقـع الأقـدام مـن جديـد. كانـت حـذرة وقلقـة، مـن النـوع الـذي يسـعى بشـدة لأن يبقـى صامتـاً، ولكـن أصـوات طحـن الحـصى فضـح ذلـك الحـذر.

تحرك من الفراش، وألصقت عينيها قبالة ثغرة في الجدار، ولكن كل ما استطاعت رؤيته كان الشرفات والمصاطب المتدرجة في القرية، ملفوفة بزرقة ضوء القمر. ومع ذلك فقد كانت تعلم أن الشخص كان لا يزال هناك، واقفاً في مكان قريب جداً من الجدار. عدّت ثلاثة أنفاس حذرة قبل أن سمعت حركة انتقال مترددة حينما انسل الشخص مبتعداً.

جاء زائرها في الليلة التالية والليالي التي تلتها. في الزيارة الخامسة، وجدت نورة بلاطة مخلخلة في الجدار. وفي الزيارة السادسة سحبتها للخارج، ومن خلال الثغرة المستطيلة وقع نظرها على علامة دالة على دشداشته حينما مر بها: كان ذلك رجلاً.

أعادت الحجر إلى مكانه، وعادت إلى فراشها وقد غلبها خجل غريب، بينما امتلأ قلبها بالغضب. لماذا يتسكع خارج كوخ موزة كل ليلة، ويقف ساكناً بحيث لا تعود تسمع سوى تدفق وتوقف أنفاسه؟ كان صوت أنفاسه منتظماً، ولكنها من حين لآخر كانت تكتشف اهتزازة خفيفة كانت تزيد من فضولها. من هو يا ترى؟

في الليلة التالية قررت أن عليها أن تكتشف من هو ذلك الرجل. وعندما أحدقت النظر من خلال الثقب أبصرت ضوء القمر يقع على حدبة خنفساء صغيرة تزحف بالقرب من أرومة شجرة تأصلت جذورها بحذاء الجدار. من المؤكد أنه سيكون

باستطاعتها أن ترى المزيد. استطاعت أن تعرف من صوت أنفاسه أنه كان قريباً، وأنه كان واقفاً بجانب الثغرة. أحست بالتوتر في عينيها حينما أصبحتا أكبر حجماً واستدارة، وسمعت طقطقة عنقها حينما فتلته بقدر استطاعتها، ولكن دونما طائل. بقي الرجل ملفوفاً بعتمة الليل وساكناً مثل الصخر، فيما عدا تلك اللمسة من الوجل التي تخللت الأنفاس المنتظمة.

لا بد أنه رجل من القرية، هذا ما فكرت به. لماذا إذن يأتي في الليل بينما كانت القرية نائمة؟ هل جاء من أجلها أو لسبب آخر؟ ماذا يريد؟ هزت رأسها لتمحو منه التساؤلات، فقد كان ثمة وقت لكي تديرها في ذهنها في وقت لاحق، بعد أن يغادر، وتكون مستلقية وحدها بينما وخزات الخدر تسري في أطرافها، وليس معها من رفيق نشيط سوى عقلها.

سمعت أصوات طقطقة الحصى المتحركة، وتبادر لها أنه يغادر؛ لأنه لم يكن يلبث هناك طويلاً، غير أن وقع الأقدام أصبح أعلى. سرى شعور ساخن بالذعر في أوصال نورة حينما تأكد لديها أنه قادم نحوها. نظرت بسرعة إلى موزة التي كانت في سبات عميق، وعندما التفتت وقف الرجل أمامها على بعد لا يتجاوز ثلاث خطوات منها.

ظهر من خلفه بدر منتصِف وقد أضاء كتفيه بضوئه الهادئ، ولكن وجهه بقي في الظلام. عند ذلك، وفي زيارته السابعة، لم تعد نورة تطيق أن تكبح فضولها أكثر من ذلك.

همست قائلة: «من أنت؟».

أجاب: «شخص ما».

«ما اسمك؟».

«لا أستطيع أن أخبرك، يا نورة».

«هذا غير صحيح». ماذا يمكنها أن تقول غير ذلك؟ «أنت تعرف من أنا، فينبغي أن أعرف من أنت».

ربض بجوار الجدار، وراحت ترتسم بعينيها حدة وجنتيه، وأنفه الشامخ. ثمة شيء مألوف فيه، وحاولت أن ترى المزيد، غير أن الظلال كانت تحوم في منحدرات وجهه.

قال لها: «أنا منزعج من أجلك».

«لماذا؟» استطاعت أن تشم نفَسَه الذي كان مزيجاً دافئاً من التراب والعشب، فقد كان بين الاثنين، ثقيلاً، ومنطوياً على عنصر الترقب والتشويق الذي اتسمت به هذه التجربة الجديدة تماماً.

«بما حدث لأبيك وكل شيء».

كيف عرف كل ذلك عنها؟ «حسناً، لا تنزعج»، قالت ذلك وشفتاها مشدودتان استخفافاً، «أنا بخير».

قال لها: «لا، لا، أنا لا أقصد الاستهانة بك، بل كل قصدي أنك لا تستحقين ما حدث لك».

كان يسبر مواطن قلقها، بينما كانت هي تريد ما هو ملموس، الحقائق: اسمه، وسنه، وعائلته. لماذا تقبل باهتمامات هذا الشخص الغريب؟ «لا أستطيع التحدث إليك ما لم تخبرني باسمك؟»

«أنا قلق عليك فحسب، وأريد أن أساعدك».

مرة أخرى انحرف إلى اتجاه آخر، متفادياً الأسئلة المهمة. كان عليها أن تدمج مساراتها. كانت على وشك أن تحاول من جديد عندما طفت سعلة في سكون الجو، جاءت من جهة القرية، فثمة شخص كان يقظاً.

قال: «يجب أن أذهب».

«ولكن من أنت؟».

هفهفت نسمة خفيفة دشداشته، مبعثرة إشعاعات القمر إلى بِرَك من النور الأزرق وقعت على أسنانه التي لمعت بابتسامة. لماذا كان يبدو مألوفاً إلى هذه الدرجة؟ انحنى مقترباً منها وهمس قائلاً: «راشد، هذا هو اسمي». وامتدت راحة كفه في الثغرة، ولامست أصابعه براجم أصابعها المقبوضة: «لاقيني عند البئر البعيدة غداً بعد الغداء، عندما تكون القرية في وقت الراحة».

باحت بأول تخوف خطر ببالها: «كيف؟»

«قولي فقط إنك تودين الذهاب للتمشي».

«ولكن ...».

ابتسم ثانية وقال: «لا حاجة لك لأن تكوني مع العجوز طول الوقت، كما تعلمين، بل يمكنك التنقل؛ فهو ليس سجناً. لن يلاحظ أحد».

شعرت نورة بانزياح ثقل الواجب عن كاهلها، واحتل مكانه قلق بشأن اللقاء المحرم الذي اقترحه، لقاء كانت تعلم مسبقاً أنها ستحافظ عليه.

«ما عليك سوى أن تذهبي إلى البئر القريبة، البئر التي نستعملها، ثم مري بجوارها، وانعطفي إلى الغرب، وتابعي السير في خط مستقيم، وأنا سأجدك هناك».

كان الأمر يحدث بسرعة بالغة، فقد كانت بحاجة إلى أن تعرف المزيد. ما هي نقاط العلاّم التي يجب أن تبقي عينيها مفتوحة عليها؟ وماذا ينبغي لها أن تقول لمن يراها؟

ولكن راشد نهض بالفعل، وتلاشى بين ظلال القرية النائمة.

الفصل الثاني عشر

وافقت موزة بإيماءة من رأسها وبالتثاؤب، وبعد ذلك تمددت لتأخذ إغفاءة القيلولة. خرجت نورة من الكوخ وانطلقت تحت سماء بيّضتها أشعة شمس ما بعد الظهيرة. وعند البئر، اتجهت غرباً، تماماً كما وجهها راشد، ثم عبرت سهلاً منبسطاً على قمة حَيْدٍ. كان المسير سهلاً، ومع ذلك أحست بقلبها الخافق يغوص في أحشائها الناعمة. كانت تمشي إلى لقاء بالمجهول مع رجل لم تكن تعرفه.

بدأ الحيد الآن بالانحدار هبوطاً، وضاق حتى غدا مسلكاً وعراً ارتفعت على جانبيه جلاميد ضخمة. سمعت قعقعة الحجارة المتحركة في الأسفل حينما بدت لها معزى مبقعة. وسرعان ما دخلت في تجويف بين لوحين مرتفعين من الصخور، قد يكون صاحبه قريباً من المكان.

قعدت وانتظرت شابكة ركبتيها بيديها، وهي تراقب الماعز التي كانت تنهش في معين خصب من العشب النامي بجوار نخلة. بدأت أطرافها ترتجف بفيض متجدد من القلق.

لماذا تابعت مثل هذه المهمة الخطيرة؟ كانت تعلم أنها سيلحق بها العار إن تم اكتشافها. وبدأت تتساءل كيف يمكن أن يعاقبها أهل القرية: هل سيحبسونها؟ هل سيضربونها؟ أم هل سيكتفون بإعادتها إلى أخيها، ويدَعونها تحمل العار إلى بيتها؟ بالطبع، لا شيء من ذلك سيحدث لراشد، فالمرأة هي دائماً من يتحمل المهانة.

عبست نورة بسبب المخاطرة التي أقدمت عليها، ولكنها لم تفكر بالعودة. كلما مضت في تخيلها لراشد، ازدادت الإثارة لديها، فقد كان واقفاً هناك، وكان يبدو قوياً تحت ضوء القمر، وكان مهتماً بمصلحتها. أومأت نورة برأسها، أجل، كانت على يقين من أنه كان يحمل في قلبه طيبة مميزة ستحميها من أية مشكلات قد تعترض طريقها.

مسحت بعينيها الوادي الذي كان ممتلئاً بالصخور المرصوصة، وبين الحين والآخر كانت نسمة هواء تجد طريقها من خلال الثغرات. تناهى إلى سمعها المزيد من أصوات ثغاء الماعز المتناثرة.

واقتناعاً منها أنها كانت وحدها تماماً، تركت شيلتها تنزلق على كتفيها، وبدأت تسوي الفَرق الذي توسّط شعرها؛ إذ لعل القلق الذي كانت ترزح تحت وطأته أزاح شعرها جانباً. كان ذلك عندما سمعت خفق قماش من مكان ما فوقها.

«هنا في الأعلى».

أعـادت شـيلتها عـلى رأسـها ونظـرت إلى الأعـلى. كان راشـد واقفاً هنـاك، وكأنـه صـورة ظليـة، وقـد صعـد عـلى حافـة الحيـد فوقهـا، بينـما كانـت الريـاح تهـب عـلى دشداشـته.

«اصعدي إلى هنا».

لم يكـن ثمـة وقـت للتفكـير. نفضـت الغبـار مـن ثوبهـا المخطـط باللـون الأخـضر الزمـرّدي الـذي جهزتـه في اليـوم السـابق، وتسـلقت لتنضـم إليـه. في الوقـت الـذي وصلـت فيـه إلى الأعـلى، كان وجههـا قـد احمـرّ مـن الصعـود ومـن توتـر الأعصـاب عـلى حـد سـواء. كان راشـد هنـاك، طويـلاً ومتماسـكاً، يحـدق النظـر فيهـا بعينـين كأنهـما لوزتـان.

لم تعـرف نـورة مـاذا تقـول، ولذلـك خفضـت بصرهـا إلى الأرض، وتمتمـت كلمـة لم يسـمعها.

سألها راشد: «ماذا؟».

«توجـد ماعـز هنـا في الأسـفل»، قالـت ذلـك، وهـي تشـعر بالسـذاجة حالما خرجـت الكلمات مـن شـفتيها. يـا لهـا مـن محاولـة ضعيفـة لصنـع حديـث سـلس!

أومـأ راشـد برأسـه وقـال: «إنهـا لي، ولكـن لا يهـم». شـقت ذراعـه الهـواء بحركـة عريضـة، وتابـع: «مـا يهـم هـو أنـك هنـا، معـي، في هـذا المـكان الخـاص».

نظـرت نـورة حولهـا، وتسـاءلت مـا هـو الخـاص حـول الحيـد

الـذي كانـا واقفـين عليـه. لم يكـن ثمـة نبـات أو شـجر، سـوى ظـل قليـل، والصخـور والحجـارة، أكـوام غـير منتظمـة خلـف ظهـره.

سـاد صمـت غريـب بينـما راحـت هـي تفكـر بعنايـة أثنـاء النطـق بكلماتهـا التاليـة، وأخـيراً سـألت: «مـاذا تريـد مني؟».

بـدأ، وكأنـه صحـا مـن حلـم عـارم، وسـعل: «الجـو حـار. لمَ لا تـأتي لنسـتريح قليـلاً هنـا بجـوار هـذه الصخـرات؟».

نـزل إلى أحـد جانبـي الكومـة، وغاصـت هـي في الجانـب الآخر، سـاعية لأن تلائـم مـا اسـتطاعت مـن جسـمها المنثـني داخـل الشريـط الضيـق مـن الظـل. وهنـاك في الأسـفل كانـت الماعـز تمـشي ببـطء، وتسـاءلت في نفسـها كـم مـن الوقـت مـضى وهـو يراقبهـا قبـل أن يناديهـا. اختلسـت نظـرة إلى هـذا الشـخص الـذي اسـتدرجها إلى هـذا اللقـاء. لم يسـبق أن رأت أحـداً لـه مثـل هـذه الأهـداب الطويلـة، التـي اسـتقرت عـلى هيئـة قـوس كثيـف تحـت عينيـه وهـو ينظـر للأسـفل نحـو الأرض، ويلتقـط غصنـاً صغـيراً، ويكشـط بـه الأرض أمامـه، راسـماً خربشـات عشـوائية تشـبه صغـار الأفاعـي. كان عقالـه مائـلاً قليـلاً فـوق غترتـه، الأمـر الـذي أعطـاه منظـراً متميـزاً وكأنـه شـيخ عشـيرة في ريعـان شـبابه.

كان يبـدو أكـبر سـناً مـن أخيهـا (وأكثـر وسـامة بـلا ريـب). وقـد أضفـت عليـه لحيتـه الخفيفـة شـيئاً مـن النضـج لم يكـن صقـر يمتلكـه. كانـت الآن تجلـس بجانـب رجـل، وليـس فتـى، وتلـك الفكـرة هـي التـي هـزت ذاكرتهـا. لقـد كان

صديق صقر، وهو الشخص الذي انضم إلى الفتيان لتناول الفطور، وكان ظهره لها، خارج كوخ موزة. أثارها هذا الإدراك وأرعبها في الوقت نفسه.

ترك راشد الغصن من يده ونهض، موسعاً صدره. وقد أحدثت هذه الحركة المفاجئة هزة في نورة، فخفضت نظرها نحو الأرض أمامها، متسائلة في نفسها عما سيفعله بعد ذلك.

«تعالي معي»، قال راشد ذلك، وطفق يزيح الأحجار التي بينهما جانباً، كاشفاً عن فتحة صغيرة اتسعت حتى أصبحت فجوة معتمة، تكفي للانضغاط فيها عند الوقوف. «أريد أن أريكِ شيئاً».

ترددت نورة. هل هي مستعدة لأن تأخذ خطوة أخرى في مغامرتها؟

«لا تقلقي، فنيّتي شريفة. فقط أعتقد أنك سيعجبك ما في الداخل».

وقفت نورة ونظرت من فوق كتفها كما لو أنها تبحث عن شخص يخبرها ماذا تفعل. لم يجب نداءها الصامت سوى الماعز، بثغاء لم تستطع ترجمته. عادت بنظرها إلى راشد الذي وقف بصبر، بينما كانت أهدابه تشفع للتوسلات في عينيه.

بعد أن أومأت بالإيجاب، قال راشد منبهاً: «والآن، بعد أن تدخلي، أبقِ رأسك منخفضاً، وتلمسي الجدار باليد، فسيكون هناك ظلام، ولكن اتبعي ضوئي».

«أي ضوء؟» سألت نورة، ولكنه كان قد دخل في الفتحة بالفعل.

حينما تبعته، لاويةً كتفيها خلال المدخل الضيق، شاهدت الضوء: كان فانوساً رفعه ليضيء الطريق خلال نفق كان بالكاد أوسع من ردفيها.

وبعد بضع خطوات في الداخل لاحظت أن السقف ازداد انخفاضاً، ومع ذلك تبعته حتى أصبحا يترنحان في السير على ركبهما المثنية، وما لبثت نورة أن شعرت أنها تغوص في بطن الجبل. كانت يداها تتمسكان بجدران هشة، ومع كل خطوة تخطوها كان الهواء يزداد برودة، بينما كانت أعصابها تزداد حرارة. كانت تهم بالالتفات إلى الخلف والجري عائدة إلى الضوء، عندما أدركها إيقاع أنفاسه الناعمة، مخترقة هفيف دشداشته. تلك الأنفاس السحرية! أثارت لديها ذكرى زياراته السرية، الزيارات التي أبقتها مستيقظة في انتظار وترقب ليلة بعد ليلة.

تنهدت وتابعت، وقد شعرت بالرطوبة في سطح الجدار المتفتت، وبرائحة الطين الرطب يبرد خياشيمها. صار الممر يتسع، وأصبح خيالهما أكثر طولاً حتى زحف إلى السقف المتسع.

صارت تمشي منتصبة الآن، واستدارت عيناها في ترقب، وأصبح التوتر في لمستها أخف وطأة، وراحت تتلمس الجدران

بأصابعها. ثمة شيء كان يتقاطر على أناملها. قالت وهي تلهث: «ما هذا؟»

تردد صدى ضحكة راشد في الفراغ، وقال لها: «إنه مجرد ماء. امشِ بمزيد من البطء وتفحّصي الأرض هنا، لا تنزلقي؛ فبعض الأماكن رطبة».

«رطبة؟ عمّ تتكلم؟ ليس من شيء رطب في هذه الجبال».

لم يجب راشد، غير أنها كانت متأكدة من أنها شعرت أنه يبتسم. ثم سمعتها: واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، وأكثر.

أصوات سقوط قطرات الماء على الماء. انفتح النفق على كهف فسيح فيه بركة مظلمة في الوسط، ففغرت فاها! كان منظراً لم تر مثله مطلقاً، فالبركة تتسع لعشرة من الكبار الواقفين!

كانت قطرات الماء ترشح من خلال السقف، وتخترق ظلمة البركة بومضات لطيفة من اللون الأخضر المضيء على سطحها. مشت إلى الحافة الحصوية، وركعت على ركبتيها وأخذت حفنة من الماء لتتذوقها. كان في طعم الماء شيء من المرارة، ولكنه نقي وشديد البرودة. وقعت عيناها على آثار فقاعات صغيرة تخرج إلى السطح. كانت البركة أيضاً تتغذى من مكان ما عميق في الأسفل.

قال راشد: «ما رأيكِ؟»

«لا أكاد أصدق. إنه جميل»، وجلست ومدت رجليها في الماء.

انضم راشد إليها، واضعاً الفانوس بينهما، وقال: «تعرفين ذلك اللون الأخضر العميق، العميق، على سطح الماء؟ إنه يشبه لون عينيك».

ضحكت نورة وتساءلت لماذا كانت متوترة في البداية؛ فقد كان شخصاً مهذباً، وعلى الرغم من استمرار الخفقان والارتباك في معدتها، بدأت تشعر بشيء من الارتياح معه.

ابتسم وتابع بصوت هامس: «إنهما عينان جميلتان جداً، ما شاء الله، لا ينبغي أن تخبئيهما».

«أنا لا أخبئهما. أعني أنني أستعملهما للرؤية».

«لا، أعني أنك تنحّين نظرك بعيداً كثيراً. ينبغي ألا تفعلي».

«أنا لا أفعل»، قالت ذلك، ولكنها ألقت بنظرها نحو الأرض؛ فقد حرك هذا الحديث أشياء في داخلها.

«هل ترين؟ أنت تفعلين ذلك مرة أخرى».

دفعت نورة قدميها إلى قاع البركة الخشن، فأحاط الماء بربلَتَيْ قدميها، وعجنت الحصى أخمصهما.

«كما تعرفين، كثير من الناس يظنون أنني لا أساوي شيئاً كثيراً، ولكن ذلك ليس صحيحاً»، قال ذلك راشد، وكان صوته فخماً كقطيفة المخمل في جوف الكهف، «يوجد في هذا المكان من القيمة أكثر من كل الذهب الموجود في الهند».

نظرت نورة إليه وأومأت برأسها. كانت عيناه تلمعان مثل الحصى الرطب في وهج الفانوس، فقد كانتا مثبتتين بإحكام على قدميها وهي تدفع بهما داخل الماء وخارجه، لتخترق سكونه، وتبعث بدوامات خضراء إلى وسط البركة الأشد عمقاً. كما غطى الماء طوق سروالها عند الكاحل، مخلفاً خطاً مموجاً على حافته.

قال لها: «حسناً، علينا أن نذهب»، قال ذلك، وقد فارقه الرنين الناعم الذي زين كلامه، «من الأفضل ألا نعود متأخرين؛ فأنا لا أريد أن يسألوا أين كنت».

تنهدت نورة بسبب اهتمامه، وغمست يديها في الماء لتغسل وجهها كما لو أن البركة ستختفي فجأة. وفكرت في نفسها: إنه يهتم لأمري بالفعل.

الفصل الثالث عشر

صارا يلتقيان في الكهف كل يوم في الموعد نفسه، ويعودان إلى القرية قبل أن تصحو من القيلولة لأداء صلاة العصر. كان من السهل تتبع الوقت في «معزولة»، حيث كانت مقسمة كما هي الحال إلى أقسام محددة بصوت المؤذن وهو يقف عند حافة الجبل يرفع الأذان. كانت نورة تتساءل دوماً لماذا كان يواجه الوادي وليس البيوت، ثم أخبرتها موزة أن صوته يجب أن يصل إلى جميع المسافرين العابرين، كما يصل إلى سكان القرية.

عندما سألتها موزة أين ذهبتْ في ساعات الحر بدلاً من أن تستريح، صرفت نورة نظرها عن الذنب الذي كان يمس خضرة عينيها، وأخبرتها أنها اعتادت على القيام بمشاوير سير طويلة في ذلك الوقت. لم تكن تحب أن تكذب على العجوز، ولكن ماذا بإمكانها أن تقول سوى ذلك؟

ما أحلى موزة! لقد اقتنعت بسرعة، ومررت تلك المعلومة إلى بقية نساء القرية عندما جئن لزيارتها، وأتين معهن بأخبار

معزولـة في رزم منسـقة مـن المعلومـات، ومرتبـة حسـب أهميتهـا. وذات يـوم جـاءت حصـة بنـت عـلي في زيـارة، وأحـضرت معهـا بنـت أختهـا، عائشـة.

كانـت عائشـة فتـاة قصـيرة الطـول، ممتلئـة الجسـم، أصغـر سـناً مـن نـورة. كانـت تتكلـم قليـلاً، ولكنهـا تبتسـم كثـيراً. كان ذلـك عندمـا انتفخـت وجنتاهـا وضيقـت عينيهـا حتـى أصبحتـا مثـل شـقين طوليـين. كانـت عائشـة مخطوبـة لابـن حصـة.

قالـت حصـة: «يـا لهـذا اليـوم»، ولمعـت عيناهـا الفاحمتـان مـن خـلال برقعهـا باعتـزاز. كان صوتهـا قويـاً بشـكل خـاص، يشـبه صـوت الغـراب الخشـن: «ويـا لحـظ ولـدي. مـا شـاء الله، عائشـة مثـل المطـر، ممتلئـة خـيراً وبركـة؛ فهـي تنثـر سـعادتها عـلى الجميـع».

كـنّ جالسـات في حلقـة دائريـة في كـوخ مـوزة في وقـت بين الفطـور والغـداء، وكانـت عائشـة محشـورة كالإسـفين، وكأنهـا قطعـة لحـم مكتنـزة، بـين خالتهـا وأمهـا خديجـة. نظـرت خلسـة مـن خـلال عينيهـا اللتـين تشـبهان خطـين، ودمامِلهـا فتحـات عميقـة تحـت وجنتيهـا المنتفختـين، وتركـت خالتهـا تحكـي قصتهـا.

كانـت حصـة تـسرد قصـة مفصلـة عـن مـرض عائشـة القريـب العهـد. «كنـا نعـاني الـبرودة والحـرارة كل يـوم، ونرتعـش فيـما بينهـما. لا نـوم. وكثـير جـداً مـن السـعال». قرصـت أضـلاع عائشـة المبطنـة جيـداً باللحـم، وقالـت: «انظـري كـم أصبحنـا نحيفـين».

قالت موزة: «بارك الله بها. أصيبت بالمرض في الوقت الذي ينبغي أن تصحّ من أجل زواجها».

قالت حصة: «سيكون علينا أن نبدأ بأكل المزيد، أليس كذلك؟» وفركت ظهر عائشة بحب وحنان، ثم تنهدت، وتحولت عيناها إلى السروال المطوي الذي كانت نورة قد انتهت من خياطته لتوّها، وقالت: «ذلك جديد، أليس كذلك؟» وجذبته إلى الأعلى لتفرده وتمسكه أمام وجهها لتتأكد من أن مقاساته صحيحة، ثم جذبت الدرزات، ولما لم ينفتق السروال، راحت يداها تتحسس خطوط التطريز المتموجة على شرائط الكاحل، وبعد أن نال رضاها، أعلنت قائلة: «هذا عمل جيد».

قالت موزة: «ما شاء الله، نورة هي التي خاطته وأتمت العمل بكامله. ما أحلاها!».

قالت نورة، وهي ترفع يد المرأة العجوز وتقبلها: «هذا لا شيء مقارنة بكرمك، يا خالتي».

قالت موزة: «الحمد لله يا صبية. كله من فضله».

في اليوم التالي، انتشر الخبر عن خبرات نورة في الخياطة إلى جميع البيوت. لم يكن لدى نساء «معزولة» الصبر أو الاهتمام بفن صنع الملابس، ولم يخجلن من استخدام مواهب نورة؛ فقد كانت تَرِد إليها دشداشات بالية، وفساتين ممزقة، وسراويل، لإصلاحها، وذلك في صرر صغيرة في كوخ موزة.

وهكذا استقر أمر نورة على الخياطة للقرية بكاملها، ولم تكن تتوقع دفع أجور عليها. في نهاية المطاف، ماذا يملك هؤلاء الناس؟ لم تكن معزولة تختلف عن جميع القرى الجبلية الأخرى في العسر والفاقة. والحقيقة أن نورة كانت تتطلع قدماً إلى العمل الإضافي؛ فقد بررت حاجتها إلى الجلوس بجوار باب كوخ موزة على مرأى ممن كان يمر بها، رجلاً كان أو امرأة. كانت تعلم أنه لن يكون ثمة إشاعات خبيثة حول مثل هذا التهور؛ لأن الجميع كانوا يدركون أنها بحاجة إلى ضوء الشمس لكي تستطيع شك خيط الإبرة والخياطة بدرزات أنيقة.

كان ثمة سبب آخر وراء اختيار نورة تلك البقعة بالذات؛ إذ كان كوخ موزة مرتفعاً قليلاً، مما أتاح لها إطلالة جيدة على الأراضي، والأهم، على الرجال الذين كانوا يعملون هناك، وكان راشد هناك على الدوام. وفيما بين الدرزات كانت نورة تختلس النظرات إليه، وتأخذ بنهم جرعات من النظر إلى ظهره المنتصب وعاتقيه القويين.

وحينما كانت تغز إبرتها في القماش كانت تكبت الشعور العميق بالذنب الذي رافق احتفاظها بالسر الذي كان يخرق قوانين المجتمع وأنظمته. وبدلاً من ذلك، كانت تنجرف في أحلام اليقظة السارة حول كلمات راشد وبوادره. وقد استمرت لقاءاتها مع راشد في الكهف، كما استمرت زياراته الليلية.

بعد بضعة أيام، جاءت حصة وحدها لكي تتحدث إلى نورة. كانت عيناها السوداوان يوحيان بأنها قد عيل صبرها، وقد ضمت قطعة قماش معقودة، وقالت: «أنت تبدين متألقة جداً. ماذا تفعلين حتى غدوتِ متألقة كالذهب أو حلوة كالعسل؟»

أحست نورة بوجنتيها تتلونان. لم يكن من عادة حصة أن تلقي عليها بالمديح.

قالت حصة: «لندخل قبل أن نسودّ من الشمس».

نهضت نورة وتبعت حصة إلى داخل الكوخ.

حالما استقر بهما المقام في الداخل، بدأت تقول: «والآن، كما تعلمين، سيتزوج ابني عائشة، وهو لا يعرفها بعد، ولكنه لن يعرف طعم الحزن بعد أن تصبح زوجته».

«متى الزواج؟»

«قريباً، إن شاء الله، قريباً»، همست حصة بغرابة، «علينا أن نجهز كل شيء أولاً». ومضت تفتح الصرة التي أحضرتها معها. «أريدك أن تصنعي هذه القطع لكنّتي المستقبلية، كجزء من «جهاز» العروس. يمكنك أن تخيطي فستانين، وسروالين، وثوباً واحداً».

تلمست نورة أكثر القطع جاذبية: قطعة حرير رائعة حمراء اللون. رفعتها للأعلى أمام وجهها، ونظرت من خلال القماش الشفاف. ثياب لعروس، كم كانت تبدو مميزة! قالت نورة: «إنها محظوظة بحصولها على مثل هذه القطعة الجميلة».

قالت حصة: «لا شيء يغلو على حبيبتنا عائشة. حتى الزواج من ولد بن غانم، الأمر الذي يعتبر ميزة حقيقية لأي واحدة أخرى».

«بن غانم؟».

«نعم. ألا تعرفين؟ كان أجداد زوجي السكان الأصليين لمعزولة».

لم تكن نورة تعلم، ولم تكن أيضاً تدرك لماذا أسهم ذلك في تميز بني غانم. وكل ما لاحظته هو أن القرويين كانوا مشتركين في الفقر نفسه، والاستثناء هو موزة التي أغدق زوجها عليها الهدايا خلال حياتهما الزوجية الطويلة، وكلها مخزّنة في ذلك المندوس المعدني.

«القطعة الحمراء التي تمسكين بها، تلك هي ثوب الزفاف، ولذلك ستحتاجين إلى أن تجعليه يبدو مميزاً».

«إنه جميل»، قالت نورة وهي تفتحها، «أعرف بالضبط ما أفعل: تطريز فاخر بخيط فضي على الصدر، ونجوم فضية صغيرة على بقيته بحيث يلمع ويتألق». وتركت الحماس لإعداد فستان العرس يستبد بها، «إذن سأجعله يبدو رائعاً، وسأجعل له ذيلاً ناعماً». رفعت نظرها، على وشك أن تقول المزيد عندما لاحظت أن أسلوب حصة المطمئن الواثق قد ذاب، وأن ومضة النور البسيطة قد ارتدت من عينيها الحادتين، محاولة أن تخترق سوادهما المطبق وتنفخ فيهما الروح.

هل كان ذلك من قبيل التردد، أم كان من قبيل الألم؟

فتحت حصة فمها، ولكنها أغلقته بإحكام ثانية. كانت أطرافه ترتعش بعاطفة مبهمة. قالت نورة: «سوف أجهز لك هذين الثوبين قريباً».

قالت حصة: «أوه، أعرف»، وتنحنحت لتطرد الخشونة التي أبطأت في مؤخرة حلقها، «ليس الأمر ذاك، بل أمر آخر. أنا قلقة دائماً من أن تأتي فتاة ليست من بيننا، وتخطف ابني».

نطقت نورة بتأويهة صامتة.

عادت حصة إلى النعيب الخشن في صوتها: «لأن حرمان ابني من طيبة عائشة سيكون مأساة، أنت تفهمين ذلك، أليس كذلك؟

أومأت نورة بالإيجاب.

«ينبغي للرجل أن يتزوج من واحدة من قومه، قريبة له، وإن لم يفعل فإنه سيقع في المشكلات». اختفى الوميض الذي لبث مجرد لحظات في عينَيْ حصة قبل قليل، وراحت الآن تحدق النظر في نورة بسواد الليل البارد.

أومأت نورة بالإيجاب ثانية.

«والمرأة التي لا تأخذ في الحسبان هذه القاعدة البسيطة ليست جديرة بالاحترام».

بعد ظهر ذلك اليوم، حينما جلسا جنباً إلى جنب عند حافة البركة، أخبرت نورة راشد حول لقائها حصة: «كان شيئاً في منتهى الغرابة؛ فقد أثنت علي في البداية، وقالت إن بشرتي كانت مثل العسل، ثم تغيرت فجأة، وحدجتني بتلك النظرات الكريهة».

«حسناً، لا يمكن أن نتوقع أن تكون النساء عقلانيات مثل الرجال؛ فعقولهن تعمل على نحو مختلف».

راحت نورة تعبث بأصابع قدميها في الماء، وتبحث عن الحكمة المخبأة في كل ما قاله لتوّه.

«ومشاعر الأم مختلفة دائماً، ومتميزة».

وافقت على ذلك، ولكنها ما زالت تطمح لأن تعرف لماذا قذفتها حصة بكل تلك النظرات المنطوية على الاتهام: «كان الأمر كما لو أنها كانت تلومني على شيء، وأنا لم أعرف ما هو. هل سمعت بأية إشاعات؟ هل تعرف هذه المرأة؟»

بدت ضحكة راشد مفتعلة، ومع ذلك فقد رسمت ابتسامة على وجهها.

قالت مازحة: «ليس الأمر مضحكاً».

«لا، ولكنك أنت مضحكة. لعلكِ توهمت الأمر بكامله».

«لا».

قاطعها: «انظري، لا أريد أن أتحدث عمن قال ما قال

ولماذا قال، أنا أسمع ذلك طول اليوم. أنا أريد أن أتكلم عني وعنك».

«ماذا هناك ليقال؟» سبق أن أخبرته نورة بكل التفاصيل عن حياتها من قبل.

«حسناً أنت تعرفين شعوري نحوك».

بقيت صامتة؛ فقد أخرج هذا الحديث نقطة الضعف لديها. كانت أصابع قدميها منغمسة تحت الحصى، فسحقت أصابعها الكبيرة أصابعها الصغيرة.

«أنا أفكر فيكِ طول الوقت، فأنا لا أستطيع الأكل كما ينبغي أو أن أفعل أي شيء».

لم تجد متعة في عدم التحكم التي شعرت بها عندما تكلم بتلك الطريقة، ولكن لم يكن بإمكانها فعل شيء حيال ذلك. تحسست أطراف شيلتها ولفت الأشكال المعقدة في داخلها.

«أنا أحلم بك كل ليلة بعد أن أتركك، ثم عندما تشرق الشمس، لا أطيق الانتظار لكي أراك».

جمعت ركبتيها إلى صدرها، في محاولة للسيطرة على الرعشات الخفيفة التي كانت تنتشر من داخلها إلى خارجها. كان عليها أن تتكلم بسرعة، وتغير الموضوع. وبينما ثبتت نظرها على وسط البركة أمامها، قالت: «ما شاء الله، أهلك محظوظون كثيراً؛ إذ لا حاجة لأن يقلقوا بشأن الماء».

غمغم راشد وارتمى بتثاقل على مرفقه: «لا أحد يدري عن هذا المكان».

«أجل، ولكن هناك جفاف طويل الأمد، ولعلكم تتشاركون في هذا الماء».

نخر ثانية: «هذا مكاني، وأنا أريه لمن أشاء».

«هذا مكان الله ونعمة منه، وينبغي أن يكون مشتركاً».

«لا حاجة لذلك؛ فهناك ما يكفي من الماء في بئر القرية».

«نعم، ولكن بكل هذا الماء الذي يمتلئ دوماً، يمكنكم بناء نظام الأفلاج. فكّر فقط، كل تلك القنوات المحفورة لسقاية محاصيلكم، فلن تجوعوا. وليس ذلك فحسب، بل يمكنكم زراعة الكثير من الأشياء الأخرى».

راشد: «لا»!

قالت بإصرار: «أنت تقول ذلك فقط، ولا تعنيه بالفعل».

«توقفي عن الحديث عن الماء! إنه هنا، وإنه لي، وكفى».

انحلت جميع الرعشات والرجفات التي اعترت أطرافها. كيف أمكن لهذه الكلمات الحلوة أن تتحول إلى مُرّة بهذه السرعة؟

ثم عاد لطفه بالسرعة نفسها، حين قال: «لا أريد أن أتحدث عن الماء، بل أريد أن أتحدث عنك – عنّا نحن».

كان من الأفضل أن تظل صامتة، وأن تنصت فقط.

«أنا أهتم لأمرك».

ظلت أصابعها جامدة على فخذيها، وتحت الحصى في الماء شعرت بالبرودة في أصابع قدميها.

وكرر القول: «أنا أهتم لأمرك، أنا أود أن أتزوجك».

خلال الأيام القليلة التالية، انشغلت نورة بإعداد فستان العرس لعائشة، حيث استخدمت خيط الفضة في تطريز صدر الفستان بحلقات من الزخارف الورقية، وقلّمت التويجات والأوراق بغرزات بارزة، وملأتها بقُطَب من تطريزات زخرفية، ثم وضعت على أطواق الأكمام شريطاً فضياً، وخرّمت العديد من النجوم الناعمة في باقي الثوب حتى بدا وكأنه سماء ليل متوهجة.

بعد ذلك شرعت في العمل في طوق كاحل السروال الذي سيتم ارتداؤه تحت الفستان. الكاجو: تلك هي الفكرة الرئيسية التي قررت أن تطرز بها القماش الأصفر بلون الشمس. وأحاطت الأطواق برسوم الكاجو الخضراء الورقية بمثابة خلفية لكي توازن رسوم الكاجو الخضراء الليمونية الأكثر لمعاناً في المقدمة.

قامت نورة بتمويج كِفاف الكاجو، ونظرت إلى الأسفل في الشرفات والمصاطب، حيث كان هو هناك، يقزّم الرجال

الآخريـن الذيـن كان يعمـل معهـم، ويبـدو وكأنـه أمـير، وسرعـان مـا سـتتلقى هداياهـا في الزفـاف.

«أود أن أتزوجـك»، ذلـك هـو مـا قالـه، كلـمات قليلـة، ولكـن يالهـا مـن كلـمات مهمـة.

اختلسـت مـوزة النظـر مـن خـلال البـاب، وقالـت وهـي تربـت عـلى كتفَـيْ نـورة باستحسـان: «مـا شـاء الله، يبـدو جميـلاً جـداً .. نظيـف وأنيـق! ووجهـك متألـق. هـل أنـت سـعيدة بالمكـوث معـي؟».

قالـت نـورة: «أجـل». كانـت تريـد أن تلمّـح إلى السـبب الحقيقي وراء ابتهاجهـا، وكيـف رشـح إلى وجههـا، ولكـن راشـد كان قـد وجّهها بـألا تخبر أحـداً إلا بعـد أن يتحـدث هـو إلى صقـر ويطلـب يدهـا منـه رسـمياً.

قريبـاً سـيكون ذلـك، كـما فكـرت نـورة، وهـي تعـدّ بسـعادة صفـوف تطريـز الكاجـو التـي انتهـت منهـا للتـو.

قفـزت نـورة عـبر السـهل الـذي أصـح مألوفـاً لهـا، تحـت سـماء بيضـاء سـاكنة. كان المطـر مقبـلاً، ولكـن حتـى ذلـك لم يحـل بينهـا وبـين الكهـف. وقـد شـعرت بـأن خطبـة راشـد لهـا أسـبغت عـلى لقاءاتهـما شرعيـة كانـا يفتقـران إليهـا؛ فقـد أصبحـت تنتمـي إليـه، ومـا هـي إلا مسـألة وقـت قبـل أن تقـوم بالإعـلان عنهـا.

وإلى أن جلسا جنباً إلى جنب، وأمسكا بأيدي بعضهما عند حافة الماء، كان يخامرها شعور بعدم الأمان حينما كانت تتذكر زبيدة. ماذا لو رفض صقر أن يمنح موافقته؟

بدأت بالقول: «قريباً ستتحدث إلى صقر؟»، وضغطت يد راشد، آملة أنه سيعقد صلة مع أفكارها.

قال: «نعم»، وبدت إبهامه أكثر خشونة من المعتاد حينما بدأ يربت على راحة كفها.

«ولكن ما هي خطتكَ؟ كيف ستطلب إليه؟».

«أعرف كيف أتكلم مع صقر؛ فهو صديقي».

أمسكت بيده بمزيد من القوة. «وماذا إن لم يوافق؟ ماذا بعد؟».

«لماذا لا يوافق؟».

«أجل، إنه ولد مضحك، أخي. أحياناً يترك مجالاً للآخرين ليؤثروا في عقله». هزت كتفيها استهجاناً، وتابعت: «لا أعلم، لعله يريدني أن أبقى معهم».

«لتفعلي ماذا؟ لتصبحي عجوزاً وقبيحة وتموتي وحيدة؟».

«لا أعلم». شعرت أنه غير مرتاح للموضوع، وقررت أن تغيره. وبينما ارتسمت على وجهها ابتسامة، رفعت نظرها إلى وجهه وقالت: «أول مولود لنا سيكون صبياً، وسوف نسميه سالماً، سالم بن راشد بن ... ماذا؟».

«اسمي نفسه بالطبع؟»

«وذلك هو؟»

«راشد بن عبد الله، يا «هبلة»».

«ذلك هو اسم أبيك، ماذا عن عائلتك؟»

لماذا تزعجين نفسك بشأن عائلتي؟ سأكون أنا عائلتك»، بدا عليه أنه نافد الصبر.

في كل مرة كانت تحاول أن تتكلم فيها عن مستقبلهما، كان يبادر بالسلوك الدفاعي. «وأين سنعيش؟ في معزولة؟».

«لا، سنعيش في الصحراء».

نظرت إليه باندهاش.

«في خيمة، وسوف ننتقل من مكان إلى آخر، وسوف نربي هجناً، أيضاً، وهذا ليس كل شيء ...» صعدت ضحكة مكبوتة إلى حلقه قبل أن يتمكن من المتابعة، أما الضحكة التي تلتها فقد بدت مصطنعة.

كان يسعى إلى تلطيف الأجواء بممازحتها، فقالت له نورة: «لا تمزح، أنا جادة».

«لماذا تقلقين كثيراً؟»

تساءلت عما إن كان ذلك صحيحاً. «لا أعلم لماذا؟»

أخذ جرعة من الهواء وقال: «حسناً، لا يمكنك تجنب ذلك على ما أفترض؛ فلديك الكثير لتقلقي عليه في حياتك: العيش وحيدة مثل ذلك المتوحش هناك في الخارج».

جذبت يدها من يده، وضربته بظهر كفها مراراً على ذراعه، وصرخت: «متوحش؟».

«لا، لا»، قال ذلك بمرح ظاهر، «قصدي هو العيش بعيداً عن الناس، والانعزال مدى حياتك في جبال بعيدة، وهذا ما يصبغ عاداتك بالجفاء». رفع يديه لحماية وجهه. «لا تؤذيني، أيتها المرأة الغاضبة، المرأة القوية! لا أستطيع الدفاع عن نفسي».

كانت بمثابة دعوة لاستعمال كلا اليدين، وهاجمته نورة من كل قلبها بصفعات تحببية، ولكمات على صدره ومعدته. أما هو فكوّم نفسه على شكل كرة، بينما حاولت هي أن تدحرجه لتكشف الأماكن الأضعف من جسمه، ولكنه كان أثقل من أن تستطيع ذلك. وبينما جعلت كل وزنها على فخذيها، دفعته مستخدمة جسمها كله، وانتزعته بأول دفعة، متفاجئة من قوتها، فانقلب على ظهره.

وبسرعة كلب جائع، لكمته في جوفه، وشعرت بقبضتها تمزق طراوة أحشائه، فتردد صدى لهاثه في فراغ الكهف، إذ كان عليها أن تضربه بشدة.

كان راشد سريعاً في الرد، حيث ثنى ذراعيه إلى صدره وأطلقهما، فشعرت بالخبطة تضغط الهواء خارج صدرها.

وقعت نورة على حافة البركة، نصفها داخل الماء ونصفها خارجه، وانزلقت شيلتها على كتفيها، وانفردت حولها،

فابتلت بالماء وتهدلت. جلست في وضع سيئ، تستند على ذراعيها خلفها، وترنحت قدماها المنثنيتان وهي تحاول استعادة بعض التوازن. رمشت بعينيها لتخرج الدموع التي انهمرت، وشاهدته وهو ينهض، وينفض التراب عن دشداشته، ويندمج في الظلام.

تنحنحت نورة لتختبر صوتها قبل الكلام. «لا داعي لأن تكون بهذه الخشونة».

«أنتِ بدأتِ».

«ولكنني ما أنا سوى بنت، أما أنت فرجل، أقوى مني كثيراً».

إذا كنت لا تتحملين المزاح فيجب ألا تمزحي».

تمتمت: «تلك الدفعة ليست مزاحاً». أعادت شيلتها إلى رأسها، وزحفت نحو وسط البركة، حيث وصل أعمق مكان في الماء إلى ما دون صدرها. أغلقت عينيها، وأمسكت بأنفها، وغطست رأسها، غامسة ألمها واستياءها في ظلمة الماء.

أمسكت بنفَسها أطول مدة استطاعتها، ثم ظهرت لتأخذ جرعة من الهواء. جالت عيناها نحو الفانوس، إذ ظل في مكانه، ولكن راشداً لم يكن في دائرة ضوئه. وقفت ساكنة تماماً، وانتظرت لتسمع وقع أقدامه، ولكن لم يكن ثمة سوى صوت الماء المتقاطر، الذي تقاطر من رأسها على ماء البركة،

يملأ أجواء الكهف. بقيت جامدة في مكانها فترة طويلة إلى أن ضعفت تلك القطرات نفسها وتجمعت لتشكل قطرات منفردة، ومع كل صوت قطرة كانت تحس بغضبها يتلاشى، وبينما كانت على وشك أن تتحرك وقع بصرها عليه.

وقف أمامها، وهمس قائلاً: «لم يكن قصدي أن أكون خشناً إلى هذه الدرجة. حدث الأمر هكذا. أنت ضربتني بقوة، وأنا دفعت فقط بدون تفكير».

صالبت نورة ذراعيها بإحكام فوق صدرها لتخمد العاطفة المتأججة فيه، وابتسمت. «انتهى الأمر الآن».

«تسامحينني؟».

«سامحتك».

فجأة بدا الماء الذي كانا فيه كثيفاً، وأصبح ثوبها أثقل. كانت واعية لقوة نبضه يخفق مقابل أضلاعها. حاولت أن ترسخ قدميها في مكان واحد، غير أن عصبيتها جعلتهما تنزلقان وتتعثران ببعضهما، ولذلك شدت ركبتيها لكي لا تنهار.

زعقت وهي تسمع اهتزازة الذعر في صوتها: «علي أن أذهب».

«فقط قليلاً من الوقت و ..»

قالت، بصوت أعلى، وبثقة: «لا، علي الذهاب الآن!»

سمعته يأخذ ملء رئتيه من الهواء، ثم غمس رأسه في الماء.

تجهمت نورة إزاء غبائها؛ فقد كانت منقوعة في البلل، وماذا ستقول لأهل القرية؟ تبعت راشداً إلى خارج النفق، وأغمضت عينيها نصف إغماضة من النور المفاجئ، عندما جاءها الجواب في إحدى ألطاف الله سبحانه.

كانت السماء ما تزال بيضاء، ولكن المطر هطل ثم انقشع، وتشكلت برك صغيرة عميقة ملأت مختلف الحفر والفجوات في الجبال. ابتسمت نورة وقالت: «تعرف أن هذه هي المرة الأولى التي فاتني فيها هطول المطر، وكل ذلك من أجلك».

راحت نورة تجري على طول السهل، حاملة ثقل الثوب الذي زاد الماء من وزنه وسماكته، شعرت بالنشاط وبالإرهاق، وبالثقة بالنفس ولكن بالغرابة أيضاً. اعتراها كثير جداً من الأمور في آن واحد معاً: السعادة والشعور بالذنب.

الفصل الرابع عشر

في الصباح الباكر من اليوم التالي، تسللت الأنباء إلى بيت موزة على الألسنة الهامسة. كانت نورة في غرفة النوم تطوي هدايا الزواج عندما دخلت ثلاث عجائز كوخ موزة. سمعتهن يقلن إن حصة تشاجرت مع ابنها عندما اعترف لها بأنه لا يريد أن يتزوج عائشة. وارتفعت تمتماتهن حينما أفشين تفاصيل المواجهة.

قالت إحداهن: «سمعت أصوات ضربات الخيزرانة واضحة من داخل بيتي، ولم أسمعه يرفع يداً رداً على ذلك، وماكان منه إلا أن وقف واستقبل الضرب».

«هو كبير وقوي، ولكن لا تنسي أنها أمه قبل كل شيء».

تسارع صوت موزة البطيء: «والآن ماذا؟»

«لا أحد يعلم. لقد اختفى .. ذهب!»

لم يطل الأمر بحصة حتى أتت في زيارة. في اليوم نفسه، قبيل صلاة الظهر، طارت إلى بيت موزة، وشيلتها تخفق خلفها مثل أجنحة طير عملاق، ثم انفجرت مواجع القلب كالموج منها.

قالـت: «يظـن نفسـه رجـلاً، كبـيراً وقويـاً، يلقـي بكلامـه القـاسي عـلى أمـه العاجـزة - الأرملـة - يحطـم قلبهـا، ويجلـب لهـا العـار في عقـر دارهـا». بـدأ صوتهـا يتصـدع في أطرافـه، وسـكتت لتسـتعيد جأشـها. «هـو لا يفهـم أنـه لكـي يكـون رجـلاً فإنـه بحاجـة إلى أن يفـي بوعـده».

أطلقـت مـوزة تنهيـدة تعاطـف، وانجـرف ذهـن نـورة إلى كل تلـك الأثـواب الجميلـة التـي خاطتهـا، مكومـة بمنتهـى الأناقـة والترتيـب في الغرفـة الأخـرى. كانـت قـد وضعـت كل مهارتهـا في فسـتان العـرس، وأبدعـت فيـه سـماء ليليـة حمـراء تعـج بـكل تلـك النجـوم اللامعـة. ومـاذا عـن تصاميـم الكاجـو، المتماثلـة في الحجـم، عـلى طـوق الكاحـل؟ كـم كان منظـره بهيجـاً: أخـضر ليمـوني عـلى أخـضر ورقـي. أجـل، كـن يبتسـمن، مـا لم تقلبهـن حصـة رأسـاً عـلى عقـب. مـاذا سـيحل بـكل هـذه الملابـس الآن بعـد أن تعطـل الـزواج؟ هـل سـتأخذها حصـة عـلى أيـة حـال، أم إنهـا سـتمزقها إربـاً إربـاً؟

ارتخـى رأس حصـة عـلى صدرهـا، وراحـت تتمتـم: «اختـي المسـكينة، عـلي أن أقـول لهـا إن ابنـي قـد فقـد عقلـه».

مدت موزة عنقها نحو حصة: «ما ذلك؟»

رفعـت حصـة رأسـها للأعـلى: «قلـت إننـي سـأخبر أختـي أن ابني قـد فقـد عقلـه. تصـوري أنـه قـال: إننـي لا أريـد أن أتـزوج؛ فعائشـة مثـل أختـي، فهـل هـذا كلام رجـل؟ يعطـي كلمتـه ثـم يسـحبها؟»

تململت موزة قبل أن تلقي برسالة مواساة عامة: «الفتيان صغار العقول؛ فهم يقولون أشياء، ولكنهم لا يقصدون أياً منها».

لكن حصة لم يرحها تعاطف موزة، فقالت بصوت أجش: «حسناً، هذا الفتى ليس صغيراً في عقله، بل هو غبي في رأسه». ثم التفتت إلى نورة تكاد تأكل وجهها وجسدها بعينيها. وفجأة بدت الشقوق في برقع حصة واسعة جداً حتى ظهر منها جانب كبير من تلك العينين القاسيتين.

انقضّت عينا حصة مثل الصقر؛ فقد كان يتراقص فيهما شيء من اللوم، فهل كانت المرأة القوية تظن أن إقامة نورة في معزولة حملت معها الحظ السيئ على عائلتها؟ أشاحت نورة بوجهها لتسمع حصة تطقطق بلسانها، فهي لم تنه كلامها.

قالت حصة: «إذن، عندما تكتشف ابنة أختي الحلوة، أجل، ماذا أقول لها؟ تلك الزهرة الصبية لن تتحدث إلى أحد، أو تخرج من البيت. ولن تأكل! تلك الملاك! لن تلبث أن يختفي الشباب من وجنتيها». هزت رأسها وتابعت: «وكل ذلك بسبب ابني الأناني».

جاء خيال قاطع حزمة الضوء الساقط من المدخل. اتجهت حصة برأسها نحوه ونادت: «محمد! رأيتك!»

اختلس النظر من خلال المدخل وقال: «نعم، أمي؟»

«فكر ثانية، أين يمكن أن يكون أخوك قد ذهب؟»

قـال محمـداً: «قلـت لـك لا أعلـم، يـا أمـي؟» وانفـردت شـفتاه في تكشـيرة وقحـة. «لعلـه ذهـب ليتـزوج واحـدة أخـرى».

انحنـت حصـة بجـوار البـاب، ورفعـت شبشـبها وقذفتـه بـه، ولكـن محمـداً كان أسرع منهـا.

قالـت مـوزة: «يجـب أن تهدئـي مـن روعـك، ودعينـي أحضر لك بعـض المـاء». أومـأت حصـة بشـكرٍ حـازم، وأسـندت ظهرهـا إلى الجـدار، بينـما مـرت مـوزة بجانبهـا وخرجـت مـن الكـوخ. حملقـت حصـة نحـو الأمـام، مـن فـوق كتفَـيْ نـورة، في اتجـاه الجـدار. كان يبـدو أنهـا تبحـث عـن شيء، أو ربـما، ولـو لمـرة واحـدة، لم يكـن لديهـا مـا تقولـه.

شـعرت نـورة بـأن عليهـا أن تواسـيها. كان ذلـك الـشيء الصحيـح لكـي تفعلـه. فتحـت فمهـا، ولكنهـا تراجعـت. لتلبـث فـترة في ذلـك التفكـير العميـق، وقـد انحـشر حاجباهـا معـاً، وأصبحـت عيناهـا أشـد سـواداً مـن الكحـل فيهـما ، وقـد غامتـا مـن شـدة التركيـز.

غمغمـت حصـة وقالـت: «حسـناً، لقـد كان ابنـي دائـماً شـديد الاحـترام لأمـه، وبالتـالي فأنـا أتسـاءل فيـما إذا كان شيء مـا ...» صمتـت قليـلاً. «أو شـخص مـا، قد جعلـه يتـصرف بهـذه الطريقة».

أخـيراً صـارت أفكارهـا تفيـض، غـير أن نـورة صممـت عـلى

ألا تـدع حصـة تتلاعـب بشـكوكها، وأحكمـت إغـلاق شـفتاه في مواجهـة تحديـق حصـة القـوي.

تابعـت حصـة بإلحـاح: «كيـف حصـل أنـك في البيـت في هـذا الوقـت مـن النهـار؟ ظننـت أنـك في الخـارج، في أحـد مشـاوير المـشي الطويلـة».

مـا هـو مقـدار مـا تعرفـه حصـة، يـا تـرى؟ هـل سـخّرت مـن يتبعهـا؟ شـعرت بالعـرق البـارد يرشـح مـن سـائر جسـمها. «حسـناً، أنـا متعبـة قليـلاً اليـوم»، تمتمـت هـذه الكلـمات، وهـي تمسـح يديهـا المبللتـين بثوبهـا».

قالـت حصـة: «إلى متـى تنويـن البقـاء هنـا؟ ألا تفتقـدك عائلتك؟ متـى سـتعودين إليهم؟»

أجابت نورة: «قريباً، خالتي، قريباً جداً».

لمعـت عينـا حصـة السـوداوان لسـماع الفكـرة، وقالـت وهـي تنهـض بحركـة مؤكـدة واحـدة: «حسـناً، مـن الأفضـل أن أذهـب. الله سـيصلح الأمـور، ونحـن - بنـي غانـم- أقويـاء».

خفضت نورة بصرها نحو الأرض.

تابعـت حصـة: «ومـن يـدري مـا سـوف أجـده عندمـا أصـل إلى البيـت. إن شـاء الله، سـيعود ابنـي راشـد، ممتلئـاً بالنـدم عـلى إزعاجـي».

رفعـت نـورة عينيهـا، ولكـن فـات الأوان؛ إذ كانـت حصـة

قد غادرت الكوخ بالفعل، ولم تنظر خلفها. كان هذا كل ما في الأمر. كان يمكن أن تلاحظ الارتعاشات التي بعثت الهزة في أنفاس نورة، والخلجات التي سيطرت على جانب شفتيها، والأصابع المرتجفة التي سارعت لوضعها تحت فخذيها.

هل كان هو راشد نفسه؟ هل كان ابن حصة هو راشدها؟

الفصل الخامس عشر

أمسكت نورة بالمقص، ثم أطراف تصاميم الكاجو، ولم يتطلب تفكيك الخيوط سوى حركة واحدة بالمقص. ذلك أنك عندما تشعر بالألم وبالغضب يأكلانك معاً في داخلك، فإنك تود أن تفعل كل أنواع التخريب.

راشد بن غانم! بالطبع. اسمه، اسم عائلته - تم إخفاؤهما عنها، مستترين في ظلال الكهف وعتماته. ماذا يعني ذلك؟ ماذا كانت نواياه، وهو يتودد إلى قلبها، ويعدها بأن يحتفظ بها كلها لنفسه؟ هل كان ينوي أن يجعلها الزوجة الثانية؟

شعرت بمقبض المقص يحفر في إبهامها. كان هناك بريق يومض من نصلَيه، وسرت حرارة في أصابعها، فقطعت إحدى تصاميم الكاجو ، ومع ذلك بقيت في دوامة بسبب الحيرة. كانت تريده، ولكن أوه، الثقة، لقد انثلمت.

انفتح نصلا المقص من جديد، وسمع لهما صرير من المعدن الصدئ، وما لبثت أن دُمّرت تطريزة أخرى من تصاميم الكاجو.

لقد اختفى من دون كلمة. عرفت أنه ليس في الكهف؛ لأنها ذهبت إلى هناك، ومشته بطوله لتجده خالياً. هل كان في طريقه ليرى «صقراً»؟ لقد أخلف راشد بوعده للزواج من عائشة، ولكن هل كانت تريده على حساب امرأة أخرى؟

بدا أن الجانب الأنثوي اللطيف فيها، والذي طفا على السطح في الكهف، غدا بعيداً الآن؛ فهي هنا مخلوقة أخرى، عازمة على التدمير. فقد انحل وتقطع المزيد من الخيوط، وعندما أصبحت تصاميم الكاجو تشبه حديقة من الأعشاب، انتقلت إلى ثوب العرس الأحمر، ففتحته حتى استقر الجزء الأمامي من الثوب على ركبتيها المتصالبتين، وطفقت رعشات تنتابها حول فمها، وراحت تقطّع الخيوط الفضية الملتفة والهشة، وتقلع الجذوع والأوراق والتويجات التي طرزتها بدقة وعناية.

أمل وخداع، كان ذلك مزيجاً محيراً، ولم تعد نورة تفصل بين الاثنين؛ فالجنون الذي دوّم كالإعصار في رأسها عذّبها. وراحت تحملق بعينين قاسيتين كالحجارة في النجوم الفضية المتناثرة على الثوب بكامله. كانت هذه فكرتها وتصميمها، حيث مثلت سماء الليل المتوهجة. أما الآن فيجب أن يلقى بها في حالة من الفوضى، أيضاً، ولذلك قصت واقتلعت كل واحدة منها إلى أن اقتنعت بأن هذا الثوب المميز من بين جميع الأثواب قد تحول إلى كابوس قرمزي عنيف.

يبدو القمر متشابهاً في بداية الشهر وآخره: هلالاً مبتسماً

يميل إلى أحد الجانبين لتظل تخمّن حول ما إذا كان ينهي القديم أو يبدأ الجديد.

كانت ليلة من هذا القبيل عندما عاد راشد للظهور من جديد.

«سألت نورة في همس: «من أنت؟» على الرغم من أنها كانت تعرف الأنفاس المألوفة خارج كوخ موزة.

أجاب راشد: «أنا».

«عدتَ». زحفت إلى الجدار، وأخرجت الحجر من مكانه، وسألت: «أين كنت خلال الأسبوع الفائت؟ ماذا حدث؟» كانت عيناها مفتحتين بأوسع ما أمكنها حتى شعرت بالحرقة فيهما. كانت تتمنى أن يتسع الهلال ويلقي بعضاً من ضوئه على وجهه، ولكنه بقي كما هو، معقوفاً في ابتسامة ملتوية، ليحجب الصراع على وجه راشد، والصراع الذي سمعته في أنفاسه.

تنهد وهمس قائلاً: «ليس ممكناً».

«ماذا؟ لماذا؟ هل قال صقر لا؟»

«لم أذهب».

«لماذا؟»

«لأنه ليس هناك فائدة، ليس ممكناً وحسب».

«لماذا غير ممكن؟ ماذا عنا؟ كنا سنتزوج».

ألقى بأعذاره في وجهها: «الواجب ... الشيء الصحيح الذي علي فعله ... لا أستطيع أن أخالف رغبات أمي».

احتجت نورة بكل القوة التي استطاعت أن تستجمعها. كانت مذهولة من استسلامه السريع حتى إنها نسيت أن تلومه على غيابه عنها وكذبه عليها. هدرت الانفعالات في داخلها بعنف حتى سدت حنجرتها.

ابتلعت ريقها وسمعته يكرر ما لم تكن تريد سماعه: «الواجب ... الشيء الصحيح الذي علي فعله ... لا أستطيع أن أخالف رغبات أمي».

يا لها من كلمات خرقاء! أرادت أن تحطمها، وأن تدمر معناها. أرادت أن تمسك بكتفيه وتهز الشغف لتعيده إليه، ولكن أطرافها تخدرت، والدموع سالت من أطراف عينيها، وأخيراً استطاعت أن تهمس: «وماذا عني؟ كيف يمكنك أن تتركني بهذا الشكل؟».

كان ذلك عندما سمعت حفيف دشداشته وهو يخطو مبتعداً ليختفي في الظلام. ثم أحدقت في اللاشيء أمام عينيها؛ لأن ذلك هو ما بقي لها: لا شيء.

الفصل السادس عشر

كان عليهـا أن تبتعـد، وعندهـا فقـط يمكـن أن يـذوب الألم الـذي كان يخفـق فيهـا.

مـع بـزوغ فجـر اليـوم التـالي، نظـرت نـورة للخـارج مـن خـلال بـاب مـوزة. مـدت ذراعيهـا، ولكـن كل مـا اسـتطاعت رؤيتـه هـو أناملهـا، طافيـة في غبـش الضبـاب الحليبـي اللـون. متـى انسـدلت هـذه السـتارة؟ هـزت رأسـها غـير مصدقـة. فمـن بـين الأيـام جميعـاً، كان لا بـد أن يكـون هـذا اليـوم.

نظـراً لوجـود كل هـذه المنحـدرات عـلى طـول الطريـق، جعـل الضبـاب رحلتهـا محفوفـة بالمخاطـر؛ إذ كان مـن المسـتحيل اسـتخدام المعـالم الأرضيـة التـي كانـت تعتمـد عليهـا، كل تلـك الصخـور الغريبـة الأشـكال، والأخاديـد العميقـة، والأشـجار الشـعثاء، احتجبـت تحـت الضبـاب الكثيـف. كان عليهـا أن تسـخر كل موهبتهـا وحدسـها في معرفـة الاتجـاه.

سـمعت تمتمـة مـوزة الناعسـة: «سـوف تضلـين طريقـك. لم لا

تنتظرين قليلاً، إلى أن تطلع الشمس؟» وبقيت العجوز مطمورة تحت بطانيتها.

«لا أستطيع، خالتي موزة. أقمت فترة طويلة جداً بالفعل»، قالت نورة ذلك وهي تجمع أغراضها في صرة. «أعرف أنهم يحتاجون إلي هناك في البيت، وكلما أسرعت في الذهاب استقر ذهني بسرعة أكبر».

«ولكن وحدك، يا عزيزتي؟».

«لقد مشيت في كل مكان وحدي، طول حياتي». لم يكن أمامها ما تستطيع فعله سوى ذلك. كان عليها أن تغادر على الفور.

«على الأقل خذي الفانوس معك»، قالت موزة ذلك وهي تعتمد على مرفقيها استعداداً للنهوض.

أشعلت نورة عود كبريت، وأضاءت الفانوس، وكانت تنحني إلى جوار موزة حينما ترنحت العجوز وهي تحاول النهوض. تقدمي! كان ذلك هو الخاطر الوحيد الذي ملأ رأس نورة وهي تودع موزة بعناق حار، وهي تتمتم: «إن سألْتَ خالتي حصة فهي هناك». لم يكن ثمة خزي، ولا رضا فيما فعلت، ليس سوى خدر كئيب من التفكير بكل تلك الأقمشة الجميلة التي أتلفتها.

«ماذا قلتِ؟»

أجابت: «هدايا العرس، إنها ملفوفة وجاهزة. أنا وضعتها في الزاوية». غمرها الخجل، ولكن لم تسترسل في الكلام عنها؛ فقد كان عليها أن تسرع في الذهاب.

بعد أن انطلقت، ركزت كل اهتمامها على المنحدرات والمنخفضات، والمنعطفات والالتفافات في الجبال، فقد كانت رحلة بطيئة، ومع هذا فقد انزلقت على السطح المتفتت بضع مرات، وارتطم كوعها بصخرة بارزة، وتساءلت أكثر من مرة عما إن كانت قد قطعت مسافة كبيرة في مسيرها. كم هضبة عبرت؟ ومع ذلك تابعت سيرها. هل كانت تسير في الطريق الصحيح؟ وصارت تشكك في حاسة الاتجاه الحادة لديها. في إحدى المراحل، لم تكن متأكدة من أي شيء سوى أن عينيها كانتا بارزتين كثيراً حتى اضطرت إلى فركهما بقوة لكي تعيدهما إلى مكانهما.

لم ينكشف الضباب إلا عندما وجدت نفسها في وسط واد واسع. توقفت نورة قليلاً لتتعرف على اتجاهاتها. ولسعت أذنيها نسمة رطبة، وبعد أن أحكمت شد شيلتها حول رأسها، نظرت إلى الأعلى ورأت القمر أخيراً. كان متربعاً على قمة غافية، وهو أشبه بندبة فضية يكافح للبقاء في السماء المتلبدة، ثم أرسل آخر ومضاته قبل أن يبتلعه بأجمعه حجاب من الضباب. وبعدها اندفع الضباب متدحرجاً وانتشر بشكله المحيط كالغطاء في شكل دفعات سريعة الحركة، كانت تظهر وتختفي.

رسمت مسحة من الاعتزاز ابتسامة على وجهها؛ إذ لم تته أو تضيّع طريقها في نهاية المطاف؛ فقد كانت تعرف هذا الوادي الذي تناثرت فيه أشجار الغاف. كانت في منتصف الطريق إلى بيتها. سيكون السير سهلاً الآن، وسيكون كل شيء على ما يرام.

شعرت نورة بومضة من الثقة بالنفس، وجلست على صخرة لتخفف الإجهاد الذي أصاب أطرافها، ولتريح عينيها في محجريهما. كان ذلك حينما اجتاحها من جديد الألم الذي سببه رفض راشد إياها. كيف تتعامل مع هذا الجرح الذي كان مغايراً لأي ألم أحست به على الإطلاق؟ فقد بدأ بلسعة، تنكز وتطعن، حادة مثلما هي حال إبرة تغزها وتندفع بعمق داخل جلدها، ثم يتبلد الحس ويتحول إلى شعور جارف بفجوة من العدم من المستحيل ملؤها.

تمتمت نورة في قلبها حينما شعرت بهبوط في رأسها: «تابعي السير، تابعي السير»، وقفزت واقفة، وأسرعت على طول الوادي، وهي تؤرجح فانوسها، وتضرب بقدميها الضباب المتموج بعيداً عن حوض الوادي.

ما عليك سوى التحرك، وسوف يختفي الجرح كله! ذلك ما دأبت تفكر فيه. وقبل ذلك كله، ألم يكن هذا هو الوضع؟ ألم تكن حياتها (تماماً كحال كل شخص آخر في الحراريس) مفعمة بالغموض والحرمان حتى إنها استطاعت أن تتغلب على أي شيء بمجرد التحرك والاستمرار في التقدم؟

كان القمر قد اختفى، وانقشع الضباب، واخترقت أشعة الضوء الأولى آخر خيوط الضباب الملتصقة بالقمم، وظهرت الأكواخ التي بدت مألوفة، مثل بعض الأصدقاء المفقودين منذ أمد طويل. لقد حنّت إلى إمكانية التوقع التي اتسمت بها حياتها الروتينية في البيت، وعندها فقط ستشعر بأنها بخير من جديد، وعندها فقط أيضاً ستجد راحة البال.

ولكن لم يحدث أي من ذلك؛ إذ لم يكن ثمة استقرار، وبالتالي ليس ثمة هدوء بال. فبعد تحية سريعة وقلقة، أدلى لها إخوتها بالنبأ السيئ: إذ فُقد أبوهم بعد وقت قصير من ذهابها هي وصقر للقاء زبيدة. تماماً كما حدث لزوج موزة، شرد واختفى بين الجبال، ولم يعد. وعلى الرغم من بحث إخوتها عنه طويلاً، فقد تخلوا أخيراً عن البحث.

إنّ كل ذلك العار والألم اللذين كانت تهرب منهما في سيرها وقعا عليها كالصاعقة؛ فراشد وأبوها كلاهما قد ذهب! كان الأمر فوق طاقتها. كانت تريد أن تستريح في ركن كوخها وتنام، وتنام، وتنام، وذلك هو ما فعلته على مدى الأيام الثلاثة التالية.

نادراً ما تناولت الطعام الذي أعده إخوتها لها. كم كانوا لطيفين معها، إذ أحاطوا بها في دائرة قلقين عليها، يناشدونها برفق أن تأخذ لقمة من الخبز الذي خبزوه، أو ترشف بعض الحساء الذي أعدوه لها. كيف يمكن لها أن تفسر بأن كل ما كانت تشعر به هو خدر الخسارة والفقد؟ وبحلول اليوم

الرابع خرجت من ركن كوخها، مدفوعة بالشعور بالذنب لعدم مساهمتها في الأعمال المنزلية اليومية، ومع ذلك بقيت فاترة مثل سحابة ناعمة وهي تنتقل من مهمة إلى المهمة التالية.

استغرق الأمر يوماً آخر فقط ليعاودها الغضب بحدّةِ غصنٍ متقصف، وكل ذلك بسبب صقر.

ناداها بعد العصر وطيب خاطرها بكلمات رقيقة مطمئنة. «سوف تمر، وسوف تنقضي مع مرور الوقت». جلسا بجوار المستودع، وقد ألقت شمس الأصيل بوهجها الكهرماني البرتقالي اللون الذي سقط على كتفيه.

كم مشجعاً كان. شعرت بأن خضرة عينيها تتألق من المودة التي أظهرها لها. كم كان لطيفاً، وفقط عندما أمطرها بهداياه شعرت بمخالب الشك تقبض أحشاءها.

«شيلة جديدة؟»

قال لها: «حسناً، الأخرى قديمة جداً حتى إنها فقدت سوادها. انظري إليها، فهي بلون البارود».

لبست بقدميها نعالاً جلدياً – أول نعال لها، وكان قصيراً على قدميها: «من أين حصلتَ على كل هذه الأشياء؟»

«من تاجر عابر في نسايم».

لبست الخواتم الرفيعة الثلاثة الواسعة قليلاً (المصممة للبس معاً) على أصبعها الأوسط. «ولكن هذا ذهب».

«حسناً، كما تعلمين، أنت أختي، وإذا كنت لا أستطيع تدليلك فمن أدلل إذن؟» قال ذلك وهو يبتسم.

فتحت القارورة الصغيرة التي تحوي دهن العنبر واستنشقتها. «حسناً، شيء ظريف، ولكن من أين حصلت على النقود؟».

«حسناً، لنكتفِ بالقول إنك عندما تفعلين الشيء الصحيح تحصل لك أمور أفضل. نحن أنقذنا ابن زبيدة، ولذلك ساعدتنا هي بالمقابل».

قالت نورة: «آه، تلك الدجالة الجشعة».

تجهم وجهه وقال: «أرى أنك تبالغين في القسوة والظن السيئ نحوها».

قالت ساخرة منه: «بعد قليل ستخبرني أنها أعطتك النقود». لكن صقراً لم يبتسم. راقبت جبينه يتقطب ويتوتر تعبيراً عن الاستياء الحقيقي، وبدأت نورة تشعر بخوف يستقر في معدتها، كما يلتصق الطين في قاع البرك التي تشكلت بعد هطول الأمطار. لعل السمك يستطيع الانزلاق فيه والضفادع أن تقفز فيه، ولكنه في نهاية المطاف يغيض منه الماء ويصبح متماسكاً ولزجاً.

قال لها: «حسناً، نوعاً ما، هي السبب الذي مكنني من هذا كله. كما ترين، يوجد رجل، هو تاجر لؤلؤ غني جاء ليلتقيها، ومصادر زبيدة الخفية قالت لها ماذا تفعل».

«مصادر خفية؟ عليك أن تتوقف عن تصديق حديثها الفارغ: قال الجن كذا، وقال الجن كذا!» رفعت نورة ذراعيها وتصنعت أن أصابعها مخالب: «هووو!».

«إنهم يتواصلون بالفعل معها، كما تعلمين. لقد قال لها الجن أن ترتب عروساً مناسبة لتاجر اللؤلؤ. طبعاً، مادام غنياً جداً فلا بد أن يدفع مهراً سخياً».

«وبالطبع فهي أخذت بعضاً منه مقابل خدماتها وترتيباتها؟».

«بالطبع».

لمع الانتصار في عيني نورة: «رأيت؟ مقل العينين المتقلبة، والارتجاف، وفي النهاية كل ما تريده هو المال. إذن، ماذا فعلت، أعطتك بعض تلك النقود مقابل إنقاذ ابنها؟».

قال صقر: «لا، لا. كما ترين، كانت المرة الأولى التي يساعد أحد فيها ولدها، وكانت زبيدة سعيدة جداً مما جعلها تعطيني ... حسناً، تعطينا ... هدية أخرى». توقف قليلاً. «أعطتنا هدية هي حياة أفضل لك».

«أنا؟»

«نعم، أنتِ. كنت أفكر، هذه ليست حياة مناسبة لك، محصورة معنا، الرجال، وسط هذا اللامكان، فأنت تستحقين ما هو أفضل».

عم يتكلم؟ فهي تريد أن تبقى حيث هي: تجلب الماء،

وتحلب الماعز، وتطبخ الطعام، وتجمع الحطب، كانت تريد أن تعود إلى المعتاد، ولا سيما الآن.

«وأخيراً، يمكنك أن يكون لك بيتك الخاص بك مع أسرتك، والرجل ثري، ثري جداً حتى إنك لن تحتاجي إلى أن تكافحي أكثر من ذلك».

«أي رجل؟ ماذا تقول؟»

«أقول، إن العروس هي أنتِ».

لعله كان يمكن أن يقذف رملاً في وجهها أو يقرص بطنها؛ لأن كل ما كانت تفلح في فعله هو أن تبصق وتلهث.

عندما حاولت أن تتكلم، لم يتحرك لسانها؛ إذ بقي ساكناً في فمها، جافاً كقطعة سميكة من الجلد.

«ترى زبيدة أنك جديرة بهذا «الزوج» المميز. أعتقد أن هذا شيء جدير بالإعجاب، أليس كذلك؟» أومأ برأسه، وراحت جدائله تتأرجح من تحت غترته في غمرة حماسه. «قصدي أنها تبعث بالخاطبتَين للموافقة عليك وتحويلك إلى عروس جديرة بالثناء». صمت قليلاً، «حتى إنها تدفع لهم من أجرها».

متى حدث ذلك؟ متى تآمر صقر وزبيدة عليها؟ هل كان بعد أن خرجت من كوخ زبيدة أم بعد ذلك؟ هل مكث صقر مدة أطول في نسايم وقابل الساحرة مرة تلو المرة؟

«اسمه جاسم سعيد بن مطر، وهو يعيش في بيت واسع،

ولديه زوجتان أخريان، ولكن لا تقلقي، سيكون ذلك جيداً؛ لأنهما سيكونان مثل الأختين الحنونتين عليك. وسوف يرشدانك في كل تلك الأمور النسائية التي كنت محرومة منها في هذا المكان الذي لا يعتبر مكاناً معنا، نحن إخوتك القبيحون»، وأصدر ضحكة مكتومة بعصبية. «ثم، عندما يصل أولادك المباركون، سوف تكونان بمثابة أمّين أخريين لهم، أخواتٍ أولاً، ثم أمهاتٍ ثانياً».

كان هناك يتصرف وكأنه أخ مفكر مراع لحقوقها، ويتظاهر بأنه قلق عليها. وأخيراً، عثرت نورة على صوتها: «منذ متى تهتم أنت لأمري؟ أنا اختفيت ولم تكلف نفسك حتى أن تعثر علي».

قال لها: «كنت أعرف أين أنت، فقد ذهبتِ إلى بيت خالتي موزة. إلى أين كنت ستذهبين سوى ذلك؟ ولم آتِ لآخذك؛ لأنني فكرت أن ذلك سيكون لصالحك أن تكوني مع نساء أخريات لبعض الوقت. كما تعلمين، لتتعلمي عاداتهن وكل ما هو من هذا القبيل».

صرخت وهي تطلق غضبها في الهواء بلكمات بقبضتيها: «كيف لك أن تذهب وتخطط حياتي من وراء ظهري؟ من السهل جداً خداعك. تلك الساحرة لعبت برأسك، وأنت تركتها تفعل بك ذلك. كل ما تريده هو المال، ألا ترى؟

ولكـن صقـراً لم يـرَ، ولـن يـرى. «تلـك السـاحرة، كـما تسـميها، قالـت أيضـاً إنـك بحاجـة إلى أن تلجمـي لسـانك السـليط. ليـس هنـاك رجـل يريـد زوجـة بهـذا الشـكل».

أخـذت نـورة نفسـاً عميقـاً واسـتجمعت كل قوتهـا لتتحكـم بغضبهـا. «حسـناً، يمكنـك أن تتكلـم وتخطـط كل مـا تريـد، ولكـن لا تتوقـع منـي أن أكـون تلـك العـروس التـي تتحـدث عنهـا».

الفصل السابع عشر

بسطت نورة ذراعيه فوق رأسها حينما استلقت على لوح من الصخر في أسفل منحدر بيتها، بينما كان تيار خفيف من هواء الصباح الباكر البارد يداعب وجهها، ويجعل الشجيرات حولها تصدر حفيفاً. دحرجت رأسها بتكاسل إلى أحد الجانبين، إذ حانت منها التفاتة إلى بُرص عليه خطوط فضية زاهية، وقد قفز إلى حافة صخرة ناعمة، ولحس إحدى عينيه بلسانه، ثم هز رأسه سريعاً، واختفى داخل شق في الأسفل. قالت في نفسها إنه كان يعرف أين هو ذاهب على أقل تقدير.

أين ستذهب هي؟ إلى مكان ما محاط بالغموض، مكان بعيد جداً. أما صقر فقد وصفه على نحو مختلف، «مكان أفضل»، كما قال، «حيث ستعيشين كأميرة».

كم كان سريعاً في رسم مخطط حياتها. والآن، بعد شهر من عودته من معزولة، كانت الخطة على وشك أن تتحقق.

عضت نورة على شفتها السفلى. الخيانة! أولاً ضعف راشد وكذبه، والآن ضعف أخيها وكذبه أيضاً.

فعلـت مـا بوسـعها لتجعـل صقـراً يعـدل عـن رأيـه، وعندمـا أخفـق التعقـل لجأت إلى الشـجارات التـي دارت مـراراً في دورات حاميـة الوطيـس.

صرخـت قائلـة: «ولكننـي لا أريـد أن أذهـب بعيـداً، بـل أريـد أن أبقـى هنـا، معـك ومـع عبـود وحمـود».

«هـل هـذا هـو الشـكر الـذي أحصـل عليـه جـزاء التفكـير بـك؟ أنـت ناكـرة للجميل».

«حسـناً، أنـا لـن أتزوجـه، ولـن أذهـب مـن هنـا، سـوف أبقـى هنـا حيـث أنـا».

«لا يمكنني أن أسمح بذلك».

«لماذا؟»

«لأننـي لا أريـدك أن يكـبر سـنك بـين هـذه الصخـور مـن دون أولاد ولا مسـتقبل».

«ولكنك أنت باقٍ هنا، وعبود وحمود أيضاً».

«نحن رجال، فالأمر مختلف».

وبعـد هنيهـة تجاهلهـا، واكتفـى برمـي حججهـا جانبـاً بعبـارة فظـة: «أنـا مسـؤول عنـكِ، وأنـا أقـرر».

بكـت وصرخـت بغضـب، وهـددت بالهـرب، مثلـما يفعـل الأطفـال الذيـن أفسـدهم الـدلال، علـماً أنهـا كانـت تعلـم أنـه لا يوجـد مـكان تذهـب إليـه.

عندما أخفق كل شيء، ردت إليه كل هداياه وحردت. ولفترة طويلة، تهدلت شفتاها مثل تويجات كئيبة على وجه بائس كانت تحمله حيثما ذهبت، ومع ذلك فلم يتراجع صقر، بل قال: «لقد أعطيت كلمتي، وسيكون من العيب أن أخلف بوعدي».

والآن، بينما كانت مستلقية على الصخرة، تتعرض لأشعة شمس الصباح، تمنت لو كان أبوها هنا ليحميها. فعلى الرغم من جنونه، كان سيريدها أن تكون بجانبه، ولعله كان سيسألها ماذا تريد أن تفعل، وقد يكون لرأيها معنى أو قيمة.

سمعت عبوداً وحموداً ونظرت إلى الأعلى، بل حاولت أن تقنعهما بأنهما بحاجة إليها، ولكن أثناء وجودها في معزولة - على أية حال - كبرا وصارا رجلين صغيرين، يدركان صلاحيات صنع القرار التي منحها لهما جنسهما. كانا هناك، في أسفل الوادي، بعد الأطلال بقليل، ولم يعودا يقفزان كما يفعل الأطفال، بل كانا بدلاً من ذلك يخطوان فوق الصخور، وهما يحملان نظرات متجهمة تدل على الأهمية، ومن وقت لآخر كان يلوّحان بالخيزرانات التي كانا يحملانها، فيبتران بها شجيرة أو يبعثران كتلة من التراب.

لم يكن لدى نورة ما تستطيع قوله أو فعله أكثر من ذلك. دلت ساقيها من حافة الحجر ورفعت عينيها نصف مغمضتين إلى السماء: شاسعة وزرقاء وساطعة. سوف تأتي الخاطبات إلى

هنا قريباً ليبرمن الترتيبات، وبحواس مرهفة سيدقق في مدى نظافة بيتها، وما إذا كان لها عينان أم ثلاث. سخرت نورة من الفكرة وتثاءبت مخرجة ما تبقى لديها من مقاومة.

الفصل الثامن عشر

قالت كلثوم: «آن الأوان».

على مدى سبعة أيام، تولت كلثوم وسكينة تحضير نورة لحياتها الجديدة: من تغسيل لها، وتكحيل لعينيها، وتنعيم لشعرها وجسمها بزيت الياسمين، وتعطير لها بالعود والعنبر والمسك والورد والصندل، وصبغ كفيها وباطن قدميها بالحناء، وأصبحت الآن جاهزة.

خرجت نورة من بيتها محاطة بالخاطبتين، وعليها طبقات من الثياب، حيث كان يغطي «فستانها» ثوب العرس الحريري، بلونه الأخضر الشفاف، المزين ببقع متناثرة من التطريز الفضي، وعلى رأسها استقرت الشيلة والعباية التي غطت جسمها. قفز على مرأى منها طفل صغير يولول محتجاً على معزى خطفت للتو قطعة خبز منه. لم تره وهو آتٍ، وكادت تنزلق قدماها من نعلها الصغير الذي أحضره صقر لها؛ لأن برقعها حجب الرؤية عنها من جانبي وجهها. كان ذلك نوعاً

آخر من التقييد عليها أن تعتاد عليه. والآن وقد أصبحت امرأة متزوجة، عليها أن ترتديه عند الخروج، وقد حبس وجهها وكأنه طبقة ثانية من الجلد الرطب.

تم الاتفاق الرسمي قبل ذلك بيوم، وفي الصباح الباكر، دخل أبو فرج، الشيخ خالد، الذي كان المرجع الديني في نسايم، إلى جانب صقر وشاهدين، وزوج نورة المستقبلي، جاسم. من الطبيعي أن فضولها كان سيدفعها إلى اختلاس النظرات من خلف الحجاب نحو الرجل الذي سيصبح زوجها في الحال، ولكن بعضاً من الحياء وشعوراً غريباً بالواجب أبقى نظرها مثبتاً على الأرض. كانت العملية بسيطة ومباشرة. صرح الشيخ خالد بقوله: «الفتاة موافقة». لم تكن هناك أي ضجة، وحينما انسحب الرجال من الكوخ، بقيت نورة جامدة في مكانها، مخدرة ومذهولة في آن واحد؛ لأنها خانتها الجرأة لأن ترفض.

حينما مشين خلال شوارع نسايم اللافتة، أطلقت كلثوم صوت تجشؤ برائحة اللحم والرز، تجمعت رائحته النفاذة تحت برقع نورة ولبثت هناك، ثم دوى صوت كلثوم: «لا تحتشدوا حول العروس!».

لكن لم يكن ثمة حشد، بل بضع فتيات كن يعلقن غسيلهن على أسطح بيوتهن المنبسطة، فتوقفن ليشاهدن النساء الثلاث أثناء مرورهن بهن. أين ذهبت القرويات؟ أين كان الهرج والمرج الذي سبق ذلك في الليلة الماضية، عندما أمر جاسم بذبح خمسة

عشر تيساً من أجل وليمة العرس الخاصة؟ وليمتها - الوليمة التي سمعت بها فحسب على ألسنة النساء المفعمة بالحماس، الوليمة التي لم تستطع أن تحضرها؛ لأنها - بوصفها عروساً - تعين عليها أن تبقى مختفية إلى أن يأخذها زوجها.

لم تسمع زغاريد العرس إلا عندما بدا لها مسجد القرية، حيث كانت النساء والأطفال ينتظرون بجوار المنحدر الذي كان علامة على نهاية الصخور وبداية الشاطئ الرملي.

عبرت كلثوم عن رضاها، وهتفت معبرة عن حماسها حينما احتشدوا حول نورة. «افسحوا الطريق. أعطوا العروس مساحة لتتنفس!» كورت النساء أفواههن وارتجّت ألسنتهن بالزغاريد من جديد. وتلك كانت اللحظة التي بدأ فيها الذعر يخالج قلب نورة.

في غمرة زغاريد المهنئات وتدوياتهن، وحرارة الأطفال المبتهجين الذين يجذبون عباءتها، شعرت بمعدتها تتلوى، وبطعم حموضة يلتصق في مؤخرة حلقها. كانت رحلتها ستصل نهايتها - أم إنها كانت البداية فقط؟ وأياً كان ما فكرت به، فإنه لم يعد حديثاً، بل كان واقعاً يحدث لها هي، وقد جعل ذلك رأسها يشعر بالدوار.

همست سكينة قائلة لها: «كدنا نصل إلى هناك، وحان الوقت لتغطي». حررت ذراعها وأسدلت الحجاب على وجه نورة بواسطة الشيلة.

من خلال الشقوق والقماش، أعتمت الشمس، وأصبحت الجبال رمادية اللون، ورأت نورة البحر لأول مرة في حياتها. ماء كثير جداً! وهو ممتد مدّ البصر، وشديد الزرقة، وزرقته أكثر قتامة من السماء. إنه بركة من الغموض لا نهاية لها. وأحكمت قبضتها حول ذراع سكينة.

«لا تخافي»، قالت ذلك سكينة، بصوت متهدج بالعاطفة، مثل أم على وشك أن تفقد ابنتها. «ما عليك سوى أن تنظري إلى الأمام، وخطوة خطوة، حتى في الحياة».

تمتمت نورة، حينما تسربت حبات الرمال إلى داخل نعالها: «ولكن ذلك الماء، علي أن أركبه وهو مستمر بلا نهاية».

انتظر صقر مع الزوج الجديد بجوار زورق التجديف الذي سيحملها إلى سفينة الجالبوت الأكبر حجماً. وعندما وصفت كلثوم جاسماً، تاجر اللؤلؤ بأنه «رجل ناضج»، افترضت نورة أنه سيكون في سن أبيها، ولكنه بدا على الأقل أكبر بعشرة أعوام؛ إذ بدا أن عمره خمسون عاماً أو نحوها. لقد كان هناك، لامعاً في دشداشته، ومعمماً بغترته بأناقة. وقف منتصب القامة، وقد برز صدره وبطنه، وامتلأ ثقة بالنفس كحال الأغنياء.

مع اقترابهم من الشاطئ وهم يتهادون بتثاقل، رأت رجلاً ثالثاً ينحني لكي يثبت الزورق في مواجهة الأمواج المتراكبة، وتحت غترته تدلى شعره على هيئة خيوط حريرية حول ذقنه. بدا أنه أكبر من صقر بعدة أعوام، ربما عشرين عاماً أو أكثر.

جعلت الأمواج المتدفقة تهز الزورق، فوجه جاسم تعليماته للشاب: «ثبته يا حمد، والآن دعونا نتحرك. ينبغي أن نستفيد من هذه الرياح التي نشطت».

يا للهول! عليها أن تركب ذلك الزورق الصغير. غطت ضربات قلبها على الأصوات حولها، وراحت تتنفس وتلهث تحت حجابها مثل كلب متعب. كان الأمر أسوأ من الوقت الذي هاجمها فيه أبوها! فعلى الأقل كانت تعلم وقتها أنها كانت تخشى جنونه، ولكن ما هو هذا الخوف الجديد؟ هل كان من المياه العميقة الماثلة أمامها، أم من أمر آخر؟ وحينما مد جاسم وصقر أيديهما إليها ليساعداها، سحبت يديها.

قال جاسم: «ما بها؟»

شعرت بذراع كلثوم تحضن خصرها وتدفعها إلى الأمام، وتهمس لها: «لا تكوني سخيفة! حافظي على كرامتك! ألم تتعلمي أي شيء منا؟» كان صوتها يشبه لسعة نحلة.

نظرت نورة إلى الوجوه المرتبكة للحشد المحيط بها. كان لا يعجبها أن تكون في ذلك المشهد؛ فذلك يمثل نقطة ضعف، ولكنها لا يمكنها تفاديه. وكان ثمة قلق لم تستطع فهمه، وهو منعها من الركوب في ذلك القارب، أم لعلها كانت تتمسك بأمل ما أخير بأن شخصاً ما يمكن أن يساعدها؟

دفعتها ذراع كلثوم إلى الأمام، وكان ذلك عندما سقطت

نـورة وتكومـت مثـل صرّة، ودفنـت وجههـا بـين كفيهـا، واسـتقرت بثقلهـا فـوق الرمـال، وكان عليهـم أن يرفعوهـا لكـي يأخذوهـا إلى متـن ذلـك القـارب.

قـال جاسـم: «قدمـتُ أنـا كل هـذه المسـافة، وانظـروا كيـف تتـصرف؟ ألا تعـرف كـم هـي محظوظـة لأنـني آخذهـا بعيـداً عـن كل هـذا .. هـذا .. الفقـر المدقـع؟».

عندئذ تكلم أخوها: «دعني أتكلم معها».

شـعرت نـورة بـه ينحنـي بجوارهـا، ووجـدت أصابعـه طريقهـا إلى ذقنهـا، ناعمـة ولطيفـة جـداً، ورفعـت رأسـها.

رفـع الشـيلة عـن وجههـا، ولكـن عندمـا حـاول أن يثبـت نظره لم تسـتقر عينـاه؛ إذ ارتـدت للأعـلى نحـو جاسـم، ثـم انتقلـت بسرعـة إلى الحشـد الـذي التـف حولهـم. كذلـك بـدا هـو غـير مرتـاح تحـت نظراتهـم الفاحصـة. «يجـب أن تذهبـي»، وعـاد للالتفـات إليهـا، «كلـه مرتـب. لقـد انتهـى الأمـر».

تلاشـى الأمـل. بحثـت عـن بعـض مـن الأسـف في وجهـه، بعـض العاطفـة لتحملهـا معهـا ولتفكـر بهـا عندمـا تخلـو بنفسـها.

همـس لهـا صقـر: «أنـت لـه الآن، ولا يمكننـي أن أسـاعدك، ولا أي شـخص آخـر. لـذا ...» سـكت قليـلاً. «مـع السـلامة». وخفض نظـره إلى الأرض وطبـع قبلـة عاجلـة عـلى جبينهـا.

أغلقـت عينيهـا بشـدة وهمسـت في برقعهـا: «يجـب ألا أتوقـع

الكثير، يجب ألا أتوقع الكثير». وبلمسة خفيفة جعلت الشيلة تنسدل على وجهها. أعتمت الشمس من جديد، وتمتمت: «الحمد لله على كل حال، الحمد لله على كل حال».

حينما أرادت النهوض، سمعت حولها التنهدات والتمتمات، واقتحمت كلمات الخاطبتين ذهنها: «يجب أن تكوني مطيعة، يجب أن تكوني مطيعة».

تمسكت نورة بأطراف القارب وهو يندفع فوق مياه الخليج. في الوسط جلس حمد، ومع كل ضربة بالمجاديف كان يتقدم بهم نحو عرض البحر. كانت عيناه واسعتين وتتسمان بالجدية، كما لو أن كل مشكلات الدنيا كانت تسبح في أعماقهما.

تأوهت وتركت عينيها تنظران من فوق كتفي حمد إلى الجانب الآخر من القارب. كان زوجها هناك، شامخاً بأنفه نحو واجهات المنحدرات الصخرية الشاهقة التي أحاطت بخليج نسايم. وكان طرفا خياشيمه يتدليان كأنهما جناحان، بينما توارت الشعرات الشائكة خلال تجاويفهما، كما لو أنها تسعى لاستنشاق نسيم الصباح النضر. ياله من أنف مثير للاشمئزاز! كانت مقدمته تلمع تحت أشعة الشمس، وقد استقرت على طرفيه بشكل متوازن نظارات ذات إطار معدني.

أمسكت بالقارب بمزيد من الإحكام، وخفضت نظرها

نحو الماء. كانت ترى من خلال حجابها كل المسافة الموصلة إلى الحصى اللامع في قاع البحر. كم عميق هو هذا الماء؟ هل يا ترى تستطيع أن تغمس ذراعها وتلتقط تلك الحصى؟

كانت قطعان من الأسماك الصفراء تضطرب في قاع البحر، بينما تعكس الخطوط الوردية المرتسمة عليها الضوء، وهي تطارد بعضها بعضاً حول صخرة مغطاة بالطحالب. إنه عالم تراه لأول مرة، مثل العالم الذي كانت متجهة إليه في مكان يدعى «وديمة».

الفصل التاسع عشر

تحركت سفينة «الجالبوت» بسلاسة خارج الخليج، وأصغت نورة لصوت مياه البحر المكتومة الذي كان يضرب جوانب الغرفة المتعفنة في أسفل دفة السفينة. كانت جالسة على مرتبة ستكون فراش نومها، بين كيسين من الرز، وصفيحة سمن، وسلتين من التمر. إذن فهذا هو المخزن، حيث كانت تشارك فيه لطيفة بنت ماجد.

كانت لطيفة ابنة عم جاسم وزوجته الأولى، وقد رافقته في رحلته لكي توافق على اختياره زوجة جديدة، وبعد زيارة واحدة فقط إلى بيت الخاطبتين، قالت لطيفة بصوت يشبه الصوت الكئيب الصادر عن احتكاك حجرين: «ستكون مناسبة تماماً في منزلنا».

لا بد أنها في سن زوجها تقريباً، ولكنها بدت أكبر منه قليلاً بسبب الجيوب المنتفخة تحت عينيها، والترهلات على ذقنها، بينما تَركّز كل شبابها في شعرها المصبوغ بلون الحنّاء

البرتقالي. وكانت أطراف قرطيها المتدليين تلمع وهي تلتف داخل الجدائل. «أعتقد أننا سنستغرق سبعة أيام أو أكثر قليلاً للوصول إلى الوطن». وقد اخترق لعابها المتناثر ذرات الغبار التي تسبح في الهواء.

قالت: «نعم أمي لطيفة».

كان أول شيء أصرت عليه لطيفة أن تناديها نورة «أمي لطيفة»، وخمنت نورة أن ذلك يعكس رؤية لطيفة لنفسها: شخصية الأم لزوجات جاسم الأصغر سناً. كانت نورة هي الزوجة الثالثة، وكانت لطيفة قد أخبرتها أن زوجة جاسم الثانية، شمسة بنت جمعة بن حميد، تبلغ نحو اثنين وعشرين عاماً، وأنه تزوجها قبل ثلاث سنوات.

كان جاسم هو الذي حدد أماكن معيشتهن، حيث مكثن في الغرف السفلية في السفينة، بعيداً عن أعين البحارة الفضولية، وكن يصعدن إلى ظهر السفينة ليستنشقن بعض الهواء النقي لمدة ساعة في الصباح، وساعة أخرى عند الغسق.

صرخ النوخذة من الأعلى: «وصلنا إلى البحر المفتوح!».

سمعت نورة وقع أقدام البحارة وصرير الخشب فوق الخشب، بينما كان تحضير الأخشاب يصدر صوتاً مدوياً مثل العظام القديمة التي تنبعث فيها الحياة من جديد. بينما أصدر الشراع المثلث الشكل صوت هسهسة وانتفش حتى أصبح

جاهـزاً لاسـتقبال توجيـه الريـاح. ارتفعـت السـفينة قليـلاً، ثـم هبطـت مـع صـوت خبطـة، وطـرأ تغـير عـلى تهاديهـا اللطيـف فـوق مـاء الخليـج المنبسـط.

ارتفعـت وانخفضـت المـرة تلـو المـرة إلى أن بـدأت معـدة نـورة تفعـل الأمـر نفسـه. أخـذت نفسـاً عميقـاً مـن خـلال أنفهـا، ولكـن رائحـة الأخشـاب القديمـة والغبـار والملـح جعـل معدتهـا تتهيـج وتقرقـر أكثـر، وعندمـا حاولـت التنفـس مـن خـلال فمهـا، اختلطـت الرطوبـة والغبـار معـاً والتصقـت بلسـانها.

أصبحـت السـفينة الآن تتأرجـح مـن جانـب لآخـر مثـل وركَـيْ بغـل عجـوز، ومـن حـين لآخـر كانـت تنقـذف عاليـاً نحـو السـماء ثـم تهبط بقـوة بصـوت ارتطـام هـز هيـكل «الجالبـوت» الخشـبي. ابتلعـت ريقهـا مـراراً، ولكـن مـرارة الطعـم التـي سـببها لهـا دوار البحـر لم تذهـب، فقـد سـعت كالأفعـوان إلى أعـلى حلقهـا حتـى شـعرت بأنهـا لم تعـد تسـيطر عليهـا أكثـر مـن ذلـك.

قالت: «سأمرض».

تجهـم وجـه جاسـم، وقـرر تغيـير ترتيبـات المعيشـة. سـيتم نقـل زوجاتـه إلى سـطح السـفينة، إلى المقدمـة. قـال للطيفـة: «غـير مناسـب، ولكنـه ضروري»، وأضـاف ملتفتـاً إلى نـورة: «مـن حسـن حظـك أنـك لم تسـتفرغي عـلى الأكل. هنـاك في الأعـلى، سـتكونين بخـير. عليـك أن تمـصي ليمونـة وتدَعـي الريـاح تسـاعد عـلى

شفائك». أصدر جاسم تعليماته إلى حمد بأن يحضر مَرْتباتهم إلى الأعلى، ويؤمّن لهم مظلة في أحد الجانبين. ومن أجل الحفاظ على الخصوصية، نصب جاسم عمودين خشبيين وثبت عليهما ملاءة من قماش الشاش القاسي، لتكون حاجزاً يفصل بين زوجاته والبحارة.

في إحدى المرات كانت نورة في الهواء الطلق، وتجاهلت مشاحنة لطيفة حول الانزعاج من التحرك، وركزت اهتمامها على تحسن صحتها، فقامت بمص ليمونة وعرضت نفسها للرياح، وما إن استنشقت الهواء المالح حتى شعرت بالزوال التدريجي للغثيان. لسعت الريح مقلة عينيها، فرطبتها بأن راحت ترفّهما، ثم وجهتهما نحو الشاطئ المجاور للجُرُف الشديدة الانحدار والصخور المتفتتة التي سقطت في البحر، ثم نظرت إلى الزرقة اللامتناهية حيث استقرت الجبال الغائرة، والتي لاح أولها أمامهم. كانت أطرافه سميكة بحيث لا يمكن الدوران حولها. سمعت جاسماً ينادي من الجانب الآخر من الحاجز: «صخرة الشيطان! تماسكن بقوة أيتها النسوة!».

ارتعشت نورة بموجة جيدة من القلق؛ فقد أخبرتها لطيفة من قبل عن الصخرة، وكيف أن هناك شياطين تسكن تحتها لتزلزل أي سفينة تسلك الممر الضيق بين الجرف والصخرة المنفردة. نزلت نورة على ركبتيها ونطقت بدعاء، وحينما ولجوا في الممر شعرت بالسفينة تهتز. لا شك أن شيئاً ما كان يسكن في

تلك المياه العميقة، شيئاً خفياً ومرعباً. كان ثمة إعصار تحت الماء جعلهم يدورون كالدوامة وكأنهم ريشة في مهب العاصفة. ومع هذا بقيت لطيفة رابطة الجأش؛ إذ جلست ساكنة وكأنها جبل، متربعة في جلستها تحت المظلة، وجسمها مغطى كله ببطانية خفيفة. بدت وكأنها «خيمة»، حيث يمثل رأسها العمود الأوسط، بينما أمسك وركاها بطرفي القماش مشدوداً.

فقد الشراع المثلث شكله، وراح يخفق ويهتز ويحتج على الريح التي أصبحت الآن تهب من جميع الجهات. وجاء تيار من الهواء رفع عباءة نورة في الهواء وألقاها فوق قماش الحاجز، وراحت جدائلها تتطاير بشكل فوضوي.

من تحت البطانية صرخت لطيفة بها: «روضي ذلك الشعر، فأنت تبدين مثل الوحش».

إذن كانت ترى! هتفت نورة: «إنها الريح، أمي لطيفة»، وأمسكت شيلتها المتطايرة بيد، بينما جمعت جدائلها المتفلتة (والتي حلّتها الرياح) باليد الأخرى. «لا أستطيع السيطرة عليه، فشعري يتطاير في كل مكان، والآن ذهبت عباءتي أيضاً».

«وتكلمي بشكل مناسب!».

لم تكن هذه المرة الأولى التي تسمع فيها نورة هذه الكلمات؛ فمنذ ذلك الوقت الذي التقتها فيه لطيفة في بيت الخاطبتين، أصرت على أن تتخلى نورة عن لكنتها الجبلية.

نـادت «الخيمـة» مـن جديـد: «لمـاذا تتكلمـين بشـكل مضحـك عـلى أيـة حـال، تقلقلـين كلماتـك بهـذا الشـكل؟».

كيـف أمكـن للمـرأة الكـبرى أن تفكـر بتسـوية كلامهـا في وقـت كهـذا؟ «هـذه طريقـة كلامنـا، أمـي لطيفـة».

«حسـناً، عليـك أن تبدئـي بالـكلام بطريقتنـا، كـما تعرفـين، وإلا فسـوف يظـن الجميـع أنـك غبيـة».

لم تجـب نـورة. كانـت تراقـب مـا سـتفعله تلـك الشـياطين الخفيـة، فقـد كانـوا يسـحبون السـفينة نحـو الصخـرة. لقـد ذاقـت لسـعة الغثيـان مـرة أخـرى حينـما أصـدرت السـفينة أصـوات الدمدمـة والصريـر وتمايلـت، واهتـز شراعهـا، وسـمعت جاسـماً ينـادي: «وجهوهـا أكثـر إلى اليسـار!».

لم تعـد نـورة تراقـب؛ فقـد تكومـت في شـكل كـرة، وبلعـت مـراراً. لم يكـن وقتـاً ملائـماً للغثيـان.

بعـد ذلـك استقرت حركـة السـفينة واتجهـت متهاديـة إلى الأمام. بـدا كـما لـو أنهـم اجتـازوا قبضـة تلـك الشـياطين، وأصبـح بإمكانها النظـر للأعـلى مـن جديـد. اسـترقت النظـر مـن خـلال أصابعهـا، فوقـع نظرهـا عـلى بطانيـة لطيفـة، التـي انزلقـت هـي الأخـرى مـع تلـك الاهتـزازات الأخـيرة، مكومـةً حـول وركـي المـرأة العجـوز. كانـت لطيفـة تحـدق النظـر فيهـا، وقـد بـوّزت فمهـا في اسـتياء، وقالـت: «كـم عـلي أن أضحـي بنفسـي مـن أجـل غـيري؟ كـم سـيتبقى منـي في النهايـة؟».

لم تجب نورة، كان أفضل لها أن تستمر في البلع.

انفتحت ملاءة الموصلين من خلفها، فحدّق جاسم وقال: «اهدؤوا؛ يمكنكم التحرك الآن». نظرت إليه للأعلى وشاهدت خيشوميه يرتفعان عالياً. يا له من منظر كانت يمكن أن تبدو فيه وقد تشابك شعرها، وتنسل من تحت شيلتها لتغطي وجهاً متعرقاً كان أشد خضرة من عينيها. لكنه مد ذراعه لها وقال: «تعالي. يمكنك أن تقفي الآن وتغسلي وجهك».

وللحظة نسيت أن تبلع، وبينما تشابكت يدها مع يده، تقيأت عليه.

هدأت الرياح، واستقر مسير السفينة، وذهب جاسم ليغتسل، وعادت لطيفة من جديد تحت البطانية وهي تشاهد العالم من خلال أقمشتها الخشنة، ولم تقل شيئاً عن الفوضى التي أحدثتها نورة لزوجها، بل استمرت في التذمر من عدم ارتياحها، وراحت تغمغم: «يسمون هذه بطانية؟ إنها بالية حتى إنني أشعر بالريح تدخل من خلالها. وهذه المرتبة تحتي، رقيقة حتى إنني أشعر بعظامي تغوص في الخشب. بدأت الآن أشعر بالدوار، أيضاً. ليمون، ماء، الآن!» وصرخت: «إه، بن سرور!».

وكما لو أن حمداً كان يتوقع هذا الأمر منها، فامتدت يده من خلال زاوية الملاءة بحفنة من الليمون الحامض، وبوعاء

من الماء مملوء بالمسام كان يعلقها عشوائياً على عمود. رفعت لطيفة البطانية عنها وراحت تغسل فمها من حافة السفينة، كان ذلك عندما دخل حمد في حيزهن مرة أخرى، ولكنه في هذه المرة كان يحمل عباية نورة.

مدت نورة يدها لتأخذها عندما لعبت الريح وعبثت بها من جديد، فطيّرت شيلتها وخطفت الملاءة من بين أصابع حمد، وقذفت بها في الجو.

واجهته على حين غرة دون حجاب. كانت تعلم أن عليها أن تغض من بصرها، ولكن جفنيها بقيا مشدودين، يحملان التوتر الذي اجتاح عينيها اللتين لا تطرفان، حزينتين ورقيقتين في آن واحد. كانت لحظة سريعة، غير أن نورة شعرت بأنها تمتد امتداد ليل لا نوم فيه من الأرق، ولم تنكص وترفع يديها إلى وجنتيها إلا عندما سمعت لطيفة تتنحنح بصوت مدوٍّ وتبصق من فوق جانب السفينة، ورمشت عيناها نحو دوائر الحناء الخمرية اللون في وسط كفّيها؛ فهي امرأة متزوجة تحدّق بلا حياء في وجه رجل آخر.

كانت نورة تشعر بالفضول. لماذا حدّق ذلك الفتى، حمد، فيها بهذا الشكل؟ فكرت بوجهه، وبنظرات التوسل في عينيه. كان أجنبياً عنها، ومع ذلك شعرت برابط معه بشكل من الأشكال. كان عليه المظهر اليائس نفسه الذي كانت تشعر به.

ربما كان ذلك لأن حياته تنتمي إلى جاسم أيضاً. وبينما كانت تستمع إلى البحارة في الجانب الآخر من الملاءة التي تحجز بينهم، أدركت أن حمداً كان صانعاً لدى جاسم. هل يا ترى كان يشعر بأنه محتجز مثلما تشعر هي؟

لاحظت شقاً في الزاوية السفلى من الملاءة، قرب حافة السفينة، وقررت سريعاً أن بإمكانها الاستفادة منه، وقدّرت أنها إن اتكأت على جانبها وأدارت ظهرها إلى لطيفة فإنها تستطيع أن تتظاهر بالنوم. سيرتكز رأسها على ذراعها، وبذلك تستطيع أن تجعل عينيها في مستوى الشق نفسه، ومن ثم لن يكون عليها سوى أن تثبت عينيها على الفتحة لكي تراقب ما يجري مع حمد وبقية البحارة.

انتظرت لطيفة حتى تستلقي لتأخذ غفوة القيلولة قبل اختبار فرضيتها، واستعدت للقيام بتسويات وتعديلات، مثل الاستناد إلى مرفق، أو حتى توسيع الشق إن دعت الحاجة. ولكن - تماماً كما توقعت - لم تكن ثمة حاجة إلى أي من هذه التعديلات؛ إذ كان الأمر سهلاً، وكانت ملاحظتها الأولى رؤية أقدام باطنها خشن، أقدام كبيرة، وأخرى صغيرة، وكلها شديدة السمرة والخشونة بتأثير الشمس والرياح.

على مدى أيام، وبعد أن أصبح البحر مفتوحاً بسخاء، وحلت الهضاب الصخرية محل الجبال، سعت نورة لأن تلمح حمداً، ولكنه بقي بعيداً عن نظرها تماماً. ثم، ذات صباح، حينما

صحت نـورة مـن النـوم تحت أشـعة الشـمس الباكـرة، وشـعرت بدفئهـا عـلى ظهرهـا، سـمعت صوتـه قريبـاً مـن المـلاءة الحاجـزة. اسـتغرق الأمـر معهـا لحظـة لتحـرر رأسـها مـن سـلطان النـوم، وتسـتقر لتنظـر مـن خـلال الشـق، وشـعرت بـأن أجفانهـا ترتجـف حينـما شـدتها لكـي تسـتطيع رؤيتـه، ولكـن كل مـا اسـتطاعت ملاحظتـه كان طـرف دشداشـته، وذلـك قبـل أن تهـب نسـمة مفاجئـة مـن الريـح، فتلطـم المـلاءةُ مقلـة عينيهـا، فارتـدت إلى الخلـف. كانـت اللسـعة قويـة، وصـارت عيناهـا تدمعـان، ففركـت اللسـعة التـي شـعرت بهـا، وعـادت إلى موقعهـا في غضـون دقائـق.

اختفـى حمـد، والآن كان جاسـم هـو الـذي يبـدو لعينيهـا، وهـو يوجـه الجانـب الآخـر مـن الجالبـوت. توقـف بعـض الرجـال في وسـط مهامهـم ليسـتمعوا لمـا كان يقولـه. بـدا الأمـر كـما لـو أن جاسـماً قـد فـرغ مـن إخبارهـم قصـة مضحكـة. تجعـدت عينـاه وانبسـط أنفـه حينـما أطلـق ضحكـة مـن كل قلبـه. جعـدت نـورة شـفتيها وأنفهـا إلى أن التصقـا ببعضهـما. كـم كان يبـدو سـعيداً، ولم لا؟ فهـو لم يشـعر مطلقـاً بـآلام الحرمـان.

«جاسـم سـعيد بـن مطـر رجـل محظـوظ»، هـذا مـا كررتـه لطيفة لنـورة يومـاً بعـد يـوم. «كان أبـوه تاجـر لؤلـؤ، وكذلـك جـده قبـل ذاك، ولذلـك، كـما تريـن، بهـذا النسـب المهيـب، وُلـد أغنـى مـن بقيـة أهـل القريـة، وأوفـر حظـاً بـلا ريـب. فهـو يسـتطيع أن يرتـدي أفخـر الثيـاب، ويـأكل أطيـب وجبـات الطعـام المتنوعـة، ولكنـه لا

يفعل أياً من ذلك». عند هذه النقطة من وصفها لزوجهن، الرجل الذي كانت تحترمه بكل وضوح، وكانت تومئ رأسها له بتقدير وجدية. «كما ترين، إنه رجل متواضع».

هز البحر السفينة بهدهدة لطيفة، وتغير اتجاه هبوب الريح، فأوصلت صوت جاسم إلى أذني نورة. كان كلامه يحمل تلك الأهمية الفريدة للامتياز الذي ينعم به حينما عزف كلمات ملآى بدرر من الحكمة التي يحملها الأغنياء. «من ضرورات الحياة أن تعيش في أسلوب بسيط، أليس ذلك صحيحاً، يا هلال؟».

قال النوخذة: «نعم»، وانضم إلى الرجال الذين بدوا قانعين بإطالة أوقات راحتهم من خلال الاقتصار على سماع ما يقوله جاسم.

ارتفع صوت جاسم فوق الرياح، واخترق أصوات تصفيق الشراع. «كما ترون، إذا عشتم حياة بسيطة يمكنكم أن تعيشوا مع ذلك بسعادة إن فقدتم في يوم من الأيام ثرواتكم، والسبب هو أنكم لم تنغمسوا في تلبية رغباتكم منذ البداية. لماذا تحتاجون إلى أن تنفقوا المزيد على الطعام؟ أنا لا أفعل، وصدقوني، أنا آكل بشكل جيد». أطلق ضحكة خفيفة وربت على بطنه. «لماذا يحتاج المرء إلى كل تلك التوابل الباهظة الثمن؟ يجب أن نأكل جميعاً طعام المتواضعين المعتدلين: الأرز والسمك. أجل»، وتابع عن قناعة: «أنتم لا تحتاجون إلى الهيل والكركم والليمون الجاف أو أي من تلك البهارات المزعجة التي توجد - بالمناسبة - لأجل المظاهر أكثر من أي شيء آخر لجعل مذاق

الأرز والسـمك لذيـذاً. كل مـا تحتاجـون إلى إضافتـه لإعطائـه مزيـداً مـن الحيويـة هـو رشـة مـن الليمـون الأخـضر الطـازج».

بـدأ البحـارة يتململـون حينـما استـقرت أشـعة الشـمس الحـادة عـلى رؤوسـهم. راقبتهـم نـورة وتسـاءلت عـما إن كانـوا يسـتطيعون تركـه في منتصـف القصـة، وينظـرون إلى الجانـب الآخـر ويمضـون في أداء واجباتهـم. بقـوا حيـث هـم، ولم تستطع نـورة أن تحـدد لمـاذا. هـل كان ذلـك لأنهـم اعتمـدوا عليـه في معيشـتهم، واضطـروا - مـن قبيـل الواجـب - إلى الاسـتماع إلى زوجهـا المسـتدير الكـرش، أم أنهـم كانـوا يسـتمتعون بقصته بالفعـل؟

تابـع جاسـم: «وعليكـم أن تتأكـدوا مـن أن الليمـون نفسـه يسـتخدم لتعزيـز المـذاق لمـدة أسـبوع كامـل»، وتوقـف قليـلاً ليبتسـم، قبـل أن يضيـف أخـيراً: «زوج مـن بخاخـات الليمـون في اليـوم، نعـم - هـذا هـو كل مـا تحتاجـون إليـه».

الفصل العشرون

في اليـوم التـالي حلـت محـل الصخـور كثبـان رمليـة صفـراء بلـون الزعفـران، وفي اليـوم الـذي تـلاه، شـحب لـون الكثبـان وأصبحـت منبسـطة، وحـل محلهـا شـاطئ مغطـى بالسـبخات، ارتفعـت منـه طيـور البحـر وريشـها يلمـع تحـت أشـعة الشـمس، لترفـرف بمحـاذاة شراع قاربهـم الـذي تسـوقه الريـاج، ثـم اتبعـوا خطـاً سـاحلياً تغطيـه رمـال بيضـاء متألقـة.

تعـودت نـورة الآن عـلى ارتفـاع القـارب وانخفاضـه، وكلـما غفـت لطيفـة تحـت البطانيـة، كانـت تمـضي الوقـت في مراقبـة طاقـم البحـارة المؤلـف مـن ثمانيـة أشـخاص مـن خـلال الشـق.

«لم يمـضِ أسـبوع حتـى سـئمت منـه». كان هـذا قـول خميـس، وهـو غـواص متجهـم الوجـه، وطويـل الأطـراف.

«اسـتفرغت عليـه». وهـذا هـو صنقـور الـذي كان موهوبـاً بصـوت مخمـلي وهـو يجـرب أنغامـه بـين الحـين والآخـر منـذ أن انطلقـوا في الرحلـة.

أمـا الآن فـراح يدنـدن مـن جديـد، وأدركـت أن ذلـك سـيؤدي إلى أغنيـة:

«برومنسية يخيم حجاب الليل الأسود،

وقد امتلأ ذهني بالذكريات المرّة والحلوة بقوة.

أذكر إشراق وجهها الوديع،

وتنسلّ دمعة من عينيّ ولكنني لا أقوى على ذكرها،

سأكون على استعداد للتضحية بنفسي،

والتخلي عن حياتي فداء لندائها العذب».

تحركـت «الخيمـة». «نهيـق ذلـك الحـمار مـن جديـد»، كانـت هـذه كلـمات تمتمـت بهـا لطيفـة وخرجـت مـن تحـت البطانيـة. «أيـن نحـن الآن؟».

وحينـما نظـرت لطيفـة إلى الشـمس بعينـين نصـف مغمضتـين مـن شـدة الوهـج، سـألت نـورة «هـل أنـا في ورطـة؟».

قالت لطيفة: «ولماذا تكونين في ورطة؟».

«كـما تعلمـين، مـع زوجـي». سـكتت قليـلاً، ثـم قالـت: «قصـدي، زوجنـا، بعـد أن سـببت اتسـاخ دشداشـته؛ فهـو لم يـأتِ ليرانـا بعـده».

«أف! بـماذا تفكريـن؟ تظنـين أنـه ليـس لديـه مـا هـو أفضـل مـن أن يعتنـي بمعدتـك المضطربـة، وأنـه لا حاجـة إليـه لكـي يوجـه هـذا المركـب؟»

«إذن ... أنا لست في ورطة؟».

«أف!»

وبهـذه الأَفأَفـة الثانيـة غطّـت لطيفـة رأسـها مـرة أخـرى، وعرفـت نـورة أنهـا لـن تحصـل عـلى إجابـة. ومـاذا لـو بقـي بعيـداً؟ ومـاذا لـو بقـي الجميع بعيـداً، بمـن فيهـم ذلـك الفتـى «حمـد»؟ فهـي لم تلمـح سـوى ذراعيـه، مسـمرّتين مـن أشـعة الشـمس، حينما ظهرتـا مـن جهتهـا مـن المـلاءة، ليسـلّم هـذا الـشيء أو يسـتلم ذاك. ومـع ذلـك، وبالرغـم مـن هـذه الفكـرة، عـادت إلى الشـق. لمَ لا تنظـر؟ فبـدلاً مـن حمـد وقعـت عيناهـا عـلى «جاسـم» وهـو يفتـح سـاعته، ويقـول: «ثلاثـة ونصـف»، وراح يستنشـق الهـواء كـما لـو أنـه شـم رائحـة سـمك متعفـن وأشـار إلى الأمـام. لقـد وصلـوا إلى «ليـما».

خـور مرمـر: كانـت لطيفـة قـد أخـبرت نـورة عنـه، ووصفتـه بأنـه أفتـح لونـاً بمئـة درجة مـن المياه المفتوحـة. وقـد أطلـق عليـه أحـد التجـار هـذا الاسـم، منـذ أمـد طويـل؛ لأنـه كان يذكـره برخـام المسـاجد في بـلاد فـارس والهنـد.

وقـد كان عـلى حـق، ذلـك التاجـر؛ إذ كان عـلى نـورة أن تنظـر بطـرف عينهـا مـن تحـت برقعهـا إلى رقعـة البحـر المتلألئـة التـي تصـب في الخـور الـذي يشـبه البالـون المنتفـخ وترتفـع حولـه مدينـة

ليما. كانت المياه بيضاء مضيئة، وعميقة بدرجة تكفي لأن تطفو السفن عليها، ولكن ليس دائماً - هذا على الأقل ما قالته لطيفة: «على مدى عدة أيام من كل شهر تمتص الرمال المياه ولا تترك سوى القليل منه في الوسط، وعندما يحدث ذلك فإنك تستطيع أن تعبر ماشياً من أحد شطري ليما إلى الشطر الآخر». لم تستطع نورة أن تتصور ذلك. تابعت لطيفة القول: «وتصوري هذا: عندما لا يكون هناك ماء، يتعين على السفن أن تستقر على الرمال، مائلة إلى أحد الجانبين، بانتظار أن يعود الماء ويرفعها للأعلى من جديد».

يا لها من قصص قد اخترعتها! فخور مرمر ممتلئ بالماء، وكانت تتحرك على سطحه جميع أشكال المراكب وأحجامها. كما رست فيه نحو أربعين سفينة شراعية تحيط بها أشرعة عالية، وذلك في الجانب الشرقي من خور مرمر، بينما كانت تظهر فجأة حولها وفيما بينها قوارب أصغر حجماً، بعضها محفور من جذع شجرة نخيل واحد، وبعضها الآخر مركب من مجموعة من أغصان النخيل مثبتة ببعضها بواسطة حبل، وهناك البراميل الخشبية الصغيرة التي تبدو كأنها زوارق، نصفها في الماء ونصفها الآخر فوقه، وكانت دائماً تحمل طفلاً أو اثنين.

كان منظراً مهيباً بعد هدوء البحر. عدد هائل من الناس! رجال جاثمون على الضفاف الرملية يصلحون الشباك،

وآخـــرون انحنـــوا عـــلى أقفـــاص ورفعوهـــا، وآخـــرون جدفـــوا بزوارقهـــم عابريـــن الخـــور، أو وقفـــوا عـــلى الشـــاطئ ينظفـــون ويلمّعـــون هيـــاكل الســـفن، أو كانـــوا يســـبحون.

أشـياء كثـيرة شـاهدتها! تنقلـت عيناهـا إلى البيـوت عـلى كلا جانبـي الخـور لم تكـن تشـبه مطلقـاً الأكـواخ الحجريـة في الجبـال التـي كانـت تعيـش فيهـا، فهـذه كانـت مصقولـة الجـدران، ذهبيـة بلـون الشـمس، مربعـات صلـدة عليهـا أبـراج منخفضـة.

«البراجيـل»، قالـت لطيفـة ذلـك بإيـماءة العـارف كانـت قـد أزالـت بطانيتهـا، وتقـوم الآن بتسـوية برقعهـا، للتأكـد مـن أنـه منسـدل فـوق وجههـا. «تحبس الريـاح وتصفيهـا كالقمـع إلى داخـل البيـت، وتـبرّد، تـبرّد الهـواء».

يـا لهـا مـن فكـرة عبقريـة في هـذا الاخـتراع؟ وبينـما أُفعـم رأسـها بالهـواء البـارد، البـارد، بـدأت تعـدّ أبـراج الهـواء (البراجيـل): ثلاثـون برجـاً تحيـط بالضفـة الشرقيـة، وعـشرون أخـرى عـلى الضفـة الغربيـة.

قالـت لطيفـة وقـد خامـر صوتهـا زهـو الأثريـاء المنعمـين: «عندنـا اثنـان منهـا في بيتنـا».

«أي هذه البيوت بيتكم؟».

لوحـت لطيفـة بذراعهـا في الهـواء: «نحـن عـلى بعـد مسـافة قليلـة منـه، في وديمـة. لا يمكنـك رؤيـة بيتنـا مـن هنـا».

لعل صقراً كان يعرف بالفعل ما هو خير لها، ولعل هذه ستكون حياة أفضل. ولأول مرة تجرأت نورة على أن تشعر بالأمل. هل كان ذلك لأن مكانها الجديد عامر بنبض الحياة؟ سرت إليها عدوى النشاط المحيط بها بعد أيام عديدة من الاستماع إلى زفير البحر.

بمجرد أن أصبحت خارج المركب زادت معنوياتها ارتفاعاً عندما رأت أن «جاسماً» لم يكن غاضباً من الفوضى التي أحدثتها لدشداشته قبل أيام؛ فهو لم يشمخ بخياشيمه تجاهها، ولم يؤنبها، بل كان مبتهجاً؛ إذ أصر على النساء ليصطحبوه هو وحمد إلى السوق، «سوق ليما»، قبل المتابعة إلى بيته.

بدت عليه أمارات السعادة كما لو كان طفلاً ملئت جيوبه بالحلوى. وراحت غترته ترفرف فوق كتفيه وهو يشق طريقه، يتبعه حمد والنساء. مروا برتل من النساء اللواتي يتمتمن وقد جلسن متربعات، وبسطن أشياءهن على قطع قماش أمامهن. نثريات ومتفرقات ... ذلك ما كنّ يبعنه : زجاجات، وعلب، وقطع حبال وخيطان، وصرر صغيرة من الأعشاب، وإبر وأزرار. وذلك ما راحت نورة تتفحصه. لم تعد تكترث بعينَيْ «حمد»، فقد تلاشتا في جو تعرض لرشقات من صرخات الرجال الذين كانوا ينطقون بكلمات لم تفهم منها شيئاً؛ فقد اختلطت الألسنة الفارسية والهندية والأفريقية باللغة العربية، إلى جانب ثغاء الماعز المعروضة للبيع، والتي أمسك بها أصحابها بإحكام.

حتى لطيفة بدا عليها الحماس، إذ أمسكت بيد نورة بإحكام، ناسية عظامها الهشة في تلك اللحظات، وجرّت نورة بقوة ورشاقة مذهلتين، وهي تتفادى ذيل حمار كان يسمع له حفيف، وتروغ إلى أحد الجانبين حينما مرت بهم عربة بضجيجها، كان يجرها ذلك الحمار، محملة بأكياس الأرز الثقيلة. «أرز، ليمون أخضر، بصل، عدس، فجل»، ذكرت لطيفة القائمة، حريصة على أن يكون صوتها عالياً لكي يسمعه جاسم. وعندما لم يجب، أضافت: «وبعض الأطعمة الخاصة أيضاً».

توقف جاسم ونظر إلى الوراء نحوها.

«تعرف ما أعنيه يا زوجي، مثل الرمان والموز».

قال جاسم: «رمان؟ ليس موسمه الآن».

«بل موسمه، فهو يأتي دوماً في مثل هذا الوقت من فارس».

لوح جاسم بيده وقد ضاق ذرعاً. «لماذا تريدين الرمان، يا امرأة؟».

تلعثمت لطيفة: «حسناً، أنت تعرف، لأجلك ولأجل زوجتك الجديدة - كتحلية».

«تحلية؟ لا، لا، لا، لا. تسبب كثيراً من الفوضى. عندما ينسكب العصير الأحمر على ثيابك لا يمكنك أن تزيليه بالغسيل».

«موز، إذن؟».

«لا موز. أنتِ تدفعين كثيراً عليهن وهن ينهينها بسرعة. هريسة - هريسة في الفم وخلاص!» وأطلق ضحكة مكتومة

بسخاء. «بسرعة كبيرة حتى لا يمكنك أن تتذكري كيف كان طعمها». ربت بأصبعه على صدغه كما لو كان غارقاً في تفكير عميق، وأضاف: «أعتقد أن علينا أن نشتري مانغو، نقياً وحلواً، تلك هي الفاكهة المناسبة للتدليع». تأرجحت ذراعه بسخاء في الهواء، «نعم، مانجو، بقدر ما نعثر عليه من المانغو».

لم تسمع نورة من لطيفة سوى التأوه وهمست: «ولكن ليس هذا موسم المانغو».

شمت نورة رائحة السوق قبل أن تراه، وحينما دخلوا عتمة الأزقة الضيقة تصاعدت رائحة التوابل الحادة إلى أعلى أنفها، واستقرت في عينيها؛ إذ غشيت عينيها رائحة نفاذة جمعت بين الفلفل والزنجبيل والكمون، قبل أن تجففهما رائحة الحبات المهدئة للهيل والقرفة والكزبرة واليانسون. وعندئذ فقط لاحظت أعمدة الضوء السمراء التي شقت طريقها خلال المظلة المصنوعة من سعف النخيل، وسقطت على الأرض لتضيء الأقدام المتزاحمة التي ضغطت الأزقة الرملية، وأحزمة الضوء الحادة التي حملت أجزاء من الغبار العائم.

منذ أن أصر جاسم على أن التوابل مضيعة للمال، مروا مرور الكرام خلال زقاق التوابل، وانعطفوا في شارع ممتلئ بجمر الحدادين، حيث علقت الحرارة بالهواء الذي كان يقرع مع قرعات المطارق على الحديد. مزيد من الضجيج، وقليل من

الناس هنا. تفرع الشارع، فاتجهوا نحو اليمين، حيث سمعت نورة أزيز منشار يقطع في الأخشاب، فعطست حينما استنشقت رائحة الخشب الجديد من خلال نُشارة الخشب الناعمة التي تطايرت في الهواء.

ثم أتوا شارع الخياطين: كان أكثر هدوءاً، فيما عدا طنين مكنات الخياطة التي كانت تشتغل وتتوقف وهلم جراً. ظهر رجل من عتمة الدكان الثالث، وقد ثبت شعره بكمية كبيرة من زيت جوز الهند حتى فاحت رائحته من الكشك المفتوح في مقدمة الدكان. لوّح بيده لجاسم: «أرباب، أنتَ يرجع؟ ويش في علوم؟ ما شاء الله، أنت في زواج؟» بدا أن له طريقة في الكلام لا يستعمل فيها سوى الكلمات المهمة ويضيع البقية، في لكنة ملتوية مع التواء لسانه.

«أه، كومار! السلام عليكم»، ولوح يده بالتحية، وتابع سيره.

«ليش أنت في سرعة؟ تعال اشرب شاي، شاي هندي قووي زين. أنت في زواج الحين، وقّف! اشتري لزوجتك. ليش ما يشتري هدايا من دكاني؟ أفضل قماش من بومباي. نمبر ون كواليتي، لا زم في بيع». ابتسم وهز رأسه يمنة وشمالاً.

ضحك جاسم وتوقف ليقول: «أنتم الهنود، دائماً يبغى يسوي فلوس كتير». التفت ومضى بضع خطوات قبل أن يتوقف ثانيةً، رافعاً حاجبيه تقديراً لرجل ضعيف متهالك، ذي لحية بيضاء مدببة، كان قادماً نحوهم. قال جاسم: «أه، السلام عليكم، جمعة

بـن حميـد، مـاذا تفعـل هنـا، غارقـاً في السـوق؟» سـلّم جاسـم عـلى الرجـل العجـوز بمخاشـمة، وقبـل حمـد يـده ثـم تنحـى جانبـاً.

قـال جمعـة وهـو يشـير أمامـه: «زيـارة إلى هنـاك. الله يعلـم أننـي يجـب ألا أبتعـد عـن دكاني؛ هـذه الرطوبـة تخـترق جلـدي وتحطـم عظامـي».

ابتسـم جاسـم: «الرطوبـة؟ الرطوبـة في كل مـكان، يـا صديقـي، فهـي تسـتقر عـلى هـذه الأسـقف، وترشـح مـن خـلال دشداشـتك، وتبلـل هـذا الرمـل المرصـوص الـذي تقـف عليـه. البحـر يـا صديقـي – عندمـا تكـون بجـوار البحـر تزحـف الرطوبـة فـوق المـكان». أطلـق قهقهـة ودّيـة، بينـما رفـع صديقـه كفـاً ليحيـي لطيفـة ويسـأل عـن صحتهـا. كان ذلـك هـو كل مـا اسـتغرق الأمـر: سـؤال عابـر عـن صحـة جمعـة ولطيفـة ليسرد قائمـة كاملـة مـن العلـل والأمـراض التـي تحملهـا ومـا زال يعانيهـا. كان هنـاك آلام الظهـر وصـداع الـرأس وخفقـان القلـب وعـسر الهضـم والحكـة والدوخـة. بـدا أن مشـكلاتهما لا نهايـة لهـا، وكانـت نـورة تنقّـل بـين قـدم وأخـرى وتريـد أن تتابـع سـيرها، وتغبـط «حمـداً» وهـو ينسـلّ مبتعـداً إلى آخـر الشـارع؛ فهـي لا تسـتطيع أن تفعـل ذلـك؛ إذ كان عليهـا أن تبقـى حيـث هـي.

ثـم سـعل جاسـم – سـعلة جديـة أنهـت حديـث جمعـة ولطيفـة المفعم بالحيويـة، وأعلـن قائـلاً: «تلـك المـرأة الأخـرى هـي زوجتي الجديـدة!».

قـال جمعـة: «مبـارك يـا جاسـم»، بينـما تراوحـت لحيتـه قليـلاً

بابتسامة بدت لنورة وكأنها عصبية أكثر مما ينبغي، وقد تدلت خيزرانة بين أصابع يده الهزيلة المرتعشة، فالخيزرانة تخص الرجل القوي، وبالكاد يمكن إطلاق هذا الوصف على جمعة بن حميد.

همست لطيفة لها: «والآن تعرفين أن جمعة بن حميد هو أبو شمسة، تاجر - وغني مثل زوجنا».

فكرت نورة: الزوجة الأخرى. يفسر ذلك قلقه؛ فهو لا بد أنه يكرهني! راقبت الرجل المسن وهو يحيط الخيزرانة بقبضته، ولكن بدلاً من أن يثبت قبضته عليها، زاد اهتزاز يده، ولذلك كاتف بين ذراعيه عالياً فوق صدره، وبدأ يخلل لحيته بأصابعه. كانت كئيبة المنظر وهشة، تذكر نورة بالأغصان الذابلة التي كانت تراها غالباً على جبالها، ملتصقة بالأشجار التي كانت تغذيها. ثم ما لبثت أن غادرت الابتسامة وجه جمعة، وبدا كما لو أن لديه كلاماً يحتاج إلى أن يقوله.

أحاط جاسم بذراعه كتفي جمعة الواهنتين. «إذن، ما شاء الله، كم جمعت من الأموال منذ مغادرتي؟».

«المعتاد، لا أكثر ولا أقل».

«جيد. حسناً، من الأفضل أن نذهب الآن. علينا أن نحصل على بعض المؤن للمنزل قبل الذهاب إلى البيت»، وغمز جمعة بعينيه. «علي أن أوزع بعض الطعام في وديمة على

شرف وصول عروسي الجديدة. يوم كامل من اللحم والأرز سيحصلون عليه».

قال جمعة: «انتظر! قبل أن تذهب هناك شيء يجب أن تعرفه».

ارتفع حاجبا جاسم فوق نظارته، واستقر خشماه بهدوء وهو ينتظر أن يسمع أخبار الرجل العجوز.

ولكن جمعة كان يتلعثم، وهو يمسك بخيزرانته إلى صدره. كان على درجة من الهشاشة جعلت نورة تخشى أن تترك الخيزرانة علامات على جلده وأن تسبب ندبة. قال جمعة: «يبدو كما لو أن هناك مزيداً من الرطوبة في الجو اليوم، وكأنها جاءت لتأكل من عظامي. هل تشعر بها؟» نظر جاسم حوله في الهواء غير المرئي. «أعتقد أنك تشعر بذلك بتأثير الجو. لم لا تستريح قليلاً؟ اذهب إلى البيت واستلقِ هناك».

حرر جمعة ذراعيه أخيراً: «البيت، أجل، هو ذاك. إنه البيت الذي أود أن أكلمك عنه». سعل سعلة خفيفة كانت مناسبة لهيكل جسمه. «أنا سعيد جداً من أجلك، وبزواجك، ولكنني غير سعيد من أجل ابنتي».

غمغم جاسم: «لا تقلق، سوف تعتاد الأمر».

وكما تساءلت نورة عما إذا كان عليهنّ، أي النساء، أن يستمعن إلى هذا الموضوع الحساس، جذبت لطيفة عباءتها ووجهتها للرجوع بضع خطوات إلى الخلف إلى دكان كومار.

التقطت قطعة قماش وقالت: «ما رأيك بهذه، يا نورة؟ انظري كم ناعم هذا القطن؟».

قفز كومار عائداً إلى مقدمة دكانه، وقال وقد لوى فمه من الامتعاض: «لا، لا، لا، أمي لطيفة. للعروس الجديدة، حرير فقط». التفت إلى نورة وفرد لها قطعة قماش من الحرير، لامعة بلون الزعفران، ومخططة باللون المرجاني. «ترين؟ هذا آخر موضة، واسمه بوقليم».

تفحصت نورة القماش، ولكن أذنيها استمرت في التقاط صوت جمعة الأثيري: «لا أعلم إن كانت ستعتاد عليه. لقد أصبحت كما لو أنها مصنوعة من نار، تلك ابنتي، فهي منزعجة كثيراً».

بدا جاسم من صوته أنه مندهش: «ماذا؟ تعني أنها أخبرتك؟ كيف عرفت؟».

كانت همسات لطيفة حادة وعاجلة: «ليس جيداً، ليس جيداً». انكمشت واتجهت صوب قماش أبيض عادي في زاوية المتجر.

أما كومار فقد بسط ثلاث لفات أخرى من القماش، وهي جميعاً ذات قوام غني وملمس ناعم. «بو-قليم مب زين؟ هنا، أقمشة أخرى نمبر ون: أخضر، وأرجواني. زين.. زين..وايد زين!».

ولكن مع نطقه بآخر عبارة «يعجبك»، كانت نورة قد نظرت بالفعل من فوق كتفها إلى الرجلين، حيث كان جمعة

يقول لجاسم: «أعتقد أن لطيفة هي التي أخبرتها قبل أن تذهبوا - كما تعلم - لتجهيزها».

لاحظت نورة توهجاً في عيني جاسم حينما نظر بجوارها إلى لطيفة، ولكن صوته كان ثابتاً عندما سأل جمعة: «ماذا قالت لك ابنتك عندما ذهبتَ إلى وديمة لرؤيتها؟».

«أوه، لا، لم أذهب أنا إلى وديمة، بل هي جاءت إلي».

«ماذا؟» صاح، وعادت نورة إلى الأقمشة، مميلة رأسها نحو رأس كومار. فقد كان كومار متكئاً خارج المتجر، حيث أطلق الفضول عنقه في سلسلة من الهزهزات المجنونة.

همس كومار: «أوه، لا تأتي سوى المشكلات عند قدوم المزيد من النساء إلى هذه الحياة».

شرح جمعة: «نعم جاءت حالما غادرتَ، منذ بضعة أسابيع».

«وماذا أخبرتها أنت عندما جاءت إليك في البيت؟» خفض جاسم من صوته، ولكن الزمجرة ظلت ملازمة له.

قال جمعة: «ماذا بوسعي أن أخبرها؟ أخبرتها أن بإمكانها البقاء حتى تأتي أنت، ولكن بعد ذلك لا بد أن تذهب إلى وديمة. في نهاية المطاف، هي لم تعد لي، بل هي لك».

تمتم جاسم قائلاً: «أنت صديق أديب وأب صالح، أما الآن فعليّ أن أصلح هذه اللخبطة. لنذهب ونحضرها».

كانت ذراع جاسم ثقيلة على كتفي جمعة الهشتين حينما سار معه إلى خارج زقاق الخياطين بسرعة أكبر مما يطيقه الرجل العجوز. شعرت نورة بالقلق. انحنى عنق جمعة وصار يجر قدميه، وتعثرت ركبتاه مرتين، لولا أن جذبته ذراعا جاسم بقوة وأقامه. إلى متى يستطيع أن يستمر في التحمل تحت عناق زوجها القوي؟ لقد تبخر مزاج البهجة السابق، وحل محله استعجال جاسم لتصحيح الأمور.

اتبعت نورة ولطيفة الرجلين حينما انعطفا إلى اليسار ودخلوا زقاق بائعي الفخار وتابعوا حتى النهاية، ومن هناك انفتح الطريق على ميدان واسع محاط بجدران مرتفعة لبيوت المدينة. وهناك كان حمد منتظراً، وحينما توقفت خطوات جاسم القوية فجأة، انتهز جمعة هذه الفرصة ليتخلص من قبضته.

ميدان البرزة: كان ممتلئاً بالناس إلى درجة صدمت نورة بعد هدوء الشوارع الداخلية. خفضت بصرها جانباً، حيث وضع مجلِّد كتب أدوات حرفته فوق صندوق، وقد حمل وجهه غبار أماكن بعيدة. ألقت شمس ما بعد الظهيرة ألَقاً ناعماً على رأسه المحلوق وهو يعالج بعناية بأصابعه صفحات صفراء من مصحف قديم، ويحولها إلى مجلَّد أنيق، وإلى جواره جلس رجل طويل العنق على كرسي خشبي مواجهاً حلاقاً كان منهمكاً في تشذيب لحيته.

«يغدو هذا المكان أكثر فأكثر ازدحاماً واختلاطاً»، قال جاسم ذلك وهو يشمخ بأنفه عالياً حتى بدا كأنه منقار طائر

ضخم، ورفع ذراعاً فوق جبينه ومسح بها حبات العرق التي التصقت به، وعاد فالتفت إليهم، وقال وهو يشق طريقه إلى أطراف الميدان: «ابقوا قريبين مني هنا، أنا لا أريدكم أن تضيعوا». لوى كتفه ليتفادى تنكة معلقة تتأرجح من عمود متوازن فوق كتفي بائع للماء، ثم أضاف: «أو يصيبكم أذى».

أمسك حمد بذراع جمعة، وأمسكت لطيفة بنورة بإحكام. تبعوا جاسماً اثنين اثنين، وشقوا طريقهم في محاذاة أطراف الميدان، مروراً بنداءات الحمالين: «ربع ربيه، انقل حملك إلى حيث تريد!». كانوا رابضين على عرباتهم التي تشبه الميزان، ينتظرون عملاً، وقد بدوا أشبه بالنسور.

بجوارهم كان البدو يجلسون متربعين أمام إبلهم وكميات من الفحم يريدون أن يبيعوها، بينما كانوا يحدقون في الحشود، بوجوههم العاتية التي تكسوها قساوة الصحراء. لاحظت نورة فتى أكبر سناً يعض شفته بينما كان مجبّر الكسور يفتل إبهامه المكسور ليثبته في موضعه. ومن خلال الجلبة والضجيج سمعت صوت الطقطقة وأصابها شيء من الوجل. كان السوق يفقد جاذبيته على نحو أسرع مما توقعت؛ فقد شعرت بالضعف وكأنها دودة تزحف في واد مفتوح، فقد يسقط أي شيء عليها، وقد يرفسها أي شخص أو يدوس على قدميها.

كان الغبار الذي يتصاعد من الأرض ويحجب الرؤية يحمل معه رائحة العرق والبول، وكانت ترى من خلاله الأطفال

والشحاذين، والمكفوفين والمشلولين، وكانت دوماً ترى مجنوناً أو مجنونَيْن. نفخت لطيفة في برقعها وتأففت: «أف! لا أحد يعرف ما نفعل، فهم يتيهون هكذا في الشوارع كالضائعين»، ولوحت بذراعها نحو مجنون كان يرقص نحوهم: «أف! أف! اذهب!».

فتح المجنون ذراعيه بانحناءة كريمة وغمز بعينه المبطنة بالغبار. «وفّري «أردي» لفعل الخير. أنا ذلك الخير». كانت هناك نُدبة رسمت خطاً فوق حاجبه الأيسر، وكان رأسه الأصلع منقطاً بالبثور.

وأخيراً، وصلوا إلى الجانب الآخر من الميدان، ودخلوا شارعاً خالياً. وما إن أخذت نورة نفساً أنظف حتى لاحظت أن المجنون ما زال يلحق بهم، وهو يفتل في دوائر خلفهم، يشحذ «أردي».

جذبه جاسم بشدة قائلاً له: «اذهب!» والتفت إلى حمد وأمره أن يخلصهم من الأحمق.

أمسك حمد بذراع المجنون وحاول أن يقوده بعيداً: «تعال، ولتكن معقولاً. توقف عن إزعاجنا وامضِ في طريقك».

ولكن المجنون لم يكن يبدو أنه سيكون معقولاً: «ولكن ماذا يكلفكم أن تساعدوني؟ أنا لا أطلب روبية لامعة، بل «أردي» فقط، أردي صغيرة بالية وصدئة».

قال حمد، وهو يدفع الشحاذ في صدره: «ليس لدينا أي نقود لك».

دلى المجنون رأسه ومد شفته السفلى للأسفل، وزعق: «أردي واحدة فقط ... أردي واحدة فقط». وغير المجنون صوته ليشبه صوت طفل، إذ كان يجرب خطة أخرى.

وفي هذه الأثناء وقبل أن يتمكن حمد من الالتفات ليدفعه بعيداً من جديد، تدخل جاسم، وقد احمر وجهه كلون الرمان الذي حرمت منه لطيفة. جعلت هذه الفكرة نورة ترغب في أن تبتسم، ولكنها كانت تعرف أنه من الأفضل ألا تفعل ذلك.

قال لحمد: «هناك طرق للتصرف مع أشخاص مثل هذا الرجل. دعني أريك».

رفع المجنون كتفيه إلى محاذاة أذنيه وأظهر طاقماً من الأسنان الصفراء، الغريب أن كلاً منها في مكانه الصحيح. لقد كانت تكشيرة سخيفة، مثل تكشيرة طفل على وشك أن يحصل على مكافأة.

«مرة، مرتين، تقول لهم أن يذهبوا، ومع ذلك يصرون».

تمايل المجنون وفتح كلا كفيه.

قال حمد: «لا بأس، سوف أتعامل معه».

قال جاسم: «ليس لديك الشجاعة»، وأمسك بالخيزرانة من قبضة جمعة الضعيفة، وضرب بها المجنون: أربع ضربات على كفه، سريعة وحادة.

لهث المجنون، وسقط على ركبتيه، ونظر إلى تاجر اللؤلؤ، وقد تجمد وجهه من الصدمة بتأثير ضربات الخيزرانة.

«أبصق عليك وعلى الناس الذين صنعوك!» رفع جاسم ذراعه عالياً ونزل بها عليه بضربة أخرى، أقوى من سابقتها. شعرت نورة بالهواء يهتز من قوة الخيزرانة حينما هوت على كفيه مرة أخرى. لماذا ما زالت يداه المتسولتان مفتوحتين؟

هذه المرة زعق، ووضع كفيه تحت ذراعيه كأنه يخمد الألم. سقط رأسه على صدره وتكوم على شكل كرة.

راحت نورة تتنفس بشدة الآن، وقد دخلت الشيلة في فمها المفتوح، ثم نفخت عليها لتبعدها عن فمها. أرادت أن تفعل شيئاً، ولكن ماذا؟ هل تستطيع أن ترمي بنفسها في الوسط بينهما، وتحاول أن تدفع بجاسم عنه إلى الخلف، وتتلقى الضربات بدلاً منه؟ سحبت نفساً آخر فالتصقت الشيلة بلسانها، وقماشها الخشن في فمها الجاف، وقد جعلتها فكرة الاقتراب كثيراً من الشحاذ تشعر بالجبن.

ما كان منهم إلا أن يراقبوا، لا حول لهم، مثل الأطفال؛ فقد كانوا في شارع خالٍ، هاتان المرأتان والرجلان، والتقت أفكارهم على قرار بعدم التدخل. أما جمعة فحصر جسمه الضعيف بينها وبين لطيفة، ووجهه يرتجف مع كل ضربة خيزرانة، وإلى جواره رفعت لطيفة رأسها عالياً كما لو أنها تطفو فوقهم. وحمد ذلك الفتى! ماذا كان يفعل واقفاً جانباً، لا فائدة منه بذلك الشكل؟

رسمت نورة شكل ذراعيه، أقوى من جاسم بعشرة أضعاف. ضربة واحدة – هذا كل ما يحتاج إليه الأمر ليجعل جاسماً يدخل

في غيبوبة. كان يقبض ويرخي قبضتيه، كما لو أنه يضخ بعض القوة فيهما. وبدأت نورة تشعر بالأمل. رفعت عينيها وعادت تنظر إلى ذراعيه من جديد، وانتظرت أن يظهر قوته، ولكنهما ظلا معلقتين هناك، رخوتين كقطعة من قماش بال.

ارتفعت ذراع جاسم من جديد، وأخذ نفساً عميقاً وضرب المجنون مرتين أخريين على ظهره. لم يعودوا يسمعون مزيداً من الصراخ هذه المرة، بل أصوات نشيج مكبوتة فحسب.

وأخيراً، ذهب الاحمرار من وجه جاسم، وعاد خيشوماه إلى مكانهما، وقال: «يجب أن تتعلم من هذا درساً». كان الدرس الذي قدمه جاسم سريعاً، ولم يدم طويلاً بحيث يجتمع عليه حشد من الناس،ولم يراقب سوى رجلين من الطرف البعيد من الشارع. صرخ جاسم فيهما: «إلى ماذا تحملقان؟ يجب أن يعرف أنه عندما يطلب إليه بلطف فعليه أن يطيع».

قال الرجل الأول: «ولكنه مجنون».

أعاد جاسم الخيزرانة إلى جمعة. «حتى المجنون يشعر بالألم».

قال الرجل الآخر: «ولكن المجنون لا يفهم».

«ليس عندي وقت لهذا الجدل حول ما إذا كان المجنون يفهم أو لا يفهم». طقطق رقبته وقال: «حسناً، لنذهب».

خلّفوا معاً وراءهم أنات المجنون الذي بقي في الوضعية نفسها: كالسلحفاة التي خبأت أطرافها. أما جمعة الذي لم يجره

جاسم معه فتأخر في السير وراءهم، وسمعت نورة أنفاسه المرتعشة، وهو ينادي جاسم: «ستعاملها معاملة طيبة. أعني، لن تحاسبها على مجيئها لعندنا». كان يتكلم بلهجة الرجاء الآن. «قصدي أنه بيتها أيضاً، وينبغي أن تكون قادرة على المجيء ورؤية أهلها. أعني، أنا أبوها».

أجاب جاسم: «بالطبع سأعاملها جيداً»، وكأنه انزعج لأنه اضطر إلى النظر من فوق عاتقيه لكي يرد، وبعد بضع خطوات توقف فجأة، ورفع عينيه إلى السماء، واستدار ببطء ليواجههم.

من التالي الذي سيكون دوره ليُضرب؟ ذلك ما كان يدور في خلَد نورة. ولكن جاسماً لم يفعل ذلك، وبدلاً من ذلك عاد إليهم، نحو جمعة، الذي علقت لحيته النحيفة مرة أخرى حبيسة تحت ذراعيه، وشرع جاسم يقول: «انظر، أنا لا أريدك أن تقلق على أي شيء. ألستُ أنا مسلماً صالحاً؟ أليست هي زوجتي؟ أليس الإسلام يطلب منا أن نعامل زوجاتنا بالعدل، في كل شيء؟»

أومأ العجوز برأسه بالإيجاب، وعندما حاول أن يتأوه، جاءت كأنها نصف تأوه، وكأنها تفريغ للرئتين من الهواء لم يكتمل.

«أنا أعامل زوجاتي بالحسنى، لكل واحدة منهن غرفة نومها الخاصة بها. في نظري، هن جميعاً متماثلات، سوى أن بعضهن جدد والأخريات لسن كذلك».

أخيراً أطلق جمعة بقية التنهيدة. «نعم، أعني، ماذا فعلت شمسة في الواقع؟ لا شيء معيباً. كل ما فعلته هو أن جاءت لزيارة أهلها أثناء غياب زوجها».

«أحتاج أن تكون النساء جميعاً في البيت الآن». تكلم جاسم بتؤدة، ورفعت نورة حاجبيها لنعومة صوته، بنغمة سارة وبلطف جدول رقراق، ولكنه عندما استدار إلى حمد فإن الجدول الرقراق الذي رطب حلقه جفّ ثانية. «حسناً، إلى ماذا تنظر؟ أليس لديك شيء تفعله؟».

«ظننت أنك تريد مني أن آتي معك».

«لأجل ماذا؟ اذهب وأحضر تلك المؤن للبيت، وأنا سآخذ النساء إلى البيت».

تلعثم حمد: «ماذا أشتري؟».

«ألا تستطيع أن تفكر بنفسك؟ ألا يمكنك القيام بمهمة بسيطة بنفسك؟ أنت تعرف ما نحتاج إليه. الآن اذهب!».

همست لطيفة إلى نورة: «لماذا يغضبه الفتى ابن سرور، لا أعلم، فهو يعرف ما يحتاج إليه بيتنا: الأرز والليمون الأخضر والبصل والعدس والفجل».

الفصل الحادي والعشرون

كانت ذكرى هجوم جاسم على المجنون لا تزال طازجة في ذهنها، فشعرت نورة بالخجل وكأنها أرنب وديع. لم يكن زوجها رجلاً يمكن العبث معه ، فقررت بسرعة أن خير ما تفعله هو أن تظل صامتة إلى أن تصل إلى البيت.

كانوا قد أخذوا شمسة، ثم أسرعوا على ظهر حميرهم إلى وديمة مع غروب الشمس، عندما كانت حافة الشمس لا تزال تنضح النور في السماء. تابعت نورة انعكاس نورها على البحر من خلال شقوق برقعها ونسيج شيلتها، وراقبتها وهي تسكب بقايا نورها على الشاطئ وتصبغ الكثبان البيضاء التي ارتفعت في الجانب الآخر باللون القرنفلي المتورد.

وفيما بين الكثبان والبحر تكشفت وديمة في شكلها البيضوي المتطاول، الذي بدأ في أوله بمسجد وحانوت صغير، وانتهى ببيت واسع، بينما انحصرت بين هذه المعالم بيوت السعف التي كانت جدرانها المبنية من أغصان النخيل الخشنة تساير انعطافات الشوارع وزواياها.

مروا في طريقهم بغواصي اللؤلؤ وصيادي السمك الذين وقفوا على طول طريقهم، وهم يرفعون أيديهم بالسلام على جاسم، بينما اختلست النساء والأطفال النظر من خلال الأبواب، محاولين أن يروها؛ هذه أخيراً العروس الجديدة القادمة من مناطق بعيدة.

سمعت نورة كلامهم أيضاً: «أيهن هي العروس؟» كانت تعلم أنه من الصعب معرفة ذلك؛ إذ بدت مثل لطيفة وشمسة، عليهن عباءات كالخيام من مفرق الرأس إلى أصابع القدمين، ووجوههن مخبأة تحت شيلاتهن، وكلا الساقين يتدليان على جانبي كل من الحمير. وكانت تعلم أيضاً أنها عروس لم تصل هناك كما ينبغي للعروس أن تصل؛ فليست هناك عائلة توصلها، ولا أثر من احتفال. ولكنها لم تحفل بذلك، بل كل ما كانت تريده أن تتاح لها فرصة لأن تكون وحدها لكي تستطيع التأمل في شكل حياتها الجديدة.

كانت شمسة العروس المدللة، ففي رحلتهم في مقدمة سفينة الجالبوت، كانت لطيفة قد راحت تسرد لها وصفاً مفصلاً لكل العناية الخاصة التي حظيت بها شمسة عندما تزوجت من جاسم قبل ثلاثة أعوام. فقبل أربعين يوماً من عرسها انعزلت شمسة في غرفة خاصة في بيتها، بينما كانت أسرتها تحضّرها لحياتها الجديدة، حيث سمنوها بواسطة نظام غذائي يومي مكون من الحليب والبيض، وتم دهن بشرتها بصبغة النيلة

والـورس، وهـي خلطـة نباتيـة مـن الخـضرة الصارخـة التـي تبيّـض بـشرة الوجـه. وتـم تصفيـف شـعرها في تصميم مـدروس باسـتخدام أوراق اليـاس، ثـم إن لم يكـن ذلـك كافيـاً يتـم تعزيـز عطرهـا برشـة مـن مسـحوق بتلات الـورد العطريـة والزعفـران وجـوزة الطيـب. وقـد تمـت مراسـم التجميـل هـذه كلهـا خلـف أبـواب مغلقـة، بينـما كان أهـل القريـة يركـزون عـلى كل شيء آخـر يلـزم فعلـه.

تسـاءلت نـورة إن كان القرويـون قـد شـعروا بأنهـم قـد أهملـوا وخدعـوا بحرمانهـم مـن الاحتفـال. عندمـا تـزوج جاسـم مـن شمسـة انضمـت البلـدة إلى الاحتفـال ضمـن مظاهـر الفـرح الجماعـي التـي اسـتمرت أسـبوعاً بأكملـه. والآن هـي العـروس، وتدخـل بيـت أغنـى رجـل في وديمـة في أهـدأ طريقـة ممكنـة.

بعـد ذلـك تكلمـت لطيفـة، وكأنهـا قـرأت أفكارهـا: «كـم اختلـف الأمـر! لا فسـتان عـرس خـاص ليبقـى ذكـرى هـذه المـرة». كان صوتهـا يرتجـف مـع تسـارع خطـى حمارهـا بينـما كان يعـدو بجـوار حمـار نـورة: «أه، ثـوب عـرس شمسـة»، وتابعـت الـكلام: «كـم كانـت ألونـه متوهجـة: جميـع ألـوان قـوس القـزح المتدرجـة في خيـوط فضيـة مضفـورة، وإذا لم يكـن ذلـك كافيـاً .. اه، اه، اه، الذهـب الـذي غطاهـا. تعبـت فـترة طويلـة وهـي تحافـظ عـلى ظهرهـا مسـتقيماً»، وابتسـمت وتابعـت: «كـما تعلمـين، شـاركت كل نسـاء وديمـة في خياطتـه، مـا شـاء الله. لم يدفـع لهـنّ شيء، بـل غـداء فقـط طـول الأسـبوع».

دوّرت نورة شفتيها باندهاش. هل كان يسمح لها بالكلام؟ كانت لطيفة تتجاهل عبوس جاسم، حيث رافقهم كضباب كثيف منذ أن اكتشف أن شمسة خرجت من بيتها من دون إذنه. ماذا يا ترى سيفعل بهذه الزوجة الأولى الأكبر سناً؟ هل سيجلدها بالخيزرانة أيضاً؟

بدا أن لطيفة لم تعبأ بالأمر؛ فقد كان بشاشة وجهها تسبق الحمار الذي يتهادى وهي تتابع الحديث: «وذلك الشعر: ضفيرتان كثيفتان، ما شاء الله، نازلتان على خديها ومزينتان بالذهب الرنان. والبقية: ضفائر غطت رأسها: عشرون، ثلاثون، أو ربما أكثر، وكلها ملمعة ومتألقة. وعندما تحركت، ياه ...» هزت رأسها حين تذكرت: «كان ذلك حينما كانت الضفائر تتقلب بهذا الشكل، هياه، هياه...».

صمتت لطيفة قليلاً وانتظرت جواب نورة، ولكن نورة تمسكت بنذرها وأبقت لسانها ساكناً في فمها. وفجأة توقف الهواء عن الحركة، فشعرت بالاختناق تحت طبقات القماش الذي غطاها. هل كان ذلك التأثير بسبب لزوجة البحر؟

ازداد صوت لطيفة جرأة وقوة: «ثم كانت هناك ذبائح من الماعز، وتم تنظيف الأرز، وطحن الحبوب، وكل ذلك تم هنا في القرية. اه، كل ذلك الغناء بين ضربات مجاديف التحريك، وطحن تلك الحبوب في تلك الأوعية الضخمة. ثم طبخ الهريس، دون أن يتم دفع شيء، لاحظي، مجرد غداء طول الأسبوع».

بدا أن جاسم لم يمانع في دردشة لطيفة المفاجئة في نهاية المطاف، فهو حتى لم يعد بنظره إليها. راقبته نورة وهو يمشي متثاقلاً، وصامتاً ككيس من الأرز، وحمدت ربها لأنها لم تكن على استعداد لأن تتعامل مع أي أحداث بشعة.

قالت لطيفة: «ثم فاحت روائح عطر العود في كل مكان، وكذلك الغناء والرقص. كم كان ذلك رائعاً، وكم كان صاخباً كذلك».

أشارت فتاة صغيرة ونادت: «العروس! هي الثانية في المجموعة». ارتبكت نورة. كيف عرفت؟ ولم تدرك أنها الحناء إلا بعد أن تتبعت حركة إصبع البنت، حيث بهت لون الحناء حتى صار بنياً، ولكنها مع ذلك كانت تتصاعد واضحة للعيان من باطن قدميها.

«أنتِ هنا!» جاء صوت حاد من طفلة من خلف الباب المصنوع من خشب التيك الثقيل في بيت جاسم، وللحظة شعرت نورة بالبغتة؛ فقد فهمت من قبل أن بيت جاسم خالٍ من الأطفال.

انفتح الباب الصغير المقنطَر والمؤطَّر ضمن الباب الرئيسي الثقيل، وله صرير، وتحت رواق جميل وقفت فتاة / امرأة بدا أنها أصغر من نورة بعام تقريباً، وبشرتها أقرب إلى الزرقة

من السواد في ضوء الفانوس المتراقص الذي كانت تحمله، وتحت شيلتها، تم تقييد شعرها المموج في جديلتين محكمتين، وفتحت فمها في ابتسامة مبالغ فيها، وكررت: «أنتِ هنا، الحمد لله، أخيراً أتيتِ».

«نعم ياقوتة، نحن هنا، جميعاً وواحدة أخرى أيضاً». خفضت لطيفة صوتها وتحكمت به. فهمت نورة أنها تحاول أن تضبط هذه الفتاة المتحمسة، ولكن ياقوتة لم (أو لم ترد أن) تفهم، وبرقت أسنانها حينما أطلقت زغرودة من زغاريد الأفراح.

تكلمت شمسة الآن وقالت: «أيتها العبدة السخيفة ألا ترين أننا متعبات؟ اغربي عن وجهي!» ونزلت عن ظهر حمارها واندفعت بجوار ياقوتة، بين المشي والعدو، ودخلت البيت، بينما أخرجت يدها من تحت عباءتها التي تجرها خلفها، وضربت بها وبالسوار الغليظ على معصمها أضلاع ياقوتة.

«أووف!» انكمش فم ياقوتة حتى غدا مثل النقطة ثم انثنت وتراخت بشدة، ولكنها مالبثت أن قفزت متراجعة إلى الخلف على الفور، وبرز بياض عينيها وهي تقول: «هل أذهب وأرى ما بها، أرباب؟».

تكلم الأرباب قائلاً: «لا، دعيها».

نفخت لطيفة في برقعها نافثة انزعاجها، وتمتمت: «لا تهتمي بها. تعالي وساعديني على النزول من ظهر هذا الحمار السخيف».

مدت ياقوتة يدها، وأنزلت لطيفة مع سماع صوت المؤذن

ينطلق في الأجواء، بينما ارتخى ثقل جسم لطيفة على كتفها. كان وقت صلاة المغرب.

قال جاسم: «أنا ذاهب إلى المسجد. احرصن على ترتيب كل شيء قبل أن أعود».

قالت لطيفة: «سمعتِه»، وأومأت برأسها نحو نورة. «خذي العروس الجديدة إلى غرفتها، ودعيها تتوضأ وتصلي».

قالت ياقوتة: «نعم يا أمي لطيفة».

«علميها عاداتنا، كل شيء. كما ترين، فهي لا تعرف كيف نفعل الأمور هنا، في بيت حقيقي».

«نعم أمي لطيفة».

«بعد ذلك تعالي ودلكي لي ظهري». تحركت لطيفة بتثاقل إلى غرفتها، وأضافت: «لم يعد لدي عزم، ولا أدري إن كنت سأكون قادرة على الوقوف منتصبة القامة مرة أخرى».

بمجرد أن غادرت لطيفة، تمتمت ياقوتة: «افعلي هذا، وافعلي ذاك. تلك هي الحياة التي تحصلين عليها إذا كنت عبدة». وأشارت إلى نورة أن تتبعها حينما دخلت رقعة رملية مربعة كانت عبارة عن فِناء البيت المكشوف. سمعتا صياحاً وضحكاً وتوقفتا لتنظرا إلى أعلى شجرة السدر التي انتصبت في الوسط. كان هناك طائر المينا يتأرجح على أحد أغصانها الخشنة الملمس، ولم يبدُ لهم في ضوء المغيب سوى منقاره البرتقالي وذيله الأسود اللامع. قالت ياقوتة: «غريب! ماذا يفعل هذا في الأعلى في هذا الوقت المتأخر؟ فالمَينات لا تأتي مطلقاً في مثل هذا الوقت».

صوّت الطائر مرة أخرى وطار مبتعداً. أما ياقوتة فهزت كتفيها لا مبالاةً وأرجحت الفانوس إلى الركن البعيد من البيت، إلى باب فوقه قنطرة على هيئة حرف (ل). «ذلك هو المجلس في البيت حيث نجلس في الصيف». أصبح صوتها رصيناً، وفارقته تلك الحدة، ثم رفعت ذراعها إلى الأعلى نحو البرج المستطيل المرتفع في الأعلى: «أترين ذلك؟ إنه برجيل، فهو برج يسحب الهواء إلى داخل الغرفة وينشره فيها». لمع وجه ياقوتة في الهواء الساكن. «بالطبع، إنه لا يعمل الآن؛ لأن أرباب سدّه من أجل فصل الشتاء لكي لا يصيبه ضرر». صفقت الهواء أمام وجهها. «انتبهي، يبدو الجو اليوم وكأنه من أيام الصيف». أرجحت الفانوس إلى الجانب الآخر من البيت. «كما ترين، يوجد واحد آخر هناك يدخل منه الهواء إلى مجلس الرجال».

أومأت نورة مشيرة برأسها من هذا البرجيل إلى البرجيل الآخر، كأنها تريد أن يرشح من خلاله نسمة هواء؛ فقد كانت الرطوبة الدبقة تشبه جلداً آخر.

«على كل حال، لنقم بتجهيزك». التفتت ياقوتة وبدأت تمشي عائدة إلى المدخل، ملوحة بذراعها فوق كتفها نحو الغرفتين في الجانب الآخر من الجدار بين البرجيلين. «غرفة أرباب، غرفة أمي لطيفة». ثم الجدار المقابل. «غرفة شمسة».

دخلتا الغرفة المجاورة لغرفة شمسة بجوار مدخل البيت: غرفة نورة. وفي الجدار البعيد كان هناك باب يوصل إلى غرفة

أصغر حجماً، وكان هناك في الزاوية سرير مرتفع له أربعة قوائم، وإلى جواره كان هناك فانوس على مندوس خشبي، ولكن كان لا يزال كل شيء مظلماً.

قالت ياقوتة: «كيف تستطيعين أن تري خلال كل هذه الأغطية؟ أنت لا تحتاجين إلى أن تبقي كل هذه الملابس عليك عندما تكونين في البيت. اخلعيها جميعاً».

نسيت نورة تماماً أنها لا تزال مغطاة، فخلعت عباءتها وبرقعها، وتركت شيلتها تنزاح على كتفيها.

انبهرت ياقوتة ورفعت ذقن نورة. «جميلة، ما شاء الله. وجهك مثل وجه أميرة. والآن أخبريني، أيتها الأميرة، ما اسمك؟».

«نورة السالمي».

اشتكت ياقوتة: «ما هذه اللهجة؟».

تراجعت نورة، يا للجرأة!

«أخبريني، نورة السالمي»، قالت ياقوتة وهي تضحك، «هل يتحدث الجميع هكذا في المنطقة التي جئت منها؟»

«مثل ماذا؟» لم تشعر نورة بالارتياح بهذه الألفة السريعة، ولم تعرف كيف تتعامل مع هذه البنت-المرأة، المفعمة بالحماسة الطفولية وزوال الكلفة.

توسلت إليها ياقوتة: «هلمي، قولي شيئاً آخر، أرجوكِ أرجوك، أرجوك».

«ماذا تعنين؟ أنت تفهمين ما أقول، أليس كذلك؟».

نزلت ياقوتة على ركبتيها وانحنت بينما اعترتها رعشة من النشوة.

سمعتا الطرق على الجدار، بينما ارتفع صوت شمسة الغاضبة، فقد دفعها الغضب إلى الانفجار من التعب والتوتر. «يكفي! ألا ترين أننا بحاجة إلى الراحة؟».

قالت ياقوتة وهي ترفع يدها إلى فمها لتكتم ضحكتها: «صه، لا تحدثي أية ضجة».

«أنا لست صاحبة الضجة».

تابعت ياقوتة الضحك. «أريد أن أضحك بصوت عال، ولكنني لا أستطيع. يوجد كثير من الغضب في هذا البيت الآن».

يا له من استقبال! انتظرت نورة فوران ياقوتة التالي، وبدلاً من ذلك ابتلعت ياقوتة نشوتها وقالت: «فقط لكنتك مضحكة جداً»، ثم وقفت وذكرت كل الأقسام الأخرى من البيت، رافعة ذراعيها في حركات عريضة: «مرحاض في المنزل في الركن البعيد من الباحة!».

«في البيت؟».

«نعم، البيت الوحيد الذي يوجد فيه واحد، بينما يقضي الجميع في وديمة حاجتهم بجوار البحر أو في الكثبان».

قبل أن تتاح فرصة لنورة للمزيد من الأسئلة، وصفته ياقوتة لها: منصة مرتفعة فيها حفرة مبنية بالاسمنت مفتوحة إلى الأرض. «الحفرة مغطاة بقطعة من الخشب لكي لا تسقطي فيها!» ومرة أخرى حضنت يديها ونخرت، وتساءلت نورة كم هي مفعمة بالمرح هذه الفتاة.

مسحت ياقوتة الضباب عن عينيها وتابعت: «بالطبع، من أجل الغسيل والاغتسال، ما عليك سوى الذهاب إلى هناك». أشارت إلى الحجرة الصغيرة الملحقة. اختلست نورة النظر من خلال الباب، فقد كانت غرفة غسيل منخفضة السقف، تحوي وعاءً كبيراً من الفخار مملوءاً بالماء على أرض مغطاة بالإسمنت ومائلة بحيث يجري الماء بسهولة إلى حفرة في الزاوية.

سألت نورة: «أين تذهب تلك الحفرة؟».

«إلى الشارع؛ فهذا البيت مميز، يجعل الحياة سهلة، ويأتي الماء للاستحمام من البئر».

«هل علي أن أخرج وأحضر المياه إلى البيت كل يوم؟».

«تحضري المياه؟ ما شاء الله، هذا البيت له بئره الخاصة».

مسحت ياقوتة الهواء بذراعها في حركة قوية تدل على الأهمية. «في الخارج بجوار المطبخ».

«بئر في البيت أيضاً! هؤلاء الناس لا يحتاجون إلى أن يعملوا»، هكذا فكرت نورة.

«ولكن طعم بئر البيت مر وقديم، ولذلك نشرب الماء من بئر القرية».

«هل علي أن أحضر ذلك الماء؟»

«لا». ارتسمت آثار الحيرة على جبين ياقوتة المشدود. «يوسف بائع الماء يهتم بذلك».

«حسناً، ما هي واجباتي؟»

في هذه المرة لم تضحك ياقوتة، وبدلاً من ذلك، نظرت بعمق في عينَي نورة: «ألا تعرفين؟ واجبك هو أن تنجبي طفلاً».

نزلت نورة على ركبتيها أمام النافذة الوحيدة في غرفتها، وفتحت مصراعي النافذة. كانت قضبان سميكة تغطي الفتحة التي أطلت على الباحة، وتساءلت عن المنطق في ذلك. إن كانت مهمة الرتاجات هي حماية البيت من اللصوص، أليس المفروض أن يتم تثبيتها على جدار خارجي؟ إن كان الهدف منها منعها من الهرب، فإلى أين تذهب على كل حال؟

من مكان ما في الخارج جاء التنافس في المواء بين القطط. تأوهت وتركت بصرها ينتقل إلى أعلى شجرة السدر إلى أن وصلت إلى سماء نضبت منها الحيوية: قطعة من الفحم محتبسة في الباحة المربعة، بينما تصارع نقاط النجوم بعصبية لكي تمنحها الضوء. حضنت نعومة صدرها، وشعرت بضغط

ذراعيها، وتذكرت راشداً. لقد تخلى عنها واختار أن يتبع أمر أمه. وبدلاً من الكفاح من أجله سمحت نورة لاعتزازها أن يعترض طريق ذلك. ماذا كان بإمكانها أن تقول؟ هل كان ذلك سيحدث فرقاً؟ تأوهت. ما هي الفائدة من التفكير به الآن؟ لقد فات الأوان: فهي تخص رجلاً آخر.

كان البيت هادئاً. تمنت لو أنها كانت تتحرك، على مركب أو حمار، أو حتى أن تمشي فحسب. في هذا البيت كان الصوت الوحيد يأتي من المطبخ، حيث كانت ياقوتة تحضّر العشاء. فاحت الرائحة خلال الرتاجات على النافذة: سمك، وقد يكون شيئاً آخر أيضاً، ولكن رائحة السمك النفاذة كانت المنتصرة دائماً؛ إذ غطت على جميع الروائح الأخرى.

نهضت، حيث شعرت فجأة بالذبول بسبب التعب والإرهاق، وجلست على السرير. كان رأسها مائلاً على صدرها، وشعرت بدوار البحر، ولم تكن لديها شهية الآن، بعد أن أصبح وزن الحياة الجديدة ثقيلاً على كاهلها.

شمت رائحة البصل. في جبالها، كانت الرائحة ستسبح في الأجواء المفتوحة وترطب فمها. كان البصل هناك يدل على إقبال وجبة لذيذة ما، أما هنا فرائحته مصحوبة بالسمك، وتعلق بالهواء في رائحة مزعجة لا تذوب وتتلاشى.

انسابت لطيفة في الجانب الآخر من الرتاجات، يتبعها ذيل كثيف من الدخان. دخلت بينما كانت نورة على

وشـك أن تنـزل مـن السريـر احترامـاً للمـرأة الأكـبر سـناً، عندمـا رفعـت لطيفـة ذراعهـا. «لا، لا تقومـي. اجلـسي، اجلسي». وضعت لطيفة مبخرة وملة مملوءة بما بدا أنه طين أصفر على المندوس، وسألتها: «هل شعرت بالاستقرار، يا عزيزتي؟»أومأت نورة بالإيجاب، وعادت إلى موضعها، وشغلت بالها بضجيج الخارج.

قالت لطيفة: «أف! تلك القطط، طول الليل وطول الشتاء تتشاجر وتزعق على بعضها. من الصعب أن ننام بدون تلك الضجة». وتمتمت قائلة: «لا يهم، الحمد لله، نحن في أمان. والآن دعينا نتعطر».

تصلب ظهر نورة حينما رفعت لطيفة جدائلها وأدخلت المبخرة ، فغمرها الدخان برائحة العنبر وهو يتراقص صاعداً كالأفعى نحو السقف، وخلال لحظة امتص الرائحة السيئة والنتنة الصادرة من السمك والبصل اللذين يتم قليهما في المطبخ.

قالت لطيفة، وهي تعيد المبخرة فوق المندوس، غمست ثلاث أصابع في الطين الأصفر، ومررتها على طول الجزء الأوسط من رأسها وشعرها. «زعفران لتطييب رائحتك وجعلك باعثة على السرور». ثم غمسة أخرى بالأصابع قبل أن وضعت خطاً على كل وجنة، وقالت: «أعلم أن هاتين الخاطبتين حضّراك جيداً، ولكن ليس عليك أن تتبعي كل شاردة وواردة

قالتها لـك عندمـا يتعلـق الأمـر بهـذه الليلـة». بـدا عـلى صوتهـا الاهتـمام، وكأنهـا أم لهـا.

هكـذا كان الأمـر هـذه الليلـة. ارتجفـت قدمـا نـورة مثـل سـمكة ملقـاة عـلى الشـاطئ. لا مزيـد مـن الانتظـار. أعـدت في ذهنهـا قائمـة مـن التعليـمات التـي جعلتهـا سـكينة وكلثـوم تحفظهـا عـن ظهـر قلـب، وعرفـت أن لطيفـة لم تتحـدث عـن حيلـة نقـرة التمـر. «أي جـزء عـلي أن أتجاهلـه؟».

قالـت لطيفـة عابسـة برزانـة: «كل مـا قالـوه لـك جيـد، ولكـن الجزء الـذي تقاومينـه، حسـناً لا حاجـة لـك في الواقـع لأن تفعـلي ذلك».

كانــت هــذه نقطــة أصرت عليهــا كلثــوم؛ وهــي أن إحجــام العـروس بقـدر الإمـكان في ليلتهـا الأولى يؤكـد كرامتهـا واحـترام الـذات، فهـي بذلـك تثبـت أنـه ليـس مـن السـهل امتلاكهـا، وأنـه لا ينبغـي أن تؤخـذ بأنهـا مسـلم بأمرهـا.

«ماذا علي أن أفعل؟»

قالـت لطيفـة: «آه، ذلـك سـهل؛ مـا عليـك سـوى أن تسـتلقي عـلى ظهـرك وألا تفعـلي شـيئاً».

كان هنـاك قـط منتـصر في الخـارج؛ لأن أصـوات الخـدش توقفت فجـأة. تألمـت أصابـع نـورة في أشـكال معقـدة مـن التلـوي، حتـى تمنـت أن تصبـح ورقـة ذاويـة جافـة تتهشـم عنـد أول لمسـة مـن هـذا الرجـل، هـذا الغريـب، هـذا الـزوج، الـذي كان سـيأتي إليهـا بعـد أن تصبـح السـماء المتفحمـة دامسـة الظـلام.

الفصل الثاني والعشرون

وقفت نورة خارج باب غرفة جاسم. في ظل الرواق تبادرت إلى أذنيها بدايات نغمة كانت تعرفها جيداً، فقد كانت تسمعها في كل ليلة تقريباً على مدى الشهرين السابقين. بدأت ناعمة على شكل سلسلة من الدندنات المتقطعة التي كانت كوعد بأن تقود إلى أغنية منظمة، ولكن اللحن في ذلك الوقت انعطف بمراوغة في اتجاه آخر، حيث سقطت نغماته واحدة تلو الأخرى في خط طويل من الهرير - هرير قطة كدليل على السرور. كانت هذه الابتكارات الارتجالية البسيطة نغمات شهوته، النغمات التي صبغت الجو في كل مرة كان يشتهيها.

سوف يأتي إلي في هذه الليلة، خطر ذلك في بالها. سوف يحمل فانوسه و«كرشه»، ويأتي إلى غرفتي من أجل شيء من الحميمية. تقلبت معدتها بعنف وهيّجت الحموضة الجزء الخلفي من حلقها، وصارت تبلع بصعوبة. ثم تقاطر الشعور بالسقم نحو الأسفل. ومرة تلو المرة، راحت تبلع لكي تدفعه نحو

الأسفل. في تلك اللحظة، تم كبحه، تماماً كما تعلمت أن تكبت كثيراً مما شعرت به في حياتها بجوار البحر.

اتكأت على الجدار، وأغلقت عينيها، وهمست: «يجب أن أكون شاكرة. يجب أن أكون شاكرة لأنني تزوجته». شاكرة: كانت كلمة مميزة، وراحت تكررها لنفسها مرات ومرات، متعطشة لها لكي تشوش أفكارها وتحتبس بعضاً من الخدر في أطرافها لكي لا تحس به أبداً عندما كان يأتي إليها.

لم تنجح هذه العملية. حامت الكلمة لأقصر فترة، ومرت خلال ذهنها مثل نسمة خفية. هل يفترض بالمرء أن يكون شاكراً لضرورات بدنية أساسية أو احتياجات عاطفية؟ لقد كانت لغزاً لم يستطع عقلها الشاب أن يجيب عنه.

تنحنحت ونادت على جاسم: «العشاء جاهز». توقف اللحن فجأة فتمتم جاسم، وفهمت أنه سينضم إليهن بعد قليل.

خرجت نورة من ظلمة الرواق الواقية وعبرت الباحة لتنضم إلى الزوجتين الأخريين. كانتا جالستين على الأرض بجوار المطبخ، وسوقهما ممدودة، بينما اتكأتا بثقليهما على مرفقين منغرزين في وسادتين ثابتتين، وأمامهما كانت هناك مائدة طعام مصنوعة من سعف النخل، مع ملة مملوءة تمراً في جانب، وطبق من الفجل والبصل في الجانب الآخر. كان الطعام الساخن لا يزال في المطبخ، ليبقى دافئاً في قدر إلى أن ينضم إليهما أرباب البيت.

سألت لطيفة: «حسناً، أين هو؟ هل دعوتِه؟» وانتقل برقعها من جانب إلى جانب آخر وهي تطحن بأسنانها قطعة من الفجل. وخلافاً لنورة وشمسة، كانت لطيفة ترتدي برقعها في المنزل.

جلست نورة ومدت ساقيها أمامها، ثم قالت: «إنه قادم»، وانتقلت عيناها إلى وجه شمسة، الذي كان أبيض بلون الحليب، بلا عيوب أو نُدوب. أما بشرة نورة فلم تكن بنعومة بشرة شمسة المصقولة، النعومة التي تأتي من حياة منعّمة. ولم يسعها سوى أن تعجب لبياضها، الذي كان مفعماً بإشراقة القمر حتى في ضوء الفانوس الخفيف. وفوق أنف شمسة الدقيق كان حاجباها مائلين وموصولين، ولما رفعت أحدهما تبعه الآخر.

قالت لنورة: «إلى ماذا تنظرين؟ كما تعلمين، إن فعلتِ ما يلزم فعله فلن يتجاهلنا بهذا الشكل».

انتظرت نورة المزيد. كانت هذه الجرعة اليومية من مهانة شمسة، وذات يوم كانت تأمل لو تستطيع أن تدع شمسة تنفث غضبها دون أن يصيبها منه شيء، ودون أن تذكرها بأنها في هذا البيت كي تحبل.

قالت شمسة: «إنه راجع إليك أن تعطيه ذلك الطفل، ولكن لا يمكنك حتى أن تفعلي ذلك. لماذا يا ترى جاء بك إلى هذا البيت؟»

أرادت نورة أن تفصح عما في صدرها، وترد عليها الاتهام.

لماذا يا ترى لم تحقق شمسة واجبها؟ فهي في نهاية المطاف كانت رفيقته في الفراش لمدة ثلاث سنوات.

«انتظري فحسب بنت الجبال، دون طفل يعني: أنتي» - فأشارت بإصبعها إلى الباب - «إلى الشارع!»

انحنت لطيفة إلى الأمام وبدأت تكبس ركبتيها. «اسكتا، سوف يكون هنا حالاً، وأنتما تعرفان كم هو يكره الجدال».

ألقت شمسة بنظرة جانبية نحو نورة وجلست مستقيمة. رفعت كمها إلى كوعها، ورفعت يدها إلى جبينها لترتب غرتها، مع عدم حاجتها إلى ذلك. في النتيجة، كانت لها غرة قصيرة مثل نورة، مرتفعة على جبهتها، على هيئة خط عريض من أحد جانبي الصدغ إلى الجانب الآخر، ولم تكن شعثاء في يوم من الأيام، فذلك الأسلوب مصمم لإظهار جمال وجهها وهيئتها. لا! كانت تتباهى مرة أخرى، وليس مجرد بريق ذراعها العاجي اللون.

انزلق سوارها الذهبي الكبير برزاته السميكة إلى أسفل معصمها الجميل. كانت هناك الرفاهية التي ولدت فيها قد تبدّت وظهرت عليها من جديد، وفي كل مرة كانت تنجح في جعل نورة تشعر بأنها ضئيلة.

في كل مرة كان ذلك ينتقص الثقة المتبقية لديها. أدارت نورة الخواتم النحيفة الثلاثة على أصبعها الأوسط ودفنت كلتا يديها في الفراغ بين فخذيها.

نخرت شمسة: «لا أعرف ماذا يرى فيها. أعني، انظري إلى قدميها، أثخن من الجلد، طول عمرها تقفز على الجبال حافية القدمين، أخمن في نهاية المطاف أنهما ستصبحان قاسيتين مثل الأظلاف، وهو ما لا بأس به، على ما أفترض». تنهدت وأضافت: «بالنتيجة، ما هي إلا معزى أخرى من الجبال».

«عندما أقول يكفي، أعني يكفي». زادت لطيفة من شدة الضغط على ركبتها. «كم مرة يتعين علي أن أنهك صوتي معك؟ كم ناكرة للمعروف أنتِ. عندما كنت في سنك، كان علي أن أتحمل قدوم زوجتين صبيتين أخريين». توقفت لطيفة لكي تنفث تلك الحكمة المميزة التي حازت عليها خلال حياتها الزوجية الطويلة. «لم أجادل بهذا الشكل، وعندما توفيت تلك البنات المسكينات، رحمهن الله، جعلت زوجي يشعر بالسعادة بقدر ما كان يتمنى. لم أتذمر، ولم أزعجه بمثل هذه التفاهة». أغلقت عينيها وانتظرت رداً.

«نعم، أمي لطيفة، يا لها من حياة صعبة عانيتِها». همست نورة، وحاولت أن تتجاهل الابتسامة المتكلفة التي كانت شمسة توجهها نحوها حينما تربعت لتخفي باطن قدميها القاسيتين.

رفت أهداب لطيفة وفتحت عينيها، يغشيهما الانفعال. «لا تدريان كم محظوظتان أنتما. كل ما يشغل بالكما هو التفاهات. عندما كنت الوحيدة، كنت أقوم بكل واجبات المنزل، وأتجاهل كل الآلام في ظهري وركبتي وفي سائر جسمي». ازداد صوتها قوة.

«لا شكاوى. كنت أطبخ وأنظف وأغسل. لم يكن لدي سوى أم ياقوتة لتساعدني، رحم الله روحها، ولكنها ضعفت وقمت أنا بأداء معظم الأعمال. على الأقل الآن أنتما الاثنتان عندكما ياقوتة تساعدكما، صبية وقوية، وليس عندكما أعمال شاقة تفعلانها».

سمعت نورة جلبة القدور في المطبخ. لماذا لم تكن ياقوتة معهن فلعلها كانت ستقول شيئاً (الحقيقة!)، وتكشف كيف أن لطيفة لم تفعل سوى أن تآمرت على أمها، وكيف أن أم ياقوتة كانت هي التي تنظف وتغسل وتطبخ على مدى سنوات وسنوات. لعل ياقوتة كانت ستأخذ أفكار نورة وتلقيها في وجه شمسة أيضاً. على أية حال، كان بإمكان ياقوتة أن تقول ما تشاء، وعلى الرغم من أن لطيفة وشمسة قد تصرخان في وجهها، فإنهما لم تكونا تريان أن لها أهمية تدفعهما إلى مجادلتها؛ فقد كانت أَمَة العائلة في نهاية المطاف، مثل والديها وجدتها وجدها قبلها، المفروض أن تُملك وأن تعمل، لا أن تجادَل. «كما ترين، عقلها ليس كعقل الأحرار!» كانت لطيفة تقول ذلك دائماً. «لذلك على المرء أن يترك مجالاً لسخافتها».

حينما سمعن صرير باب غرفة جاسم، راقبت نورة تَلَوُّن وجنتي شمسة المشرقتين. فمنذ وصولهم إلى وديمة، كانت شمسة تتلقى باستمرار نظرات صارمة من زوجهن. وقد تجاهلها زوجها ورفض أن يزور غرفة نومها، ويبدو أنه لم يسامحها على لجوئها لبيت أبيها أثناء غيابه. ضربت شمسة

راحة كفيها بالأرض ونهضت بتأفف غاضب، ورفست ثوبها أمامها ومشت إلى غرفتها.

هزت لطيفة رأسها وطقطقت بلسانها. «مرة أخرى؟ لماذا تفعل ذلك بنفسها؟» مرة أخرى، كما في كل ليلة، كانت تعطيها لطيفة فرصة لأن تذرف بعض الدموع قبل أن ترسل عشاءها إلى غرفتها، ثم بتصفيقة مفاجئة، قالت لطيفة: «ما زال الأمر كما هو عليه الآن، وسوف يتعين عليها أن تتعلم أن تقبل الوضع».

حينما شاهدوا جاسماً قادماً عبر الباحة الرملية، مالت لطيفة مقتربة من نورة وهمست بصوت رصين: «والآن استمعي إلي، نورة الصبية. الليلة، عندما يأتي إليك، استلقي ساكنة تماماً». سكتت لبرهة، واستلفتت نظر نورة، كما لو أنها تملي عليها وصفة سرية، ثم تابعت: «إن فعلت ذلك فسوف تستقر البذرة في أحشائك، وعندئذ يمكن أن تتطور لتصبح الطفل الذي نريد».

في تلك الليلة، انتظرت نورة وقع الخطوات المألوفة، أصابع القدمين المنزلقة التي تحمل جاسماً إلى غرفتها، وتمنت أن يأتي الطفل سريعاً، وعندها فقط سيقل اهتمامه بها.

تقعر ظهرها وذوت ساقاها على جانب السرير، وهي تنتظر وصوله. سمعت شهقة من الغرفة المجاورة: نشيج شمسة الذي لا يصدر عن حب بقدر ما يصدر عن الإخفاق، الإخفاق في

إنجاب طفل، أو ربما لخسارة مكانتها كزوجة جديدة، الزوجة المفضلة في البيت.

كم كانت تتلون بسرعة، هذا ما فكرت به نورة؛ فوجهها الناعم لم يخلق ليتعامل مع الحزن. كانت تخرج كل صباح بعينين منتفختين وأنف قرمزي اللون، وكانت نورة تتساءل دوماً كم من الدموع كان مختزناً في تلكم العينين. كانت نورة تتمنى أحياناً لو تستطيع أن تبكي بذلك الشكل، ولكن عينيها قد جفتا منذ أمد بعيد، عندما أرسلها صقر بعيداً، وعندما بدأت حياتها الجديدة في هذا البيت ذي الجدران الطباشيرية، أما الآن فلم تعد تشعر فيهما إلا بوخز المذلة والمهانة.

ها قد وصلت، الخطوات المتثاقلة المشحونة بالشغف، توقفت عند بابها. سمعت صرير الباب، وسعل جاسم ودخل الغرفة. لم تفهم لماذا ما زال يصر على النحنحة في كل مرة كان يأتي إليها. هل كان يظن أنها لم تسمعه؟ أطرقت برأسها، في انتظار أن يرفعه هو. أليست تلك هي الحال التي يجب أن تكون الزوجة عليها؟ صبورة، مطيعة، تماماً كما أوضحت لها كلثوم وسكينة. تتبعت عيناها ظله، وهو يتحرك، على الجدار، وأمسكت نفسها.

شعرت بيده السمينة على ذقنها، ترفع وجهها إلى أن التقت عيونهما. صدر بريق من إطار نظارته (كان يضعها دوماً على عينيه)، ومن خلف العدسات بدت في عينيه الجدية، كما لو أن ذلك كان أهم حدث في ذلك اليوم.

حدقت نورة في السقف والعوارض الخشبية المثبت عليها. كم كانت تعرف جيداً تلك العوارض المصمتة البنية اللون. وفيما بين أطوالها الداعمة كانت الأحجار متداعية. وراقبت بقع الغبار على شكل رذاذ نازل، حيث غلفت مؤخرة رأس جاسم وسبحت حتى عينيه. تبللت عيناها وهي تقاوم الغريزة لكي تصرف عنها الإثارة، وقررت بدلاً من ذلك أن تفرض غشاوة على هذه اللحظة من الارتباك الخاص.

برز لها صديقها الليلي، إذ خرج البرص الصغير من تحت أحد العوارض الخشبية، وتوقف ثم راح ينعطف برأسه، وللحظة حدق نظره فيها، ثم أطلق لسانه إلى الخارج وأجهز على حشرة لم تستطع أن تراها.

توهج اللهب على المندوس المجاور للسرير، وألقى بظلهما على الجدار. كان هناك رأسها، وانحناءة أنفها مشيرة إلى السقف.

سمعت صوت اصطدام فراشات العث تصطدم ببلورة الفانوس، مضيفة صوت اصطدامها السريع إلى أصوات نخر جاسم، ثم كان هناك التوهج، ورائحة أجنحتهما الهشة وهي تغوص في حرارة الموت.

لعل الأمر سينجح هذه المرة، دار ذلك في خلدها. فالطفل لن يضع نهاية لزياراته الليلية فحسب، بل سيملأ ساعاتها الفارغة. أطبقت عينيها وركزت على أمنية حملها.

الفصل الثالث والعشرون

إذا وقفت ساكنة تماماً فقد تصيبها نسمة هواء. جلست نورة القرفصاء تحت البرجيل في غرفة العائلة وانتظرت. ولكن لم تتسرب أي نسمة خلاله؛ فقد تبخرت أيام البرودة منذ أمد طويل، وأعلن الصيف قدومه اللاهب.

كانت نورة تقفز فوق سفع الرمال، وعبرت الباحة إلى الباب الداخلي لمجلس الرجال، الباب الذي ينفتح على داخل البيت. كان الوقت لا يزال مبكراً بعد الظهر، ولم يكن زوار جاسم اليوميون هناك بعد. كانت أرضية مجلس الرجال عالية، تصل إلى مستوى قاعدة النوافذ الخارجية الكبيرة، وكان البرجيل هناك أيضاً يمدها بنسمات هواء أكثر قوة.

كان الباب مفتوحاً، وفوجئت بسماع أصوات قادمة من الداخل. اختلست نظرة وشاهدت حمداً وهو يحمل دلة قهوة في يد، والفناجين المكدسة في اليد الأخرى، بينما وقف بين جاسم الجالس والنوخذة هلال، رئيس الملاحين الذي قاد

السفينة التي أتت بها إلى ليما، حيث كان يستعرض قائمة من المشكلات الجانبية المتعلقة بالغوص الكبير القادم.

قال النوخذة: «والرجال بحاجة إلى فلوس - سلف نقدية - لكي تستطيع أسرهم تدبير أمورهم إلى أن يعودوا من البحر».

قال جاسم متبرماً: «بالطبع يحتاجون، ككل سنة».

الفلوس! كان لها قوة تلوي وجه جاسم. لاحظت نورة جانب فمه يتحول إلى خربشة ارتفعت حتى أنفه، بينما بقيت عيناه مختبئتين خلف نظارته التي كانت شبه مغبشة من الرطوبة.

سكب حمد قطرات من القهوة في الفنجان العلوي من كدسة فناجينه وسلمه إلى النوخذة، وبينما انتظر لكي يملأه من جديد، بدأ يتكئ على البرجيل، حيث بدا هو أيضاً يسعى وراء تلك النسمة المراوغة.

سأل جاسم: «كم واحداً يحتاج إلى فلوس هذه المرة؟».

«جميعهم»، أجاب النوخذة، وأعاد فنجانه الفارغ وهو يهزه إلى حمد.

«ماذا؟» نزع جاسم نظارته ومسحها بدشداشته. كان بإمكان نورة أن ترى التجهم والدهشة في عينيه. «كنت أعرف أن بعضهم يحتاج إلى نقود، ولكن جميعهم؟ كم عددهم جميعاً؟ عشرون غواصاً، وعشرون «سيباً»[1] آخرون؟ معظمهم لم

(١) هو الشخص الذي يشد الغواص بالحبل.

يغطّ سلف العام الماضي بعمله. ماذا يظنون؟ أنه من السهل تحصيل النقود؟» تأوه ونظر شزراً نحو الباب الآخر، الباب المفتوح على البحر، كما لو أنه كان فارغ الصبر لقدوم بقية زواره اليوميين، وكما لو أنه يتمنى أن يأتوا ويغيروا الموضوع. ولكن كان الوقت مبكراً على قدومهم بعد الظهر.

حاول النوخذة هلال من جديد: «أنت تدري، أرباب، أن الوضع ليس جيداً أخيراً، وقد ازداد صعوبة العثور على اللؤلؤ. أنا لا أدري في الواقع ماذا يجري؟»

«حسناً، ماذا تريدني أن أفعل؟ أضع لؤلؤي في الصدف؟ أنت تفقد سيطرتك على الرجال»، أصبح صوته قاسياً، «يجب أن تكون أكثر صرامة. قم بتقنين هؤلاء الغواصين، يا رجل، اقتصد فيهم. إذا لم تدفعهم للعمل بكامل قدرتهم فسوف يفقدون قوتهم ويصبحون مترددين مثل النساء العجائز. اجعلهم يمكثون في الأسفل مدة أطول، بحيث يصبح نفسهم أطول في المرة القادمة، والمرة التي بعدها، فقط عندها سيسعون للبحث عن المزيد والمزيد من الأصداف».

تنهد النوخذة هلال: «نعم، أنا أعرف ما تقوله، ولكن إن دفعتهم للمزيد من الغوص أكثر من سبعين أو ثمانين مرة كل يوم، فسوف يزداد مرضهم عما كانوا عليه من قبل».

«نحن لسنا هنا لنقوم بتمريضهم».

«البحـر قـاسٍ عليهـم بالفعـل، يضعـف بصرهـم، ويفسـد سـمعهم، ويضعـف رئاتهـم، والجنـون عندمـا تتلبسـهم روح شريرة، أحيانـاً أنـا لا ...».

قاطعـه جاسـم: «نعـم، نعـم، نعـم. أنـا أسـمع مـا تقولـه». غمغم وأعـاد نظارتـه إلى موضعهـا. «ولكـن عـلي أن أقلـق عـلى تجهيـز المركـب وإطعامهـم، ثـم في نهايـة الرحلـة أحصـل عـلى أصـداف فارغـة؟ هـل تقـول إن هـذا عـدل؟».

أجـاب النوخـذة: «لا، لا أقـول ذلـك، ولكـن أعـرف، إن شـاء الله، هـذه المـرة سـتكون الأمـور مختلفـة، أنـا أخطـط للبحـث عـن شـعب مرجانيـة جديـدة».

«شـعب مرجانيـة جديـدة؟ هـل يوجـد مثـل هـذا الـشيء؟». ونفـش جاسـم مؤخـرة دشداشـته، محـاولاً أن يجفـف الرطوبـة التـي أحاطـت بمؤخـرة عنقـه. «قمنـا عـلى مـدى مئـات السـنين بجمـع الأصـداف مـن جميـع أنحـاء الخليـج، ولا أظـن أن هنـاك شُـعباً مرجانيـة سريـة في هـذه الميـاه».

راقبـت نـورة النوخـذة وهـو يومـئ بالإيجـاب، وتمنـت أن يكـون ذلـك هـو خاتمـة الحديـث. كانـت تريدهـم أن يغـادروا. كانت نسـمة تداعـب قطعـة متدليـة مـن غـترة حمـد الملفوفـة كالعمامـة، وكانـت تريـد أن تتسـلل وتأخـذ مكانـه. سـمعت بطـن جاسـم تقرقـر طويـلاً، وبـدأ يعـاني مشـكلة في الهضـم، عرفـت ذلـك الآن؛ فهـو إن تحـدث طويـلاً عـلى المنـوال نفسـه فإنـه يبـدأ بالتجشـؤ، وهنـاك

تحولات أخرى أصبحت على علم تماماً بها. كلما تعين على جاسم أن يدفع، فإنه يصبح سريع الغضب ويفقد صبره عند أصغر الأمور، ويكتئب على مدى أيام طويلة.

قال النوخذة هلال بصوت أشبه ما يكون بالهمس: «وهناك قارب صيد اللؤلؤ أيضاً».

«ماذا به؟»

«أخبرتك عنه من قبل، فهو يحتاج إلى بعض الإصلاحات».

«نعم، نعم، نعم. كم من أعمال الإصلاح؟».

«صيانة عامة، وهناك تسرب بسيط في البدن، ليس خطيراً، ولكنني سأشعر بمزيد من الأمان إن أصلحته قبل الانطلاق». أخرج الكلمات بسرعة، كما لو أن الإسراع سيمتص انزعاج جاسم.

قال جاسم: «الجميع يريدون أن ينقبوا في جيبي ويأخذوا قطعة من كرمي».

«ما شاء الله، أنت كل الخير والطيبة».

تجشأ جاسم وقال: «انظر، سأرى كم أستطيع أن أعطي، وسأتأكد من دفتر حساباتي. أنا لست غنياً إلى تلك الدرجة، كما تعلم. وعلاوة على ذلك، سأقوم برحلتي الخاصة إلى الهند، وهذه تحتاج إلى مال أيضاً».

تدلى فك نورة، فزوجها سيسافر! كان ذلك أفضل خبر سمعته منذ قدومها إلى وديمة، فسوف تترك وشأنها، أخيراً.

الفصل الرابع والعشرون

على مدى أيام، شعرت نورة بنشاط فكرت أنها فقدته. قامت بتمهيد الرمل في باحة الدار، وكنست الغرف، وحلبت الماعز، وأعدت الشاي، وعجنت العجين، وأشعلت موقد القهوة. وعلى الرغم من أن جاسماً لم يعلن بعد عن المغادرة، فقد كانت تتطلع إلى ذلك اليوم.

في وقت متأخر بعد العصر، أخرجت بعض المواد القطنية الوردية اللون التي كانت قد سقطت من بعض القرويات، وبفضل لطيفة أشاعت الخبر حول ما سمّي «مزايا عضوة العائلة الجديدة، زوجتنا الثالثة، الزوجة الطيبة»، واكتشفت القرية بكاملها في وقت مبكر موهبة نورة. وكانت لطيفة قد وصفت نورة بأنها خياطة محترفة وبارعة. كانت مهارة أضافتها إلى الميزتين الأخريين الأكثر أهمية واللتين ينبغي لكل زوجة أن تحظى بهما: ردفين متناسقين لائقين لحمل الأطفال، وشعر ناعم وطويل.

كان ثمة هدوء في الباحة؛ فجاسم لم يعد من متجره في ليما، أما شمسة ولطيفة فكانتا خارج البيت في زيارة. كانت نورة على وشك أن تبدأ قص القماش عندما سمعت ثغاء الماعز المألوف عند مدخل البيت، إذ كانت تعود دوماً في هذا الوقت بعد تجوالها في القرية طوال اليوم. مشت نورة بتؤدة نحو الباب وأدخلتها، ووجهتها نحو الحظيرة المحاطة بالأسلاك بجوار مجلس الرجال، حيث تمضي الليل إلى جانب الدجاج.

قالت: «الطعام لكم». أعجبت بالنغم الذي جمل صوتها، وسكبت الماء من الرز المغلي من الغداء في طبق الشرب وأضافت لها بعض الحشائش.

«تعالي، تعالي، انظري...».

كانت نورة قد نسيت ياقوتة. «ما هذا؟» قالت ذلك، متأسفة على الفور على المقاطعة الخشنة من جانب ياقوتة. لم تكن ثمة حاجة لأن تنفجر في وجهها بذلك الشكل؛ فقد وقفت ياقوتة إلى جانبها كلما استطاعت ذلك. وعلى الرغم من عدم انضباط لسان ياقوتة وعوائدها غير المتوقعة، فقد أحبت نورة أن تنظر إليها كصديقة في هذا البيت المفعم بالحزن. «ما هذا؟» قالتها بلطف هذه المرة.

أمسكت ياقوتة براحة كف نورة وسحبتها نحو غرفة جاسم، وأرجحتها إلى جانب الباب نصف المفتوح، ووضعت أصبعها على فمها: «صه ...».

تفاجأت نورة بأنها لم تسمع بعودته. كان هو هناك، جالساً على البساط، الذي ملأ الغرفة بألوانه ورسومه الزاهية التي أخذت أشكال الأوراق والأزهار. كان مولياً ظهره لهما، وهو متربع أمام خزانته الخشبية الثمينة. كانت نورة تعرف جيداً تلك الخزانة الكبيرة ذات الأبواب الثلاثة، فقد كانت تتفحص كل تفاصيلها كلما كانت تنظفها. كانت رسوم الأغصان ذات الزهور الدقيقة المتفتحة تبرز فوق جوانب أصيصين محفورين بشكل مفصل متوجين لها، ذلك حيث كان يخبئ مفاتيح الخزانة.

راقبت جاسماً يمرر أصابعه فوق حواف الخزانة، وعلى طول شكل الأزهار الدقيقة بأشجار الكرمة النحيفة التي تشابكت وتفتحت في أزهار الزينة: الورد والأقحوان والياسمين. وقد بدا هو أيضاً مسحوراً بجمالها إلى أن علق بتأمله في بريقها البني العميق. اتكأ إلى الخلف ورتب شعره المتضائل، ثم ربت على اللحية الخفيفة على ذقنه قبل أن يدع يديه تنزلان على فخذيه.

أطلقت ياقوتة كلمات هامسة سريعة: «اشتراها من بومباي، وكاد يموت لكي ينقذها عندما ضربت عاصفة المركب الذي كان يحملها».

وضعت نورة كفها على فم ياقوتة لتغلقه، وأدركتها قبل أن تنفلت منها سلسلة من الضحكات.

لمس جاسم قبضة الكريستال المنحوتة، وفتح قفل الباب

الأوسط، ثم فتح الباب على مصراعيه. في الأسفل كانت توجد خزنة قام بفتحها.

همست نورة: «لنذهب».

«لا، ابقِ، أودك أن تري ما في داخلها»، قالت ياقوتة ذلك بصوت منخفض، وعيناها تتوقان للمعرفة.

أدخل جاسم يده في الخزنة، وأخرج منها قطعتي قماش معقودتين، ووضعهما على الأرض، ثم أخذ نفساً عميقاً وعبث بأصابعه كما لو كان سيلمس قدراً عميقاً، قبل أن يحل الصرة الكبرى، انحلت العقدة وبرزت منها مجموعة من اللآلئ، وغاصت يده في بركة من التألق.

دارت الأضواء والظلال على اللآلئ التي كانت حباتها بحجم الحمصة وهي تتساقط من أنامله، ثم فتح الصرة الثانية وترك مزيداً من اللآلئ الثمينة تتدحرج: عشر دانات كبرى استقرت مثل ملكات رائعة الجمال بدت اللآلئ الصغيرة قزمة بجوارها.

همست ياقوتة: «ثلاث من الدانات كانت لجده، ورثها أبوه، وبعد ذلك تم تسليمها له، البدين المحظوظ. أما اللآلئ الأخرى فهو الذي جمعها».

التقط جاسم بدانة وقبض عليها بإحكام، وانطلق منها بريق وردي مميز حين سقط عليها الضوء المتسرب من خلال النافذة. فغرت نورة فاها، ولم تستطع أن تصرف نظرها بعيداً عن هذا

العدد الكبير من ظلال الألوان البراقة. من شدة استغراق نورة لم تسمع صرير باب المدخل، وما شعر إلا وياقوتة تجذب ذراعها وتسحبها إلى داخل غرفة لطيفة. كان ثمة أحد قادماً.

سال لعاب نورة على جانبي فمها، فمسحته بسرعة، بينما شاهدا حمداً يعبر الباحة ويدخل غرفة جاسم.

قالت ياقوتة: «تحت سحر اللؤلؤ، هه؟».

قالت نورة: «كلام فارغ»، وشعرت بالحماقة من الطريقة التي فغرت بها فاها طول الوقت. «هي مجرد لؤلؤ، لؤلؤ يعرض الرجال حياتهم للخطر لكي يلتقطوه من أعماق البحر، لؤلؤ يجعل رجالاً من أمثال جاسم أغنياء». وفيما بينها وبين نفسها تساءلت كم ثمن تلك الدانة، هل يمكنها أن تضعها في جيبها وتشتري لنفسها حياة أخرى؟

«لا تفكري أنك تستطيعين لمسها». بدا تحذير ياقوتة المشؤوم مثل صوت الصاعقة: «السرقة حرام».

وجهت نورة إليها نظرة شرسة: «سرقة؟ هل تقولين إنني لصة؟» كانت تلك أفكاراً ككل تلك الأفكار المتراكمة التي طفت في رأسها. كيف تجرؤ أمة أن تتهمها؟

أجابت ياقوتة بغمزة وثلاث أرجحات تعمدتها من أردافها.

ذلك أمر كلهم يتقنونه، هؤلاء السود، يتحركون كالملائكة، ويتحدثون مثل الشياطين. «أنا لست حرامية، أتسمعينني؟»

أدارت ياقوتة وركها ورفعت حاجبها الذي رسم خربشات على جبينها العريض، وكان على نورة أن تعبس، وعادت ياقوتة إلى إلقاء بكلماتها.

عاد حمد، ووقف في وسط الباحة، وحدق في شجرة السدر.

قالت ياقوتة: «والآن ماذا يريد أن تفعل له هذه الشجرة؟ تنحني وتعطيه بعض أوراقها؟»

أوشكت نورة على الضحك عندما لكم حمد في الهواء ورفس برجله الرمل. حتى في النور المتلاشي كانت حمرة دمه قد تسربت بوضوح إلى خدّيه.

قالت ياقوتة: «ما مشكلته؟».

قالت نورة: «لا أدري».

في اليوم التالي عند الفطور قام جاسم بإعلانه، سوف يسافر إلى الهند، وسيبقى حمد بعد سفره ليعتني بهم.

ابتسمت نورة في قلبها، فمع مغادرة جاسم، يمكن أن يرتاح ذهنها في الليل، وسوف تتمكن من الاستماع إلى هدير البحر في غرفتها المشبعة بنور القمر. كانت تعلم أنها سيتعين عليها أن تتعامل مع شمسة أثناء النهار، ولكن تلك الليالي! كم ستكون ليالي سعيدة، حيث ستكون قادرة على إغلاق عينيها والخلود لنوم عميق.

بعد الفطور اتجهت شمسة ولطيفة إلى غرفتيهما (كانتا دائماً

ترتاحان بعد الوجبات)، وذهب جاسم إلى متجره. كان ذلك هو الروتين، وكان لنورة أيضاً عاداتها، حيث تدخل إلى مجلس الرجال وتحدق في البحر من خلال النافذة الخارجية.

دخل حمد البيت حاملاً كيساً من الرز، حينما عبرت هي الباحة. لمحت التمزقات الصغيرة في حاشية دشداشته، وفكرت أنه من السهل إصلاحها. كل ما عليها فعله هو أن تفتح كفة الحاشية وتثنيها وتثبتها في مكانها بصف من الدرزات وكل ما عليه فعله هو أن يطلب، غير أن حمداً لم ينظر إليها، وإنما مشى مباشرة إلى المطبخ وفمه مطبق بإحكام.

جثت على ركبتيها بجوار نافذة المجلس، وحدقت من خلال القضبان. على الرغم من أن الوقت لا يزال مبكراً، كان الهواء الذي تستنشقه دافئاً ورطباً بالفعل، كما لو أنه تعرض للغلي مرات ومرات قبل أن يترك ليبقبق، وأمامها كانت سماء الصيف الخاملة، وقد بيضتها الشمس التي استقرت ككتلة سديمية. كان هناك الكثير من الوهج حتى إنها اضطرت إلى النظر بعينين نصف مغمضتين إلى الصيادين على الشاطئ، يصلحون شباكهم، والبحارة ينحنون على قطع من الخيش فوق الرمال، يشكلونها ويخيطونها على شكل أشرعة. وتحت أحد أكواخ البرستي مفتوح الجانب - هو عبارة عن مدرسة القرآن الكريم - جلس الأطفال، وهم يميلون إلى الأمام والخلف وهم يتلون آية من القرآن.

انضمت نورة إليهم، تهمس بالآية الكريمة في صدرها. وعندما توقفوا توقفت إلى أن صحح المعلم لهم لكي يعيدهم إلى الصحيح، وهذا بالضبط ما كان أبوها يفعله ليعيدهم إلى الصواب. كان ذلك بالضبط ما فعله أبوها عندما علمها وصقراً تلاوة القرآن الكريم.

ثمة كتلة اتسعت في حلقها. كم كان أبوها واسع الصدر معها، فكلما صعب عليها أمر في دراستها كان يحدجها بنظرة صارمة ويعلمها أن تزيد من التركيز، أما مع صقر فقد كان الأمر مختلفاً؛ إذ كان يستعمل غصناً خشناً لمعاقبته بضربة على راحة كفه اليسرى أو في المرات القليلة التي كان فيها إبراهيم يعارض باحتجاج الطفل الضعيف، كان يضيف إبراهيم ضربة خفيفة أخرى على راحة كفه اليمنى.

حتى في تلك السن الصغيرة من ستة أعوام أو سبعة، كانت نورة تشعر بألم أخيها. كانت تتبعه بعد الدروس حيثما ذهب، ولكن صقراً كان دائماً يبعدها عنه، وفي نهاية المطاف كانت تجلس عن بعد وتراقبه. كان دوماً يعثر على فجوة معتمة يتكوم فيها، وكانت نورة تنتظره حتى ينتهي من معالجة ألمه.

«أنت الزهرة التي يرويها وأنا العشبة الضارة التي يجلدها!» كان صوت صقراً دائماً مفعماً بالغيظ. «هل يا ترى بقي هذا الغيظ معه طول الوقت؟ وهل كان ذلك هو السبب في أنه

أصبح رجلاً غاضباً وعبوساً؟» كانت نورة تتساءل أكثر فأكثر عن تلك الأمور، فيما إذا كان يحقد عليها كثيراً حتى أبعدها.

تنهدت وتركت عينيها تجولان في الأفق. في مكان ما هناك كانت جبالها، تلك القمم من زمن آخر وحياة أخرى. أغمضت نصف إغماضة وتظاهرت أنها تستطيع أن تراها، وتخيلت شكلها المتعرج. أين أبوها يا ترى؟ هل هو حي؟ وإخوتها؛ هل يدبرون أمورهم من دونها؟

ها هي تهرب إلى جبالها من جديد، كما كانت تفعل غالباً. ما الفائدة؟ هزت رأسها بشدة لكي تطرد تلك الحياة الأخرى، لتعود إلى ارتفاع أصوات الأطفال وانخفاضها، إلى أصوات وديمة التي امتلأت دوماً بصوت تلاطم الأمواج ومواء القطط. ثقلت عيناها وتثاءبت، هذا يوم شأنه شأن الأيام الأخرى.

في تلك الليلة حدث أمر؛ جلس جاسم ليتحدث معها؛ عبر لها عن امتعاضه بسبب إخفاقها في أداء مهمتها، المتمثلة في زراعة الولد.

ماذا يعني. «أنا .. أننا ..» قالت ذلك على عجل. هي تخيلت أنها واقفة عند الباب الأمامي في اليوم التالي ببضعة أشياء تملكها، ومطرودة من البيت لأنها لم تستطع أن تنجز دورها كزوجة.

طقطق جاسم بلسانه. «قالت إن هناك طفلاً، هي قالت ذلك».

لم تجب نورة.

«هل استغبتني؟ والآن، ما الذي قالته؟ أبقي الأمل حياً؟ يا للغباء». راح يمشي حول السرير إلى جانبها. «أي أمل هناك إن لم تحاولي؟» التقط الفانوس ورفعه فوق رأس نورة، وحدق بعمق في عينيها، ثم تمتم: «اصبر وسوف تنال حلمك، ذلك ما قالته».

انكمشت نورة مرتعدة، وأحست بثقل شديد في رأسها حتى إنها خشيت أن يكون قد غاص في الفراش. تمنت أن يبتعد. ابتلعت ريقها بصعوبة وعثرت على صوتها: «من؟».

«تلك الساحرة القبيحة في الجبال! كثير من التضحيات علي أن أفعلها، والعديد من التعليمات أعطتني إياها، وأنا اتبعتها جميعاً. جلست وفوق رأسي نباتات ذابلة، واستمعت إليها في ذلك الكوخ الممتلئ بالقوارير والقوارير و ... و... أشياء ميتة». ارتعش، وأضاف: «وفي النهاية، ما هي مكافأتي؟ لا شيء».

«كله بإرادة الله. هو... »

ولكن جاسماً لم يدعها تكمل. وضع أصبعاً مكتنزة باللحم على شفتيها وأحنى رأسه قريباً من رأسها، وعندما أطبقت نورة عينيها أمرها أن تفتحهما وتبقى هادئة. عادت بنظرها إليه وبدت عليها الحيرة. وأخيراً نطق: «أريد اللهيب في عينيك الذي تخبئينه عني».

ماذا يعني بذلك؟ وعن أي لهيب يتكلم؟ هو لم يقل، وهي لم تسأل.

بدلاً من ذلك، كان في كل ليلة يجلس مواجهاً إياها على السرير، متربعاً، ويفصح لها عن كل ما في ذهنه. أخبرها عن يومه في الدكان: من جاء ليزوره، ومن قابل في ليما. وسألها أسئلة لم تكن تملك جواباً لها. لماذا كان بطنه يدمدم كلما انزعج؟ لماذا يتوقع القرويون منه الكثير؟ لماذا ضجر من شمسة؟ ولماذا تتذمر لطيفة كثيراً؟

كان ذلك جانباً في جاسم محفوظاً لها فقط. كان يتحدث بصوت منخفض، ربما حرصاً على ألا ينتقل صوته عبر الجدران. وفي نهاية حديثه اعتاد أن يمد ذراعيه فوق رأسه، ويطقطق عموده الفقري، ويتنفس الصعداء.

ليلة بعد ليلة غدا أكثر حرصاً على أن يتحدث من أن يؤدي وظيفته.، وقد لاءم ذلك نورة تماماً، ولذلك كانت تومئ بالإيجاب، وتبتسم في الاستراحات بين القصص الخفيفة، وتعبس كلما أصبح الموضوع جدياً، بل كانت تمسك بيده كلما بدا متألماً.

ذات ليلة أحضر معه دفتراً سميكاً أسود، قد بلي من كثرة الاستعمال. كان ذلك دفتر حساباته، وقد سجل فيه كل تفاصيل نفقاته. كان يحوي مبيعاته من اللؤلؤ وسلفه النقدية للغواصين. شرح لنورة ما تعنيه هذه الخربشات والكتابات

التفصيليـة، وأراهـا كيـف تكتـب الأرقـام، وشرح لهـا غمـوض المبالـغ والمجاميـع.

كان الجمـع والطـرح سـهلاً، ولكـن جاسـماً أخبرهـا أن هنـاك أمـوراً أخـرى يمكنهـا فعلهـا بالأرقـام؛ إذ يمكنهـا تكبيرهـا وتصغيرهـا باسـتخدام أصغـر علامـة.

بينـما كان البيـت نائـماً كان يعلمهـا، وسرعـان مـا صـارت تكتـب بالطبشـور عـلى لـوح صغـير أحـضره لهـا، وطـول الوقـت كان جاسـم يدقـق في سـير عملهـا، فـكان يومـئ بالموافقـة عندمـا كانـت تنفـذ الحسـابات بشـكل صحيـح، ويشـكو مازحـاً عندمـا لم يكـن الأمـر كذلـك.

كانـت نـورة لا تـرى جانـب الرعايـة هـذا إلا في وقـت الظـلام، ومـا إن تقبّـل أشـعة الشـمس وجـه الباحـة، تحـت نظـر زوجتيـه الأخريـين ومراقبتهـما، حتـى يعـود وجـه جاسـم الصـارم للظهـور مـن جديـد.

الفصل الخامس والعشرون

«مـاذا؟ رجعـت لـك العـادة مـرة ثانيـة؟» هـزت لطيفـة رأسـها غـير مصدقـة.

تنهـدت نـورة وهـزت كتفيها بـلا مبـالاة، وتركـت نظرهـا يتجـه نحـو زاويـة الغرفـة محاولـة أن تلتقـي عينهـا بعـين ياقوتـة حينـما توقفـت أثنـاء كنـس الأرض. لم يكـن أحـد سـوى ياقوتـة يملـك الجـرأة عـلى التعبـير عـن رأيـه، ولكـن العبـدة المملوكـة في تلـك اللحظـة كانـت جـدّ مشـغولة؛ إذ كانـت تتفحـص جيشـاً مـن النمـل الأحمـر المتعنقـد حـول صـدع في الأرضيـة.

«ذلـك ليـس جيـداً، ليـس جيـداً عـلى الإطـلاق»، تابعـت لطيفة، ورفعـت رأسـها لتتعـرض لنسـمة مـن الهـواء. كـن جالسـات تحـت برجيـل المجلـس العائـلي. «لمـاذا جاءتـك العـادة؟»

قالت نورة: «لا أعلم».

أرخـت ياقوتـة قدمهـا، وحـددت الهـدف بأسـفل قدمهـا، ودعسـت النمـل دفعـة واحـدة، وبعدهـا فقـط اسـتطاعت أن تنظـر

من وراء كتفها نحوهن. «ذلك هو ما يجعلهم يسمونها العادة، أمي لطيفة؛ فهي تأتي في زيارة مرة كل شهر».

كم أصبحت نورة تحب ذلك الصوت العالي الطبقة الصادر عن براءة، الممتزج بشيء من السخرية اللاذعة. أرادت نورة أن تشجعها لتلقي تعليقاً ذكياً، ولكنها لم تكن سريعة بما فيه الكفاية.

صرخت لطيفة على ياقوتة: «اضبطي لسانك قبل أن أقطعه!» وأمسكت بشبشبها وقذفت به العبدة بقوة وسرعة جعلت أقراطها تجلجل، فأصابت ذقن ياقوتة وانقلبت من كتفها، فصرخت ياقوتة. وقالت لها لطيفة: «إن بقيت على هذا المنوال فسوف أرمي بك إلى الخارج لتتشردي في الليالي في شوارع ليما، وانظري إن كنت ستبقين على قيد الحياة! انظري إن لم يلتقطك أحد ويرمي بك في الصحراء. انظري إن كنت تحبين أن تكوني عبدة لشخص آخر».

كان تهديداً جدياً وكان هذا خوف ياقوتة الأكبر. كانت غالباً ما تخبر نورة عن البدو الذين جاؤوا من عمق الصحراء ليسرقوا عبيد أناس آخرين، ويبيعوهم في مكان آخر. لم تكن ياقوتة على وشك أن تجادل، بل صرخت وخرجت من الغرفة، واصطدمت بشمسة في المدخل.

قالت شمسة: «ما بها تلك البنت السخيفة؟ تزعق دائماً بصوتها الذي يشبه صوت الجرذان».

لم تجب لطيفة. كانت الجيوب تحت عينيها ترتعش من الغضب، وثمة شغف آخر زاد من الظلمة فيهما. غضت نورة من طرفها. هذه ليست «أمي لطيفة» الشاكية، ليست أم الأمل، ولا الدليل اللطيف الذي كانت دائماً تذكرهم أنها هو، بل هذه شخص آخر، إنها أمي لطيفة المتفجرة، التي يبدو أن صبرها وصل إلى درجة الغليان.

كما لو أن الأمور لم تبلغ السخونة الكافية، شعرت نورة بنقاط التعرق تدغدغ شفتها العليا حينما أرخت زوايا فمها، وحاولت أن تبدو متأثرة بإخفاقها لكي تعود لطيفة تلك المتذمرة الناقدة المألوفة.

قالت لطيفة لنورة: «سأقول لك لماذا جاءتك العادة مرة أخرى؛ لأنك لست حاملاً»، وأحاطت بكفها ذقن نورة وثبتت عينيها على نورة بنظرات مفعمة بالإلحاح: «سيغادر جاسم قريباً، ويجب أن يغرس البذور قبل أن يذهب». ارتخت الأهلة تحت عينيها وأغمضت عينيها، وبقيت هكذا طويلاً، تتنفس بعمق وهي تغربل سلسلة من الأفكار المتشابكة.

انتظرت هي وشمسة، وهما تعلمان أن لطيفة كانت دائماً تغمض عينيها عندما تدعو الحاجة إلى حل الأمور الخطيرة. ثم مع رفّة عينها الأولى سارعت شمسة إلى الهبوط إلى جانبها، فانحنت وحضنت كتفي المرأة العجوز لتريها أنهما متحدتان في محنتها.

قالـت: «أرى أن أمـي لطيفـة عـلى حـق في قلقهـا بشـأنك، يـا نـورة. أيـن ذلـك الطفـل؟ مـا الـذي يؤخـرك كثـيراً؟»

أطلقـت لطيفـة تـأوه المضنـى المنهـك، ومـدت يدهـا إلى طـوق الـسروال عنـد كاحلهـا، وراحـت تعبـث بخيـط كان منحـلاً وملتويـاً.

قالت نورة: «حسناً، أنا كنت متعاونة تماماً، ولم أقل لا مطلقاً».

«متعاونـة تمامـاً؟» رفعـت شمسـة يدهـا إلى صدرهـا. كانـت اليـوم تلبس عقـداً مـن حبـات الذهـب السـميكة، متدليـاً عـلى سـلك قطنـي أحمـر. بـدأت تقلبهـا، حبـة بعـد الأخـرى، بينـما حدجـت نـورة بنظـرة التحـدي، «كـما لـو أن لديـك خيـاراً!» قالـت ذلـك سـاخرة. كانـت تبتسـم الآن، منتظـرة أن تتنحـى نـورة بنظرهـا (كـما كانـت تفعـل دومـاً).

كـم كانتـا تعرفـان يـا تـرى؟ دار هـذا التسـاؤل في ذهـن نـورة، وقـد شـعرت بالذبـول، وشـعرت بثقـل في رأسـها، وبـدأ جفناهـا بالإغـلاق، ممـا جعلهـا تفقـد التركيـز عـلى العقـد المتلألـئ. هـل كانتـا تعرفـان أن جاسـماً كان منـذ أكثـر مـن شـهر يمـضي مـن الوقت في الحديـث إليهـا وتعليمهـا حسـابات الأرقـام أكثـر ممـا يمضيـه في غـرس بـذوره؟ فقـد كان يـرى أنهـا جديـرة بذلـك، وغـدت غاليـة عـلى قلبـه. هـل كانتـا تعلـمان أنهـا بـدأت تسـتمتع بزياراتـه؟

لا! لـن تغـض مـن نظرهـا. رفعـت نـورة رأسـها وحدقـت في

شمسة، بهاتين العينين المتهدلتين اللتين خنقهما الكحل. وفجأة أصبحتا غير جذابتين كما كانتا من قبل، وذكراها بناقة غبية. قالت نورة: «لماذا تلومانني دائماً؟ هذه الأمور بيد الله».

انفلت الخيط، ونظرت لطيفة إلى الأعلى.

تابعت نورة: «ولماذا تنتقدينني، كما لو أنك مثالية؟ أنت لم تعطيه طفلاً أيضاً».

قالت شمسة: «كنت أستطيع، ولكنه لم يحاول بشدة معي كما يحاول معك». تلعثمت، وارتعش فمها من أطرافه، وللحظة ظنت نورة أنها ستبكي. تطلعت لن ترى ذلك الكحل يذوب في الدموع، ويخطّ بياض بشرتها بالسواد، ولكن شمسة لم تفعل، وبدلاً من ذلك نخرت وضربت الأرض. «هو يأكل معك ويتركنا ننتظر، وعلينا أن نأكل بعد أن تهضما وجبتكما وتتجشأا. هل هذا عدل؟ هل ذلك ما يقوله الإسلام؟ ألا يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه يجب العدل بين الزوجات؟ جاسم يعاملك كأميرة، في حين أنك فقيرة لا تملكين سوى عين قطط الجبال».

قالت نورة: «هذا ليس صحيحاً، أنا بنت قبيلة، قبيلة السالمي»، وتذكرت أباها، كم كان فخوراً بقبيلتهم إلى أن ضيعهم ذلك المسمى أحمد السالمي. «كانت قبيلة قوية ونبيلة. ومجرد كونهم لا يسكنون بيوتاً مثل هذا البيت لا يعني أنهم غير مهمين».

أشارت شمسة بأصبع مرتجفة إلى نورة. «أنت، أنت ... هو يزورك كل ليلة ويهملنا نحن الباقي، كما لو كنا ملتقطتين من الشارع».

«أنا لم أقل له أبداً أن يهملكن».

سخرت شمسة من نورة: «أوه؟ نحن لدينا سلطة على أرباب، أليس كذلك؟»

راقبت نورة شفتي شمسة تلتويان إلى الأسفل، وفي مثل تلك الحالة كان وجه شمسة المشرق يفقد جماله، فبدلاً من اللون العاجي المضيء صارت نورة ترى الأبيض الشاحب بلون المرضى.

قالت: «لا، لا سلطة، بل العقل».

اصطك فك شمسة، وتحول صوتها إلى همس: «دعيني أذكرك من أنا، أنا ابنة أهم تاجر في ليما، أغنى من زوجنا». وأطلقت ذراعها في حركة سخية. «أنا عشت في بيت أكبر بمرتين من هذا البيت، وتغذيت على الحليب وأنا أنمو، حليب نقي من بقرات سمان، وأكلت التمر طول حياتي من أفخر الأنواع من البصرة». دورت لسانها في فمها وابتلعت ريقها، تقلد المذاق السكري لتمور البصرة.

قالت نورة: «التمر هو التمر».

«لا، ليس كذلك».

«بل هو كذلك».

قالت شمسة في إصرار: «لن تعرفي أبداً ما هو طعم التمر الذي كبرت عليه. كل ما سأخبرك به هو أنه لا يشبه مطلقاً التمر الذي تغذيت عليه، والمليء بالرمل». شمخت بأنفها واستنشقت: «أنت تعرفين ما أنا أتحدث عنه، حبات التمر الذي كنت تمضغينه وأنت تتجولين مع أغنامك الجائعة».

سحبت لطيفة خيطاً آخر من سرواله المحلول بجذبة، ودحجت المرأتين بنظرة حادة، واستخدمت امتيازها بوصفها الزوجة الأولى، فأمرتهما بالصمت.

قالت شمسة: «ليس خطئي، أمي لطيفة؛ يمكنك أن تسمعي بنفسك، أصبح لمعزى الجبل صوت الآن، وهي تخطط لاستعماله».

ضيقت نورة عينيها، وكانت على وشك أن تخبرها أن جاسماً يعلمها الحساب عندما قاطعتها لطيفة، وقالت مؤنبة: «ليس الآن؛ يمكنكما إلقاء اللوم على بعضكما عندما تكونان وحدكما، أما الآن فأريد بعض الهدوء والراحة». صفقت بيديها أمام وجهها، وحاولت أن تحول بعض الهواء تجاهها. «لم لا تتصرفان كما يجب، مثل الأخوات؟».

كان بإمكانها أن تصمت وتنهي الأمر في ذلك المكان والأوان، ولكن فم نورة كان يرشح اعتزازاً؛ فقد هبت رياح جبالها، مفعمة بالدعم، لقد وضع جاسم القواعد، وبيده مفاتيح مصائرهم، والآن هي المفضلة لديه. صالبت بين ذراعيها وأملت مطلبها: «يجب أن ترشدني شمسة بحكمة، لا أن ترمي

بشتائمها في وجهي. أنا الصغرى، وليس ذنبي أن زوجي يريد أن يكون معي؛ فهو الذي يضع القواعد».

تثاءبت شمسة ومططت ذراعيها: «لا شيء يبقى على حاله إلى الأبد. استمتعي بما لديك». جذبت ثوبها إلى الأعلى قليلاً، وراحت تعبث بأصابع قدميها. كانت هناك خواتم أصابع قدميها، وقد استقرت مستوية كالدرع المزودة بحلقات دقيقة، على كلا إبهامي القدمين. قالت وهي تتأوه في إشفاق ساخر: «تصوري، عندما يمل منك، ماذا سيحدث عندئذ؟ لا يمكنني سوى أن أدعو ألا يرمي بك خارج البيت؛ أعني، إلى أين ستذهبين؟»

قالت نورة: «هه، لن يمل مني أبداً». لم تدرك شمسة الحميمية التي تتبادلها مع جاسم، كما أن شمسة لم تسمع ما كان يجري في ظلمة الليل، ولم تكن تعلم أنه كلما كانت هي وجاسم وحدهما، كان شعوره يزداد اتساعاً وزخماً كالوادي العرم. كان يهمس في أذنيها بهمومه وأسباب قلقه، في أذنيها فحسب! ومع هذا، فقد تسربت نقطة الضعف: ماذا لو مل منها بالفعل؟

الفصل السادس والعشرون

استغرق الأمر ثلاثة أيام فقط لكي تتحقق نبوءة شمسة. كما يزحف الضباب الكثيف، زحف تحذير شمسة إلى داخل غرفة نورة، وخنق همسات جاسم الحميمية. في تلك الليلة، حينما نام البيت وصل جاسم بمعنويات عالية، وحكى لها عن رحلته الأولى إلى الهند، فقد أخذه أبوه على متن باخرة بريطانية. قال لها: «استغرقت عشرة أيام. حجزنا على درجة سطح الباخرة التي تكلف تسع روبيات. أخذنا معنا طعامنا وقدورنا وأسرّتنا، ونمنا على السطح. في كل صباح كان منظف السطح يوقظنا، ويجبرنا على التحرك لكي يتمكن من تنظيف الدفة. آه». تأوه وتابع: «الملاحة البخارية البريطانية الهندية، ذلك هو اسمها».

«ملحة بخر بريهندية؟»

بدل أن يصحح لها ابتسم ومال نحوها. تعلمت الآن ألا تخاف منه. ضحكت وسألت: «ما الخطأ؟ أي نوع من الأسماء

هـذا عـلى كل حال؟هـل يمكنني منعهـم إن اختـار هـؤلاء الإنجليـز أسـماء غبيـة لسـفنهم؟».

ضحـك جاسـم: «أنـت مـن بـين جميـع النـاس يجـب أن تكـوني قـادرة عـلى لفـظ اسـمها. بالنتيجـة، مـع كل هـذه الالتـواءات والطقطقـات في لسـانكم، أنتـم أهـل الجبـال يفـترض بكـم أن تكونـوا قادريـن عـلى النطـق بـأي شيء».

فتـح ذراعيـه وجعـل دفئـه يتدفـق حينـما لفهـا في عنـاق حميـم. كـم شـعرت بالحمايـة! كانـت عـلى يقـين بأنـه لم يحضـن شمسـة أو لطيفـة بتلـك الطريقـة. تأكـد لديهـا أنـه بعنـاق كهـذا لا يمكـن لأحـد أن يجبرهـا عـلى مغـادرة البيـت، ولا يمكـن لأحـد أن يؤذيهـا.

لكنـه بعدهـا لم يفلتهـا، وغـدا العنـاق أشـبه مـا يكـون بالقيـد. بالتأكيـد كانـت تتخيلـه. حاولـت أن تتخلـص مـن قبضتـه، وعندمـا أخفقـت تلـوت وتملصـت بحيـث جعلتـه يفهـم أنـه يمكـن الآن أن يتركهـا تفلـت منـه. ولكـن جاسـماً لم يسـتجب، وأبقـى يديـه متشـابكتين بقـوة حولهـا.

بـدأ يرتعـش، لم تكـن ارتعاشـة الشـعور بالـبرد، بـل كان هـذا زلـزالاً محبوسـاً في أعماقـه، وقـد انفلـت وظهـر الآن وراح يهتـز في أمـواج لم تسـتطع أن تفسرهـا.

سـألته نـورة: «هـل تشـعر بالمـرض؟» ولكنـه لم يجـب، بـل اكتفـى بامتصـاص الهـواء بهمـس. أصرت نـورة: «هـل تريـد بعـض المـاء؟»

شعرت بحرارة أنفاسه على عنقها، ثم أطلقها، ودفعها بعيداً بشدة حتى إن كوعها ارتطم بقائمة السرير.

هتف: «أي ضعف!»، وارتد عن السرير. «أنت تلعبين بعقلي، تحاولين أن تلهبي مشاعري لأذوب كلما كنت معك».

دلكت نورة كوعها ورفعت نظرها إليه. كان يمهد الانثناءات في دشداشته، وذراعاه تمهدان دشداشته بحركات انفعالية. ماذا قالت؟ بعد أن تمهدت دشداشته بدأ يقيس الغرفة بخطواته. راقبت نورة نظارته تنزلق إلى أسفل جسر أنفه مع كل خطوة إلى أن التصقت بالأجنحة الصغيرة، وتلك الخياشيم التي بقيت هادئة لمدة طويلة، الآن صارت تخفق بسرعة كبيرة.

قال جاسم: «عندما يأخذك القلب بعيداً، فإنك تفعل أشياء غبية». بدا أنه يحدث نفسه وهو يخطو الخطوات الست ذهاباً إلى الجدار وعودة منه. «تتحدث وتقول أشياء لا تريد أن تقولها». توقف في وسط الغرفة وأشار بأصبعه إلى نورة: «من الآن فصاعداً عندما أنظر إليك أريدك أن تغمضي عينيك؛ فلديك خمر ساحرة فيهما».

«أنا ...» كانت على وشك أن تخبره أن ذلك غير صحيح، عندما خلع نظارته، فهو لم يفعل ذلك من قبل (حتى أثناء قيامه بأداء وظيفته). راقبته ينظر بعينين نصف مغمضتين ويقترب منها. كان خياله يلوح فوقه عالياً. لا ريب أنها كانت غير واضحة له، أما بالنسبة إلى نورة فقد كان وجهه شفافاً مثل

بخار الماء الذي يغلي. وقد تبخر دفء لياليهما بهذا الشكل.

قال لها: «أنا أنقذتك من الفقر، لا تنسَيْ ذلك، وأعطيتك كثيراً حتى إنك يجدر بك أن تقبلي قدميّ، لا أن تجعليني أتكلم كلاماً تافهاً».

«أنا لا أفعل ذلك. أنا ...»

«قالت تلك الساحرة سيكون هناك طفل، ولكن ليس هناك شيء. ماذا أعطيتِني؟ ما هي قيمتك في النهاية؟»

عادت القطط إلى المواء والعويل، وضغطت لطيفة عينيها وعطست فجأة، كما لو أنها أصابتها رائحة، ثم أبعدت قدمها عن أصابع نورة التي كانت تدلكها، وقالت لها: «لا فائدة منك؛ فأنا لا أشعر بشيء». ربتت على أسفل ربلة رجلها: «هنا.. اضغطي هنا».

ضغطت نورة بإبهامها على منطقة طرية.

صرخت لطيفة: «ما بك؟ إما بنعومة زائدة أو بقسوة شديدة؟ ألا يمكنك أن تفعلي الشيء الصحيح؟».

ذلك الصوت! كان يتراوح بين نباح كلب برّحه الألم ونهيق بغل أجش. نخرت لطيفة ونهضت تاركة غرفة نورة، وحينما استدارت أخرجت نورة لسانها نحوها.

كانت غلطتها! ذهب أمانها وكانت غلطة لطيفة. كانت الطريقة الوحيدة التي يمكنها الرد عليها بإحباطها من خلال الحرص على جعل تدليكها المحبوب كثيراً مؤلماً بقدر ما أمكن. تظاهرت نورة في كل يوم من أيام الأسبوع الماضي أنها فقدت لمستها الشافية، فراحت تنكز مثل رفرفة الفراشات على البشرة القاسية وحفرت أخاديد بأصابعها بكل قوتها حيثما رأت أنه أكثر إيلاماً، ومع ذلك استمرت العجوز في المجيء إليها.

انتقلت نورة إلى الركن البعيد من غرفتها وبدأت تجريف الجدار، وكشطت أجزاء كبيرة من الجبس إلى أن وصلت إلى الأصداف المودعة في القاعدة الحجرية المرجانية. لم يكن أي شيء آخر تفعله؛ لأن جاسماً أخذ لوحها وطبشورها، ولذلك عالجت صدفة منتفخة عليها خطوط وردية باهتة ذكرتها بالحصى التي اعتاد أخوها أن يجمعها من أجلها.

«سوف تعيشين كالأميرة»، ذلك ما كان صقر يقول لها. نخرت وحفرت في الجدار بأصابعها، فسقط على الأرض المزيد من الأصداف الأخرى التي بدت مثل أظافر أصابع الأقدام، غير أن الأصداف التي أرادتها لم تظهر. كان صقر مقتنعاً بأنها ستكون في حال أفضل مع تاجر اللؤلؤ الثري، بعيداً عن المشاق والحرمان في حياتهم. كم كان ما يعرفه قليلاً!

تحول استياؤها من صقر إلى مرارة، وما لبثت أن راحت تجلد الجدار بشدة حتى تحولت كل نكزة وكشطة إلى هجوم على أخيها؛ كيف أمكنه أن يبيعها إلى غريب كهذا؟ كانوا فقراء

في الجبال، ولكن كانت كل أسباب قلقهم متعلقة بالأشياء التي يمكنها أن تلمسها: الغذاء والماء. أما هنا فكانت مصادر القلق مختلفة وشديدة التعقيد. كانت دوماً محترسة؛ ففي هذا البيت لأناس أثرياء لا تدري ما سيأتي به اليوم التالي. تمزق اثنان من أظافر أصابعها، فصرخت وأقحمتها في فمها.

«لن يبقى شيء من ذلك الجدار إن تابعت على هذا المنوال».

أزعجها صوت ياقوتة عند الباب، وعادت بانتباهها إلى الجدار. «سوف أستخدمها للتمرن على حساب الأرقام»، قالت نورة ذلك، متجاهلة الفوضى التي أحدثتها.

«لماذا؟»

«يبقيني ذلك في حالة تفكير»

«تفكير؟ ما الفائدة من ذلك؟»

«ما الفائدة من أي شيء؟»

«حسناً، تلك تسليتك، وقريباً لن يكون لنا بيت نأوي إليه»، ضحكت ياقوتة في فتور وقفزت نحوها. «ستوقعين الحائط على هذه الشاكلة، ولن يكون هناك خصوصية لك ولأرباب، ثم ماذا؟» انحنت ياقوتة فوق نورة وفغرت فاها نحوها. كان وجهها المقلوب ممتلئاً بالشيطنة. «كما لو أن هناك أي خصوصية الآن». سدت أذنيها بأصابعها. «إنه يُحدث الكثير من الجلبة في الليل بحيث لا يدعني أنام».

دفعت نورة وجه ياقوتة بعيداً عنها. لم تعرف الأمة مطلقاً ما تقول ومتى تقوله، ومع ذلك فقد كان صحيحاً.

زمت نورة شفتيها وحدقت في الأصداف الصغيرة كظفر الأصبع حولها. لم ترد أن تتحدث عنها؛ إذ كانت تخشى أن تنخرط في البكاء إن فعلت، ولذلك عندما لم تسترسل ياقوتة في الموضوع، مقترحة بدلاً من ذلك أن تذهب وتشاهد القرية، شعرت نورة بالارتياح، حتى إنها قفزت وجرت الأمة إلى خارج الغرفة.

لم تكن هذه أياماً عادية، كان هناك اندفاع وعجلة، عجلة وإلحاح أحاطت بوديمة؛ حيث كان الغواصون وعائلاتهم يستعدون للغوص الكبير. اختلست نورة وياقوتة النظر من خلال مدخل البيت، وشاهدتا الأطفال ينخزون بالعصيّ كيساً ملؤوه بالرمل ليظهر كأنه سمكة قرش في بحر وهمي، ومن خلف جدران البيوت المصنوعة من سعف النخل سمعتا الأصوات الملحّة من النساء وهنّ يحضّرن احتياجات أزواجهن لرحلة الأشهر الثلاثة.

بعد الظهر جاءت هؤلاء النساء أنفسهن لزيارة لطيفة، كما كنّ يفعلن كل يوم، ليتحدثن عن الغوص الكبير القادم، ويسردن قصصاً بطولية عن الإنجازات: التي اصطاد زوجها أكبر لؤلؤة، والتي غاص أبوها تحت الماء أطول مدة، والتي أفلت ابنها من سمكة قرش عدوانية، والتي نجا أخوها من

معظم لسعات قناديل البحر... كانت حكايات عن أمجاد يتم إطلاق الحديث عنها بكلمات مفعمة بالحماس. ثم يخيم على النساء الصمت ويتنهدن ويهززن رؤوسهن. كانت كل امرأة تعرف أن زوجها، أو أباها أو ابنها أو أخاها قد لا يعود، وقد يموت في البحر. وكانت كل منهن تدرك أنه إن عاد فسوف يصل إلى البيت مريضاً وجائعاً.

قالت ياقوتة: «إنه الأمر نفسه كل عام؛ فهم يذهبون، بينما تنتظر نساؤهم، ثم عندما تعود المراكب إما أنها أخبار حسنة أو سيئة».

جعلت كلمات ياقوتة قلب نورة يهبط أكثر من ذي قبل: «كم من الأمل تحمل هؤلاء النساء في قلوبهن؟ وكم من الآمال تتحطم في النهاية؟»

«لا شيء تحزنين عليه!» ضربت ياقوتة على ذراع نورة. «هي مشيئة الله، وهذا ما كتب الله عليهن، وعليهنّ أن يتقبَّلنه».

قالت نورة: «أنت بلا قلب».

«انظري، يا حلوة! إن جلسنا وانتظرنا فلن نحصل على ما نريد. علينا أن نفعل ما نستطيع لنبقى».

رفعت نورة عينيها بتساؤل. كانت كلمة غامضة، ولكنها بدت مفعمة بالأهمية وبالقيمة الذهبية. لم تكن كلمات تخرج من فم امرأة، وامرأة مستعبدة. هل كان ثمة حكمة لم ترها لدى ياقوتة؟ «ماذا تعنين؟»

«هل يهم ما أعني؟ على المرأة أن تفعل ما تستطيع لأجل راحة بالها، ذلك هو كل ما هنالك».

راحة البال؟ بالتأكيد، ليس لدى نورة شيء منها.

«يجب أن تجد سبلاً لتجعل الساعات التي تمضي محتملة».

أجل، لدى نورة كثير من الساعات البطيئة والتعيسة. «كيف؟»

«تريدين مني أن أريكِ كيف؟»

تسارع نبض نورة وأومأت برأسها. هل كان هناك سر اكتشفته ياقوتة بإمكانه أن يزيل الحزن الذي كانت تشعر به باستمرار؟

«أنت مستعدة للبدء الآن؟»

أومأت نورة مرة أخرى بالإيجاب.

انطلقتا مباشرة دونما كثير من التفكير بشأن ما فاتهما. كانتا محجبتين من مفرق رأسيهما إلى إبهامي قدميهما، وخطتا من فوق بقايا القرش الوهمي المختَلَقة التي تخلى الأطفال عنها. في البداية، تبعت نورة ياقوتة بخطوات مضطربة، وهي تتلفت يمنة وشملة، غير متأكدة من أن أحداً قد يتعرف عليها. كانت تعلم أنها كزوجة محترمة يجب ألا تتجول بلا هدف مع عبدة المنزل في شوارع وديمة.

طمأنتها ياقوتة، بعد أن حزرت مخاوفها: «لا تقلقي، لن يستطيع أحد أن يتعرف عليك، ولن نغيب طويلاً، على أية حال». سكتت هنيهة قبل أن تضيف: «حتى إن بحثوا عنك ولم يجدوك، فلن يهم، فأنت في النتيجة لم تعودي المفضلة».

كانت الحقيقة لاذعة في كلام ياقوتة، ولكن نورة أخذت نفساً عميقاً وتمنت أن تفارقها العصبية بينما تقودها ياقوتة في محاذاة أطراف القرية، حيث كانت أكثر هدوءاً. دخلتا شارعاً طويلاً وضيقاً ، وعلى جانبيه أكواخ البرستي. التقطت أذنا نورة أطرافاً من المحادثات التي كانت تجري في الداخل، حيث سمعت من خلال الجدران المبنية من سعف النخيل رجلاً يطمئن زوجته بأنه سيعود بأمان، بصوت أجش ولكنه مفعم، وكانت الزوجة بطولية وبهدوء، حيث ردت بصوت مفعم بالاحترام والكرامة، تخبره بأنها ستتقبل أي قدر ستفضي إليه هذه الرحلة. حدقت نورة في الأرض وأبطأت من مشيها، كما لو أنها كانت في غيبوبة، وهي تستمع إلى المزاج الحزين، والإيمان المستسلم، والنشيج المخنوق الذي خرج من داخل بيوت سعف النخيل على طول الشارع الخالي، ولم يهزها ويعدها إلى اللحظة سوى صوت ياقوتة الحاد. «نساء قادمات!»

رفعت نورة نظرها فوقعت عيناها على رجل دخل من الطرف الآخر البعيد من الطريق قادماً نحوهما، وفي لحظة

توقف الرجل وحول نظره وتوقف في جانب الطريق، وضم أطرافه بحيث تستطيع هي وياقوتة المرور به من دون أن يمسهما.

أمسكت ياقوتة بيد نورة وجرتها، وحالما اقتربتا منه نادت ياقوتة من جديد «نساء قادمات!» بقوة، حتى إنه تعثر منكفئاً إلى الخلف في جدار السعف، وعلقت غترته في سعف النخل الخشن وجذب رأسه جانباً، فانزلقت ليكشف فروة رأس تشبه في شكلها البيضة.

حينما مرّتا به حنت ياقوتة ذراعيها إلى جانبيها وخبطتهما، وأمالت رأسها إلى الخلف والأمام وأطلقت سلسلة من الطقطقات من الحلق، وابتسمت نورة من تحت شيلتها وعباءتها، ولكن الرجل لم يستطع أن يرى الجانب المضحك من رقصة الدجاج من ياقوتة، والأسوأ أن حماقة ياقوتة كشفت هويتها.

قال، وهو يتحسس غترته محاولاً أن يجذبها خارج السعفات دون أن تتمزق: «هذه أنت يا ياقوتة!»

ضحكت ياقوتة واندفعت إلى الجانب الآخر من الشارع، وجذبت نورة معها.

نادى الرجل من ورائه: «ومن هذه الأخرى؟»

راحتا تجريان الآن.

تابع موجهاً كلامه إلى نورة: «أنا متأكد من أنك امرأة محترمة.

استمعي لنصيحتي. لا تمشِ مع تلك العبدة؛ فسوف تفسد أخلاقك، تسمعين؟ سوف يوصلك دمها الأسود إلى العار».

تابعتا الجري بجوار المسجد والدكان الصغير بجانبه في نهاية القرية، وخلفتا وديمة خلفهما، إلى أن وصلتا إلى شاطئ خالٍ وممتد. «كيف عرفك؟» قالت نورة بعد أن تباطأت دقات قلبها واستطاعت أن تتنفس بانتظام.

قالت ياقوتة: «أنا مشهورة».

كان الجو حاراً. وكان الماء متألقاً تحت أشعة شمس الظهيرة، بينما لمعت الرمال ببياض ناصع، أزالتا الشيلة والعباءة وانحنتا لكي تحلاّ أطواق الكاحل. كان سروالاهما مثبتين بإحكام من خلال ثنيهما عدة ثنيات حتى الركبة، ثم رفعت كل منهما ثوبها وصارتا تقفزان فوق الرمل الساخن حتى وصلتا إلى المكان الضحل من البحر. كانت الأمواج الدافئة تلطم سوقهما، وبدأتا ترش الواحدة فهما الأخرى، وتقفزان فوق كل موجة تتجه نحوهما، وهما تضحكان وتقهقهان، وقد أدار رأسيهما الطيش والعبث. لم يطل بهما المقام حتى نضبت طاقتاهما، فخرجتا إلى الرمال ليلتقطا أنفاسهما.

خرجت ياقوتة لتلتقط شيئاً من الرمال وقالت: «هذا هو المكان الذي يمكنك العثور عليها فيه، وليس أن تحفري الجدار للحصول عليها». أعطت صدفة إلى نورة كان شكلها مثل الخنفساء، وسطحها ناعماً، ولونها قرنفلياً شاحباً منقطة مثل

جلد الفهد. وضعتها نورة في وسط كفها المفتوح وحدقت فيها قبل أن ترفع عينيها نحو الأمواج المتدحرجة التي كانت تتكسر بضربات ناعمة على الشاطئ. شعرت بأن المسافة بين ماضيها وحاضرها ممتدة امتداد البحر أمامها. بدأت تربت على الصدفة بأصبع السبابة، وفكرت بصقر والحصى التي اعتاد أن يجمعها لأجلها، وأشعرها ذلك بالحزن، ودفعها للحديث عن مشاعرها.

قالت نورة: «أنا أكرهه»، وكانت تعني جاسماً ولكنها كانت تفكر بصقر. «إنه يجعلني أشعر كأنني كلبته، يأمرني كما يشاء، وأكره الطريقة التي يلمسني بها، يتحسسني مثل...» «صه!» سدت ياقوتة أذنيها. «لا يمكنك أن تقولي لي هذه الأمور. أنا غير متزوجة، ولم يلمسني أحد. إن استمعت إياك تخبرينني عن كل هذه الأشياء الحساسة حول اللمس فسوف تجعلينني أفقد عفتي».

بماذا كانت تفكر، محاولة أن تفتح قلبها لهذه المرأة التي تحمل عقل طفل، لهذه المرأة التي لتوّها سخرت من شكل رأس رجل غريب بمحاكاتها رقصة الدجاج؟ يجب عدم مشاركة ياقوتة في مثل هذه الأمور. والحقيقة أنه يجب عدم التطرق إليها على الإطلاق. صمتت نورة وحدقت في البحر مرة أخرى، معاهدة نفسها ألا تتحدث إلا عن الأمور البسيطة.

قالت: «كما تعلمين، لم أكن دوماً في مثل هذا الهدوء. اعتدت أصواتاً أعلى من صوتك».

قالت ياقوتة: «أعلى من صوتي؟ لا يمكن».

«حسناً، ربما ليست أعلى، ولكنها بالعلو نفسه. فكلما تأمر علي أخي، كنت أرد بالمثل، وكان أبي دائماً يوافقني. كنت أفعل ما أريد، ولم يكن بإمكان أحد أن يجبرني على فعل أي شيء.

في إحدى المرات، غضبت غضباً شديداً من أخي صقر حتى إنني تركته، بكل سهولة. والمسكين أظن أنه صعد جميع الجبال لكي يعثر علي».

هتفت ياقوتة: «هه!»

أدركت نورة أن ياقوتة كانت تريد أن تعرف المزيد عن جانبها الحقيقي الذي لم يقدره أحد في وديمة. «في الواقع ذهبت وأقمت في هذه القرية في أعلى الجبل مع هذه المرأة العجوز الطيبة. كانت القرية تسمى معزولة، وفي الوقت الذي تصعدين إلى أعلى الجبل لتصلي إليها فإنك لا تحسين بساقيك».

«أوه!»

بالاهتمام الذي أبدته ياقوتة شعرت بقيمتها تزداد. قالت متابعة، وهي تفتح ذكريات جديدة: «نعم، أراهن على أن أخي كاد يموت من القلق عندما اختفيت عنه، ولكنني لم أعبأ. كان الجميع في معزولة يقدرونني. كنت أخيط الثياب لهم، للقرية بكاملها. كانوا يحبونني، وعندما أردت أن أغادر رجوني أن أبقى، وخاصة هذا الرجل الذي ...» هنا توقف صوتها. هل عليها أن تتابع، يا ترى؟»

«رجل؟ من هو؟»

«لا أحد»، قالت نورة، وقد تذكرت رقص الدجاج مرة أخرى. «فقط رجل مسن كانت دشداشته في حاجة إلى كثير من الإصلاح».

طائشة! تلك هي الفكرة التي قفزت إلى رأس نورة. لماذا حصل معها هذا الدافع لأن تكشف كل هذه المعلومات؟ ربما كانت عادات وطرق ياقوتة الخالية من الهموم وكل تلك الرشرشة في الماء هي التي أوجدت هذه الحاجة إلى إفراغ هذا العبء الكبير، العبء الذي عليها أن تحمله على الدوام. عليها أن تتذكر الحرص والتحفظ.

كثيراً ما كانت لطيفة تعلق بأن محاولة فهم ياقوتة وطرقها الخاطئة كانت بمثابة إضاعة للوقت، وأن عقل ياقوتة كان يعمل بشكل مختلف. كانت نورة تستمتع دوماً بارتياب، ولكنها الآن تساءلت كم في ذلك من الحقيقة.

قالت ياقوتة: «رجال مسنون! من يريد أن يسمع عن الرجال المسنين؟»

«أنت على حق، لا أحد يود السماع عن الرجال المسنين».

قالت ياقوتة وهي تحول عينيها نحو نورة بنظرة تنطوي على التآمر: «دعينا نتحدث عن الشباب. بالمناسبة، يريد حمد أن يتحدث إليك».

كان طلباً غريباً لأن يطلب رؤية امرأة ليست زوجته. ومع هذا فقد شعرت نورة بعدم الاكتراث؛ فقد اعتادت على رؤية

حمد، إذ كان يدخل إلى البيت ويخرج منه مراراً حتى غدا أكثر خفاء من السديم الذي ينشره البحر فوق البيت كل ليلة.

قالت: «دعيه يأتي».

الفصل السابع والعشرون

مدت نورة رأسها من باب غرفتها. كان ثمة عمود من البخور يتصاعد حلزونياً من غرفة شمسة، إذ نفذ من خلال قضبان نافذتها وخرج إلى الباحة حيث تعلق مثل سحابة في الهواء الساكن. كانت تلك هي ساعات الكسل خلال النهار، عندما ترسل الشمس أقوى أشعتها، مع أن الوقت كان مبكراً على التطيب، ولكن شمسة لم تكن تضيع وقتاً في الاستعداد لليل، وذلك هو الذي غدت عليه الحال. فقد بادل أرباب بين الأماكن وبدل بين محظياته، وحوّل زياراته إلى شمسة.

سمعت نورة وقع أقدام - كانت قادمة - وانسحبت إلى عتمة الغرفة. قعدت على الأرض وحبست أنفاسها. من تحت النافذة استطاعت أن ترى شجرة السدر عطشى تحت الشمس المتوهجة، ثم مرت شمسة وحرصت على أن تقف بجوار النافذة وتلقي بنظرة جانبية توحي بالإنجاز، في حال كانت نورة تنظر، ونورة كانت بالفعل تنظر.

كانت وقفة قصيرة، ولكنها حققت الهدف منها: «أنا أملكه، أما أنتِ فلا!» استطاعت نورة أن ترى تقريباً الكلمات تتشكل على شفتيها، ورديتين بالثقة بالذات. «أنا أملكه، أما أنت فلا». كانت حقيقة بسيطة أرعبت نورة. وفي وقت لاحق، كما في كل ليلة، تطرح نورة نفسها على سريرها وتتململ، وتتساءل عما إذا كانت الحرارة التي تخلفت في راحة كفيها هي ما جعلها تسهر، أو الضجة القادمة من الجانب الآخر من الجدار. كانت تقفز من سريرها وتمر بيديها على الجبس المتفتت، على أمل أن تشعر بشيء من الجفاف المحتبس في سطحه، ولكنه كان دائماً رطباً، ورائحة الطبشور كثيفة فيه. ما الفائدة منه؟ فهو لم يحتبس البرودة، ولا عزل الأصوات من أن تخرج، وكل تلك الهمسات والضحكات المكبوتة كانت الأصوات التي جعلت قلب نورة يخفق بالرعب.

استدارت شمسة وعادت إلى غرفتها، وأسندت نورة رأسها على ركبتيها المطويتين. هل كانت ساذجة إلى هذا الحد، عديمة التفكير، لأن تصدق أن الأشياء تدوم كما هي مع «أرباب» إلى الأبد؟ فهو في النتيجة رجل، ولا بد أن يفعل ما يفترض بالرجال أن يفعلوه: يخفون بمشاعرهم الحقيقية؛ فحديث الرجل عن رغباته أو مخاوفه يعد نقطة ضعف. كانت تعرف كل هذا. ألم يتصرف صقر بالطريقة نفسها؟ أما كان يخفي مشاعره دائماً؟ لم تكن دمعة تسيل من عينيه حينما أرسلها بعيداً.

وراشد أيضاً! حاولت نورة أن تفكر بنسمة من نسمات العاطفة التي استقرت على وجهه، إذ كان يتحدث دوماً عن مشاعره، أما الآن فقد أدركت أخيراً أن ذلك كله لم يكن حقيقياً، مجرد كلام: كلمات حلوة، كلمات كبيرة، ولكنها كلمات فارغة.

تنهدت نورة. كلام الرجال .. لا شيء منه يعني شيئاً. والآن يريها جاسم أنه يستطيع التحكم بمشاعره كرجل، أيضاً، ويخفيها داخله. كان أبوها الوحيد الذي لم يكن يتصرف كذلك؛ فقد كان يبوح بشغفه، مثل حبل مل من ربط الأشياء وتقييدها في مكانها، إنه مجنون! هو السبب.

حضنت ركبتيها وبدأت تميد وتتهزهز، وكلما مالت إلى الأمام كانت أفكارها تتشابك. تذكرت الخاطبتين، فقد أصرتا على أن تبقي زوجها سعيداً. «إن لم يردك فيمكنه أن يرمي بك بعيداً». هذا ما قالته كلثوم تنبيهاً لها. أين وصل بها ذلك الأمر؟ ماذا لو قرر جاسم أنه لم يعد يريدها، وأخذ منها غرفتها، وأخرجها لتتيه في الشوارع؟ هل سيخطفها البدو من الرمال البعيدة ويحولونها إلى «أمة»؟

كانت ياقوتة قد وصفت لها بالتفصيل كيف كانوا يختارون ضحاياهم. «في البداية، يتأكدون من أنك وحدك، ثم ينتظرونك في الأماكن المعتمة». عند تلك النقطة كانت عينا ياقوتة تنبض بالذعر. «ثم دون توقع منك، يحيط بك ثلاثة رجال،

ويضعونك في كيس، ولا يكون لديك فرصة للهرب؛ لأنك تفقدين وعيك حتى قبل أن تتمكني من الصراخ».

وفي كل مرة كانت تميل نورة فيها إلى الخلف، كانت تشعر برأسها يمس الجدار، (طق طق طق). ولكنها لم تتوقف. كان ذهنها يختنق بتلك الفكرة المخيفة. كان هناك رأسها، مثبتاً بإحكام في ذلك الكيس، تستنشق رائحة نتن الغبار الساكن والعرق القديم الصادر عن خيوطه الخشنة. لن يفتقدها أحد إن اختطفها البدو، فهي بالنتيجة لا عائلة لها تحميها، أو تسأل عنها، أو تبحث عنها إن اختفت. (طق طق طق)، وصوت آخر أيضاً.

كان الطرق على الباب خفيفاً، ومع ذلك فقد صدمها. هل كان ذلك جاسم أتى ليأمرها أن تحزم أغراضها وتذهب؟ أسرعت إلى الباب وفتحته، ورأت «حمداً» واقفاً في الوهج، وذراعاه متشابكتان وراء ظهره. قالت: «ماذا تريد؟ ألا تعرف أن الجميع نائمون؟»

«صه»، قال ذلك، متراجعاً إلى الوراء، وهو ينظر حوله متوتراً. «ليس بصوت عال». سقطت ذراعاه إلى جانبه، ورأت الثوب الأبيض في يده. «هذا الشمشول (بدلة الغوص) سوف يحمي والدي من لسعات قنديل البحر عندما يذهب إلى الغوص الكبير. يقولون إن خياطتك قوية، وأنا بحاجة إلى التأكد من أن الدرزات لا تتفكك». تحدث بسرعة وإلحاح.

«وكيف عرفت أنني أستطيع ذلك؟» انزعجت من تدخله، وكانت تحاول التفكير بطريقة للنجاة في حال خطفها أولئك البدو، وإلى أن تتمكن من فعل ذلك، كان لا بد لها أن تمر بكل ذلك الخوف، فإذا كان رأسها مثبتاً بإحكام فلن تستطيع أن تفكه من الكيس. والآن عليها أن تبدأ من جديد، من البداية، عندما يتم خطفها.

قال حمد: «وديمة كلها تعرف أنك أفضل خياطة، ولكن إن كنت لا تستطيعين فعل ذلك فأخبريني».

توقعت منه أن يستدير ويغادر، ولكنه لم يفعل. يا للوقاحة! سحبت شيلتها فوق أنفها لتربكه، ومع ذلك لم يتحرك، وظل يحدق فيها تحت شمس ألقت بهالة لون القش حول رأسه المعمم بالغترة.

قالت نورة: «ألا تعرف أنك من المفروض بك ألا تدخل إلى هنا. انظر إلى نفسك تتسلل إلى بابي مثل اللص لتتحدث معي. ماذا لو رآك أحد هنا؟»

«أعرف، أعرف، ولكن انظري، كل النوافذ والأبواب مغلقة، والجميع نائمون. أنا لا أحتاج سوى إلى أن تخيطي هذه».

«نعم ولكن »!

«أنا لست متسللاً بمجيئي في هذا الوقت. إنه الوقت الوحيد الذي أستطيع فيه أن أطلب إليك فعل هذا. إن علم جاسم، أو حتى لطيفة، فسوف يرفضان، ويقولان لي خذها إلى

الخياط». راوح بين قدميه وأضاف: «وعدت أبي بفعل هذا، ولكن لا أملك النقود لآخذه إلى الخياط».

خففت نورة من قبضتها على الشيلة، ولكنها استمرت في مراقبته عن كثب. هل كان يقول الحقيقة؟ كان شعره كتلة من خيوط تحتضن عنقه من تحت غترته. كان لديه ندبة قديمة حفرت ثغرة نظيفة في زاوية جبينه الأيمن. وكانت هناك ندبة أخرى، أيضاً، مثل ندبتها تحت الجانب الأيسر من ذقنه. فوجئت بأنها لم تلاحظ أياً من هاتين الندبتين من قبل. واحدة على اليمين وأخرى على الشمال. والغريب أنهما على ما يبدو يضفيان توازناً على وجهه.

قال حمد: «كما ترين، أمي ... حسناً، لا تنحني مفاصل أصابعها. فهي متصلبة مثل حوافر الماعز». وراح يحرك يده على الثوب بقلق. «لم تعد تستطيع أن تخيط درزات قوية».

أخيراً أظهر شيئاً من التردد، بينما جذبت نورة الثوب من يديه. بهت لونه من الشمس وتآكل من البحر. «حتى إن درزت كل هذه الشقوق، فسيكون هناك المزيد». قالت ذلك وهي تفرك القماش بين أصابعها، وأشارت إلى المنطقة التي تغطي ساقيه من الخلف. «هذه لا تحتاج إلى درزات قوية، بل تحتاج إلى رقعات كبيرة تغطي هذه القطع الباهتة». كان القماش تحت الذراعين أكثر كآبة من ثوبها الجبلي الأحمر المغطى برسوم الأزهار. «وهنا، انظر».

«لا يمكنك أن تفعليه».

شاهدت نورة الدم يزحف في أذنيه، فيصبغهما باللون الأحمر الشديد تحت أشعة الشمس، حتى بدتا كأنهما ستتفرقعان. وتأكدت الآن من أنه مرتبك، وأنه نادم لأنه طلب منذ البداية. وشاهدت رأسه ينخفض قليلاً فقط، ولكن عينيه ظلّتا مثبتتين على وجهها، وممتلئتين بالإحباط الذي رأته عليه عندما كانوا على ظهر المركب قبل كل تلك الشهور، عندما رفعت الريح تلك الملاءة.

كان على وشك أن يغادر ، وحينما مد يديه ليأخذ الثوب أمسكت نورة به بإحكام، وقالت: «لا بأس، سأصلحه».

أدخلت نورة ذراعيها تحت الفراش، وأخرجت «الشمشول» وفتحته. ابتسمت لشغل يدها. لم تصلح الشقوق وتقوي القُطَب فحسب، بل بدلت أجزاء كبيرة منها، حيث استخدمت قطعاً بيضاء إضافية من القماش القطني أخذتها من الثياب التي صنعتها لنساء القرية. والآن بدا «الشمشول» جاهزاً ومدعماً بمثلثات ومربعات، ولا يمكن لأي لسعات من قنديل البحر أن تنفذ خلاله، هذا ما دار في ذهنها.

استغرق درز «الشمشول» وترقيعه أسبوعاً كاملاً، وأخفته واختلست اللحظات لخياطته، وذلك في الأوقات التي كانت متيقنة أن أحداً لن يدخل عليها. ولو أن شمسة رأت ما تفعل لسببت لها مشكلة كبرى وإحراجاً، وذلك هو آخر ما تحتاج إليه نورة في هذه النقطة.

حتى إنها أخفت سر زيارة حمد عن ياقوتة التي سألتها قبل يوم إن كان حمد قد جاء ليراها. لم يكن ذلك لأنها لم تثق بياقوتة، بل لأن صوتها كان عالياً، وكانت نورة قد أخبرتها الكثير، الأمر الذي سبب لها القلق، أيضاً.

فالجدران لها آذان، وياقوتة لم تتعلم أن تخفض صوتها عندما تتحدث. «لماذا لم يأتِ ليراك؟»

«لا أعلم لماذا، ولا يهمني». همست نورة بهذه الكلمات، على أمل أن تفعل ياقوتة الشيء نفسه.

بدلاً من ذلك، خرج صوت ياقوتة كالانفجار: «ولكنه أخبرني أنه أراد أن يراكِ وأن يتحدث إليكِ عن شيء».

همست نورة من جديد: «ولماذا تهتمين؟»

هزت ياقوتة كتفيها ولكنها لم تخفض صوتها. «أنا أسأل فقط. وماذا بك، على كل حال؟ لماذا أصبحت فجأة ضيقة الصدر؟»

رفعت نورة يديها: «انظري، (تجاهليني). لا ترفعي صوتك عالياً».

«عالٍ؟»

زعيق! كان صوت ياقوتة في الاتفاع والانخفاض مسبباً للغضب. لماذا لم تتعلم أن تتحدث بصوت ناعم، مثل الآخرين؟ «نعم، عالٍ».

قالت ياقوتة: «ولماذا تتصرفين بكل هذا التكبر، كما لو أنك صاحبة الحظوة في هذا البيت؟» شمخت ياقوتة بأنفها.

«متكبرة، متكبرة، متكبرة». ثم، مشت بخطوات رزينة خارج البيت.

من ذلك الوقت توقفت ياقوتة عن الحديث مع نورة، ولكن نورة لم تهتم كثيراً، بل فكرت بأنها ستحرد بضعة أيام، ثم تكون على ما يرام. وضع الشمشول على السرير، ومررت يدها على الكسرات لتمهدها، وعبست في قطع القماش العتيقة التي برزت خيوطها المنهكة هنا وهناك. لم تكن بالكمال الذي كانت ترغب فيه، ولكنها أيضاً لم تكن قطعة نظيفة وجديدة، ومع ذلك لم يكن ممكناً سوى ذلك.

كيف ستبدو عينا حمد عندما تسلمها له؟ هل ستلمعان بالاستحسان الصامت؟ هل سيلاحظ؟ منذ أن قررت أن تصلح «الشمشول»، بدا أنه صار يأتي إلى البيت بشكل متكرر، ليسلم هذا ويأخذ ذاك. حتى إنها رأت ظله خارج نافذتها أثناء ساعات الاستراحة. مرتين!

كلما تقابلا وجهاً لوجه، أثناء عبور الباحة، أو في مكان آخر من البيت، كان كل منهما يخفض نظره إلى الأرض، على الأقل كانت هي تفعل ذلك. ونوعاً ما، كانت تتخيله في عقلها، وكانت دائماً تتساءل إن كان يتخيلها هو أيضاً في عقله. أو لعله فتح عينيه عندما كانت تنظر إلى الأرض. تلك كانت الأفكار التي دارت في رأسها، مثل سمكات لعوبات تطارد بعضها. لم تتوقف أفكارها إلى أن طردتها عنها، وضربت

خديها لكونها بهذا السخف. كانت تتصرف كما لو كان لديها سر ينطوي على ذنب.

رسمت نورة خطوطاً بأصابعها على «الشمشول» وطوته بشكل مربع أنيق، ثم مهدتها من جديد. سوف يبحر الغواصون بعد أسبوع أو أسبوعين. وكذلك جاسم سيبحر إلى الهند من أجل التجارة. شعرت في أعماقها بشيء من الارتياح، ولكن ليس بقدر كافٍ لأن تمسح قلقها من مركزها المقلقل في البيت. رفعت الفراش ووضعت الثوب المطوي تحته، وفيما بعد، ستحاول أن ترسل رسالة صامتة إلى حمد، وتدعه يعرف أن «الشمشول» جاهزاً.

الفصل الثامن والعشرون

جلست نورة أمام المناديس الكبرى الثلاثة التي بطنت الجدار في غرفة لطيفة. ثمة أزرار نحاسية مثبتة في الخشب السميك كانت تزين الأغطية والجوانب. مررت أصابعها فوق الأشكال - مثلثات مجموعة مع بعضها لصنع نجوم منها، ومرة أخرى سألت بصوتها الطبيعي: «إلى أين ستذهبين، أمي لطيفة؟»

وكان جواب لطيفة المتململ هو نفسه: «نحن، يا بنتي، نحن!» تكدر ضبط النفس لديها حينما جلست أمام المندوس المعدني الأصغر، وثمة قلق جديد جعلها تهتز للخلف وللأمام، وقالت: «حسناً، ماذا تنتظرين؟ افتحي ذلك المندوس في الوسط وأخرجي منه حاجياتي. لنحزمها».

رفعت نورة القبضة وفتحت المندوس. كانت هناك ثياب لطيفة، الثياب والعباءات نفسها، بينما حزموا وفكوا البراقع في اليوم السابق، وقبل ذلك بأيام أيضاً.

قالت لنورة: «خذي فستاناً واحداً فقط، والباقي أثواب». كانت لطيفة تفضل الأثواب القطنية الفضفاضة في الطقس الحار، فالثوب الفضفاض بأكمامه الواسعة من الكتف إلى الخصر أكثر فاعلية في استقبال نسمات الهواء. «لا، لا، ليس في الوسط، بل أقرب إلى الطرف الأيمن» قالت ذلك حينما وضعت نورة ثوباً أزرق سماوياً منقطاً باللون الأصفر في المندوس الصغير. نفخت لطيفة في برقعها بانزعاج: «أخرجيه، أخرجيه. ليس مطوياً بأناقة كافية. اطويه من جديد».

فعلت نورا كما طلب منها.

قالت لطيفة: «حسناً، ذلك أفضل، والآن تلك العباية».

كان طيّ العباية أصعب؛ فالقماش يخرج مثل خيمة ترفرف. وحينما وضعتها على الأرض لتطويها بأحسن طريقة شعرت بأن عيني لطيفة الفاحصتين جاهزة لالتقاط أي خطأ ترتكبه، وبدا أن تلك العينين تتبعانها طول الوقت، حيثما ذهبت. سوف يغادر الغواصون قريباً، ولم تستطع نورة حتى أن تومئ لحمد بأي اتجاه يمكنها أن تترك فيه «الشمشول» له لكي يأخذه. وكلما التقت به وجهاً لوجه كانت تخشى أن تكون لطيفة تراقبها، وكان عنق نورة يشرئب وعيناها تتطلعان للعثور على مكان خفي.

قالت لطيفة، وهي تسلم نورة شريطاً قديماً من القماش: «والآن البراقع، رتبيها فوق بعضها ولفيها بهذه. لا أريد أن

ترشح الصبغة النيلية، وتصبغ ثيابي». صمتت هنيهة قبل أن تفقد صبرها من جديد. «أُف! فقط أخرجي كل شيء، أخرجيها! سوف نوضّب فيما بعد».

في صباح اليوم التالي اكتشفت نورة السبب الذي دعاهم إلى التوضيب، ولكن ليس قبل وجبة الفطور. فحينما جلس جاسم وزوجاته حول مائدة الفطور، أشارت شمسة مرة بعد مرة بأنها حبلى.

اشتكت شمسة، وهي تربت على معدتها بنشوة: «آه، لا أستطيع أن آكل، لا أعرف ما هو، ولكن شيئاً يسد شهيتي، أشعر بالغثيان». كان التصرف نفسه يتكرر كل صباح. كانت شمسة تمنح لطيفة وجاسماً أملاً، محاولة أن تضع في ذهنيهما أن الولد سيأتي عن طريقها. تنهدت شمسة، وأدخلت يدها تحت شيلتها لترتب غرتها التي لا عيب فيها. هل كانت نورة الوحيدة التي لاحظت هندامها؟ كان على معصمها سوار آخر. كان هذا مسطحاً، مع نقطة فيروز في تخريم الذهب.

قالت لها لطيفة: «هل تشعرين بالمرض عزيزتي؟» لم تكن قد أنهت مضغ فطورها.

قالت شمسة: «قليلاً». أرادت نورة أن ترى بعض القبح في شفتيها المفتوحتين، ولكن لم يكن ثمة شيء منه.

فقد كانتا حيويتين مثل تويجات زهرة صحراوية بعد مطر هطل على غير موعد.

لمست لطيفة رأس شمسة وقالت: «أظن أنه الطقس، عزيزتي».

سأل جاسم لطيفة: «هل وضبتم أغراضي؟»

أغلقت لطيفة عينيها برصانة: «أنا على وشك أن أوضبها».

قال لها: «حسناً، لطيفة تعلم، ولكن أفترض أن من الأفضل أن أخبر بقيتكن، لن أذهب إلى الهند بعد الآن».

اتسعت عينا نورة، وفتحت فمها لتسأل لماذا، عندما شعرت بصفار البيضة التي كانت تأكلها يسيل إلى أسفل ذقنها، كان بمثابة تحذير لكي تمسك لسانها عن الكلام؛ فهي لم تكن في وضع مناسب للجرأة.

«بدلاً من ذلك سوف أذهب إلى ليما، وسوف يذهب الباقي منكم إلى أم السنم لقضاء الصيف هناك»، وأومأ برأسه بحكمة: «سوف تحظون بنسمات الهواء في بيوت السعف هناك أكثر من هنا».

وافقته لطيفة: «نعم، أكثر برودة هناك في الصحراء المفتوحة».

«أنا لا أحتاج أن أقول لكنَّ هذا، ولكن هذه الرحلة، الغوص الكبير ... حسناً، ستكون الأخيرة. إنها تكلف أكثر من اللازم، ولنكن صادقين، ببساطة لم يعد هناك المزيد من اللؤلؤ في البحر».

آخر غوص؟ لا مزيد من اللؤلؤ في البحر؟ لم يكن ثمة أثر للندم في صوته، ولا تفكير بالغواصين وعائلاتهم. تذكرت نورة حديث جاسم مع النوخذة هلال: جميع تلك الفلوس التي أعطيت كدفعة مقدمة إلى الغواصين، والآن لن يكونوا قادرين على ردها؟ ماذا سيفعلون؟ كيف سيطعمون أطفالهم؟ تصورت نورة الغواصين يجولون في شوارع ليما الضيقة يتسولون «النقود»، مثل ذلك المجنون.

عاد صوت جاسم: «لذلك قررت ألا أضيع المال على الغوص العظيم، بل أفتح طرقاً أخرى، والطريق التي سأسلكها هي التجارة».

كررت لطيفة وراءه بإيماءة رصينة من رأسها: «الطريق المناسبة هي التجارة».

«أجل التجارة. ليس مع الهند وأفريقيا فحسب، بل هنا بالذات، في بلدتنا، في ليما». فرك جاسم كفيه. «العديد من الإنجليز يتجولون، ومعهم الكثير من النقود والكثير من البضائع. يجب أن أكوّن صداقات معهم لكي أستطيع الشراء والبيع من واحد لآخر». اتكأ للخلف وحرك لسانه داخل فمه وأخرج ما علق من البيض والخبز بلثته. «لعلي أخبرتكنَّ أكثر مما ينبغي أن تعرفنه أنتن «الحريم» والكل، ولكن من الجيد لكنَّ أن تفهمن قليلاً عن العالم.

كررت لطيفة للمرة الثانية: «أجل، الطريق المناسبة هي التجارة».

الفصل التاسع والعشرون

انطلقوا تحت سماء الفجر البنفسجية. لم يكن السير على الرمال كتسلق الجبال، ومهما كانت خطوات نورة خفيفة فقد تسرب الرمل إلى داخل نعالها واستقر بين أصابع قدميها. توقفت المرة تلو المرة لتهز قدمها وتخرج الرمال، إلى أن أنّبتها لطيفة: «تابعوا المسير، تابعوا المسير. لا تتخلفوا».

كان من الأفضل السير حافياً. خلعت نورة نعالها ولحقت بحمد وياقوتة اللذين سارا بخطوات واسعة بحذاء حمار لطيفة. كانوا في طريقهم إلى أم السنم، وهي صحراء ارتفعت فيها الكثبان الرملية مثل سنام الإبل المحدبة الذي سميت باسمه، وسوف يقيمون هناك طول فصل الصيف، بعيداً عن حرارة الساحل المفعمة بالرطوبة اللزجة.

راقبت نورة وركي لطيفة يتأرجحان فوق حمار بدا أصغر من أن يقوى على حملها، ومن وقت لآخر كان يحرن ويتوقف ليهز رأسه، وليتم جلده بقصبة ناعمة، فيهرول خبباً بصوت

كانت تصدره بليِّ لسانها. وكان مندوسها السَّفَري مثبتاً خلفها، وممتلئاً بكل ما يمكن أن تحتاج إليه في منطقة الكثبان. وكانت أغراض الآخرين ملفوفة في صرر صغيرة من القماش. ولو أن شمسة كانت معهم لكان هناك مندوسان سفريّان، ولكن شمسة استأذنت بالبقاء مع أهلها، ووافق جاسم.

سرّت نورة بأنها لن تتعامل مع أمزجة شمسة وسخرياتها، وفي الوقت نفسه كانت منزعجة من أن جاسماً وشمسة على حد سواء سيمكثان في ليما خلال فترة الصيف. يا له من وقت طويل. قد تسمم شمسة أفكار جاسم ضدها، وتصوغ عقله كيفما أرادت، وترسي لها مركزاً في الأسرة.

تساءلت نورة عما إذا كانوا جميعاً يفكرون بالأمر نفسه. كان من الصعب رؤية وجه ياقوتة، وقد ابتلعته ظلمة السماء الأرجوانية الداكنة. أما حمد فقد حاولت أن ترى شيئاً من التقدير في وجهه (أخيراً تمكنت من تسليم الشمشول دون أن تتم ملاحظتها قبل ذلك بيومين)، ولكنه لم ينظر إليها، بل كان يحدق مباشرة نحو الأمام فحسب. لعله كان يفكر بوالده الذي غادر إلى البحر في ذلك اليوم نفسه مع بقية الغواصين بحثاً عن اللؤلؤ.

قالت لطيفة: «سيكون من الأفضل لنا أن نكون في الخارج في هذه الكثبان البيضاء الباردة في أم السنم». بدا عليها أنها غير منزعجة، وكان صوتها ناعماً مثل وقع أقدامهم على الرمال.

«هناك سيكون الهواء جافاً، بدلاً من كل تلك الرطوبة بجوار البحر التي تجعل الدم يتخثر».

راقبت نورة لطيفة وهي مسترخية، وهي تمسك بالمندوس، بينما كان الحمار يسعى جاهداً لصعود أحد الكثبان، حتى إن أطراف نعال يترك أثراً على الرمال. بدا ذهنها خالياً من الهموم والمشاغل. ألم تكن هي ترى في شمسة مصدر تهديد أيضاً؟ فقد أغلقت عينيها باستحسان مصحوب بصفاء الذهن عندما أخبرها جاسم أن شمسة ستذهب إلى أهلها.

تقلبت هذه الأفكار بعضها فوق بعض في رأس نورة، إلى أن قررت أن تعود لارتداء نعالها؛ إذ سيكون هناك على الأقل انشغال بالرمل الذي يغطي أصابع قدميها.

اخترق أول سهم من النور عنان السماء، ونظرت نورة بطرف عينيها إلى مجموعة من بيوت السعف التي تكونت منها المستوطنة. كان هناك أناس آخرون أيضاً، أسر من ليما جاؤوا للسبب نفسه: هرباً من حرارة الصيف المصحوبة باللزوجة وملوحة البحر. كان هناك ماعز ودجاج وحمير وزوج من الجمال أيضاً.

رحبت نورة بالصخب والحركة بعد سيرهم تحت سكون السماء والرمال. تصاعدت في الجو روائح الخبز الطازج المخبوز

لتوه والمغطى بطبقة سميكة من السمن، بينما كان الأطفال يجرون من كوخ إلى آخر، فقد كانت البيوت المصنوعة من سعف النخيل والمنبسطة الأسقف مبعثرة بشكل عشوائي في وهدة واسعة بين الكثبان الرملية، والبالغ عددها نحو عشرين بيتاً إجمالاً. كان بيتان لجاسم في آخر المستوطنة، تحت مجموعة من ثلاث نخلات منتصبات.

كان حمد قد أحضر من قبل كل ما يحتاجون إليه: قدور وقلايات ومساند وطحين وتمر وأرز وقهوة وشاي وماعز ودجاج.

قالت لطيفة وهي تشير إلى الأمام: «يوجد بئر هناك ماؤها بارد مثل مطر الشتاء».

لم تستطع نورة أن تراها، وتساءلت كيف يمكن لأي إنسان أن يجد شيئاً في هذا الامتداد الواسع للمرتفعات والمنخفضات المتنقلة. سارعت لطيفة إلى الأمر بتنظيم الترتيبات الخاصة بالنوم. أخذت هي بيت السعف الأول (البيت المزود ببرجيل مصنوع من قماش الكتّان). اشتركت نورة في الثاني مع ياقوتة. وكان هناك سلّم خشبي يوصل إلى مكان نوم حمد، وهو عبارة عن منصة من سعف النخيل على أربعة قوائم خشبية، وتقع على مسافة قريبة حسبما هو مناسب.

حينما ارتفعت أشعة الشمس في السماء صارت الحرارة

تتصاعد من الرمال. أفرغوا الأمتعة وطبخوا وتناولوا الغداء، ثم دخلت نورة إلى بيتها، وفي العتمة أراحت عينيها من وهج الشمس، واسترخت مرخية الأطراف بجوار ياقوتة على الحصير المصنوعة من سعف النخيل المحبوكة التي غطت الرمال الناعمة.

التصق العرق بمفرق رأسها، وثبتت وجهها على الفراغات الطويلة في الجدران المبنية من سعف النخيل، بانتظار تلك النسمة الغامضة لكي تدخل من خلال أحد الجدران وتخرج من الآخر، وأخيراً جاءت نفثة هواء ضعيفة كانت بلا ريب أكثر جفافاً، ولكنها حارة مثل حرارة الهواء قرب البحر. قالت: «حر شديد».

نطقت ياقوتة بجوابها: «الحر هو الحر، سواء كنت هنا أو هناك. الحر ... هو ... الحر». كانت تلك هي كلماتها الأولى منذ أن غادروا وديمة، وكانت نغمة صوتها جافة كالصحراء التي يجلسون في وسطها.

سألتها نورة: «لماذا أنت منزعجة مني؟»

«هف. المفروض أن تعرفي».

«أوه؟ وماذا إن لم أكن أعرف؟»

«أنت تعرفين كل شيء، ولا سيما كيف تحفظين الأسرار».

«لا توجد أسرار أخفيها».

«أخبريني بالحقيقة فحسب، هذا كل ما أريد، ثم سأعرف إن كنت صديقتي أم لا».

«أي حقيقة؟»

«هف!»

«إذا كنت تتحدثين عن حمد، فهو لم يأت ليراني كما تظنين أنه فعل».

جارتها بدون اقتناع!!

الفصل الثلاثون

في الصحـراء تبـدو الشـمس أكـبر كثـيراً، وربـما أكثـر اسـتدارة وسـطوعاً. وهـي تغسـل السـماء مـن الألـوان وتبيّـض الكثبـان الرمليـة. ولا تتسـامح الشـمس معنـا إلا في وقـت متأخـر بعـد العصر حينـما تسـتعيد الشـمس أشـعتها القويـة لتخزنهـا حتـى اليـوم التـالي. كان ذلـك حينـما تجولـت نـورة في الكثبـان الرمليـة المحيطـة بهـم.

وإلى جانـب الفـراغ الشاسـع في الصحـراء كانـت هنـاك ألفـة غريبـة ورفـع للكلفـة؛ إذ كانـت تسـتطيع مغـادرة الأكـواخ والذهاب في أي اتجـاه شـاءت. ولم يكـن ثمـة فـرق؛ لأن كل الكثبـان المرتفعـة كانـت تبـدو متشـابهة. ومـع ذلـك كانـت تحـب أن تفعـل ذلـك، حيـث جلسـت الآن عـلى حافـة هضبـة شـاهقة ودفنـت قدميهـا في الرمـال، تراقـب جماعـة مـن البنـات يتشـقلبن إلى أسـفل المنحـدر.

«هلمّـي»، نـادت فتـاة صغـيرة ترتـدي ثوبـاً أصفـر بلـون الكنـاري، «اسـبحي معنـا، سـابقينا». وكانـت مـن البنـات الأكـبر وقـد يكـون عمرهـا سـبعة أو ثـماني سـنوات. كانـت

تتسلق الهضبة نحو نورة، بينما كان شعرها الذي يصل إلى كتفيها يتشابك وهي تحل جدائله.

ابتسمت نورة لها: «سأصبح في حالة فوضى. انظري إلى شعرك، تعالي لأصلحه لك».

ابتعدت الفتاة بعيداً وقالت: «إنه مجرد رمل، ما عليك سوى أن تهزيه فيسقط عنك، بهذا الشكل»، وهزت رأسها، وأخيراً انحلت جدائلها. «تعالي، لنذهب».

هزت نورة رأسها، وتمنت لو أن ياقوتة كانت معها، لكانتا ضحكتا معاً وسبحتا إلى أسفل الكثيب دونما أي تفكير أو تردد. كم كانت عنيدة تلك الأمة! عشرة أيام من التجهم في وديمة، وعشرة أخرى منذ وصولهم إلى أم السنم، وما زالت ياقوتة ترفض أن تتخلص من الاستياء. والآن فات الأوان على نورة لأن تعترف بأنها كانت على حق طيلة الوقت؛ فذلك سيؤدي إلى مزيد من الشكوك في المستقبل. لا، كان قرار نورة أن تتمسك بقصتها. سحبت الفتاة ذراع نورة التي قالت لها: «لا بأس، لا بأس. ما اسمك على أية حال؟»

«عفراء».

ابتسمت نورة وثبتت شيلتها حول رأسها. «ستجعلينني في حالة فوضى»، قالت ذلك بينما انبطحت على بطنها.

قالت عفراء: «اليدان إلى الخارج، وانظري أمامك مباشرة».

فعلت نورة ما طلب منها.

«والآن اسبحي!»

أغلقت نورة عينيها وفمها، وانزلقت ورأسها في المقدمة إلى أسفل الكثيب. غمرها الرمل، إذ دخل خياشيمها وتسلل إلى أذنيها، وتسرب إلى شيلتها، وتجمع في ثوبها. وفي كل مرة كان الرمل فيها يسعى لابتلاعها، كانت ترمي به جانباً بضربات عريضة من يديها. راحت تسبح أسرع فأسرع، وشاهدت العالم وهو ينزلق ماراً بجوارها، رغم أن عينيها كانتا مغلقتين. لم تدع الرمال تغمرها إلا عند وصولها إلى الأسفل، ثم سمعت الأمهات ينادين على أطفالهن للعودة إلى بيوت السعف. لم تفتح نورة عينيها، بل انقلبت على ظهرها وفتحت ذراعيها وساقيها مثل أحد النجوم، وهي تستمع إلى صياح الأطفال وهم عائدون إلى بيوتهم.

يا له من شعور مفعم بالبهجة! بدا أن ذلك الغوص إلى أسفل الكثيب قد حررها أخيراً من كل تلك الشهور في وديمة من مراقبة كيف كانت تتكلم أو تمشي. تثاءبت ومططت ذراعيها بقوة حتى أصابعها، ومدت قدميها، وبقيت على تلك الحال فترة طويلة قبل أن ترخي أطرافها. كان ذلك عندما أحست بظلمة تزحف فوق وجهها، وفتحت عينيها لتجد حمداً واقفاً فوقها بذراعين متصالبتين، فجلست منتصبة على الفور ونظرت بتركيز أكثر إليه.

قالت مؤنبة: «ما هذه الوقاحة؟» كانت الشمس خلفه،

وانحرفت جانباً لكي تستطيع أن ترى وجهه بشكل أفضل، وتجد ما إذا كان يتكلف الابتسام. «كيف تجرؤ أن تظهر فجأة مثل ذلك ... مثل ... مثل ...»

«مثل لص؟»

هزت رأسها وتجهمت.

«مثل شبح؟» وابتسم.

«أسوأ من شبح ! أوقح ... أكثر خزياً من ... من ...» ومرة أخرى تبقى الكلمة عند رأس لسانها دون أن تخرج. التفّت شيلتها حول عنقها، وحينما حلتها شعرت بالرمل يتساقط منها. كم كان وضعها في حالة من الفوضى!

«حسناً، هذا الشبح جاء ليشكرك على العمل الجميل الذي صنعته بذلك «الشمشول». كان أبي يسألني دوماً إلى أي خياط أخذتها، وفي كل مرة كان علي أن أختفي وأتظاهر أن أحداً يناديني ويحتاج إلي بسرعة».

قالت نورة: «حسناً، أنا متأكدة من أن ذلك لم يكن صعباً عليك؛ فأنت موهوب في الاختفاء والظهور». وقفت ونفضت الرمل من ثوبها، وفرّشت حبات الرمل من وجهها، بينما انشغلت إلى حد ما عن سماع حمد وهو يشكرها ثانية.

قال: «أشعر أن علي أن أفعل لك شيئاً بالمقابل، فماذا أستطيع أن أفعل؟»

قالت نورة: «لا شيء، لا تسبب مشكلات فحسب».

الفصل الحادي والثلاثون

تسابقت الرمال معها إلى أن خلّفتها وراءها وحلقت في السماء. على الرغم من أنها أحكمت شد شيلتها على رأسها وثبتتها تحت ذراعيها، فقد كانت تنتفخ مثل البالون ثم تنبسط، مرة تلو المرة. لم تشبع نورة من الأرجوحة، وكانت تسمع الأجزاء المنهكة من حبل الأرجوحة تصدر صريراً من شجرة النخيل المنحنية التي كان الحبل ملفوفاً عليها، ولكنها تابعت في الأرجحة عالياً. كم شعرت بالحرية! كانت تصل دائماً قبل الأطفال لكي تستمتع وحدها. «حمد نصبها لنا»، ذلك ما قالته لها عفراء، ولكن نورة كانت تعرف بشكل أفضل. حينما تلاحق هواء بعد الظهيرة على وجهها، ابتسمت؛ إذ عرفت أنه نصب الأرجوحة من أجلها.

هناك كان، مثل كل ظهيرة، جاثماً على قمة الكثيب، يراقبها، وهي تركته يفعل ذلك، فهي لا تريد أن تبطئ؛ لأن الحذر لا يتناسب مع رفع الكلفة واللامبالاة اللذين ينطوي عليهما ركوب الأرجوحة. كان يعيد لف غترته الآن، بنقفة

رشيقة من ذراعه، احتفظت بصورتها في ذهنها بلفتة سريعة من رأسها، وفاجأتها طلاقة ملامحه كما هي الحال مع كل شيء آخر يتعلق به أخيراً.

كان ثمة شيء يحصل، فحمد يتغير؛ إذ لم يعد كتفاه يزحفان إلى عنقه من الإحباط، كما لم يعد فمه يبوّز بذلك العبوس الغاضب الذي اعتادت أن تلاحظه في وديمة. وعيناه ... تلكما العينان اللتان لا يسبر غورهما .. لم تعودا تنظران إلى الأرض، بل صار حمد يبقيهما مفتوحتين، ويدع الشمس تضفي لمعاناً عليهما.

لعل تلك هي الألفة ورفع الكلفة نظراً لعدم وجود جدران تحيط بك وتحتجزك داخلها. وربما لأن جاسماً لم يكن معهم، أو ربما كان ذلك الفراغ حولهم. ومهما يكن السبب فكل حركة كان يفعلها كانت تترك ارتياحاً لم يكن موجوداً من قبل.

كان الأطفال قادمين، وقد سمعت أصواتهم قبل ظهورهم في أعلى الكثيب. أبطأت نورة؛ فقد انتهى دورها في الأرجوحة، وراحت تشاهد البنات يحطن بحمد ويسحبنه إلى أسفل المنحدر، ويرجونه بزعيقهنَّ الحماسي أن ينصب «أرجوحة أخرى، رجاءً».

غاصت ساقاه الرشيقتان، كساقي ظبي، في الرمال، وهو يخطو خطوات واسعة، وشعرت نورة بوجنتيها تتوهجان مثل الجمر الساخن. عزت السبب إلى الأرجحة وتابعت المشاهدة. «إنه مثل أخي»، ذلك ما همست به عندما توقفت الأرجوحة عن النوسان، ونادته أيضاً «أخي حمد» كما هو ملائم.

لم تشعر بأنها تنتهك أية قواعد بلقائها إياه عند أشجار النخيل في عصر كل يوم، وهو ما سمّوه المنحدر العريض الذي برزت مجموعة من ستةِ نخلات. وبالنتيجة فهما محاطان دائماً بالأطفال، وأعين الكبار التي تراقب الأطفال جعلت الأمور سليمة، ولا يبدو أن أحداً يهتم، على أية حال، فلا لطيفة التي خرجت من البيت إلى البيت الآخر بابتسامة على وجهها، كما لو أن جفاف الصحراء قد جفف التذمر من كلامها، ولا ياقوتة التي بقيت على مزاجها السيئ الذي لا ينتهي؛ لم تسأل أبداً أين ذهبت نورة بعد الظهر أو من الذين رأتهم.

«لم يعد لدي حبل آخر». اعترض حمد حالما وصلوا إلى الأرجوحة. «وأيضاً، ليس هناك سوى شجرة واحدة محنية، أما باقي الأشجار فهي مستقيمة. قلن لي يا بنات، أين أنصب أرجوحة أخرى؟»

توسلت البنات: «بجوار الأولى، نرجوك!»

وكان هناك صوت عفراء التي كانت على الدوام أجرأ من البقية. «يجب أن تصنع لنا ثلاثاً على الأقل. سوف نحضر لك كل الحبال التي تريدها».

ضحك حمد من جديد، وفي هذه المرة انضمت نورة إليهن، بينما بدت علامات تعجب على عفراء.

«لا بد أنك كنتِ مثل عفراء جريئة ولعوباً». قال حمد ذلك لنورة بينما جلسا يشاهدان البنات.

هزت نورة كتفيها وقالت: «لا أدري. ربما ... منذ أمد طويل».

«تعلمـين يـا أختـي، إن لم نراقبهـن، احـرصي عـلى أن تنـال كل واحـدة منهـن دورهـا عـلى الأرجوحـة، فعفـراء لـن تـترك فرصـة لأي منهـن. انظـري إليهـا، فهـي تذهـب مـن جديـد».

مـن المؤكـد أن لديهـا تنمـر الأغنيـاء. كانـت عفـراء تحضـن الأرجوحـة إلى ثوبهـا الأصفـر بإحـدى ذراعيهـا، وتدفـع فتـاة بدينـة أكـبر سـناً وأطـول منهـا، لتبعدهـا مـن طريقهـا، وزعقـت: «سـوف تسـقط إن جلسـت عليهـا؛ فأنـت سـمينة جـداً».

اسـتخدمت نـورة صوتهـا الصـارم: «إنـه دورهـا، فهـي لم تجلـس عليهـا بعـد. أعطهـا لهـا».

رفسـت عفـراء الرمـل وتركـت الأرجوحـة، ووضعـت قبضتيهـا عـلى وركيهـا، وحـذرت الفتـاة: «ليـس لفـترة طويلـة، عـلى كل حـال. إن انقطعـت فلـن نحصـل بقيتنـا عـلى دور آخـر».

أومـأت نـورة علامـة عـلى الرضـا، أليـس ذلـك هـو السـبب وراء وجودهمـا هنـاك لـلإشراف بيقظـة عـلى البنـات؟

لم تكـن نـورة متأكـدة مما استمتعت بـه أكثر: ركـوب الأرجوحة، أو حديثهـا مـع حمـد. تركهـا تقـول مـا تريـد، وقـد فعلـت، وأطلقت العنـان لنفسـها عـلى نحـو أدهشـها. تحدثـت نـورة تحـت أشـعة شـمس مـا بعـد الظهـيرة عـن طفولتهـا في الجبـال، ومـرض أمهـا

العضال المميت، واختفاء أبيها، وبيع صقر إياها بتزويجها، وعندما رأت أنها قد تكلمت أكثر من اللازم، نظرت في عينيه وتنهدت، راضية برؤية البريق فيهما الذي شجعها، ومن ثم لم تشعر بالندم على قولها الكثير.

تحدث هو أيضاً، ولكن كلماته خرجت مثل أمواج البحر، فهو يتحدث قليلاً، وينكفئ قليلاً، ثم يقول المزيد. كان صوته يشبه تموجات البحر الناعمة في يوم هادئ، أو ارتطامها الثابت بالشاطئ عندما يتدحرج المد على الشاطئ مع هبوب الريح القوية.

«أنا لا أريد أن أجيب أي شخص، أخي حمد، فأنا لا أريد أن أخاف»، قالت له ذلك ذات يوم بعد العصر، وكانت قد قفزت من الأرجوحة حالما رأته يصل، على الرغم من أن الأطفال لم يصلوا بعد.

انضم إليها تحت شجرات النخيل وقال: «أعرف ذلك». كانت عيناه هناك، عينان سفعتهما الشمس، مطمئناً إياها بأنها في أمان إن باحت بكل ما كان يزعجها. جلست حاضنة ركبتيها، ومستندة إلى الرمل الدافئ حول قدميها المدفونتين فيه.

قالت نورة: «كيف لك أن تعرف؟ أنت رجل، ويمكنك أن تفعل ما تشاء، وتذهب حيث تحب. يمكنك أن تقرر ما تفعل بحياتك». أطلقت آهة يائسة. «أنا؟ أنا ملك جاسم، وهو يقرر مصيري، وكل ما أستطيع فعله هو أن أنتظر وأرى ماذا يحدث».

أومأ برأسه. «صحيح، أختي، ولكن لا تظني أنني حر تماماً هنا. لكي تعيش بالطريقة التي تريد، سواء كنت رجلاً أم امرأة، فإنك تحتاج إلى المال، وأنا لا أملك شيئاً منه».

«ولكن زو- جاسم ... حسناً، يدفع لك».

قال حمد: «فلوس قليلة. وعدني بأن يأخذني معه عندما سافر للتجارة، ويعلمني كيف أصبح تاجراً. كان ذلك منذ أربع سنوات، وحتى الآن، لا شيء».

لم تكن في مزاج يسمح لها بالحديث عن زوجها. قالت له: «أنت لا تحتاج إليه، أخي حمد. يمكنك أن تذهب وتعمل مع شخص آخر. كما قلت، ما شاء الله، يمكنك أن تتدبر أمرك وتفعل أي شيء إن كنت تريد ذلك بالفعل».

«أراهن أن الشيء نفسه ينطبق عليك».

«همم». ابتسمت وسحبت قدميها خارج الرمل، ومدتهما بشكل مستقيم أمامها، واتكأت إلى الخلف، واستندت إلى يديها. داعبت نسمة ناعمة أغصان النخلة فوقهما، وشاهدت هي تموجات أشعة الشمس تتراقص على قدميها.

قال حمد: «ماذا لو أخبرتك أنني منذ أن كنت طفلاً كنت أرغب بالشيء بشدة حتى إنني كنت على يقين من أنه سيحدث».

«و؟»

«لم يحدث». طرفت عينا حمد من أشعة الشمس، وفتنت نورة، وانتظرت أن يخبرها المزيد، ولكنه لم يفعل. وبدلاً من ذلك، نظر للأسفل إلى قدميه وتتبع حركة خنفساء سوداء محدودبة الظهر، كانت قد بدأت تتسلق إبهام قدمه.

سألت: «حسناً، لماذا لم يحدث؟»

هز قدمه ليبعد عنها الخنفساء وأخذ نفساً عميقاً، وعرفت نورة أن أكبر موجة كانت على وشك أن تضرب الشاطئ.

بدأ يقول: «يوجد دكان في السوق، يحوي كل الأشياء التي كنت أريد أن أملكها كطفل: الحجر الذي يثقل الغواص فينزل بسبب ثقله إلى الأسفل، «الشمشول» القطني الذي يحميه من لسعات قنديل البحر، ومشابك الأنف الخشبية، وواقيات الأصابع، والسلة، وتلك المغرفة الحادة، كما تعرفين، المغرفة التي يستخدمها الغواصون لسحب المحارة من صدفتها، وكنت أحلم دائماً بامتلاكها». توقف وانثنت شفته للأسفل نحو ذقنه، ثم قال: «أنا لم أعد أمر بذلك الدكان، كما ترين، أختي نورة؛ فهو يذكرني بهواني». تنهد ثم تابع: «كل هذه التوافه تذكرني بعجزي».

«هوان؟ عجز؟» عمّ يتحدث؟

نقف الرمل بأصابع قدميه: «كما ترين، كنت أريد دوماً أن أكون غواصاً. عندما كنت فتى، كنت باستمرار أحلم بالشيء

نفسه؛ كنت على متن هذا القارب الصغير على مياه مائجة في يوم صحو بلا غيوم، تحت أشعة شمس لاسعة. كان دوماً يعج بغواصين متعبين». لم يعد حمد يرف عينيه تحت أشعة الشمس، وبدلاً من ذلك بقيت عيناه ثابتتين وجريئتين ضد أشعة ما بعد الظهر، ثم قال ساخراً: «إنه قارب الإهمال، كما ترين. لماذا أردت أن أكون على متنه، لا أعلم». رفع حاجبيه: «لا أمل فيه، كما أنه من الممكن أن يغرق، ولكن بعدئذ يحدث شيء في حلمي هذا».

«ماذا، أخي حمد، ماذا؟»

شخر حمد: «أصبحت أنا البطل! حينما يستسلم الغواصون أقوم بغوصة أخيرة في الظلام، في الأعماق المظلمة، وأبقى في الأسفل بمقدار العد حتى سبعة وتسعين، وثمانية وتسعين، وتسعة وتسعين، أطول كثيراً مما يستطيع أي غواص آخر أن يمكثه من دون تنفس. ثم بعد أن يظنوا أنني متّ، كنت أعود إلى الأعلى». قام حمد بالتظاهر باستنشاق الهواء، ورفع ذراعيه بالفوز. «يصفر الغواصون ويصفقون من أجلي، البطل، حينما أسلمهم أكبر دانة رأوها على الإطلاق، ويصرخون: «حمد أنقذنا». وعلى الرغم من أنه كان يضحك، فإن ذقنه لم تتوقف عن الارتعاش.

كانت نورة تضحك أيضاً، على الرغم من أنها كانت تعرف أن المفروض ألا تضحك. فالحلم الذي لا يتحقق يشبه الحليب

الـذي يـراق عـلى أرض جافـة، فهـو يغـور فيهـا عـلى الفـور، ويـترك رقعـة غـير مفيـدة تذكـرك بأنـك لا يمكنـك أن تتذوقـه.

قـال: «يـا لهـا مـن حكايـة حلـوة»، وتوقـف ليضحـك بفقشـة حـادة مـن أصابعـه. «كل مـا اسـتغرقه الأمـر هـو غوصـة واحـدة ليتبخـر ذلـك الحلـم. كـما تريـن، يـا أختـي، لقـد أكل البحـر صحـة والـدي؛ فعينـاه مغبشـتان، وبشرتـه مثـل الجلـد المشـقوق، وعظامه.. حسـناً، يمكنـك أن تسـمعي عظامـه تتصـدع مـع كل انحنـاءة منـه كـم كنـت أتمنـى مسـاعدته... وكنـت دومـاً متأكـداً مـن أن بإمـكاني أن أتحـول إلى بطـل أحلامـي، الشـخص الـذي يجـد هـذه الثـروات، لأنقـذ عائلتـي بكاملهـا، بالفعـل».

هـل كان عليهـا أن تغـير الموضـوع؟ نعـم، لا، نعـم، لا؟ قـررت ألا تغـيره. لعلـه يحـس بشـعور أفضـل، كـما شـعرت هـي بتحسـن عندمـا تحدثـت قليـلاً عـن ذلـك الألم.

قـال حمـد: «منـذ صيفـين كنـت مسـتعداً؛ إذ كنـت أتـدرب مئـات المـرات عـلى حبـس نفسي في الميـاه الضحلـة بوديمـة، ثـم ذات مـرة، كنـا في البحـر، فوقفـت عـلى حافـة ذلـك المركـب، وأذكـر أننـي كنـت بجـوار والـدي أبحـث في المـاء عـن قناديـل البحـر، وعندمـا لم أجـد أيـاً منهـا، لم أهتـم بارتـداء «شمشـول» الغـوص. طلـب منـي والـدي ألا أغـوص أعمـق منـه»، عمّـق حمـد مـن صوتـه، «لا تظـن أن بإمكانـك أن تغلـب البحـر». قـال ذلـك لي، وأومـأت لـه بالموافقـة، ولم يواتنـي الصـبر حتـى نزلـت في المـاء! رأيـت

بقعة مظلمة في القاع؛ كانت صخرة... نعم إنها هي وكانت الأصداف الملتصقة بها في انتظاري.

«ثم أغلقت خياشيمي بملقط الأنف وملأت رئتي بالهواء، وغصت وراء الغواصين، أسفل، فأسفل، فأسفل، ثم أصابني الذعر. لم أتمكن من تمييز أبي من بين الغواصين، ولسع الماء عينيّ، وأردت أن أفركهما، ولكنني لم أجرؤ. خفت أن أخلط بين الحبال، كان الحبل الأيمن يشدني إلى الأسفل، والحبل الأيسر يرفعني للأعلى. كان هناك اثنان من الحبال، أحدهما مثبت بثقل كان يجرني إلى القاع، والآخر مثبت بيدي اليسرى: حبل النجاة، الذي أجذبه جذبة واحدةً ليعرف «السيب» في المركب أن عليه أن يسحبني إلى الأعلى».

غدا الهواء قليلاً، وتنفست نورة بعمق، فكيف كان حاله والماء يضغط عليه، ولا يسمح له بالتنفس؟ لعقت بلسانها العرق الذي تجمع فوق شفتيها وانتظرت البقية.

«أتذكر أنني تساءلت كيف سأجمع الأصداف إن كان لدي هذا الخوف من تحرير يدي من الحبل، وعندها بدأت المشكلة». صمت حمد وسحب قدميه خارج الرمل، وأخذ وقته حتى طواهما تحته، وأرادت نورة أن تصرخ عليه ليتابع ويخبرها ما حدث بعد ذلك.

كأنه حزر ما في ذهنها، فقال: «ألم، لا يمكنك أن تتصوريه، داخل أذنيّ وتحت عينيّ. هززت رأسي، ولكن ذلك لم ينفع،

وحاولـت أن أطقطـق أذني ولكـن الألم ازداد سـوءاً». انكمـش وضغـط أذنيـه. «تسـلل الألم إلى أطـراف عنقـي وصـار يخفـق خفقـاً. أف! يـا لـه مـن خفقـان، خلـف مقلـة عينـيّ، وفي كل جسـمي!»

اسـتطاعت أن تسـمع أصـوات الأطفـال مـن خلـف الكثيـب وشـعرت بالانزعـاج مـن التدخـل القـادم. كانـت في القصـة تحـت المـاء مـع حمـد، تشـاطره ألمـه، مالـت أقـرب إليـه؛ كان لا بـد أن تعـرف مـا فعـل بعـد ذلـك.

صفـق حمـد بيديـه، فجفلـت نـورة وتراجعـت. قـال حمـد: «حاولـت أن أبطـئ، ولكـن ذلـك الحجـر كان يـسرع بي إلى الأعـماق، يجذبنـي معـه. شـعرت بالخـوف، ورحـت أرفـس بقدمـي، ونسـيت أن أشـد الحبـل، وكان هـذا الألم الرهيـب يرافقنـي طـول الوقـت. كان المـاء كثيفـاً حـولي، ويبتلعنـي».

أصبـح الأطفـال في أعـلى الكثيـب الآن، ينـادون نـورة وحمـداً، فتجاهلتهـم. «أخـبرني، أخـبرني بسرعـة»، حثّتـه، «مـاذا فعلـت؟»

«كـدت أن أغـرق، ولكـن الله، رحمنـي. لا بـد أننـي كنـت أقـاوم بشـدة حتـى إن المسـؤول عـن الحبـل في القـارب أدرك أننـي في ورطـة عويصـة». اسـتدار نحـو الأطفـال، وراقبهـم وهـم ينزلقـون إلى أسـفل الكثيـب. وكالعـادة، كانـت عفـراء في المقدمـة. «عندمـا خرجـتُ إلى السـطح، كنـت مثـل سـمكة تصـارع المـوت وأنـا أصـارع لكـي أتنفـس».

الفصل الثاني والثلاثون

في صباح أحد الأيام اختلست النظر خلال بيت لطيفة، ورأتها تفتش داخل مندوسها، وشاهدتها نورة تخرج الأثواب والعبايات والسراويل، واحداً بعد الآخر. همست لطيفة بصوت عال: «أين هي؟»

دخلت نورة وكانت على وشك أن تسأل عم تبحث عندما شقت ياقوتة طريقها بجوارها، وقالت: «لا أستطيع أن أجدها في أي مكان، أمي لطيفة».

قالت لطيفة: «لعلنا لم نحضرها معنا إذن. خطؤك أنك لم تذكريني».

اعترضت ياقوتة قائلة: «خطئي؟»، وللحظة نسيت نورة حذرها بالصراخ العالي الذي لم تسمعه منذ فترة طويلة. رفعت ياقوتة أصبع الاتهام، حادة كالرمح، وثبتتها على أعلى أنف نورة. «هي وليس أنا، أمي لطيفة. هي التي حزمت مندوسك السفري، وهي التي نسيت مرآتك».

قالت لطيفة بهدوء: «لا يهم من الذي حزم. كان يجب عليك أن تتأكدي مما في المندوس، حتى بعد تعبئته. نورة جديدة في بيتنا، وهي لا تعرف الأشياء التي أحتاج إليها».

كشرت ياقوتة وقالت: «ولكنك أنت التي أخبرتِها ماذا تحزم».

«هس، يا بنت! لا داعي لصنع عاصفة حول هذا الأمر».

قالت نورة: «ولكن مرآتك موجودة عندك، وهي هناك في الزاوية بجوار العطور».

لوحت ياقوتة بذراعيها في الهواء مثل الأخطبوط، وقالت: «ليست تلك المرآة؛ فهذه صغيرة جداً حتى إن عليها أن تمسك بها بعيداً لكي ترى فيها وجهها بشكل صحيح».

أوضحت لطيفة: «عيناي، لا أستطيع أن أرى جيداً إن كانت قريبة جداً. وهي صغيرة جداً على كل حال. وحتى إن أمسكت بها بعيداً فلا أستطيع أن أرى سوى هذا الجزء»، وأشارت إلى طرف جبينها، «أو هذا الجزء»، وأشارت إلى الطرف المقابل. «المرآة الكبرى هي التي أحتاج إليها، المرآة ذات المقبض البرونزي وذات البلورات الملونة الصغيرة الملصقة عليها».

تظاهرت نورة بفهم الإلحاح بإيماءة من رأسها.

أصرت لطيفة قائلة: «يجب أن تكون معي».

وأومأت نورة مرة أخرى.

ألقت لطيفة بموجة عابرة نحو نورة: «يجب أن تذهبي وتحضريها».

قالت ياقوتة وقد نهضت: «سأذهب أنا، أنا أستطيع أن أحضر لك مرآتك».

هزت لطيفة رأسها: «لا، أريدك أن تبقي هنا في حال احتجتُ إلى شيء. نورة تستطيع أن تذهب». توقفت ثم قالت: «وحمد أيضاً؛ فهو يعرف الطريق، ويستطيع أن يحرسها إن كان هناك أي خطر».

«خطر؟ هي مولودة في الجبال، أمي لطيفة، حيث تقفز الأفاعي بوجهك من تحت كل حجر! حيّات خضراء، وحيات سوداء، وحيات مخططة». كانت ضحكات ياقوتة ممتلئة بسم تلك الأفاعي. «هي تستطيع أن تتصدى لأي خطر يعترض طريقها، بل تستطيع أن تخيف قطاع الطرق بنفش شعرها والتلويح بيديها مثل المجنونة».

«هس، يا وقحة. إن لم تكن شمسة، فأنت. لماذا لا تستطيعان معاملة نورة كأختكما؟»

قالت ياقوتة: «لون مختلف. عندما يكون لونك أفتح تعتقدين أن ذات اللون الأغمق ليس فيها عقل، لا تستطيع أن ترى أو تفهم». والتفتت إلى نورة: «أليس ذلك صحيحاً، يا أخخخ...خختي؟»

«كفى! نورة زوجة الأرباب». برزت عينا لطيفة من خلف البرقع، كحصاتين لامعتين، وقد تبدى فيهما الغضب.

«سـوف تكـون أمـاً لأولاده ذات يـوم، عليـك أن تحترميهـا عندمـا تتكلمـين معهـا».

قطبت ياقوتة جبينها وخرجت بغضب خارج الكوخ.

نادت لطيفة: «إيه ... بن سرور!»

«هـو مثـل أخـي ونحـن سـنتحدث كثـيراً أثنـاء مشـوارنا إلى وديمـة». كـررت نـورة الهمس مـرة تلـو المرة. ومـع ذلـك شـعرت بدفقـة مـن التململ تتسـارع فيهـا مثـل فيضـان سريـع يجتـاح الـوادي، فيضـان عـارم يجتـث الشـجيرات، ويعـرّي الأشـجار، بـل ويكتسـح أجـزاء كاملـة مـن الـوادي. تنفسـت بعمـق لتبطـئ القلـب الخفـاق. إنـه الحـر، هـذا مـا خطـر في بالهـا.

«لم هـذا؟ لم ذاك؟ دائـماً تمضـين وقتـاً أطـول مـن الـلازم تفكريـن بأمـور». ذلـك مـا قالـه حمـد لنـورة ذات مـرة، وقالـت هـي إنهـا تحـب أن تفهـم بشـكل أفضـل وتصنـع لائحـة بخياراتهـا، بحيـث لا تضطـر إلى اتخـاذ قـرار هنـاك وفي ذلـك الوقـت، والآن لديهـا قائمـة جديـدة بـكل مـا عليهـا أن تفعلـه قبـل أن تنطلـق إلى وديمـة.

سـتلبس أفضـل مـا لديهـا وتغطيـه بالثـوب الأزرق الـذي عـلى صـدره تطريـز بأزهـار ناعمـة. مناسـب تمامـاً. وبالطبـع، كانـت جميـع طبقـات الثيـاب معطـرة بالعـود والمسـك لتفـوح رائحتهـا مـع كل حركـة. سـتنظف أسـنانها بعـود السـواك، وسـتغسـل شـعرها،

وستضفره جديلتين، وستحافظ على أناقتها بمسحتين من زيت الياسمين، وستضع نقطة من خلاصة العنبر خلف كل أذن، وبالطبع لا بد من الكحل.

خرجت من بيتها وهي تعد بأصابعها إلى أن بهرت بصرها أشعة الظهيرة الحادة، وجعلتها تنسى ما كانت تحتاج إلى فعله، ثم تذكرت كيس الصلصال في جيبها. ذلك ما كان عليها فعله أولاً، بأن تغسل شعرها. قفزت عبر الرمل الحارق وجثمت في الظل وراء الأكواخ.

حينما أفرغت مسحوق الصلصال في شعرها، سمعت حفيف السعف حينما دخلت ياقوتة إلى الكوخ، وهي تنفخ وتنخر، بخطوات سريعة بدت وكأنها تدور في دوائر. كانت أشبه ما تكون بقطة برية محبوسة في قفص، وسرت عدوى توترها إلى نورة حينما فركت اللزوجة من فروة رأسها.

كل ذلك الاستعجال! لقد أصبحوا مخلوقات من الصحراء، مثل الجرابيع العصبية التي تقفز دائماً هرباً من الخطر، مثل النمل البرتقالي الصغير الذي يسير بسرعة، حتى إنك لا ترى أرجلها الطويلة تمس الأرض، مثل سمكة الرمل التي كانت تراها أحياناً تغوص في الكثبان أسرع من رفع الريح للذرات الدقيقة. كانوا كذلك في البيت في المرتفعات المخملية حيث لا يوجد شيء صلب تصطدم به. إنه الحر، خطر ذلك ببالها. لقد اقتضى الحر أن يكون الأمر كذلك.

كانت لطيفة الوحيدة التي بقيت لم تتأثر. كانت هادئة مثل ضوء القمر، وقد حملت ابتسامة هادئة ضيقت المنخفضات تحت عينيها. في الفترة الأخيرة، كلما تكلمت مع نورة، كانت كلماتها مثل قطرات العسل الصافي، حلوة مع لسعة خفيفة في الطعم.

لماذا يا ترى؟ تساءلت نورة في خاطرها، وسمعت قلبها بخفق بصوت أعلى. لماذا كانت تلك المرآة مهمة للطيفة؟ كانوا قد أمضوا نصف الشهور الحارة في أم السنم. لماذا لم تستطع لطيفة أن تنتظر حتى يرجعوا إلى وديمة؟ لم يكن البعد هو الذي أزعج نورة؛ فوديمة لم تكن بعيدة جداً، وبالتالي يمكنها هي وحمد أن يعودا عند مغيب الشمس. كان ثمة أمر آخر.

اختلط الصمت بالحر حينما سكبت نورة جرة الفخار على رأسها لتبلل فروة رأسها. توقف مشي ياقوتة، ولم تكن ثمة ضجة قادمة من بيت لطيفة. صرفت نورة عنها الرغبة بالتحقيق لأن عليها أن تسرع. غسلت شعرها بضع مرات أخرى، إلى أن أصبح الماء النازل صافياً.

الفصل الثالث والثلاثون

توقفا ليستريحا على منحدر كثيب مرتفع. على الرغم من عطش نورة فإنها لم تبالغ في شرب الماء. رفعت البرقع بما يكفي لأن تضع قربة الماء على شفتيها البارزتين، ثم تركت قليلاً منه يسيل على أطراف شفتيها كما يتقاطر ندى الفجر على تويجات زهرة استيقظت على ضوء الصباح. كان بإمكانها قذف التمرة التي أعطاها إياها حمد في فمها، ولكنها لم تفعل، وبدلاً من ذلك أمسكت بها تحت برقعها وراحت تأكلها، تاركة القضمات الصغيرة منها تستقر على لسانها، وكانت أثناء ذلك كله تنتبه إلى زمزمة فمها الرقيقة. كان ثمة تأنٍّ في كل حركة تأتيها، وتصميم دقيق لكي تظهر كل أنوثتها، وكان حمد يراقبها، يراقب ويتظاهر بأنه لا يفعل.

في كل مرة كانت تنظر إليه كانت عيناه ترفان مخفياً الرغبة الصريحة البادية في عينيه، ويثبتهما على شجيرة بعيدة خلفها. كانت هذه الألعاب الصغيرة هي التي أطلقت الخفقان في فؤادها. واستطاعت المضي في ذلك، مدركة أنه كان يلاحظ كل بادرة صغيرة كانت تبديها.

والآن أرادت أن تغرقه في الآبار العميقة لعينيها المكحولتين. أمالت رأسها بحيث تدخل أشعة الشمس خلال فتحات برقعها، ثم لبثت على تلك الحال. لم تطرف عيناها، بل سمحت لعينيها أن تستقبل كل ذلك الضوء، وللخضرة فيهما أن تصبح ساطعة مثل الزمرد.

تلك الشمس! كرة حمراء بلون الدم، تحيط بها كالمهد ابتسامة عريضة من السحاب. يا لجرأتها! كانت تتحداها أن تستمر. عدلت وضع عباءتها وشيلتها بتربيتة خفيفة لتظهر مزيداً من جبينها، وتصورت أن بشرتها الزيتونية ستصبح زاهية تحت أشعتها الحمراء كالياقوت. عندها هبت نسمة مفاجئة فرفعت الأغطية من فوق رأسها، وانزلقت على ظهرها حتى استقرت حول وركيها. لم تكن هذه إحدى مغازلاتها الصغيرة، بل كانت الرياح هي التي تلعب حيلها الشقية من جديد، مثلما سبق أن فعلت على ظهر ذلك المركب قبل كل ذلك الوقت.

راح حمد يراقبها عن قصد الآن. لم تعد عيناه تفارقها. غمرها شعور غريب بالحياء، في غياب إحساسها المألوف بالأقمشة التي تغطي رأسها. وحالما شعرت بالانكشاف سارعت إلى إعادة الحجاب حينما اخترق سكونَ الصحراء هدير مجلجل ومكبوت. انتقل الصوت عبر الكثبان المتحركة مثل هدير كئيب. اتسعت العروق في عنق حمد وهو يلتفت برقبته شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، في محاولة لتخمين مصدر الصوت. كان من الصعب

معرفة ذلك، وأخيراً رفع حفنة من الرمل وتركها تتسرب خلال أصابعه. «هناك»، قال ذلك، وهو يشير إلى الشرق.

قبل أن تجيب نورة، أمسك بمعصمها وجرها إلى أعلى الكثيب. كانت راحة كفه رطبة، واستغربت من القوة المودعة فيها. على أية حال، لم تتلاءم تلك القوة مع رشاقة بنيته النحيفة. جثما خلف كتل من الأعشاب القوية التي توجت القمة، وانتظرا مثل صيادين يتربصان بفريستهما. قال حمد، وهو يشير أمامه: «هناك، يا أختي، هل ترينها؟»

شاهدت نورة عمود الغبار يرتفع على مسافة منهما، ثم ظهرت سيارة الجيب. كانت بلون الأوراق المغبرّة، وهديرها أعلى مما يوحي به حجمها. ثم نزلت مثل موجة متدحرجة في منخفض آخر واختفت.

حينما اقتربت سيارة الجيب، خفضا رأسيهما رغم أنهما كانا يعرفان أنهما متخفيان ومموهان جيداً وراء الشجيرات، وأخيراً توقفت على كثيب رملي منبسط تحتهما تماماً، وسكت المحرك الهادر مثل نفس جمل منهك.

خرج منها رجلان وامرأة، وعندما تحدثوا خرجت الكلمات من شفاه مزمومة بألفاظ ناعمة تشبه في وقعها الماء المتقاطر.

همس حمد: «إنجليز!»

أومأت نورة. كان جاسم قد أخبرها كل شيء عنهم، فهم

جاؤوا للبحث عن «البترول»، النفط الأسود اللزج المخبأ في أعماق الأرض تحت الرمال، الهدف منه جعل الحياة سهلة ميسرة. كانوا يعيشون في ثكنات الجيش في السبخات الملحية خارج «وديمة»، وبين حين وآخر كانوا يأتون في سيارات الجيب من الشكل واللون نفسه على طول الشاطئ.

كانت نورة تراهم من خلال النافذة في مجلس الرجال، وفي إحدى المرات مروا قرب النافذة حتى إنها استطاعت رؤية أعينهم التي تشبه البلورات الزجاجية اللامعة وفيها جميع ألوان السماء الزرقاء والبحر. ولكنهم كانوا جميعاً رجالاً، أما هذه المرة فكان هناك امرأة أيضاً.

تفاجأت نورة بثوبها. لم يكن عليه رسم الأزهار الصفراء بلون شروق الشمس، بل كان الشكل، الذي لم يكن يشبه الثياب الفضفاضة التي تصل إلى كاحلها مع كل خطوة. كان هذا الثوب الإنجليزي ذا انحناءات على طول أضلاع المرأة ومزموماً عند الخصر، ومن هناك يتسع على شكل جرس إلى ما فوق الركبة. كانت ساقاها عاريتين، شاحبتين وصافيتين، مثل السحالي التي تلتصق بسقف غرفتها في وديمة.

عادت نورة بعينيها إلى حمد. كان مستلقياً على بطنه، ومتكئاً على مرفقيه، يراقب الإنجليز باهتمام شديد. استقر وهج الشمس الأحمر بشكل متساو في أذنيه، وتوقعت منه أن ينطق ببعض الاستياء من عرض أجزاء من الجسم العاري. وبالنتيجة، لم يكن ثمة أيٌّ من الحشمة التي كانت توجه عاداتهم.

«قلة حياء!» ذلك ما كانت تتوقعه أن يقول عندما فتح فمه.

ولكنه لم يفعل، وبدلاً من ذلك همس قائلاً: «ذلك هو الصندوق الذي يلتقط صوراً للأشياء».

لوت نورة شفتيها بحيرة ونظرت إلى الوراء. بالفعل، كانت هناك قطعة معدنية مدمجة بحجم كفيها مجتمعين، وكان أحد الرجلين يثبتها على ثلاث قوائم.

قال حمد: «انظري يا أختي، تسمى «كمرة» (آلة تصوير)».

راقبت نورة الرجل يثبت طرف وجهه على الصندق وينتظر، وعندما لم يحدث شيء عادت ببصرها إلى المرأة التي، رغم أنها شابة، لم تحزر عمرها. كانت خصلات شعرها رفيعة كخيوط الحرير، وعلى الرغم من النسمات كانت خفيفة فقد رفعت كلاً من هذه الخيوط بالسهولة التي رفعت بها رمال الصحراء. كانت تربت على كتف الرجل الآخر الآن، وهي تضحك بمودة وبصورة طبيعية جعلت نورة تفغر فاها باندهاش من رفع الكلفة في بادرات المرأة وتصرفاتها.

ضحك هو أيضاً ووضع ذراعه على كتفها، ضاغطاً على ذراعها العارية بأنامله قبل أن يبسط يده بكف سخية، تتبعت الأزهار الضخمة الصفراء بلون أشعة الشمس التي حضنت خصرها، وربَّت على تلك الأزهار بشدة جعلت نورة تظن أنه سيمسحها ويزيلها.

لم يكـن يبـدو أنهـم يبالـون بـأن هنـاك رجـلاً آخـر حـاضراً، حتـى عندمـا نـزع رأسـه مـن آلـة التصويـر ونظـر مـن فـوق كتفـه إليهـما، ونطـق بعـض الكلـمات التـي تشـبه المفرقعـات مـن خـلال شـفتيه البارزتـين.

هـل كان يقـول لهـما أن يفترقـا؟ انتظـرت نـورة ليفـترق الاثنـان، كـما هـو التـصرف الصحيـح بوجـود آخريـن، وبـدلاً مـن ذلـك قهقهـا وعانقـا بعضهـما. جذبهـا بقـوة إلى صـدره، ثـم رفعـت المـرأة وجههـا وابتسـمت لـه دون توتـر ولصقـت فمهـا بفمـه.

حدقـت نـورة ببلاهـة إلى ذالكـما الفمـين، ملتصقـين ببعضهـما عـلى ذلـك النحـو! شـعرت بالارتبـاك وعـدم الراحـة، ومـع ذلـك لم تسـتطع أن تحـول نظرهـا بعيـداً. هـل كان حمـد يراقـب أيضـاً، أم إنـه مـازال يفحـص آلـة التصويـر؟ لم تجـرؤ عـلى أن تنظـر إليـه. ومـا إن سـمعته ينخـر حتـى أنزلـت رأسـها داخـل مرفقهـا. آن لهـما أن ينسـحبا، وباسـتدارة سريعـة جلسـت وسـلكت طريقهـا إلى أسـفل الكثيـب.

الفصل الرابع والثلاثون

أصاب نورة نشاط زائد حينما راحت تحشر يدها في مندوس لطيفة بحثاً عن المرآة. هل كانت تلك قبلة، بالطريقة التي التقى فيها لساناهما على تلك الشاكلة؟ شعرت بأنها مثل طفلة تحاول أن تفهم كلمة صعبة.

كان حمد واقفاً في باب غرفة لطيفة منتظراً. كانت تعلم أنه يفكر بالأمر نفسه، أيضاً. فمن اللحظة التي انزلقت فيها إلى أسفل الكثيب سارا بقية الطريق في صمت، مرتبكين بما شاهداه، أو إنها كانت تعرف على الأقل أنها كانت كذلك. كم كانت خرقاء، مثل تلك النوق التي رُبطت قوائمها لكي لا تشرد بعيداً، فقد تعثرت مرتين بحاشية ثوبها في الرمل العميق عندما حاولت أن تمشي بسرعة أكبر، كما لو أن الوصول إلى وديمة سيزيل عدم ارتياحها. ويداها! لم تكن متأكدة مما ستفعله بهما. وعندما لوّحت بهما جمعا كثيراً من الزخم، وعندما شبكتهما إلى صدرها التصقتا بإحكام بجلها. لم يبد أي شيء صحيحاً في ذلك المشوار.

تلك القبلة! هل كانت شيئاً يمكنها الحديث عنه؟ كانت تشعر بالارتياح هي وحمد بالحديث عن أمور كثيرة. ومع ذلك فقد قررت نورة أن تمتنع عما رأت أنه حميمي جداً، مثل تجربتها مع راشد. والآن القبلة. لم تستطع أن تطردها من رأسها. وحينما حكّت بيدها داخل المندوس محاولة أن تتحسس قبضة المرآة بين الثياب، تخيلت ذلكما اللسانين متحدين مثل ثعبانين يتزاوجان.

«هذه عاداتهم» كان حمد قد اقترب، وصار صوته الآن تمتمة يحوم فوق رأسها.

بينما انحنت نورة فوق المندوس وعلى ركبتيها، شعرت بيديها ترتجفان في وسط زغبر الثياب. كان نفسه يسقط دافئاً على عنقها. التقط سمعها ثلاث نشقات واضحة وأغلقت عينيها، وتخيلت أنه يستنشق نقاط زيت العنبر الذي نقطته خلف أذنيها. كانت ثلاث نشقات سريعة، ولكنها تمتعت بها قبل أن تفتح عينيها وتلتفت لتواجهه.

انتصبت قامة حمد وأبعد نظره ليخفي ارتباكه، ولكن أذنيه احمرتا بالفعل وكان لا يزال هناك عندما عاد بنظره إليها.

تنحنح وقال: «تلك طريقتهم في التقبيل، لقد رأيت ذلك من قبل، يقبلون بعضهم عندما لا يراهم أحد».

«ولكن لم يكونا وحيدين، يا أخي. كان هناك رجل آخر معهما».

«أمام جماعتهم، لا بأس به».

تجهمت نورة وضربت بأصابعها على ذراعيها المتشابكتين.

كان ينبغي أن يخبرها من قبل، إذ كان بإمكانها ألا تبالي بتلك القبلة الإنجليزية، وبدلاً من ذلك تركها تمشي طول الطريق وهي تشعر بعدم الارتياح، وتزل وتتعثر بسبب الارتباك.

سألها: «حسناً هل وجدتِ المرآة؟»

«لا».

تراجع حمد إلى الباب، وبينما كان ينتظر أخذت نورة راحتها لتجد المرآة بالانتقال من مندوس إلى آخر. حتى عن بعد كانت تشعر بلمسته، من دون حاجة إلى أن يمسها. كانت لمسة مختلقة أو متكلفة، بالطبع. كان مثل روح رقيقة أحاطت بجلدها، ودفؤها كان تشجيعاً دائماً لرغبة بدت طبيعية حتى لم ترَ سوى الجانب الجيد فيها.

عندما وصلت إلى المندوس الأخير ومع ذلك لم تجد المرآة، فتشت الغرفة المستطيلة كما لو أنها رأتها للمرة الأولى. كان لا يزال هناك الكثير من الأماكن لتبحث فيها. دارت عيناها بكسل على طول زجاجات الكريستال الملونة والملل التي زينت الغرفة. كانت مستقرة على تجاويف تشبه شكل البصلة محفورة في الجدران. وبما أنها لم تكن مستعملة فقد كان فراش لطيفة مطوياً ومكدساً تحت السرير ذي القوائم الأربع في الزاوية. كان الفراش مغطى بتكايات، وهي مساند كبيرة مزركشة بحواشٍ

ومربعات حريرية عليها رقع حمراء وخضراء وزرقاء. كان عليها أن تزيح هذه لترى إن كانت المرآة تحتها.

بما أنها توقعت أن تكون ثقيلة لامتلائها بكل ذلك القماش القطني، رفعت أول «تكّاية» عن الفراش، وما لبثت أن انزلقت من بين أصابعها. «لا بأس»، قالت ذلك حينما أسرع حمد ليساعدها.

وصلا إلى الأسفل في وقت واحد، واصطدمت جبهتاهما بشدة حتى إن نورة شعرت بالألم يصل إلى أسفل عنقها.

«أووو!»

«أخخخ!»

بدا رأس حمد مثل الحطب. رجعت إلى الوراء وضغطت على جبهتها براحة كفها، مدركة أنه سيصاب بكدمة.

كان حمد على ركبتيه وبجانبها على الفور. «هل أنت بخير؟»

لم تجب نورة. تسارعت في ذهنها الأفكار حول كيف ستشرح الكدمة للطيفة. ماذا ستقول؟ كانت التكايا ثقيلة جداً؟ بدت فكرة أن الكدمة سبّبها مسند سخيفة، وبدأت تضحك.

لاحظت أن حمداً كان مشغول البال، ولكن كلما حدق في وجهها بتلكما العينين المتجهمتين، أصبح من الصعب أن تكبح ضحكاتها. وعندما لاحظت كتفي حمد يرتجفان، تأثرت بمرحها وأفلتت بالضحك.

لم تستطع أن تتذكر أنها ضحكت بهذا الصوت المرتفع من قبل. سالت الدموع على وجهها، وفكرت بالكحل وهو يذوب ويسيل على وجنتيها. وحينما صارت تضحك فكرت كيف ستبدو عيناها منتفختين بعد نهاية نوبة الضحك. أفضل! عندئذ ستفترض لطيفة أنها لم تتوقف عن البكاء من الألم! وبعد ما بدا أنه أبدية المرح، لم تستطع أن تتذكر ما الذي جعلها تبدأ بالضحك بتلك الطريقة، وكل ما لاحظته هو أنها كانت تنحني للأمام، متكئة على كوعها، وجبهتها المتألمة قرب جبهة حمد.

الفصل الخامس والثلاثون

في مـكان مـا بطريـق عودتهـما إلى أم السـنم، توقفـا عـن منـاداة بعضهـما بـأخ وأخـت.

هبطـت آخـر أشـعة الشـمس الورديـة خلـف الأفـق، حينـما دخلـت نـورة بيـت لطيفـة، عـلى أمـل أن توصـل المـرآة وتذهـب، ولكـن لطيفـة كانـت في انتظارهـا، وسـاقاها ممدودتـان مبـاشرة أمامهـا، وهـي تدلـك ركبتيهـا.

قالت المرأة العجوز: «ماشاء الله، عدتِ، ومعكِ المرآة، أيضاً!»

أومـأت نـورة، لضـوء الفانـوس الضعيـف الـذي ألقـى بظـلال واسعة في جميـع الأماكـن المناسـبة، ولكـن نـورة مـع ذلـك لم ترتـب خصلـة شعرها التـي أخرجتهـا عـن قصـد مـن ضفائرهـا. وأنزلـت مـن شـعرها مـن تحـت عباءتهـا خصلـة سـميكة كذيـل حصـان فـوق الكدمـة التـي كانـت تحـاول إخفاءهـا.

«حسناً، أين وجدتِها؟» سألت لطيفة.

تمتمت نورة: «على أحد الرفوف». كان عقلها مثل إعصار رملي عارم يحجب الرؤية. لعل طرح العديد من الأسئلة يجعلها متوترة ويورطها في قول أشياء خاطئة.. عليها أن تخرج مسرعة.

سلمت المرآة إلى لطيفة، ولكن عندما استدارت لتغادر أمسكت لطيفة بمعصمها وجذبتها إلى الوراء، وقالت لها: «انتظري، أخبريني عن رحلتك».

شعرت نورة بالإنهاك مثل زهرة عطشى، وأحست بلسانها يزداد ثقلاً، كما لو أنه تثاقل في فم مملوء بالطين. هل ستكون قادرة على الكلام؟

«اقعدي معي قليلاً وأخبريني كل شيء عنها».

ترنحت ركبتاها حينما نزلت على ساقيها وتربعت. لم يفد الصمت الذي أعقب ذلك، وأحست بدفقة من الاهتزازات الصغيرة على طول ذراعيها.

لاحظت لطيفة ذلك وقالت: «أنت ترتجفين. لا بد أنك مرهقة من ذلك المشوار الطويل»، ثم فعلت لطيفة تماماً ما كانت نورة تخشاه. مدت لطيفة يدها لتلمس رأسها، وأزاحت ذيل الحصان عن عيني نورة، واستقر نظر عينيها الفضوليتين على الكدمة، وسألت: «ماذا أصاب رأسك؟»

بلعت ريقها وهمست: «خبطته».

أومأت لطيفة عن معرفة: «نعم، نعم، خبطتِه. حادث صغير، على ما أظن، بالباب، على ما أظن».

«امم، نعم بالباب».

«من السهل أن يحدث ذلك. حدث ذلك معي، مرات عديدة».

خفضت نورة بصرها وعبثت بأصابعها في حضنها، وحاولت أن تتذكر متى كانت آخر مرة ارتطمت العجوز فيها بأحد الأبواب، أو اصطدمت بأي قطعة أثاث أخرى. كان هناك تساوق مدروس في حركات لطيفة من خروجها المحسوب من السرير كل صباح إلى طريقة اتكائها على ركبتيها كلما نهضت. حتى إنها شمرت ثوبها حتى قصبة ساقها قبل أن تأخذ تلك الخطوات الصغيرة التي حملتها من جزء من البيت إلى آخر. لا! لم تصدم لطيفة رأسها أبداً بالباب!

عادت نورة بنظرها إلى لطيفة، ملكة وقورة، وعيناها نصف مغلقتين في ثقة بالنفس. كان هناك هدوء جمّل أهدابها. وصمتها! لِمَ لم توجه المزيد من الأسئلة؟ كان صمت لطيفة أكبر مصدر قلق لنورة.

في تلك الليلة كان القمر كرة كبرى من النور، تسلل نوره خلال الفتحات في الجدران المبنية من سعف النخيل وعكس أشكالاً على الأرض، مربعات مشوهة وخطوطاً متعرجة اخترقتها نورة وهي تنتقل مضطربة من أحد طرفي البيت إلى الطرف الآخر. دجاجة محكوم عليها أن تهرب من الفأس،

ذلـك مـا فكـرت بـه. دجاجـة مذعـورة عاجـزة عـن التفكـير في رفرفـة لا هـدف لهـا، تلـك هـي حقيقتهـا.

توقفـت فـوق ياقوتـة التـي كانـت في سـبات عميـق، علـماً أنهـا كانـت ليلـة سـكن فيهـا الهـواء. وقـد أدت أصـوات طنـين الشـهيق وأنـين الزفـير الصـادرة مـن ياقوتـة إلى جعـل فـم نـورة يلتـوي ازدراءً.

«ياقوتة خالية الهموم.. مرتاحة البال...».

شـعرت بلسـانها ثقيـلاً في فمهـا في سـكون الليـل، وبـدأت تمـشي جيئـة وذهابـاً مـن جديـد. هـل شـمت لطيفـة رائحـة الخطيئـة عـلى بشرتهـا؟ لقـد غسـلته نـورة تمامـاً عـلى أيـة حـال. فقـد أفرغـت ثـلاث جـرار فخـار مـن المـاء عـلى رأسـها، وحرصـت عـلى أن يسـيل المـاء عـلى طـول جسـدها.

توقفـت عـن الخطـو مـرة أخـرى وأصـدر جـدار سـعف النخـل صريـراً عندمـا اتـكأت عليـه. فكـرت بحمـد، وسـبحت تفاصيـل مـا حـدث في رأسـها مثـل صعـود الشرغـوف في البركـة.

كان حمـد قـد انسـحب بعـد تلـك القبلـة عـلى جبينهـا، كـما لـو أنـه كان ينتظـر أن تصفعـه أو تخـرج غاضبـة مـن الغرفـة. وبـدلاً مـن ذلـك، بقيـت مستسـلمة، حيـث شـعرت أن عينيهـا قـد تحولتـا إلى بركتـين عميقتـين طفـت عليهـما رغبـة صامتـة.

تركـت نـورة الجـدار المبنـي مـن سـعف النخـل يحـك ظهرهـا

حينما انزلقت إلى الأرض. كان عليها أن تتخلى عنه. وبتلك الفكرة ازدادت الارتطامات في أضلاعها قوة. فتحت فمها لتبتلع الهواء الذي كان يزداد كثافة حتى بدا أنه مصمم على خنقها. أدارت رأسها وثبتت نظرها على فجوة في جدار سعف النخيل، وهي تتنفس بعمق. كان هناك القمر، بوجهه الفضي، وهو يصدر أشعته بهدوء.

اشتاقت لأن تحظى به، ولتشعر بلمساته. سرت رعشة من الخوف في نخاعها. وحتى إن كان ذلك خطأ فقد أرادته من جديد.

الفصل السادس والثلاثون

كان يبدو أن لطيفة قد نسيت معظم أشيائها المهمة في وديمة. اعتادت نورة على أن تراها تنقب في مندوسها السَّفَري كل بضعة أيام، ثم تنفخ لطيفة في برقعها وتهز رأسها غير مصدقة. «والآن، لماذا لم أحضر معي الثوب البرتقالي؟ فهو خفيف جداً، وبارد بما يتناسب مع هذا الجو»، أو «لا أدري لماذا يحرق كحلي عينيّ. أظن أنه فسد»، ثم ترسل حمداً ونورة لإحضار ما كانت تحتاج إليه بشكل عاجل، وتصر قائلة: «يجب أن تذهبا. يجب أن تذهبا حالاً». وفي هذه المرة سكبت لطيفة الحناء على الرمال.

«كم تحتاج من الحناء؟» سأل حمد وهو يراقب نورة وهي تفرغ المسحوق المائل إلى الخضرة في قارورة صغيرة.

قالت نورة: «لا أعرف، على الأقل حفنتين لكي تستطيع أن تغطي بها جميع تلك الجذور البيضاء، لكي يصبح شعرها ظريفاً وأحمر اللون».

«لعل من الأفضل وضع أربع حفنات حرصاً على ألا تجعلنا نعود».

قالت نورة عابسة: «أنا متأكدة من أنها ستجد شيئاً آخر ليس في موضعه. لماذا في رأيك تستمر في افتقاد أشياء وإرسالنا لنحضرها؟»

هز حمد كتفيه: «لا أدري. أظن أنها أصبحت كثيرة النسيان». اتكأ إلى الخلف على «تكاية» وبسط ذراعه فوق رأسه وتثاءب. «عندما يكبرن يبدأن بالنسيان».

«قالت نورة وهي تهز رأسها: «ليس بذلك الكبر. لا، ثمة أمر آخر. لقد أصبحت لطيفة معي، تحضر لي الحليب قبل أن أنام، وتجلس معي للدردشة، وتدعني أستخدم عطرها. الزعفران والعنبر وخشب الصندل والورد وكل تلك العطور. قصدي أنها غالية الثمن». توقفت قليلاً. «ليست تلك عوائدها».

تثاءب حمد من جديد: «لماذا تقلقين دوماً إلى هذا الحد. نحن معاً، أليس كذلك؟ ذلك هو المهم».

توقفت عن سكب الحناء ورفعت نظرها إليه، وسألت: «هل هو مهم؟». بدا غير مهتم، وهو مستلقٍ على التكايا على ذلك النحو، مرتاح البال. وعندما رأته على تلك الشاكلة أحدث ذلك هديراً في صدرها: «هل ذلك هو كل ما تفكر به،

أننا معاً؟ ألا تفكر بوضعي؟ أنا أعلم أنني لا أستطيع التوقف عن التفكير بذلك. عاجلاً، سيعود جاسم، ثم ماذا ستفعل؟» كان صوتها يرتجف الآن. «ماذا سنفعل؟»

أصبح بجانبها خلال لحظات. قال لها مداعباً وهو يربت على جبينها. «على رسلك، على رسلك. دعيني أعتني بنا». بدأ الآن ينخر على عنقها، ويتمتم: «هيّا، أنهي صب الحنة حتى أستطيع أن أمسكك». «لا!» وأبعدته نورة بمرفقها.

«لماذا؟»

«لست مرتاحة».

تراجع حمد وأطلق آهة مهزومة.

أوضحت له: «انظر، أنا قلقة جداً، ثمة شيء غير طبيعي. لعله من الأفضل أن ننهي هذا الأمر الآن».

هبط فك حمد: «ننهي ماذا؟»

«نحن! ننهي وضعنا. ليس من فائدة».

«عم تتحدثين؟ أريد أن أكون معك دائماً».

«فعلاً؟»

«نعم، فعلاً. طلقي جاسماً وتزوجيني».

كان هناك صدق في عينيه، ولكن نورة هزت رأسها لاستحالة هذا الاقتراح. كم هو بسيط.

أصر قائلاً: «يمكن أن يحدث، يحدث بالفعل» .

«أطلق جاسم؟ ومن قال لك إنه سيوافق».

«سنفكر بطريقة، ونجعله يوافق».

«نحن، نحن، نحن، نحن» قلدت ساخرة من الجدية في صوته قبل أن تطلق أنة يائسة. «كما لو أن لنا أهمية، كما لو أننا نستطيع أن نختار ما نريد». تحول صوتها إلى صياح حاد، وتوقفت لتستدعي بعض التحكم به، ثم تابعت بصبر مفتعل: «أنا امرأة، امرأة متزوج، وأنت رجل، رجل فقير. نحن لسنا في وضع لأن نختار. ألا توافق؟».

«ألا توافق؟» قلد لهجة الكبار الذين يتحدثون إلى الأطفال والتي استعملتها هي، ثم حدق النظر في عمق عينيها وقال: «لدي خطط، كما تعلمين. أنا أفكر وأخطط بالفعل. أنا لست غبياً». سكت قليلاً، ثم قال: «أخطط لأن أغوص من جديد».

رفّت عينا نورة بعدم التصديق: «تغوص؟».

«أغوص، كما تعلمين، أغوص أعتقد أنني أستطيع. توجد جوهرة خاصة هناك في الأسفل يجب أن أجدها. أعرف ذلك».

«ولكنك جربته، ولم تفلح». صالبت ذراعيها. «وماذا عن أذنيك؟».

لا تقلقي حول ذلك، أستطيع أن أتحمل الألم».

كان رأسه يهتز للأعلى والأسفل، بشغف وتصميم حتى إن نورة تأسفت على اليأس الذي سيطر عليها، ومع ذلك، كان لا بد أن تخلصه من السخافة، فقد كان يتكلم كلاماً هراء، وقالت: «استيقظ، حمد، استيقظ».

«أستطيع أن أفعل، أنا أقول لك».

«استيقظ» كررت نورة «لن يكون هناك أي غوص آخر». دفعت ذراعيها في الهواء، وصرخت: «لا مزيد! هذا الغوص الأخير!».

الفصل السابع والثلاثون

اخـترق ظـل حمـد الضـوء الـذي تـسرب مـن خـلال نافذة نـورة. كان مثـل روح تاهـت في عـالم شـخص آخـر، غـير قـادر عـلى لمسـها، متأزمـة في وجودهـا. وهكـذا هـذه الـروح، روح حمـد في ذلـك الظـل، حامـت وسـعت لأن تبقـى قريبـة منهـا بقـدر مـا أمكنهـا.

بالطبـع كانـت هنـاك نظـرات عابـرة أسرت عينيهـا كلـما التقـت عيناهـا بعينيـه، وجهـاً لوجـه. يبـدو أن عينيـه حدقـت في الشـمس فـترة طويلـة حتـى ابتلعـا حرارتهـا الحارقـة. كانـت عـلى يقـين مـن أنـه لم يسـتطع أن ينـام.

مـضى سـتة عـشر يومـاً منـذ أن عـادوا إلى وديمـة، وزارهـا جاسـم في معظـم أوقـات المسـاء، لقـد كانـت عيناهـا تخضـلان بالدمـوع، بينـما هـو في قمـة عاطفتـه.

سـمعت نـورة الديـك يصيـح، وأسـندت نفسـها إلى مرفقهـا.

كان الظلام لا يزال مخيماً في الخارج، وكذلك الهدوء، ومع ذلك فقد خفق قلبها من القلق حول ما إذا كانت تشعر بأنها في حال جيدة في هذا اليوم. ولكن ما لبث الدوار أن اقتحم رأسها كسديم كثيف واستقر بين أذنيها. وقعت إلى الخلف على الفراش وأغلقت عينيها، وتنفست بعمق، وحاولت أن تتجاهل الغثيان الذي سبب جفاف فمها.

لا فائدة. نزلت من سريرها وذهبت مترنحة إلى الحمام. سعلت بهدوء وهمست تحت أنفاسها: «سوف تذهب، سوف تذهب». كانت تأمل ألا يسمعها أحد وهي تتقيأ. وبالنتيجة فإن الغثيان كان يعتريها مرة في اليوم، وغالباً قبيل الفجر. وحينما عادت إلى الفراش حاولت نورة أن تحسب عدد المرات التي شعرت فيها بالغثيان: سبع مرات في العدد نفسه من الأيام.

لم يبدأ الدوار في الزوال عن نورة إلا في وقت متأخر من الصباح، ليحل محله ضعف استقر في مفاصلها. لقد كان يوماً دبقاً بشكل خاص، وحينما سكن البيت بعد الغداء، عبرت نورة إلى مجلس الرجال لتطرد الوهن منها. جاءت النسمات من البحر بعد انقضاء فصل الصيف، وكان البرجيل في مجلس الرجال هو الذي استقبلها على نحو أفضل.

استلقت على الحصير تحت البرجيل ورفعت ساقيها على شكل خيمة. سمعت هديل الحمام على العوارض في جوف البرجيل، فبث هديلها ورفرفتها المرتعشان الهدوء في نفسها،

وأسندت راحة كفيها إلى بطنها، ودلكتهما في هيئة دوائر، في حين ثقلت عيناها وراحت في سبات.

لم تكن متأكدة من المدة التي نامت خلالها عندما أدركت أن شخصاً ما واقف فوقها. كان ثمة ثقل شديد في رأسها، فرفضت أن تفتح عينيها؛ لأن ذلك سيطرد النوم. غطت وجهها بشيلتها واستدارت نحو الجدار. «مهما تريدين فيمكنك الانتظار حتى وقت آخر» تمتمت مخمنة أنها ياقوتة. «دعيني أنام الآن».

قال حمد: «هذا أنا».

نزعت نورة شيلتها وجلست. «ماذا تفعل؟ ليس البيت خالياً، كما تعلم، فالجميع هنا».

«يجب أن أتحدث معك». على الرغم من أنه تحدث بهدوء، فقد كان في صوته شيء من الإلحاح. «لم نتحدث منذ أن عدنا».

«نتحدث؟» كانت عيناها لا تزالان مغبشتين من أثر النوم، غير أن نظرها انتقل إلى الباب الداخلي المفتوح، وعلى الفور سيطرت عليها حالة من الذعر؛ فهو حتى لم يكلف نفسه أن يغلق الباب، وقد يكون أي شخص قد رآه يدخل. همست: «ماذا تفعل؟ لماذا الباب مفتوح؟» في كل تلك الأوقات التي تجولا خلالها في البيت كانا يتصرفان كأنهما زوج وزوجة، وفي كل تلك المرات لم يتم ضبطهما. ولم يكن ذلك يعني أنهما لن يتم اكتشاف أمرهما الآن. قفزت الآن فأجفلت الحمامات التي كانت

تهدل فصارت ترفرف من الذعر، وأغلقت الباب، تاركة شقاً ضيقاً تستطيع من خلاله رؤية الباحة.

همس حمد: «لا تخافي؛ كلهم نائمون». رفع يدها إلى شفتيه وقبلها.

لم تستدر نورة لتواجهه بوجهها، وثبتت عينيها على الفتحة. كان باب المطبخ موصداً، ونظرت بطرف عينيها محاولة أن تلتقط أي حركة في عتمته. وعندما اطمأنت إلى أنهما في أمان التفتت إليه لتؤنبه: «ما تظن وأنت تتسلل إلى هنا بهذا الشكل؟»

«عندي خطة».

«أي خطة؟» سألت وهي تنظر وراءها من خلال الفتحة؛ إذ كان عليها أن تتأكد تماماً.

قال حمد: «انظري إلي»، وأدار كتفها حتى أصبحت أخيراً وجهاً لوجه معه. وضع شفتيه على جبينها. «أنا أفتقدك كثيراً، ولم أرك وحدك، وعندما أفكر بذلك السمين القبيح جاس-»

«أية خطة؟» أصرت؛ إذ كانت قلقة وتريد أن تخرجه أيضاً.

سأل: «ألا تفتقدينني؟»

راقبت تلكما العينين، مشعشعتين بالأمل، وتنهدت: «بالطبع أفتقدك، ولكن كلانا يعرف أن الأمر لن يستمر». لم ترد أن تشجعه.

«ولكن كنا سعيدين جداً. لماذا لا تريدينه أن يستمر؟»

حمد الحالم، هذا ما خطر في بالها. تغضنت شفتاها بنصف

ابتسامة وهزت رأسها: «لا يمكنك أن تكون سعيداً دائماً. ذلك ليس شأن هذه الدنيا». شعرت أن هذا كلام شخص آخر، ولكنها تابعت على أية حال: «كنا محظوظين إذ وجدنا فرصة لنكون سعداء، وأكثر حظاً أن أحداً لم يرنا». تأوهت. «والآن حسناً ... لدينا الذكرى، وسيتعين علينا أن نعيش معها».

«لم أكن أعرف أنك ستستسلمين بهذه السرعة».

«ليس الأمر مسألة استسلام».

«بل هو كذلك».

«ليس كذلك».

«أجل، هو كذلك»، أصر، وارتفع صوته قليلاً.

«هسس» أرادت نورة أن تصرخ تعبيراً عن خيبة أملها، ولكنها عوضاً عن ذلك أدارت عينيها فحسب. مرة أخرى أبدى لا مبالاة، وكان غاضباً، وترك صوته يرتفع على ذلك النحو. لم يكن يفكر فيها، كم كان ضعيفاً عندما وضعها في موقف كهذا. طفت الصور في رأسها: صور جاسم، والزوجات، وحتى ياقوتة، أن تكتشف سرهما. لا شك أنهم سيلقون بها في الشارع. همست قائلة: «اخفض صوتك. والآن ما هي خطتك؟»

أخذ نفَساً عميقاً وبدأ: «حسناً، أهم شيء هو أن نكون معاً، وفي كل مرة أفكر فيها بك مع ذلك الرجل المدور البشع».

«كفى! أنا لا أريد أن أسمع حول الرجل القبيح، بل أريد أن أسمع الخطة». تناهت إلى سمعها أغاني الصيادين على الشاطئ وهم يرمون شباكهم. كانت القرية مستيقظة.

«حسناً، أن نكون معاً، ذلك هو الأمر» قال حمد ذلك، كما لو أنه قام باكتشاف مهم، وبعد ذلك توقف وحك أنفه، ونظر إلى السقف باحثاً عن شيء، وتساءلت نورة عما إن كان قد خطط في ذلك المكان والزمان. أرادت أن تهزه، ولكنه تكلم بعد ذلك وقال: «أنا لا أحب ما أنا عليه: «خوار! عاجز عن اتخاذ قرارات. تذكرين ذلك الوقت عندما وصلت أول مرة، عندما أحضرناك من الجبال؟ ذلك الشحاذ في سوق ليما؟»

حثته نورة على الإسراع في الكلام بإشارات سريعة من رأسها. استيقظ البيت. استطاعت سماع رنين نجر القهوة النحاسي. كانت ياقوتة في المطبخ تطحن حبات القهوة.

«شاهدتُ الطريقة التي نظرت إلي بها عندما ضرب جاسم ذلك الشحاذ، وكان ذلك لأنني لم أفعل شيئاً، ولكنني أردت أن أفعل شيئاً .. فعلاً كنت أريد».

«ولكنك لم تفعل».

«لا، لم أفعل».

«حسناً، ماذا كان بإمكانك أن تفعل؟» تنهدت. «كنت ستخسر عملك».

«بالضبط هذا ما فكرت به في ذلك الوقت، ولكن أي عمل هذا، خمس روبيات تافهة كل شهر؟ تكفي لأن أشتري لي سلة من التمر». نفخ نفخة ساخرة في الهواء وهز رأسه وهو يكرر: «سلة من التمر، هذا كل شيء. لن يوصلني هذا العمل إلى شيء».

هزت نورة كتفها، فهي لا ترى هناك حلاً. «حسناً، ماذا ستفعل؟»

«أغادر وآخذك معي».

فرغ صبر نورة. مرة أخرى يظهر حماقته: «يمكنك أن تغادر إن شئت، ولكنني لن أغادر» قالت ذلك بواقعية، «أنا لست سعيدة هنا، ولكن لدي مكان أعيش فيه، وسرير أنام عليه، وغرفتي الخاصة، ولدي طعام وشراب، وكذلك لدي أمان. أما هناك خارج البيت فليس لدي شيء من هذا».

«لا، لا، لا، سيكون لديك كل شيء معي. سوف نبدأ حياتنا بالفلوس في جيوبنا».

«فلوس؟ هل ستنزل من السماء أم إنك ستحفر وتعثر عليها؟» وأجفلته بفقشة من أصبعها، ولكن حمداً صالب ذراعيه وابتسم.

قال لها: «إنها هنا»، وهو يشير بسبابته إلى الأرض. «هنا بالضبط».

«أين؟ توجد حفرة في الأرض تحتي وفيها كل مدخراتك من الروبيات؟»

«الحيلة هي الحصول على تلك الفلوس. فيها شيء من المخاطرة وليست شريفة تماماً ... ولكن عندئذ تصبح شريفة».

فقدت نورة كل صبرها، وبدأت تدفعه نحو الباب الخارجي، وقالت: «آن لك أن تذهب. هذا أمر خطير، وجودك معي بهذا الشكل. ليس لدي وقت لكل هذا الكلام التافه الذي لا معنى له».

كانت يداها تلكز أضلاعه، بينما ضحك هو وأفلت من قبضتها. وعندما حاولت أن تدفعه مرة أخرى أمسك بمعصميها وقال: «اللؤلؤ! ذلك ما كنت أتكلم عنه. مجرد حفنة صغيرة، لن ينتبه جاسم لها».

كم من الأشخاص يعرف باللآلئ التي خبأها جاسم؟ «تلك سرقة».

«استدانة».

«سرقة! سيتعين علينا أن نحصل على مفاتيحه ونسرقها».

«لمدة قصيرة فقط، ثم نستخدمها لكي ننطلق بعملنا ونعطيه قيمتها فيما بعد».

هزت نورة رأسها وحاولت أن تحرر معصميها، ولكنه أمسك بهما بإحكام».

توسل إليها قائلاً: «فكري بالموضوع، أنا وأنت، معاً، ودائماً».

«اترك يديّ»، وكشرت عن أسنانها المطبقة.

فك حمد قبضته بسرعة جعلت ذراعيها يرتدان بقوة حتى إنها سمعت طقطقة في كتفها. تراجعت إلى الركن الآخر من الغرفة، وهناك واجهت الجدار واستجمعت نفسها قبل أن تستدير نحوه. ظل حمد واقفاً بجوار الباب الخارجي، وبدا أنه غير متأكد هل يقترب منها أم ينتظر أن تقول شيئاً. لقد أعطاها خياراً، فرصة ثانية للسعادة.

عادت الحمامات لتحط على العوارض الخشبية وتصدر أصوات الهديل، ثم جاء صوت ياقوتة الحلو من المطبخ، متحولاً إلى أغنية كانت نورة ستستمتع بسماعها في حال كانت الظروف مختلفة، وقد بدت الآن كتحذير من المخاطرة التي أقدمت عليها بخلوتها مع حمد.

همست: «إنهم يستيقظون»، وأومأت نحو الباب الداخلي. «من الأفضل لك أن تذهب».

الفصل الثامن والثلاثون

«هـذا مـا يفعلونـه بعِـرْق اللؤلـؤ»، قـال جاسـم، بينـما بسـط يـده ليعـرض مـلء كفـه أزراراً بيضـاء لامعـة. رفـع واحـدة مـن تلـك الأزرار وعـضّ عليهـا بأسـنانه. «انظـرن؟ نوعيـة ممتـازة، قويـة لدرجـة أنّهـا لا تنكـسر عندمـا أعضهـا. كان قـد نـادى زوجاتـه الثـلاث إلى غرفتـه في واحـد مـن مُحادثاتـه النـادرة المُهمّـة. وهـذه المحادثـة كانـت حـول الأزرار والتغيـير.

شـعرت نـورة أن عينيهـا قـد اتسـعتا مـن جـرّاء التركيـز. كانـت تجلـس وشمسـة كتلميذتـين مُنصتتين عـلى جانبـي لطيفـة في منتصف الغرفـة، مُقابـل جاسـم وخزانتـه. لكـن نـورة كانـت تسـتمع لكلماته نصـف اسـتماع. شـعرت أن عقلهـا كان مُقيّـداً بممسـحة رطبـة، ثقيلـة مـن جـرّاء الخيانـة.

لقـد أراد حمـد أن يأخـذ تلـك اللآلـئ، لكنهـا رفضـت أن تنضـم إليـه. كان جاسـم زوجهـا، وهـي قـد خانتـه.

وكان هُنـاك الخزانـة خلـف جاسـم، وكانـت اللآلـئ داخلهـا. كان

يُمكنها رؤية انعكاسها، غشاوة حائِرة، في قشرة خشب الورد الناعم المصنوعة منه. وكأن ذلك وحده لم يكُن كافياً، فقد بدأت المسحة الرطبة في رأسها تصطفق بغثيان كان مألوفاً بالنسبة لها.

التقطت لطيفة زراً من راحة جاسم بأناة، وكأنه كان سيحفر فتحة في أصابعها، وكأنه كان قطعة من الفحم المشتعل. «هذا الشيء الصغير سوف يفتح إمكانات جديدة؟» سألت لطيفة وهي تُقرّب الزر إلى عينيها لتفحصه بعناية: «أنا لا أعرف عن هذا الشيء». كان صوتها خشناً من جرّاء الشك الموضوع.

«أنا لست متأكدة من أنني أثق بهم، أولئك الإنكليز بعيونهم الخضراء وكل شيء فيهم».

«صحيح». ضحكت شمسة، وهي تنتزع زراً آخر من يد جاسم المفتوحة. «أيّ شخص بعيون خضراء هو مُخادع كقطة، لا يجب الوثوق به».

بالطبع، كانت نورة هي المقصودة بتلك الكلمات، لكنها وقبل أن تستطيع الإجابة، نخر جاسم بصوته موافقاً ورسم برأسه سلسلة من الإيماءات الضجرة. «نعم، نعم»، قال جاسم، «ولكن ليس هذا هو الموضوع، الموضوع يكمن في إقامة علاقة مع هؤلاء الإنكليز، وبالتالي عندما يرغبون في التجارة بأشياء أكثر، مشاريع أكبر، سيختارونني. الأزرار بحد ذاتها ليست محط اهتمامي. اهتمامي ينصب في التأكد من جعل أولئك الإنكليز يعرفون أنني رجل صادق ورجل أعمال كفء».

أخـذ العـرق يلمـع عـلى وجهـه المُتقـد، وتبعـت نـورة نظارتـه بينـما كانـت تتحـرك لأسـفل أنفـه. وحالمـا كانـت النظـارة تسـتقر عـلى أرنبـه أنفـه، لم يكـن جاسـم ليرفعهـا نحـو الأعـلى. كان لديـه المزيـد ليقولـه، دروس أكثـر ليُعلمهـا لزوجاتـه. «يجـب أن تبـدأن بمراقبـة الأشـياء ببصـيرة الرجـل الشـاملة، وليـس بنظـرة المـرأة الضيقـة»، أضـاف جاسـم: «افتحـن عيونكـن وانظـرن مـاذا يعنـي كل هـذا. مـن خـلال مـشروع الأزرار هـذا، أنـا أفتـح احتـمالات كبـيرة للمسـتقبل. سـيقود الإنكليـز المسـتقبل، وسـأكون هُنـاك بجانبهـم تمامـاً».

شـخرت لطيفـة. كانـت تبـدو لاتـزال غـير مقتنعـة. «انظـري، تلمسـيها»، قالـت، وهـي تضـع زراً بـين أصابـع نـورة. «فكّـري، إذا مـا بدأنـا باسـتخدام هـذه الأزرار، فلـن تحتاجـي للخياطـة مـراراً وتكـراراً فـوق نفـس المـكان لتصنعـي أزرار الخيـوط القماشـية بعـد ذلـك».

أمـالَ جاسـم رأسـه باتجـاه نـورة، كانـت عينـاه تحـوم فـوق نظارتـه المُعلّقـة. كان لايـزال مُمتنعـاً عـن رفعهـا للخلـف، وعـلى الرغـم مـن أنهـا لم تسـتطع أن تفهـم لمـاذا، فقـد عيـل صبرهـا لـتراه ينقـف بإصبعـه ويُعيدهـا إلى المـكان الصحيـح. كان يبـدو أنـه ينتظرهـا لتقـول شـيئاً، وخمّنـت نـورة أنـه أرادهـا أن تبـدو متحمسـة لهـذا الحـوار بقـدر حماسـته هـو. «مـاذا عـن هـذه الأصـداف وعـرق اللؤلـؤ»؟ طرحـت أوّل سـؤال خطـر ببالهـا وأتبعتـه بسـؤال ثـانٍ.

«من أين ستحصل على أعداد كبيرة منها»؟ توقفت لبُرهة، قبل أن تُضيف بسرعة، «وكيف»؟

«هووو هوو»، أخذ يُغني، وصفق بيديه عالياً. ثم أخذ نفساً عميقاً، وأخيراً، دفع نظارته إلى مكانها.

«الآن وباعتبار أنه لا مزيد من أعمال الغوص، تستطيع مراكبي أن تذهب وتجلب هذه الأصداف». وأخذ يُحرك ذراعيه في الهواء الكثيف كالأفعى، مُقلداً ارتفاعات وانخفاضات المراكب. «سيصلون إلى الجبال. سيصلون إلى «نسايم»، وكل تلك القرى الجبلية البحرية، حيث تتعلّق تلك الأصداف بالصخور».

التمعت عينا شمسة بالشيطنة. «أه، أليس حيث تعيش ماعز الجبال؟ أليس من حيث جَلَبَتَ نورة»؟

لم تُحاول نورة هذه المرة ان تُجيبها. بدأ الضعف يُغطيها كلحافٍ ثقيل. كان وجهها ساخناً وفمها شديد العطش. كانت ترغب بالاندفاع إلى البئر وإرواء ظمئها، لكن خوفها من الوقوع بالإغماء أجلسها في مكانها، إضافة إلى ثِقَل المسحة الرطبة في رأسها.

«سنجلب تلك الأصداف إلى وديمة ونكشط الأهداب والطحالب عنها»، تابع جاسم. هزّ جاسم الأزرار في كهف راحتي يده المغلقة وأخذ يستمع لنقراتها، ويبتسم للمستقبل الواعد الذي ستجلبه معها. «ثم نقوم بغسل تلك الأصداف ونعلبها في صناديق لنبيعها للإنكليز».

ضحك جاسم. «أصداف نظيفة مع عرق اللؤلؤ اللامع داخلها. ستذهب إلى هُناك، إلى الشركة البريطانية في بومباي، ليُصنع منها أزرار. أزرارنا ذات عرق اللؤلؤ لتُباع لبقية العالم».

وبينما كان جاسم يتبجح حول الفُرص والأمل ونهر الثروة الذي سيجري قريباً حتى عتبة داره، كانت نورة تفكر بحمد. أليس ذلك ما كان يُريده حمد؟ ومع ذلك، اختار حمد أن يسرق. لم تتكلم معه منذ انسل إليها في مجلس الرجال. هل سيقوم بتنفيذ خطته، أم إن الأمر كان مُجرد كلام؟ سافرت عينا نورة عبر أوراق الكرمة التي كانت تزحف على جانبي الخزانة لتستقرا على الجرار المزخرفة في أعلاها. كانت مفاتيح الخزانة والخزنة المعدنية داخلها مُخبأة خلف تلك الجرار.

فجأة استولى عليها توقٌ لتحذر جاسماً لينقل مفاتيحه لمكان آخر، وبالتالي لا يُمكن لأيّ لص إيجادهما. قشعريرة نديّة استقرّت في مؤخرة رقبتها وبقيت شفاهها مفتوحة. كان يُمكن أن تتكلم لو لم تُلاحظ السكون المُفاجئ الذي أحاط بها. ثم هزّها صوت جاسم الهادر. «ما الذي تُحدقين فيه»؟ كان حفيف دشداشته الهش حاداً كنصل شفرة على حجر وذلك عندما استدار لينظر من فوق كتفه.

هزّت نورة رأسها، ومن خلال ومضات رمش عيونها السريع، كانت هُناك وجها لطيفة وشمسة المليئة بالأسئلة، تنحني تجاهها.

«أنت بيضاء كعرق اللؤلؤ»، قالت لطيفة، ومدت يدها لتلمس جبين نورة، ماسحة حبيبات العرق التي تراصفت هُناك. «هل أنت مريضة»؟

«لم هي مُبتلة هكذا؟ الجو ليس بتلك الحرارة»، قالت شمسة، وللمرّة الأولى سمعت نورة نوعاً من الخفة في صوت شمسة بدا وكأنه مثل الاهتمام، أو الفزع.

حرّكت نورة برأسها سريعاً وشهقت بحثاً عن الهواء. «أنا لا أستطيع أن أتنفس»، لهثت، وبينما انحنت لتنهض، شعرت بقبضة لطيفة القوية على معصمها تسحبها نحو الأسفل. وقد كانت نورة ممتنة لهذه الحركة، لأن الغرفة بدأت بالدوران والإعتام بسرعة عاصفة غبارية حلزونية.

وشرعت لطيفة تتلمسها. لم تكُن نورة مُتأكدة من السبب. ولم تستطع أن تسأل، لأنها كانت مشغولة بمقاومة إحساس السحب الذي كان يدفعها لإغماض عينيها. بدا كُل شيء مُبالغاً فيه. كانت ذراع لطيفة التي أخذت تنزلق للأسفل على طول ظهرها ثقيلة كقربة ماء منفوخة، ويدا لطيفة اللتان تضربان على رسغها كانتا حادتين كصفعات صندل. أخيراً، انزلقت راحة يد لطيفة إلى معدتها. وبقيت هُناك لدقيقة كانت نورة متأكدة أنها وجيزة ولكنها أحستها متوانية كارتفاع ضباب الصبح في جبالها.

«الكثير من اللحم على المرأة أو القليل منه يُمكن أن يعني شيئاً واحداً فقط»، قالت لطيفة، بدت كلماتها معوجة، وغليظة، ومُمتطة. «وأنت، يا ابنتي لم تستحوذي على العافية الكافية!! استحوذت على القليل من حبي».

أخذت عينا نورة بالاحتراق بينما كانت تجبرهما على أن تبقيا مفتوحتين في دوران الظلال المتلاشية التي كانت تُحيط بها. كان باستطاعتها رؤية لطيفة تتكئ إلى الخلف، والتقطت الإنكار في عينيها، وأخيراً وقعت تحت سحر البرقع المُتمايل حين أخذت المرأة العجوز بالقول: «أنت حُبلى».

هذا لا يُمكن! هذا ما صرخ به ذلك الصوت الضعيف في رأس نورة. كان عليها أن تهرب بعيداً، بأسرع ما تستطيع. وبكل القوة التي استجمعتها، نهضت. وعندها شعرت بأوصالها تكبر مُتثاقلة وصدرها يذوي جانباً. في تلك اللحظة أخذ رأسها يدور وسقطت على الأرض. حينها ابتلع الظلام الضوء بالكامل.

الفصل التاسع والثلاثون

استيقظت نورة وسديم الدوار يلف رأسها وحاولت أن تنهض، لتشعر بذراعي لطيفة تضغطان على كتفيها لتعيداها إلى الفراش. وتحت وطأة عارها الثقيل، بدأ لسانها يتعثّر متلعثماً ببعض الهذر الفارغ قبل أن تستطيع سماع الكلمات التي تحمل معنىً، الكلمات التي أمكنها فهمها: «لقد حدث الأمر من تلقاء نفسه...» كان ذلك تعبيراً واهناً عن الندم.. أنا لا...»

«لا تتكلّمي»، أمرتها لطيفة.

هل كان ذلك همهمة خنزير برّي يَصِرّ في مؤخرة حنجرة لطيفة؟ ظهرت المرأة العجوز فوقها وبدا أن حجمها قد ازداد. نظرت إليها نورة وهي ترفع يدها عالياً فوق رأسها، وتمدها مثل نسر يفرد جناحيه في عرضٍ للقوة. وبدت نورة في ظل لطيفة كفأرة مُتذللة، وهي الحقيقة التي مرّت أمام عينها مُبتلعةً إياها بثقة كالرمال المتحركة.

كانت حاملاً، كانت علامات الحمل موجودة لفترة طويلة

ولكنها لم تستطع أن تُخمّن السبب. والآن هي تشعر بالحرارة والبرودة، كان جسدها مُبللاً من التجمّد والذوبان، حيث كانت تنتظر لطيفة لتضربها. بقيت ذراعا لطيفة فوق رأسها بينما كانت نورة تُصارع لتُبقي عينيها مفتوحتين. كان عليها أن تنتظر لترى ما الذي سيحدث بعد ذلك. هل ستصفعها لطيفة أو هل ستنشب أصابعها في وجه نورة، وتخمشه إلى أن تُجري أنهاراً من الدم تترك خلفها علامات تبقى معها كتذكار دائم عن خيانتها؟ كانت نورة مُستعدة لكلا الاحتمالين؛ لأنها كانت تستحق ذلك بل وأكثر من ذلك.

لكن لطيفة لم تقم بأيّ منهما. عوضاً عن ذلك، أرخت يديها خلف رأسها وفتحت عقدة البرقع. ثم زلقته عن وجهها، لتظهر لطخات حبرية مطبوعة على خديها ناجمة عن القطن المُغمّس بصبغة النيلة التي كانت تُبطّن قناعها. كانت تلك لحظة نادرة لنورة، نوع من الامتياز، أن ترى وجه لطيفة العاري، والذي أشرق بابتسامة محيرة.

امتدت شفتاها الرقيقتان عالياً لدرجة أنّ أنفها القصير تفلطح على خديها، دافعاً تلك اللطخات الزرقاء القاتمة نحو الأعلى، حيث بدا وكأنها سوف تصب في البرَك العميقة تحت عينيها. لم يَصِم تلك الابتسامة أيّ أثر للغضب. لقد كانت ابتسامة من ابتهاجٍ صافٍ.

أشرق وجه نورة، أمّا الغرفة فزادت إعتاماً، وغرقت في نوم

مُضطـرب مـليء بأحـلام قبيحـة. بـدأت لحظـة اسـتيقاظها التاليـة مـع سـماع صـوت سـحق وتقطـير المـاء. وعندمـا فتحـت عينيهـا، رأت لطيفـة لا تـزال جالسـة بقربهـا، تعـصر السـائل مـن قطعـة قـماش مُبللـة لتصبـه في طسـت.

«حم... حم...»

«هسـس»، قالـت لطيفـة، وهـي تضـع إصبعهـا عـلى شـفاه نـورة. «يكفـي أحاديـث تافهـة. لا تفكـري بـأيّ شيء، عـدا أن تتحسّـني. اسـتريحي، يـا عزيـزتي». لا تحـاولي أن تتكلمـي». وضعـت قطعـة القـماش المبللـة عـلى جبين نـورة. «أنـت محمومـة، وعلينـا أن نجعلك أفضـل. عليـك أن تسـتجمعي قـواك ثانيـة. لا نُريـد أن تؤثـر الحمـى عـلى طفلنـا». رفعـت زبديـة مـن حسـاء الدجـاج ووضعتهـا عـلى شـفاه نـورة. «لـن نسـتعيد قوتنـا مـا لم نُغـذ أنفسـنا».

قطـع صـوت شـبيه بعـواء كلـب الصمـت بينهـما بينـما كانـت نـورة عـلى وشـك أن ترشـف الحسـاء، وبـدا الصـوت وكأنـه آتٍ مـن جـدار عميـق. كان الصـوت حـاداً لدرجـة أن نـورة ظنـت أنـه كان صـوت ياقوتـة، لكـن بحّـة الألم في ذلـك الصـوت لم يكـن بحّـة صـوت ياقوتـة. «صـوت مـن هـذا»؟ همسـت نـورة.

أغلقـت لطيفـة عينيهـا وقالـت، «إنهـا شمسـة، تجاهليهـا فقـط. إنّهـا مُسـتاءة بشـأن الطفـل». سلسـلة مـن الطقطقـات ارتـدت مـن فـم لطيفـة. «إنهـا أنانيـة للغايـة، أنـت تظنـين أنهـا سـتكون سـعيدة لأن الأربـاب سـيحظى أخـيراً بولـد؟». أطلقـت لطيفـة تنهيـدة

خشنة، مُشبعة بسعادة قطة تَخُرّ. «أخيراً، حَقّقت حلم جاسم، أحلامنا كُلنا؛ طِفل! أخيراً، بركة طفل جاسم».

مع تلك الكلمات، انزلق حساء الدجاج في حلق نورة بطريقة خاطئة، وانتابت نورة نوبة من السعال العنيف الذي تطاير على السرير. ومن خلال عينين دامعتين، شاهدت لطيفة تضع الزبدية سريعاً على الأرض، وبمهارة مُعالِج يتمتع بعدد طويل من سنيّ الخبرة، أجلست نورة في وضعية مُناسبة وبدأت تدق على ظهرها.

استعادت نورة أنفاسها، مع أن صدرها يؤلمها. بدأ رأسها يدور من الإنهاك ثانيةً، وارتدت إلى فراشها ثانية، مشوشة، تتساءل ما إذا كانت تحلُم، ما إذا كانت تتخيل كل هذا، أو أن لطيفة قد قالت حقاً أن الطفل كان طفل جاسم. أدارت رأسها جانباً وأمسكت بضوء الشمس المُتلاشي. حتّى ذلك الضوء الرقيق يؤذي عينيها.

«لقد كُنت تنامين وتستيقظين طوال اليوم، وتتحدثين أحاديث بالتُرهات»، قالت لطيفة، وهي تومئ برأسها. «أنت محمومة، ولم تكوني تعرفين ما الذي تقولينه، كل الأشياء السخيفة، بالطبع، لذلك لا تتحدثي أكثر من ذلك».

حاولت نورة أن تُركّز على ذرات الغبار التي تسبح في الضوء بينما كانت الأسئلة تتزاحم في رأسها مثل فراشات تطير نحو النار. ما هي الأشياء السخيفة التي نطقت بها؟ هل ذكرت

حمداً؟ كانت تتوق لأن تعرف، لكن الاقتراب من الوهج أكثر من اللازم سيحرقها.

لذلك بقيت صامتة وتركت لطيفة تُساعدها في النهوض مُجدداً. رشفت نورة حساءها، وعندما اختنقت شمسة بعبراتها المُتسرّبة عبر الجدار، أخذت نورة تَمُجّ حساءها بصوت. أيّ شيء للتغطية على صوت ذلك النشيج المكتوم.

بدأ الباب يَصِرُّ وهو يُفتح، وثقبَ شعاع من الضوء العتمة. مشت لطيفة بتثاقل عبر الغرفة ووضعت راحة يدها على رأس نورة. «لقد ذهبت»، قالت لطيفة، وهي تتنهد بارتياح. «اسبوع كامل من الحمى، لقد قلقنا عليك كثيراً. لقد اعتقدنا أنك بدأت تفقدين عقلك مع كل ذلك الركل والهذيان، وكأنه كان لديك الكثير من الأشياء المهمة لتقوليها.

كانت نورة لا تزال مُرهقة بعد تلك النوبات المتعاقبة من الحرارة والبرودة التي كان عليها أن تُعاني منها. كان تنفسها ضعيفاً وعقلها كهفاً من التشويش. الفكرة الوحيدة التي كانت تنساب خلال عقلها، صافية كماءٍ جارٍ، كانت أنها حامل، وثقل تلك الفكرة أبقاها مُسمرة في السرير بإحكام وكأنّما جلمود ثقيل من الصخر كان يجلس على صدرها.

غمست لطيفة قطعة قماش بزبدية مملوؤة باللبن الرائب والكُركم. لقد كان نفس الخليط الذي استخدمته لتخفيض

حـرارة نـورة، والآن وكـما قبـلاً، عـصرت قطعـة القُـماش باهتـمام كان جديـداً بالكامـل، اهتـمام لم تُشـاهده نـورة في المـرأة العجـوز مـن قبـل. بقيـت الغرفـة تعبـق بالرائحـة الثقيلـة للحليـب المُعَتَّـق المُتبّـل، وهـزت نـورة رأسـها بينـما كانـت لطيفـة ترفـع قطعـة القـماش باتجـاه جبينهـا.

«لكنها ستخفّض حرارتك»، قالت لطيفة.

«لقد انتهت الحرارة»، همست نورة. «لا مزيد منها، أرجوك».

توقفـت لطيفـة وقطعـة القـماش في يدهـا وضحكـت. «حسـناً، إذا لم تعـودي ترغبـي بالمزيـد، فـلا مشـكلة. لكـن هُنـاك شـيئاً أنـا مُتأكـدة أنـك ترغبـين فيـه». أخرجـت لطيفـة مـن جيبهـا نصفـي ليمونـة. فجـأة، شـعرت نـورة بتنفسـها يتسـارع وفمهـا يسـيل لُعابه. ومـع غربلـة أفكارهـا المُشوشـة، تذكـرت نداءاتهـا المجنونـة لتلبيـة وحامهـا للطعـم الحامـض لليمـون. امتصـت اللُّـب بشراهـة، وبينـما كانـت شِـفاهها مزمومـةً بتأثـير طعمهـا الـلاذِع، فكّـرت في جاسـم وحكاياتـه الخاصـة بشـد الأحزمـة فيـما يتعلّـق بليمونـه الثمـين. لقـد كان في أحلامهـا، أيضـاً، أم كانـت تلـك لحظـات يقظتهـا؟

وبينـما كانـت محمومـة، وتنـام وتسـتيقظ مـراراً، تذكـرت رؤيتـه عنـد البـاب، أكثـر مـن مـرّة يسـأل بصـوتٍ خفيـض هـل كانـت تتحسّـن. كانـت مُتأكـد مـن رؤيـة خطـوط القلـق عـلى جبهتـه. لقـد كانـت المـرّة الأولى بالنسـبة لنـورة، أن تـرى زوجهـا، الرجـل صاحـب هريـر الأسـد، يمـوء خوفـاً كقطـة منزليـة.

ومع خروج لطيفة من الغرفة على رؤوس أصابعها، أخذت نورة تستمتع بالليمونة. بدا أنّ سرها بأمان. وإلا، فإنّ لطيفة وجاسماً لن يكونا ليّني العريكة هكذا معها، لن يكونا قلقين تجاهها هكذا، وتجرأت على أن تُفكّر، مُحبين هكذا لها. قشّرت داخل الليمونة بأسنانها ومضغت اللُّب. كان مُراً وحريفاً في نفس الوقت. وهو ما كانت ترغب به بالضبط، هو ما كانت تحتاجه آنذاك، إلى أن تستطيع أن تُفكر بشكل أكثر وضوحاً، إلى أن تستطيع أن تفهم وضعها الجديد في المنزل.

الفصل الأربعون

كسرت نورة نصف رمانة وشعرت بوخز عصيرها يُصيب عينيها. قامت لطيفة مُباشرة بمسح رذاذ العصير بقطعة قماش رطبة ألقتها على وجه نورة قبل أن تسنح لها فرصة أن ترمش بعينها.

«لا مشكلة، يا أُمي لطيفة»، قالت نورة مُحاولة أن تُبقي صوتها خالياً من أيّ حنق. لقد مضى شهر كامل مذ تعافت من الحمى التي ضربتها، ومازالت لطيفة تحوم حولها كما النحلة التي تحمي قرص عسلها.

كان طعم الرمانة حامضاً بقدر حموضة الليمون الذي كانت تتناوله يومياً، والذي لاءم حالتها. وبينما كانت حبات الرمان تتفجر في فم نورة، كانت تُشاهد لطيفة ترتب السرير الذي كانت تستلقي عليه. هذا كل ما كانت «المسنَّة» تقوم به عندما تشعر أنه لا يوجد شيء لتفعله، حيث كان هذا الأمر مجرد طريقة أُخرى لتدليل نورة.

«لا تبلعي النوى، خاطبتها لطيفة. «فقط أعيديها إلى الصينية. إنها ثقيلة للغاية على المعدة».

بصقت نورة النوى» خارج فمها بشكل مبالغ فيه ورمقت لطيفة بنظرة تحدٍّ.

تابعت «المسنَّة» كلامها مع ابتسامة لطيفة على محياها، «يتغيّر المزاج أثناء الحمل. ما العمل؟ لكن يجب أن تعرفي أنك تستطيعين التكلم معي متى أردت، وأن تخبريني عما يضايقك، وسأحاول جهدي أن أساعدك».

تلك كانت الدعوة التي كانت نورة تنتظرها، وهي لم تتردد في انتهازها. «أنا متعبة للغاية من البقاء حبيسة هذه الغرفة، متعبة للغاية من كل هذا الاهتمام الذي تُحيطينني به. لم تسنح لي الفرصة للمشي في الفناء منذ مدة طويلة». كانت نورة تئنّ وهي تتكلم مثل كلب يتوسل بعض الطعام.

«لم لا أستطيع أن أن أخرج أمشي، فقط أمشي، هذا كل ما في الأمر».

«تباً! ما هذا الحديث! الشمس حارة جداً بالنسبة لك».

«لكن الجو قد برد بعض الشيء الآن. على أيّة حال، أستطيع أن أخرج عندما تغيب الشمس في أول المساء أو في وقت متأخر من الليل. أنا لا أُمانع».

رفضت لطيفة مرّة أُخرى، لكن هذه المرة مع هزة محسومة من رأسها: «من الأفضل لك أن تبقي في الداخل وتنالي بعض

الراحـة. في الخـارج، هُنـاك الجراثيـم التـي يُمكـن أن تُصيبـك مـن أيّ كان: مـن ياقوتـة، أو شمسـة، أو حتـى مـن زوجنـا».

ومـن حمـد أيضـاً؟ أرادت نـورة أن تسـأل ولكنهـا ارتـأت ألا تفعـل. أيـن هـو؟

«بحالتـك هـذه، سـتلتقطين الجراثيـم»، هكـذا قالـت لطيفـة، وضمـت أصابعهـا معـاً مصـدرة طقطقـة هـادرة كانـت تأمـل مـن خلالهـا أن تؤكـد سُـلطتها، لتُوضـح أنهـا هـي الشـخص الـذي يتحكـم بحمـل نـورة.

لكـن التحـدي اسـتيقظ في أعـماق نـورة كارتفـاع موجـة مفاجـئ في بدايـة العاصفـة. «أنـا لا أطلـب الكثـير»، قالـت نـورة، «جُـلّ مـا أردتـه هـو أن أتريـض قليـلاً». نهضـت نـورة ودلّـت رجليهـا خـارج السريـر، «أعتقـد أننـي سـأخرج الآن وأتمشـى قليـلاً في الخـارج».

لكـن لطيفـة وضعـت يديهـا أمـام صدرهـا، وأمالـت رأسـها إلى أحـد جانبيـه، ورمقـت نـورة بنظـرة ضروس، وقالـت لهـا: «لا أعتقـد أنـك سـتفعلين». لكـن نـورة نهضـت خـارج السريـر.

«لا تخرجي للخارج»، حذرتها لطيفة.

تابعـت نـورة عصيانهـا لأوامـر «المسـنَّة». طرحـت الشـيلة فـوق رأسـها وأخـذت بضـع خطـوات باتجـاه البـاب. وكانـت عـلى وشـك أن تخفـض مزلجـة البـاب الخشـبية السـميكة عندمـا تكلمـت لطيفـة مـرّة ثانيـة: «لا تدعـي رأسـك يكـبر فقـط لأنـك تحملـين في أحشـائك ابـن

زوجنـا». كانـت زمجـرة العاصفـة تقبـع في مؤخـرة حنجرتهـا، «عندمـا أقـول لـك إنـك يجـب أن تسـتريحي، فيجـب أن تسـتمعي لي».

بدأ الخشب يَصِرّ حالما بدأت نورة بسحب المزلاج ببطء إلى الجانب.

«لا تنـسي أننـي أنـا مـن يصيـغ إيقـاع هـذا المنـزل»، تابعـت لطيفـة، «ولكـي أتمكـن مـن صياغـة إيقـاع هـذا المنـزل، فيجـب عـليّ أن أعـرف كل شيء. وصدقينـي عندمـا أقـول لـك إننـي أعـرف».

تـرددت نـورة. كان قـد تـمّ سـحب مـزلاج البـاب، وكل مـا كان يتوجـب عليهـا فعلـه هـو أن تفتـح البـاب وتأخـذ تلـك الخطـوة الصغـيرة نحـو الخـارج، وحينهـا سـتكون في النـور؛ حينهـا سـتكون قـد انتـصرت. ولكـن بـدا أن النـصر قـد فاتهـا مُسـبقاً، وذلـك مـن خـلال صـوت لطيفـة، الـذي كان مليئاً بـكل ألـوان الثقة والسُـلطة.

«أنـا أعـرف بعـض الأشـياء»، قالـت «المسـنَّة»، «ومـن الحكمـة أن تُنصتـي إليّ عندمـا أطلـب منـك ذلـك».

مـا الـذي كانـت لطيفـة تقولـه؟ هـل كانـت تعـرف أن الطفـل الـذي يسـبح في رحمهـا هـو طفـل حمـد؟ ظهـر فجـأة كل الخـوف الـذي كانـت نـورة تحـاول تُخفيـه. صفعـة مـن الرعـب هـزّت أوصالهـا، ووخـزات نديـة مـن الخـوف أسرعـت إلى أصابعهـا. تيبّسـت أصابعهـا ووضعتهـا عـلى خصرهـا. كان عليهـا أن تنسـحب مـن هـذه المجابهـة. تهديـد لطيفـة بـدا حقيقيـاً.

بقيـت تواجـه البـاب، بينـما كانـت تحـاول أن تسـتجمع بعضـاً

مـن توازنهـا. «انتظـري، أنـا لا أُريـد أن أُزعجـك»، بـدأت نـورة حديثهـا، محاولـةً أن تنفـخ في صوتهـا أكـبر قـدر ممكـن مـن النـبرة الهادئـة للمـزاج الحَسـن، ولكـن مـن دون أن تبـدو أنهـا تنسـحب. «أريـد فقـط أن أريّـض قدمـيّ». اسـتدارت وعـادت إلى السريـر. ثـم قـررت نـورة أن تلقـي نظـرة عميقـة عـلى عينـي «المسـنَّة»، حيـث كان هـذا الأمـر هـو الطريقـة الوحيـدة لمعرفـة الحقيقـة. بالطبـع، كل شيء سـينعكس في الـشرارات الصغـيرة لهاتـين العينـين!

لكـن لطيفـة لم تكُـن لتسـمح بذلـك. وبينـما كانـت نـورة تغـوص في فتحتـي برقعهـا، لم تتمكـن مـن رؤيـة شيء غـير ابتسـامةٍ عريضـة قلّصـت عينـي لطيفـة لمـا يُشـبه البـذور المتوضعـة في هلالـين ضيقـين مُتجعديـن كحبـة فاكهـة متعفنـة.

في وقـت متأخـر مـن تلـك الليلـة، قاومـت نـورة نُعاسـها. لم تكن تُريـد أن تحلـم. في أحلامهـا، كان هُنـاك دائـماً مشـهد مرعـب عـن محاولـة الوصـول إلى مـكان مـا ولكنهـا غـير قـادرة. خطواتهـا إلى الغيـوم القـادرة عـلى حمـل وزنهـا كانـت تتحـول إلى سـديم، الحـصى عـلى الجبـل الـذي كانـت تحـاول أن تتسـلقه كانـت تنزلـق تحـت قدميهـا. كانـت دائـماً تعلـق في أحلامهـا، إمـا تسـقط في اللامـكان أو تتسـلق إلى الـلاشيء. لفّـت هـذه الأحـلام، والكثـير منهـا، نفسـها حـول نـورة مثـل أعشـاب البحـر اللزجـة.

جـذب النُعـاس أجفانهـا. نهضـت ومشـت عـلى رؤوس أصابعهـا

نحـو البـاب. كانـت صامتـة كنسـمة عندمـا دخلـت الفنـاء المُحـرّم وغاصـت في ظـلال القنطـرة التـي تنتصـب فـوق مجلس المنـزل. وقفت هُنـاك سـاكنة، وحاولـت أن تجـد السـلام في التحديـق نحـو الأمـام، ولكـن كان هُنـاك غيمـة في عقلهـا، مملـوءة بأكثر الأسـئلة إخافـة، تلـك الأسـئلة التـي تقاطـرت واحـداً تلـو الآخـر. لقـد كانـت تلـك الغيمـة هُنـاك منـذ اللحظـة التـي حطمـت فيهـا لطيفـة قرارهـا. تجنبـت نـورة تلـك الغيمـة، عـلى أمـل أن تختفـي. ولكـن الآن، في سـكون الليـل، بـدأت كل أنـواع المخـاوف والشـكوك بالتداعـي حولهـا.

هـل تعـرف لطيفـة حقـاً سرهـا؟ وإن كانـت تعـرف، فكيـف اكتشـفت ذلـك. هـل يُمكـن أن يكـون أولئـك القرويـون هـم الذيـن يملـؤون عقـل لطيفـة بذلـك الحبـل الطويـل مـن الشـكوك. وهنـاك احتـمال آخـر، أيضـاً. وكان ذلـك الاحتـمال هـو مـا أصـاب نـورة بأقسـى أنـواع الرعـب مـن بـين كل الاحتـمالات. مـا الـذي حـدث أثنـاء مرضهـا؟

حاولـت أن تتذكـر كل تفصيـل مـن ذلـك الأسـبوع المحمـوم. تذكـرت رأسـها وأطرافهـا المُضطربـة، والمشـكولة بالتعـب. كانـت هنـاك حسـوات حسـاء الدجـاج، وجرعـات المـاء الصغـيرة، وتلـك الرائحـة القويـة مـن مزيـج لطيفـة المكـون مـن اللبـن الرائـب والكركـم عـلى جسـمها.

لطيفـة قالـت إنهـا ضربـت، ولكمـت، ورفسـت أثنـاء نومهـا تحـت تأثـير حـرارة الحمـى. لكـن هـل تكلّمـت، أيضـاً؟ هـزت نـورة

رأسها. كانت متأكدة من أن كل الأصوات التي قامت بها، كل صرخات التحذير، كانت في رأسها فقط. بينما في لحظات صحوها، فقد ارتفع صوتها أعلى من دقات قلبها الكسول في غمغمات عشوائية كانت مجدولة ببعضها وبإحكام لدرجة أنها لم تكن قادرة على أن تفهمها. كان لسانها مُثقلاً بلهاث وارتعاش سمكة خارج الماء. أيّ ضرر يُمكن أن تكون قد نطقت به؟

تنفست نورة بعمق، مراراً وتكراراً. كانت تشعر بالأسى على حالتها المُزرية. وحالما شعرت بالهواء النضر يُصفي رأسها، تجرأت على تخيّل وجود حياة ثانية، حياة سوف تأخذها بعيداً عن سلطة لطيفة الاستبدادية. ربما كان حمد على حق. ربما يتوجب عليه أن يسرق تلك اللآلئ، وحينها يُمكنهما الفرار معاً.

كانت فكرة سرعان ما اجتاحتها مُباشرة. كانت فكرة تحمل بعض الأمل داخلها. كانت فكرة فيها بعض الشجاعة. جرّت قدميها على الأرض، وهي تشعر بحاجة ماسة للتحرك، توق لأن تمسح ذلك البؤس الذي أصابها كالطاعون. بدأت بالتحرك بخطوات قليلة ساكنة، هُنا وهُناك، لكنها بقيت في الظلام. ولكن لم يمض وقت طويل قبل تكشف طولها، ظِلّ مُتمرد تحت نصف قمر متلألئ، تمشي بصمت في كامل المشهد.

كان بطنها لا يزال صغيراً، ومع تخطيها مرحلة الضعف والغثيان، فقد شعرت بما يكفي من القوة للفرار بعيداً عن هذا المنزل الظالم. ستسافر عبر البحر إلى الهند، وستنجب طفلها بجانب حمد الذي سيصبح ثرياً بشكل سريع.

وبينما كان المنزل نائماً، اندفعت نورة تمشي من أحد جانبي الفناء إلى الجانب الآخر وتعود مرّة أُخرى، في محاولة منها لمحو ذلك الكائن المُثير للشفقة الذي أصبحت عليه. كانت مثل لص يُريد أن يُقبض عليه. أخذت نورة تحفر الرمل بكعبي قدميها إلى أن غمرها وميض التحدي بنشوة مجنونة. كم كانت الأمور كُلها سهلة.

كم كانت واضحة صورة الحياة الأُخرى تلك. كان يُمكنها أن ترى نفسها بجانبه على السجادة تحت شجرة النخيل المنحنية، بينما يكون رضيعها في حجرها وهي تهزه لينام. كان بإمكانها أن تشعر بصوت أنفاس حمد الرقيقة وهي تُبعِد الرطوبة المتجمعة على مؤخرة رقبتها. كان فمها يتراخى مفصحاً عن ابتسامة رقيقة، وكانت عيناها، كحبتي زيتون لماعتين، قد أغفتا في نصف إغلاقة على شكل قوس من الإنجاز.

لقد كان حلم يقظة سارّاً، قطعه فقط شوكة من الألم في أسفل ظهرها استعجلت توقفها. حينها فقط أدركت نورة أنها كانت تلهث وأن ألماً فاتراً قد بدأ يستقر في ربلتي ساقيها. كانت نبضات قلبها متسارعة أيضاً. وما جعلها حزينة هو إدراكها أن كل تلك الرشاقة والقدرة على الاحتمال التي كانت تتمتع بها عندما كانت تعيش في الجبال، كلها قد اختفت الآن. أصبحت خطواتها مُتثاقلة الآن، وتساءلت كيف يُمكنها أن تنجو من رحلة تستغرق شهرين إلى ثلاثة

أشـــهر في بحـــار عاتيـــة وأن تســـتقر في أرض لا تعرفهـــا حيـــث يتكلـــم النـــاس هنـــاك لغـــة غريبـــة.

ومـــع انحســـار الألم في ظهرهـــا، بـــدأت تفكـــر أكثـــر في المخاطـــر المُترتبـــة عـــلى هكـــذا تحـــرّك. أحســـت بإغـــراء أن تتخـــلى عـــن كل الخطـــة التـــي تشـــكلت اعتباطـــاً في عقلهـــا. لكـــن نـــورة كانـــت قـــد سئمت مـــن ذلـــك الشـــخص الجبـــان الأبكـــم الـــذي أصبحـــت عليـــه.

غـــداً، ســـوف أجـــد حمـــداً، هكـــذا قـــررت. لكـــن أيـــن هـــو بـــأيّ حـــال؟ توقفـــت ونظـــرت إلى الســـماء، وكأنهـــا قـــد تجـــده هُنـــاك. لقـــد اختفـــى حمـــد منـــذ مرضهـــا، ولكـــن لم تكـــن لديهـــا الجـــرأة لتســـأل عـــن مكانـــه. غـــداً، ســـوف يتغـــيّر هـــذا الأمـــر. غـــداً، ســـوف تســـأل ياقوتـــة.

الفصل الحادي والأربعون

أن تُقرر نورة ما الذي ستفعله كان أمراً، بينما كان فعله أمراً آخر. كان عليها أولاً أن تتاح لها فرصة الإمساك بياقوتة في واحدة من لحظات التأمل الراقي، وبالتالي لن تقوم تلك العبدة الصخابة بإفشاء سرها لكل المنزل. وقد ثبت أن هذا الأمر جِد صعب. مُنذ بدء حمل نورة، سحبت ياقوتة نكدها وعداوتها تجاه نورة وأصبحت الآن تُشارك لطيفة وجاسماً حماسهما وتوقعهما الأبدي. كانت العبدة تغتنم أيّ فرصة لتدليل نورة. كانت تمضي النهار تصرخ وتغني.

قررت نورة أن تعطيها وقتاً لتشعر بالملل وتهدأ. خلال النهار، كانت تتبع قانون لطيفة وتبقى حبيسة الغرفة. ولكن في الليل، كانت نورة تتمرد وتتسلل إلى الفناء، حيث، كانت مثل أيّ عربيّ تائِه، تُحدّق في السماء المُرصّعة بالنجوم لتجد طريقها. ليلة بعد أُخرى، كانت تبحث عن إشارة في ضوء النجوم الخفاق، لكن جُل ما لاحظته كان مرور الوقت حيث كان القمر يكبر ليعود ويصغر مرّة أُخرى.

بعد ذلك، وفي ذات صباح، وبينما كانت نورة جالسة تُمشّط شعرها، اندفعت ياقوتة إلى غرفتها وأعلنت قائلة، «إنها راحلة».

عَلِقَ المشط في إحدى عُقد شعرها، وتركته نورة مُتدلياً حيث عَلِق. نهضت واتجهت نحو الجدار لكي تستمع.

كان هُناك خلط وبعثرة في الجانب الآخر. كان الأمر صحيحاً: كانت شمسة تحزم أمتعتها.

أمسكت نورة بشيلتها وألقتها فوق رأسها. كانت على وشك مُغادرة الغرفة عندما أمسكت ياقوتة بذراعها. «إلى أين أنت ذاهبة»؟ سألتها.

«لأرى شمسة، ولأعرف لماذا» وتوقفت نورة. لماذا كانت ذاهبة لترى شمسة؟ ولماذا عليها أن تهتم حتى ولو كانت ستغادر؟

لم يسبق لشمسة أن خاطبت نورة بكلمة حلوة واحدة، شعرت نورة بالكآبة والخداع يجيش كثيفاً في داخلها كدفق من الدماء تندفع من جرح عميق. ليس مُهماً كم كانتا شريرتين تجاه بعضهما البعض، فقد شعرت نورة بأن هناك رابطاً يشتركان فيه، من خلال زواجيهما الذي لم يكُن من اختيارهما. كان عليها أن تفعل شيئاً.

«ربما تحتاج للمساعدة في حزم أمتعتها»، قالت.

«لا أعتقد أنها بحاجة، ليس منك بكل حال»، قالت ياقوتة.

«على كل حال، هي ستغادر بسببك»! وهزت رأسها. «قالت شمسة للأرباب، أريد أن أكون مع عائلتي، أنا افتقدها»!. اهتز حاجبا ياقوتة، ومالت باتجاه نورة وهمست، «لقد قالت إن الأمر سيكون لفترة قصيرة، وإنها ستعود بعد ذلك. ولكننا نعرف أن ذلك غير صحيح، أليس كذلك؟ ستبقى في عش عائلتها، تحضن فشلها كما تحضن الدجاجة البيض المكسور».

«لماذا الآن»؟ سألت نورة.

«لماذا الآن»؟ قلدتها ياقوتة. «انظري إلى نفسك! سريعاً سيكبر بطنك لدرجة لن تتمكني فيها من رؤية قدميك».

أمسكت نورة بقاعدة بطنها، وكأنه سوف يقع إن لم ترفعه.

«في أيّ شهر أنت الآن»؟ تابعت ياقوتة. «أنت في الشهر السادس أو نحوه؟ آمِنة! ذلك ما أنت عليه. لقد انتظرت شمسة طوال هذه المدة لتتأكد من عدم وجود فرصة لتفقدي الجنين».

قطّبت نورة حاجبيها وبدأت تمسح على جانبي بطنها.

«وهل وافق الأرباب»؟ تذكرت نورة كم كان جاسم غاضباً عندما غادرت شمسة آخر مرة لزيارة عائلتها.

هزت ياقوتة كتفيها قائلة: «يبدو أنه لا يُمانع».

تجهّمت نورة. «حسناً، ربما عليّ أن أذهب لأودعها»،

«ستبصق عليك إن فعلت»، قالت ياقوتة وهي تضحك.

«فكـري في الأمـر. لقــد ربحــت، وهــي خــسرت. افرحــي». حدقــت مــن النافــذة.

لكــن نــورة لم تشعر بــأيّ مـن الفـرح الـذي كان يغمـر ياقوتـة. عوضاً عـن ذلـك، غشّـى عقلهـا كآبـة سـوداء كليلـةٍ تفتقـد القمـر. مـكان المرأة في المنـزل يُحـدده فقـط مـا يُمكـن أن تقدمـه هـذه المـرأة للمنزل.

ويبــدو أن شمســة ليــس لديهــا مــا تقدمــه. كانــت شمســة قــد هربــت للمــرّة الأولى عنــد وصــول نــورة، وهــا هــي تهــرب مــرّة أُخــرى مــع حمــل نــورة.

«إنــه هُنــا، الرجــل العجــوز هنــا»، قالــت ياقوتــة، وقفــزت نحـو البـاب برجـل واحـدة، وأتبعتهـا بالأُخـرى، قبـل أن تنسـل خــارج الغرفــة.

أبقــت نــورة البــاب مواربــاً بينــما كان الجَمــعُ في الخــارج قــد انتهــى مــن عبــارات الترحيــب التقليديــة. كانــت لطيفــة وجاســم يطلبــان مــن والــد شمســة أن يرتــاح ويتنــاول بعــض القهــوة، لكنــه أصرّ عــلى أنــه في عجلــة مــن أمــره. كان الرجــل العجــوز قــد أحــضر رجلـين معـه ليحمـلا متـاع ابنتـه.

بعدهــا، ســارت شمســة وهــي مُغطــاة بالكامــل. لم يكُــن في المشـهد أيّ مـن لظـى نوباتهـا الهسـتيرية، فقـط بضـع كلـمات وداعية. رفعــت رأســها عاليــاً وانحنــت قليــلاً لتعانــق لطيفــة.

أمّا لطيفة، فقد ضمتها بكل العطف الذي تضم به الأم طفلها.

وبينما قَبّل جاسم شمسة على جبينها، لاحظت نورة أصابع جمعة الدقيقة تزحف إلى كتف ابنته وتضغط عليها. كانت تلك إيماءة صغيرة ولكنها كانت مليئة بالمعاني. كانت فرصة لمؤازرتها، وفجأة حسدتها نورة.

لقد كانت شمسة عائدة إلى عائلتها، عائلة ثرية كانت تحبها لدرجة أنها استعادتها ثانية. بينما هي، نورة، لم يكن لديها عائلة أو منزل يمكن أن تعود إليه. كان عليها أن تبقى حيث هي، تحت يدي لطيفة المُتنمّرة، تلك اليدين اللتين يُمكن أن تطحناها بأبسط لمسة. وحينها تساءلت نورة عمن كان الفائز الحقيقيّ.

لم تستطع نورة أن تُشاهِد أكثر. نزعت الشيلة من رأسها وسحبت المشط من شعرها. وتسلقت عائدة إلى السرير، حيث جلست ودلّت رجليها من أحد جانبيه، وبدأت تؤرجحهما.

أما بقية جسم نورة فقد بقي متيبساً كجذع شجرة وهي تستمع إلى صوت الباب الأماميّ يُفتح وشمسة تغادر من خلاله.

كان يجب أن تشعر بالنصر. لقد ربحت المعركة، ولكن عوضاً عن ذلك، شعرت نورة بالهزيمة، وبأنها حبيسة احتمال أن تكون لطيفة عرفت عن سرّ علاقتها مع حمد. بدأت رجلاها الآن تكتسبان بعض الزخم. لم تكُن تستطيع فعل شيء إلا أن تتبع «نصيحة» لطيفة، كما أسمتها «المسنَّة». وهو عينه ما كانت تقوم به نورة، حبست نورة اعتراضاتها وراء شفاه مُطبقة بإحكام خلال الفترة التي كانت تقضيها لطيفة في الاعتناء بها،

وبالتـالي كانـت تُمـضي الأيـام في غرفتهـا، تمامـاً كـما «نصحتهـا» لطيفـة. فـترة الاسـتجمام الخاصـة بنـورة تـأتي فقـط عندمـا ينـام المنـزل وتتسـلل هـي إلى الفنـاء محاولـةً أن تجـد بعـض الإلهـام، بعـض الأمـل، أو حـلاً مـا في تلـك النجـوم.

أصبحـت الأيـام أكثـر بـرودة. لم تعُـد تتعـرّق بينـما استمرّت في أرجحـة رجليهـا نحـو الأمـام والخلـف. كانـت نسـائم البحـر الرطبـة تهـبّ بسـهولة عـبر قضبـان النافـذة، وكانـت تحمـل معهـا أصـوات بعـض الرجـال الذيـن يلجـون المنـزل مـع صـوت جاسـم أيضـاً، المـليء بالحماسـة، وهـو يُصـدر أوامـره لهـم بإغـلاق أبـراج الريـاح.

«علينا أن نُسرِع»، كان يقول، «سيصل اليوم أو غداً على أبعد تقدير».

طبعـاً جاسـم كان يتحـدث عـن المطـر. كان هُنـاك حديـث كثـير في المنـزل عـن المطـر خـلال الأيـام القليلـة الماضيـة. لكـن نـورة لم تسـتطع أن تشـاركهم فرحتهـم. كانـت تعـرف أنـه حتـى المطـر لـن يسـتطيع أن يغسـل غيمـة الكآبـة التـي تشـعر بهـا.

بـدأت نـورة تؤرجـح قدميهـا بشـكل أشـد، ومـع ضربتهـا الثانيـة في الهـواء أتـت ركلـة أُخـرى. صرخـت نـورة متفاجئـة مـن حـدة الركلـة وضغطـت بيديهـا عـلى بطنهـا. كان هُنـاك أمـر طـارئ داخلهـا. بـدت تلـك الركلـة وكأنهـا تسـتعجلها لتقـوم بأمـر مـا. هـل كان طفلهـا يخبرهـا أنـه قـد أصبـح قويـاً كفايـة لتهـرب بـه بعيـداً، إلى مـكان آخـر؟

وقبل أن تستطيع التفكير أبعد من ذلك، كان الباب قد فُتِح ودخلت منه لطيفة يتبعها جاسم عن قُرب. وضعت نورة يديها أمام صدرها غاضبة. سيكون لديها الآن نحلتان تأزان فوق رأسها: لطيفة؛ وهي تتقيأ مراراً وتكراراً ما يجب عليها أن تفعله وما لا يجب، وجاسم ينخر بصوته وراءها علامة على الموافقة.

تجاهلت نورة طنين دلالهما لها ووضعت يدها على بطنها وانتظرت، انتظرت الركلة التالية. ولكن وعندما لم يحصل أيّ شيء، بدأت بالتساؤل ما إذا كان الصبيّ يخبرها شيئاً آخر. ربما يتوجب عليها التفكير بشأنه هو، حمايته هو عوضاً عن حماية نفسها.

صفقت لطيفة بيديها لتجلب الانتباه لما ستقوله، أما نورة فقد أُجفِلَت. «لا تؤرجحي قدميك هكذا». ورفعت إصبعها على شكل أرجحة عنيفة.

«سيدفع هذا الأمر بالدم لينساب باتجاه أصابع قدميك عوضاً عن تغذية الصبي». كان صوتها مُزعجاً كبعوضة تطير في هواء ساكِن.

«ولماذا لا تستلقين في السرير أكثر؟ كلما دخلت إلى هُنا أجدك جالسة كحارس».

«نعم، يجب أن تستلقي»، أضاف جاسم، كان صوته مُترعاً بكثير من الاهتمام لدرجة أن نورة شعرت أنها يجب أن تستمع له.

تمددت نورة على السرير واستطاعت أن تلتقط إيماءته كعلامة على الموافقة، حيث شرح لها: «أترين يا زوجتي الحلوة، أن الوزن الناجم عن بقائك جالسة طوال الوقت سيُسبب لك القِصَر».

ضربت لطيفة على ذراع جاسم وهي تضحك برفق: «هذا الأمر غير ذي صلة بالمسألة يا زوجي، إنه كذلك ليتمكن الصبي من التشبث بإحكام في رحم المرأة».

أرخى جاسم رأسه بشكل أخرق وتمتم شيئاً ما تحت صوت تنفسه. راقبته نورة وهو يحاول أن يمسح إحراجه بسعلة. لقد سمح لنفسه بالغوص في مواضيع تخص النساء، وعليه الآن أن يُغيّر الموضوع. «يجب أن تُنصتي لأمك لطيفة، يا نورة، إن جُلّ ما تُفكر فيه هو أنت وطفلنا، عندما يولد ذلك الطفل إن شاء الله، وبمشيئة الله، فسوف أمنحه كُل شيء». استعاد جاسم ثقته بنفسه، على الرغم من أنّ صوته كان ينوء تحت وطأة عُباب المشاعر التي بدأت تتشكّل داخله. «فكّري يا امرأة، فكّري؛ هذا الطفل، طفلنا، سيمتلك كل تلك الأشياء التي لم تحصلي عليها أبداً».

نهضت نورة مباشرة. أصبحت فجأة مهتمة بهذا الأمر. «ما الذي يمكنه أن يحصل عليه»؟ سألت.

«كل شيء! كل ما أملكه أنا. وقبل كل ذلك، كل الفرص التي يُمكن أن تحلمي له بها». ثم سعل بلطف. «سأجلب له مُعلماً، معلماً هندياً، ليدرّس الطفل الإنكليزية والحساب.

والعلوم أيضاً. سيتسلّح هذا الطفل بالمعرفة، ويكون مستعداً لجديد الأيام القادمة، أيام مليئة بالوعود، لأنه لن يمض وقت طويل قبل أن يبدأ النفط بجلب الثروات لهذه الأرض». توقف لبُرهة، مانحاً عينيه الفرصة لتنجرفا على طول الجدار خلف نورة، وكأنه يرى الخطوط الوردية والبنفسجية الباهرة لشروق الشمس مضمخة بالوعود. أمّا نورة فقد لاحقت عينيه لتتأكد من عدم تفويتها لأيّ تفصيل مما كان يقوله.

«وسوف أكون في المقدمة، مستعداً لكل ما هو قادم»، تابع جاسم: «لماذا تظنين أنني أبني علاقات مع الإنكليز؟ لأن الإنكليز هُم من سيرسمون بداياتنا. وسأكون هُناك معهم».

«يكفي، يكفي»، قاطعته لطيفة. «أنت تُثير الحماسة فيها على لا شيء. لا يزال الأمر مبكراً على كل هذا». والتفتت إلى نورة وتابعت قائلة: «والآن تذكري، لا تؤرجحي هاتين القدمين».

لكن نورة لم تسمعها. كيف يُمكنها أن تسمعها بينما كان رأسها يموج بعوالم جاسم السحرية؟ كان جاسم يرسم مستقبلاً مُشرقاً، ناثراً كل ألوان الاحتمالات. أبقت نورة عينيها على عيني جاسم، وأمعنت النظر خلال نظارته وغاصت عميقاً في الأمل الذي كان يتلألأ فيهما. كان يوجد الصدق أيضاً هُناك، واضحاً وضوح شعاع الضوء. شعرت نورة بالأمل يتسرّب إلى بطنها، وارتعشت حالما دفّأ ذلك الأمل الأطراف الصغيرة لطفلها الذي لم يولد بعد.

الفصل الثاني والأربعون

كم كانت كلمات جاسم حلوة. بقي ما قاله جاسم طيلة ذلك اليوم وطوال الأيام التي تلته تهدر في رأس نورة كموجات لطيفة ترفع من سقف تطلعاتها مع كل مد وتنشر الأمن مع كل جزر في بحر واسع وهادئ.

كانت متأكدة أن جاسماً كان يعني كل كلمة قالها. لقد رأت الجديّة في صوته منذ اللحظة التي فتح فمه فيها، لقد أسقطت وعوده دفاعاتها وخدّرت الاستنفار الذي كان يخِز طرف لسانها المُستعد. والآن، ومع ابتسامة، كانت تحمل أفكارها عندما تنتقل إلى الفناء وتستلقي على ظهرها في ظلال الليل الراقصة لشجرة السدر. كانت أوراق شجرة السدر التي تُهسهس فوق رأسها ونسمة الهواء الباردة التي تُلامس وجهها تُذكرها بمرور الأيام. عاجلاً، سيكبر بطنها لدرجة تضطر فيها إلى أن تتهادى في مشيتها كالبطة.

كان هُناك القمر، كتلة من الفضة الثخينة التي أجفلت

بعيداً في سماء مُرصّعة بعدد لا يُحصى من النجوم. وكعادتها كُل ليلة، فقد أخذت تُراقبها، تلك النجوم المُتلألئة. بدت النجوم في هذه الليلة وكأنها قد حجبت ضوء القمر الفضيّ. أرادت أن تُرشدها النجوم إلى الاتجاه الصحيح، ولكن في هذه المرة لم تكُن فكرة الهروب بعيداً تحتل عقلها بالكامل.

كانت تبحث هذه المرة عن نوع آخر من الإرشاد. كانت تبحث عن بعض الترتيب في النجوم ووجدته في مجموعة بدا وكأنها تنتمي معاً لعائلة من نفس النوع، تُشكّل ما بدا وكأنه قمة جبل.

في الذروة، كانت النجوم تلمع بشكل ثابت ووثيق، موطدة مكانها في العنقود، مثلما وطدت لطيفة مكانتها في المنزل. أما في الأسفل، فقد كانت النجوم هشّة للغاية لدرجة أنها بدت وكأنها تحتضر وذكرتها بشمسة. وبعد ذلك، وفي المنتصف، وفي جسم ذلك الجبل المتلألئ، كانت النجوم مُتذبذبة. كانت تومض ثم تأفل، مرّة بعد أخرى، وكأنها تحتار في أمر ما يتوجب عليها أن تفعله، أو تحتاج أن تفعله، تماماً كما كانت حالتها هي.

وضعت راحة يدها على بطنها ومسحته. «طفلنا»، همست، ولكن لم يكن يوجد شيء من تلك الثقة التي قَطَرت من فم جاسم. «طفلنا»، قالتها ثانية، بصوت أعلى قليلاً. ترنّح صوتها هذه المرّة من الذنب من جرّاء خداعها.

فتحت نورة عينيها واسعاً حتى ابتلعت السماء السوداء النجوم داخلها. سواد حالك! كيف يُمكنها أن تجلب طفلاً إلى حياة جاسم ليس من صُلبه، وأن تمنح هذا الطفل نعمة كرم جاسم؟ لقد تصوّرت علقة، سمينة من جرّاء امتصاصها دم شخص آخر.

وهكذا أيضاً كان طفلها، حيث سيتم تربيته وتزويجه، إطعامه وتعليمه من خلال ثروة وإحسان شخص آخر.

أغمضت نورة عينيها ودفنت خديها في الرمل. أخذت تفرك خديها نحو الأعلى والأسفل، حتى شعرت بالقطع الصغيرة للمرجان الأبيض تسحج جلدها لدرجة الاحتراق. لم تأبه لذلك. كانت تستحق ذلك، الألم وأكثر من الألم. كانت تود أن تتابع فرك وجهها إلى أن يسيل منه الدم. لكنها توقفت لبرهة حيث كان هناك ضجة.

كانت الضجة آتية من حظيرة الحيوانات في زاوية المنزل قُربَ مجلس الرجال. سمعت نورة حفيف وهياج القماش الناجمتين عن رفرفات أجنحة الدجاج وقرقعة حوافر الماعز.

هل كان ذلك لصاً؟ جلست نورة وبصقت الحبيبات التي انزلقت عبر شفتيها. كان هُناك شبح يسير باتجاهها. كانت على وشك أن توقظ المنزل بصرخة منها، ولكنها تعرّفت على الشبح. وفجأة تمنّت لو أنه كان لصاً.

لم ينزعج حمد من الزحف تحت غطاء القنطرة. كان يعبر الفناء كجمل جسور. كانت قدماه تغوصان عميقاً في الرمل، غير مُبالٍ بما تطآنه.

قفزت نورة على قدميها. أرادت أن توبخه على عدم تفكيره في الموقف الذي وضعها فيه. أرادت أن تدفعه بعيداً إلى الظلمة. ولكنه كان قد صار بجانبها، مُمسكاً بخصرها وساحباً إياها إلى غرفتها.

فتح الباب بقدمه وجذبها إلى الداخل بشدة.

كان المصباح يتوهج، مُعلقاً على الجدار بالقرب من النافذة، وكان بإمكانها رؤية الاضطراب في تنفسه الذي أخذ ينفخ صدره عالياً. حاجباه انعقدا في عبوس، وابتلع نورة بتحديقة مطولة.

تيبّست نورة في مكانها وكتمت النفس في صدرها بإحكام. تراخت قليلاً فقط عندما استدار حمد لينظر من خلال النافذة، ونفخت الهواء الحبيس في صدرها.

«أنتِ آمِنة»، قال حمد، «آمِنة حتى الآن، ولكننا لا نملك الكثير من الوقت».

لقد أخطأت بين عُجالته وغضبه. نفضت نورة التوتر عن رقبتها واستروحت بعض السيطرة على صوتها قبل أن تهمس قائلةً: «ما الذي تفعله هنا في هذا الوقت المتأخر؟ كيف دخلت إلى هُنا»؟

«أنا أتدبر بعض الأمور»، قال. بقيت عيناه مُركزتين على الفناء، «والآن دعينا نذهب، لا تُضيعي الوقت، أسرعي».

«اخفض صوتك»، قالت هامسةً، «وما الذي تتحدث عنه، بأيّ حال»؟ أخذت ضربات قلب نورة في التسارع. وعلى الرغم من أنها كانت مرتاحة لمعرفتها أن شمسة ليست على الجانب الآخر من الجدار لتسمع حديثهم، ولكن هُناك الآخرون.

كان عليها أن تُخرجه من غرفتها. «أخبرني ما الذي تُريده وغادر»، قالت بلهجة آمِرة.

جذب رأسه بشدة نحو الخلف باتجاهها. «ما الذي تعنينه؟ هل كُنت تعتقدين أنني سوف أتركك في هذا المكان الرهيب؟ تعالي الآن، وضبي أمتعتك سريعاً، واحملي فقط ما تحتاجينه. ودعينا نُغادر».

«إلى أين»؟

«بعيداً، إلى مُستقبل أفضل».

«لا أستطيع»، قالت نورة، وتركت يدها تنزلق إلى بطنها.

لأوّل مرة، شعرت أنه يتوجب عليها أن تحمي الطفل الذي كان يتشكل في أحشائها. «أين كُنت، على أيّ حال؟ لقد اختفيت. لقد كُنت مريضة، وقريبة من الموت، وأنت بكل بساطة اختفيت».

«لقد تمّ إخفائي. لقد أخبروني ألاّ أعود. لقد أخبروني أنهم لم يعودوا يحتاجونني بعد الآن».

«من أخبرك بذلك؟ زوجي»؟

«كلا، ليس زوجك»، تمتم حمد، ومد يده في جيبه وأخرج صرّة معقودة. «على أيّة حال، لم يعد الأمر مهماً الآن». أخذت أصابعه بالعمل لفتح عقدة الصرة. «ما يُهم هو أن الأمر قد تمّ. انظري».

لقد كانت هُناك حفنة من اللآلئ في يده اللصوصية.

«أمورنا كُلها جاهزة»، قال حمد، ودفع باللآلئ قريباً من وجهها. بدت اللآلئ في العتمة رمادية. حاولت نورة أن تلتقط بريقها، ولكن كُل ما استطاعت رؤيته كان عاراً آخر يطلب منها حمد أن تُشاركه إياه.

«ليس لدينا الليل بطوله»، قال حمد. «لقد رتبت لكل شيء».

لم تستطع نورة أن تستمع إليه. كانت الأصوات الهادرة في صدرها تصمّ الآذان في هواء الغرفة الذي توقف عن الحركة، وجُل ما كانت تستطيع التفكير فيه كان أنه يُريدها أن تصبح هاربة. حينها، لن يكون بإمكانها أن تعود إلى وديمة أو حتى العودة إلى الجبال. كان يتحتّم عليها حينها أن تعيش في المنفى وإلى الأبد.

«سوف نختبئ في «ليما» لبضعة أيام»، تابع حمد كلامه، «إلى أن تستطيع الباخرة الإنكليزية أن تأخذنا إلى...».

وأخيراً قاطعته نورة. «لقد فعلتها؟!»، همست. «لقد فعلتها حقاً؟!».

مسح حمد أنفه وقال. «لأجلنا».

«اعتقدتُ أنك قد تخليت عن الفكرة. ولكنك لم تفعل. لقد سرقت اللآلئ».

«استعرتها».

«سرقتها». كان صوتها أعلى، ووضعت أصابعها على فمها لتذكر نفسها بإبقاء صوتها خافتاً. «كيف وجدت المفاتيح»؟

«لقد تدبرت الأمر».

«تدبرت الأمر، تدبرت الأمر، تدبرت الأمر»، صاحت. «لقد سرقتها، يا حمد. لقد سرقتها».

«حسناً، سمها ما شئت، ولكن لفترة قصيرة جداً. سأُعيد قيمتها عندما أكسب المال. لقد أخبرتك بهذا الأمر من قبل. والآن تعالي. علينا أن نُسرع».

انطلقت موجة من الهواء الساخن من أنف نورة. «أنت تعتقد أنك تستطيع ببساطة أن تأتي وتأخذني إلى أيّ مكان تُريد، وعندما تُريد»؟ ثبتت نورة قبضتي يدها بإحكام على خصرها ودفعت استدارة بطنها نحو الأمام. «وماذا عن وضعي أنا؟ كيف يُمكنني أن أُسافر معك، وأنا أحمل هذا الطفل؟ أنت تعرف أنني حامل، أليس كذلك»؟

استعجال حمد للمغادرة بدأ بالتواني، وعاد ودس اللآلئ في جيبه. «هل هذا ما يُقلقك»؟ اقترب خطوة منها ورفع كلتا يديه ببطء لتستقرا على كتفيها. كانتا ثقيلتين، مُرهِقَتين، ولكنها لم تُنزلها.

«يجب ألاّ تقلقي حيال هذا الأمر»، تابعَ حمد. «سأكون أنا والد الطفل وستكونين أنت أُمه».

وحتى مع ضوء المصباح المتخافت الذي كان يرقص على وجهه، كان بإمكانها أن ترى التوق والرغبة في عينيه. كانتا تستجديان موافقتها، قبولها، أُعطياتها. الارتعاشات الصغيرة عذبت جفنيه، ولكنه لم يكن ليرمش بهما. شعرت بوخزة في قلبها حالما شاهدت تلك العينين، تخضلان كعيني جرو صغير يتوق لبعض الحنوّ من سيده.

لم تستطع نورة أن تنظر في عينيه أكثر من ذلك. خفضت رأسها باتجاه صدرها وأدارته من جهة إلى أُخرى، وهي تتمتم، «كلا يا حمد، كلا. لا أستطيع القدوم معك. يجب أن أبقى هُنا. هذا منزلي وهذه عائلتي. عندما كُنت مريضة، كانت أُمي لطيفة هي من طببتني، وكان جاسم هو من اعتنى بي. لقد اعتنيا بي جيداً، ما شاء الله، والآن أنت تُريدني أن آخذ منهم لآلئهم وطفلهم، حلمهم، وأهرب»؟

«ربما يكون حلمهم، ولكنه طفلنا»، قال حمد. كان صوته ناعماً كالمخمل. ومع ذلك سمعت نورة فيه نبرة التهديد فقط.

«الجوّ حار هُنا»، قالت نورة، وهي تلتوي من تحت يديه. خطت نحو الباب وأقحمت رأسها خارجاً. «حار جداً، ألا تشعر بالحرارة؟» سحبت رأسها ثانية إلى الغرفة، ومع ذلك كانت مرتعبة مما يُمكن أن يقوله الآن. «لا يوجد هواء»، عقّبت بإلحاح، ومشت إلى الحمّام. تبعها حمد إلى هُناك، وكان بإمكانها أن تشعر بعينيه ترمقانها عندما أمالت

الكوز الفخاري، وصبت بعض الماء في كفها المُقببة، ورشّت وجهها.

«بالطبع توجب عليك أن تُبقي الأمر سراً»، قال بهدوء، «ولكن ليس معي. ليس عليك أن تتصنّعي أيّ شيء معي».

مرّة بعد مرّة، أغرقت نورة وجهها بالماء، إلى أن أخذ الماء يقطر من رقبتها، مبللاً ثوبها، ومع ذلك لم تتبخر حرارة القلق.

«إنه طفلي».

ها هو، لقد قالها.

يبست نورة في مكانها. لقد شاع السرّ، ولكن الاعتراف به يعني إطلاق العنان لسلسلة طويلة من المتاعب. «ما الذي تتحدث عنه»؟

«لقد قُلت، إنني أعرف أنه طفلي»، قال حمد، وكان صوته أعلى من الهمسة بقليل.

«إنه ليس طفلك»! بصقت الكلمات في وجهه وكأنها قد تذوقت للتو قطعة من اللحم العفن. «إنه طفل جاسم».

«طفل جاسم»؟ قال حمد. لو كان بإمكانه أن يُنجب أطفالاً لكان لديه الآن عشرة منهم على الأقل. هاهاها! كل القرية، كلا، كل ليما، كلا، كلا، كلا، كل الهند، تعرف أنه لا يستطيع إنجاب الأطفال. ألا تعرفين عدد الروحانين والمعالجين الذين ذهب لرؤيتهم في بومباي؟ وكل واحد منهم وعده نفس

الشيء: سينجح الأمر هذه المرة أرباب»، هزّ رأسه. «كل ذلك المال الذي صبه صباً في زياراته وعلاجاته، وفي النهاية، لا شيء».

«مجرد كلام، كلام عجائِز»، تمتمت نورة من خلال شفاه مزمومة. «يمكنك أحياناً أن تُصبح سخيفاً جداً، تتخيل أغبى الأشياء».

«أنا، أتخيل أغبى الأشياء؟ أنا لا أتخيل شيئاً. أنا أرى وأنا أفهم؛ إنه أنت العمياء، إنه أنت من لا تستطيع أن ترى أنه قد تمّ التلاعب بها، لتصدق كذبة».

«كلام، كلام، والكثير من الكلام»، قالت نورة، وهي تمسد وجهها الرطب بذراعها وتتمتم إلى مرفقها: «هذا كل ما تُحسِنُ القيام به، اختلاق كلمات لتربكني فقط».

«أنت لا تعرفين عمّا أتكلم، أليس كذلك»؟

حينها استدارت نورة لتنظر إليه. بدا حينها أن الألوان تتقاطر من وجهه، كان هُناك تحذير في تألّق عينيه الصارم وكانت شفتاه عبارة عن خربشة من الحيرة. نظرت إليه باستهزاء وأشاحت بنظرها بعيداً.

«أنت لم تُخمّني، أليس كذلك»؟ قال حمد، بقي صوته بسيطاً. «حتى إنك لم تشعري أن شيئاً ما غريباً كان يجري. ماذا، أظننتِ أنه كان من الطبيعي بالنسبة لنا أن نبقى معاً كل ذلك الوقت، تُشجعنا أمي لطيفة، الشخص المفترض به حمايتك»؟

«أمي لطيفة هي شخص لطيف للغاية معي». بقيت

نـورة جاثمـة بالقـرب مـن الكـوز الفخـاري، وهـي تضـم ركبتيهـا إلى صدرهـا. لم تـرد أن تواجهـه؛ لذلـك ثبتـت عينيهـا عـلى بُـرك المـاء الصغـيرة التـي تشـكلت عنـد قدميهـا بعـد كل عمليـات الـرش المحمـوم التـي قامـت بهـا. «هـي تحبنـي كابنـة حقيقيـة».

«لطيفـة رأت فيـك الجمـوح؛ لذلـك خططـت للأمـر بأكملـه، وبالتـالي نسـتطيع أنـا وأنـت أن نجتمـع معـاً، وبالتـالي يُمكنـك حينهـا أن تحبـلي بطفـل لهـا ولجاسـم».

انفجـرت الصدمـة خارجـة مـن فمهـا كنبـاح كلـب. ولكـن سريعـاً، أطبقـت شـفتيها بإحـكام قـدر مـا اسـتطاعت. مـا الـذي كان يقولـه؟ هـل كان يختلق قصصـاً آثمـة ليقنعني بالهـروب معـه؟ أرادت أن تعـرف كل شيء، ولكنهـا لم تسـتطع، لم تكـن ترغـب في أن تـدع فضولهـا يُضللهـا.

«أيـن تعتقديـن أنني كُنـت طـوال هـذا الوقـت»؟ قـال حمـد. «لم تكـن ترغـب ببقائي هُنـا. لذلـك طلبـت مني أن أُغـادر»!

«أيّ قسـوة تلـك»، قالـت نـورة وكان صوتهـا يرتعـش بالشـك. «كيـف أمكنـك أن تكـون متحجـر القلـب لتفكـر في أمـر كهـذا؟ وعـلى أيّـة حـال، وإذا كان الأمـر صحيحـاً، لمـاذا جاريتهـم في ذلـك»؟

«أنـا لم...»، قـال، ثـم توقـف. كان هُنـاك ألم في صوتـه، وأخـيراً شـعرت نـورة أن بإمكانهـا أن تسـتدير وتنظـر إليـه. كان عابسـاً، وكان بإمـكان نـورة رؤيتـه يُغالـب مـا كان يُريـد أن يقوله. حـاول أن يتكلّـم ثانيـة. فتـح هـذه المـرة فمـه، ولكـن لم تخـرج منـه أيّ كلـمات.

نهضت نورة وأومأت برأسها ببطء: «أعتقد أنه من الأفضل لك أن تتوقف عن اختلاق القصص. أعتقد أنه من الأفضل لك أن تُغادر الآن».

وبينما كانت تمر بالقرب منه في طريقها نحو الباب، أمسكَ بيدها. «لا»، قال بسرعة، «استمعي إليّ؛ أنا لا أختلق هذه الأمور، في البداية لم أكُن أعرف بخطة لطيفة، ولكن لاحقاً فهمت كل شيء، ولم يكُن بإمكاني قول أيّ شيء».

نظرت إليه نورة بحنق وأفلت يدها، وكأن أصابعها استحالت فجأة إلى فحم ساخن.

حنى حمد رأسه نحو الأسفل. وعندما شرع يتكلّم كان يُكلّم صدره: «أنت ترين». توقف لبرهة وابتلع ريقه بصعوبة. «أنت ترين أنني أحببتك ولهذا السبب بقيت صامتاً، من أجل أن أراك أكثر وأكثر».

كانت كلمات بسيطة، ولكن وجد صعوبة في نُطقها وكانت ملأى بالحقيقة.

عند ذلك، لم تعُد تساور نورة أية شكوك. كان حمد يفتح قلبه لها، وكان ذلك الأمر هو أول ما جذبها إليه. ولكنها وجدت الأمر الآن مُثيراً للحنق. كان حمد يرمي رجولته بعيداً ويفتح قلبه كالنساء.

تدلّت ذراعاه باسترخاء على جانبيه، وبدت كتفاه

فارغتين حتى صدره. كانت عيناه مُغمضتين بإحكام، وأحسّت نورة أنه كان ينتظرها لتسحبه. كان ينتظرها لتربت بإصبعها بلطف تحت ذقنه، بتلك اللمسة الناعمة لبتلة الوردة، رافعة رأسه باتجاهها.

ولكن عندما لم يحدث ذلك، بدأ بالنهوض ببطء. لم يكُن هناك أيّ أثر للرشاقة التي اعتادت رؤيتها في قوامه البهيّ، كان هناك فقط حماقة جمل ينهض، وهو ينوء تحت حمل غضون رقبته الغليظة، ناشراً أوصاله الضامرة الطويلة، وهو يعرف طيلة الوقت أنه سيتعثّر في طريقه للنهوض.

لكن حمداً لم يتعثّر في نهاية نهوضه المُتكاسل، فقط أبقى عينيه مُغمضتين بينما كانت يداه المُتضرعتان تسبحان نحوها. وبأصابع مفتوحة، أبقى يديه في الهواء وانتظر لمسة يدها. ولكنها لم تكُن بوادر أن تمنحه تلك اللمسة.

«خزاك الله»، هسهست نورة، محطمةً الصمت الذي بدأ يلبّد الهواء بينهما. فتح حمد عينيه بتقصّف ورمش بهما مرات ومرات، ولكن ذلك لم يوقفها. «تتسلل إلى غرفتي في هذه الساعة المُتأخرة»، تابعت نورة. «تتسلل إلي بهذه الطريقة. أنا امرأة متزوجة، أم إنك نسيت ذلك»؟

«متى تحوّل قلبك إلى حجر»؟ سأل حمد. «متى»؟ كان حمد يهز رأسه، كأنه يُحاول أن ينسى حلماً سيئاً.

«عندما عرفت أنه يتحتّم عليّ أن أفكر بنفسي، وأن أُشفق على نفسي؛ لأنه لا يوجد أحد آخر يقوم بذلك نيابة عني».

«استمعي لما تقولينه، أنت تفعلين أيّ شيء قذر. ثم تتظاهرين بأنك لم تفعليه». كان هناك غضب في صوته الآن. «أنا لا أعرف من أنت، ما أنت. أنت شيء مختلف جداً عن نورة التي كنت أُعزها». رمى حمد ذراعيه في الهواء. أنت تحفرين حفرة في الرمل وتملئينها بعارك، مُعتقدة أنه سيُدفن هُناك للأبد. ولكن الرمل ناعم والريح لا تفتأ تهُب. ويوماً ما ...»

شكم حمد شفتيه ونظر بعيداً. «أنت تُشبهين ... ...»

«سمكة الرمال»، غمغمت نورة.

لم يسمع حمد ما قالته. «لماذا تفعلين ذلك؟ لماذا لا تريدين أن تأتي معي»؟

«لأني لا أُريد أن أصدع رأسي»، قالت نورة بعنف.

«ماذا»؟

«لا يهم».

أخمد حمد من ثائرته من خلال نفسٍ عميق. «اسمعي»، قال حمد وهو يعود لمواجهتها، «إنهم لطيفون معك بسبب الطفل. سيأخذونه منك حالما تلدين، ويربونه حسب الطريقة التي يرغبون بها. ولن يكون بإمكانك قول شيء حيال هذا الأمر».

«لا أُريد ان أسمع المزيد». قالت نورة، وهي تُغلق أُذنيها.

ومـع ذلـك، كانـت لا تـزال قـادرة عـلى سـماعه وبـدا أنـه كان مُصمـماً عـلى إيذائهـا.

«انظـري مـاذا فعلـوا بشمسـة»، تابـع حمـد. لم يعـودوا بحاجـة إليهـا، لذلـك أرسـلوها لبيتهـا».

«شمسـة أرادت أن تـرى عائلتهـا»، قالـت نـورة، والتحـدي يعتمـل في صدرهـا. «لقـد كان قرارهـا هـي أن تغـادر، ومـن المحتمل أن تعـود ثانيـةً. والآن غـادِر».

لكـن لم يكـن في نيّـة حمـد أن يُغـادر. «ومـاذا عنـك»؟ قـال سـاخراً.

«أين ستذهبين حالما يقرران أنهما ليسا بحاجة إليك»؟

لم تُجِـب نـورة هـذه المـرة. كلـما تكلّمـت أكثـر، طـال بقـاؤه. يُمكـن أن تسـتمر سـخريته الليـل بطولـه. ضغطـت نـورة عـلى شـحمتي أُذنيهـا بشـدة أكـبر وبـدأت بالدمدمـة، بحيـث أخـذت تشـعر بالاهتـزاز يندفـع إلى رأسـها.

حـاول حمـد أن يلتقـط نظرتهـا، ولكنهـا كانـت تُركّـز عينيهـا عـلى الأرض. حـاول مـرّة أُخـرى أن يسـتميلها، لكنهـا حرّكـت رأسـها باتجـاه السـقف. لم يلمسـها، فقـط حـرّك جسـمه حولهـا مثـل قطـة تحـاصر فـأراً في الزاويـة. كان يُريـد أن يلتقـط عينيهـا، ويُصيبهـما بعـدوى الإلحـاح الـذي كانـت تعـرف أنـه يـضرب عنيفـاً في عينيـه. لم تسـمح نـورة بذلـك.

أغلقت نورة عينيها بشدة، وعندما بدأ بالكلام ثانية، أخذت همهمتها تعلو وبدأت تدير شحمتي أُذنيها فوق أُذنيها مراراً وتكراراً، ونحو الأعلى والأسفل، إلى أن أصبح كل ما تستطيع سماعه هو دفقاً يصمّ الآذان لماء أغرق كل التوسلات، كل البوح، كل الاعتراضات التي كان حمد يقوم بها.

شعرت أن عنادها يُشبه عناد طفل مُدلل، ولكنها لم تهتم. كان على حمد أن يفهم أنه يجب أن يُغادر، أن قرارها قد تم اتخاذه، أنها لم تكن ذاهبة معه.

ثم ساد الغرفة صمت مُطبق.

تضاءلت همهمتها لتصبح أنيناً، وفصلت أُذنيها. عندما فتحت نورة عينيها، وجدت حمداً متكئاً بجانب النافذة، مواجهاً لها ولكن لا ينظر إليها. كان الجنون المُتقد قد اختفى وحل محله شعور بالهزيمة المكفهرة. كان يمد يده إلى جيبه ويخرج الجِراب منه.

سارت نورة بضع خطوات حذرة باتجاهه. كان يتألّم، كان يمكنها رؤيته يتألّم. كان الألم قد امتص كامل وجهه وحوله إلى عقدة. تخيّلت وجود حبل قديم يربط كل شيء في مكانه، ويُبقي جلده مشدوداً، حبل بالٍ يُمكن أن ينقطع في أية لحظة.

لم يتكلّم، فقط فتح يده ورآها تحدّق في عنقود اللآلئ.

«أعتقد أن هذا هو القرار الأفضل»، قالت نورة، وهي

تشعر فجـأة بأنهـا بائسـة. «لقـد ارتكبنـا أخطـاء بـما فيـه الكفايـة. وارتـكاب خطـأ أخـر لـن يُصلـح الأمـر، سـيكون مـن السـهل عليـك إعادتهـا».

بعـد ذلـك، ينقطـع ذلـك الحبـل القديـم البـالي، الحبـل الـذي تخيّلـت أنـه يُمسـك وجهـه في مكانـه. خبـط حمـد بقدمـه عـلى الأرض، وقـذف باللآلـئ عـلى صدرهـا «أعيديهـا أنـت إلى مكانهـا»!

أُجفِلـت نـورة. سـمعت فقـط الهديـر في صوتـه، أحسّـت فقـط بالهـواء الخفيـف الـذي خلفـه وراءه أثنـاء مـروره بجانبهـا كالعاصفـة، سـمعت فقـط خبطـات قدميـه عندمـا كان يخطـو خـارج الغرفـة.

بعدهـا، التقطـت نـورة أصـوات الطقطقـات اللعـوب لحبـات اللؤلـؤ المُتسـاقطة بينـما كانـت تتقافـز وتتقافـز عـلى الأرض قبـل أن تتدحـرج.

الفصل الثالث والأربعون

لم يُحاول حمد أن يراها ثانية. خرج من غرفتها غاضباً وتركها مع معضلة إعادة اللآلئ. مرّ أسبوعان كاملان، ومع بقائها في محبسها الاستبداديّ في غرفتها، لم تتمكن نورة من صياغة خطة عن كيفيّة تنفيذ ذلك.

دسّت يدها تحت الفراش وسحبت الجِراب. فكّت العقدة وبدأت بعدها ثانية.

وحالما تأكدت من أنها كُلها هُناك، السبعة والثلاثون كُلها، ربطت الجِراب ثانية وأعادته إلى تحت السرير قبل أن تبدأ بالتفتيش.

فتّشت نورة الغرفة، وهي تُضيّق عينيها عند الزوايا المُعتمة. كان طقساً تتبعه يومياً، عندما تكون متأكدة أنها ستكون وحدها في الغرفة. لقد كانت تلك اللآلئ زلقة كالديدان. ومنذ أن رمى حمد بها في وجهها، أخذت تحاول جمعها بدأبٍ كل يوم. وحتى الآن، فقد استمرّت اللآلئ في تعذيبها، فمازالت تستمر في الظهور.

انحنت نـورة عـلى ركبتيهـا ومـدت يدهـا في ضربـات نيّقـة عـلى طـول موجـة حصـيرة خـوص النخيـل، ناقفـة بطـرف إصبعهـا عـلى كل منبـت عقـدة أو شـق في تلـك الموجـة. كان بطنهـا يجتـذب عمودهـا الفقـري، ثقيـلاً كقربـة المـاء الممتلئـة التـي اعتـادت أن تنـوء بحملهـا سـابقاً.

كانـت عـلى وشـك أن تسـند بطنهـا عندمـا لمحـت واحـدةً: لؤلؤة متمـردة تقبـع بسـكون في فجـوة عنـد قاعـدة سـاق السرير.

كانـت تُهـوي إليهـا بيدهـا لتلتقطهـا عندمـا انفتـح بـاب الغرفـة فجـأة واندفعـت ياقوتـة إلى الداخـل. «أنـت كبـيرة بـما يكفـي، أنـت آمِنـة بـما يكفـي»! صاحـت ياقوتـة، وهـي تطـوح بذراعيهـا في الهـواء. «أخـيراً»!

«ماذا»؟

«حـرّة، حـرّة»، قالـت ياقوتـة، ورجعـت خطـوة إلى الـوراء وهـي تتعثّـر. «مـا الـذي تفعلينـه هنـاك في الأسـفل»؟

كانـت المـرّة الأولى التـي يتـم فيهـا ضبـط نـورة وهـي عـلى أربـع، كان رأسـها محنيـاً باتجـاه الأرض، كان وركاهـا مُرتفعـين في الهـواء، كقطـة عـلى وشـك أن تفـرك رائحتهـا عـلى جـذع شـجرة. نهضـت نـورة مسرعـة، وقالـت مسـتاءةً: «لمـاذا لا تطرقـين عـلى البـاب؟ لمـاذا عليـك دائـماً أن تصرخـي وتزعقـي؟ مـاذا لـو كُنـتُ نائِمـة»؟ كانـت نـورة تسـتاء مـن ولـوج ياقوتـة المُفاجـئ إلى غرفتهـا بشـكل دائِـم متـى شـاءت.

«لكنني أحمل أخباراً»، قالت ياقوتة بإصرار.

«حسناً، يُمكن لهذه الأخبار أن تنتظر حتى أنتهي»، قالت نورة، وهي تنحني لتنهض وتلتقط اللؤلؤة في حركة انقضاض رشيقة واحدة.

«حسناً»، قالت ياقوتة، «إذا كنت ستعاملينني بهذا الشكل، فلن أُخبرك».

وبينما كانت نورة تهز الطيّات في ثوبها، تظاهرت بأنها لم تلاحظ ياقوتة المُكتئبة. لا يلزم الكثير لفعله للتسبب في حرد هذه العبدة. لقد انتفخ كل معلم من معالمها. ومن زوايا عينيها، كان بإمكان نورة أن ترى شفاه ياقوتة المنانة تكبر لتصبح قريبة من حد الانفجار تحت أنفها العريض في موقف حردٍ عاتٍ بدا واضحاً في عينيها المتورمتين. لكن نورة كانت تعرف أيضاً أنها يُمكنها ان تُغيّر كل ذلك وبسرعة. بعد حمل نورة، أصبحت ياقوتة أكثر تقبلاً لها، بل وتواقة للتقرّب منها مرّة أُخرى.

كل ما كان على نورة أن تفعله هو إظهار القليل من التعاطف والتقدير.

«فضلٌ منك أنك أتيت، ولكنني أريد بعض الهدوء أحياناً»، قالت نورة. «وأنا أحب أن أجثو على ركبتيّ أحياناً وأتمطط وأتمطط وأتمطط». ومدت نورة ذراعيها نحو السقف. «أنت لا تعرفين كيف هي الحال مع كل هذا الثقل الذي يتدلّى مني،

آهـ، آهـ، آهـ». وفركـت نـورة عـلى بطنهـا وقلّصـت عضـلات وجههـا للمبالغـة في انزعاجهـا.

زفرت ياقوتة، وانكمشت كل ملامحها إلى مكانها السابق.

ابتسـمت نـورة للنتيجـة التـي حصلـت عليهـا. كان الأمـر برمته جـزءاً مـن قـرار اتخذتـه أخـيراً للتغلّـب وبشـكل آمِـن عـلى أي اضطـراب قـد يعكـر صفـو الهـدوء في المنـزل، ويتمثّـل في: اعـرف مـن حولـك. لقـد قـررت أن تكـون ذكيـة وأن تـزن مـا تقولـه وكيـف تقولـه.

سـوف تسـمح لياقوتـة بـأن تدخـل وتخـرج في حياتهـا اليوميـة، سـوف تسـمح لياقوتـة بـأن تفكـر أنهـما صديقتـان مُقربتـان. ولكنهـا سـوف تكـون حـذرة ومحتاطـة في علاقتهـما. مـرّة، وليـس منـذ أمـد بعيـد، انقلبـت ياقوتـة نكـدةً تجاهها، وهددتهـا بأنهـا سـوف تتلاعب بأمـور تمـس أمنهـا. وقـد أقسـمت نـورة منـذ ذلـك الوقـت بأنهـا لـن تـدع هـذا الأمـر يحـدث ثانيـة.

«حسناً، ما الأمر»؟ سألت نورة.

أشرقـت عينـا ياقوتـة. «الأمـور كلهـا جيـدة»، قالـت ياقوتـة. «تسـتطيعين أن تخرجـي الآن. طلبـت منـي أمـي لطيفـة أن أخـبرك أن الخطـر قـد زال عنـك وأنـك تسـتطيعين التطـواف في المنـزل متـى شـئت».

وأخـيراً، سـوف أكـون قـادرة عـلى إعـادة اللآلـئ، كان هـذا

أول فكـرة خطـرت لنـورة. ولكنهـا لم تكـن قـادرة عـلى أن تُظهِـر ارتياحهـا. لذلـك، تثاءبـت وسـألت: «خطـر»؟

«خطـر أن تفقـدي الطفـل»، قالـت ياقوتـة، وهـي تضرب رأسـها براحـة يدهـا. «هـل أحتـاج أن أشرح لـك كل شيء؟ ألا تعرفـين أن الأمـر خطـير في الأشـهر الأولى؟ تفقـد الأمهـات أطفالهـا طـوال الوقـت في الأشـهر الأولى، ولهـذا السـبب لم يكُـن يُسـمح لـك بالحركـة كثـيراً».

«أهـ»؟ رفعت نورة جبينها. «هل لهذا السبب»؟

«بالطبـع، إنـه الوقـت الـذي يُقـرر فيـه الجسـم مـا إذا كان يُريـد الطفـل أم لا».

«أممممم».

«حسـناً»، قالـت ياقوتـة. هـل سـنذهب ونُلقـي نظـرة عـلى مـا يوجـد خـارج هـذا البـاب، نُشـاهد القريـة»؟

كانـت نـورة عـلى وشـك الإيـماء بالموافقـة، عـلى وشـك أن تقفـز بتهـاون ولامبـالاة باتجـاه البـاب، عندمـا غـاص صفـاء حزيـن في قدميهـا، أبقاهـا مُتجـذرة في مكانهـا. يجب أن تكـوني أذكـى، فكـرت نـورة لنفسـها وتثاءبـت ثانيـة لتقمـع اندفاعهـا.

بـدا وكأنهـا كانـت دائـماً تسـترق النظـر للحيـاة. في موطنهـا الأول في الجبـال، التقطـت أولى نظراتهـا لراشـد من خـلال الثغـرات في بيت مـوزة الحجـريّ، وكعـروس، شـاهدت أخاهـا صقـراً، مـن خـلال

فتحات البرقع عندما استدار مبتعداً عنها، رافضاً توسلاتها الأخيرة، وعلى ظهر ذلك المركب الذي حملها إلى وديمة، استرقت النظر من خلال الشق في الملاءة الفاصلة إلى حمد، الذي تحمل جنينه الآن في أحشائها. بعدها، كانت هُناك كل الأوقات الأخرى التي التقطت فيها الحياة من خلال إمعان النظر عبر النوافذ والأبواب، مُبيحة لها أن تؤثر في حياتها الخاصة: مزاج الأرباب، ونوبات غضب شمسة، وتحرّكات لطيفة في المنزل، كل تلك اللمحات أرسلت رعشات عن مستقبل مُلتَبِس عبر أوصالها. هذا يكفي، قررت نورة.

«أو ربما يُمكننا أن ننسل إلى مجلس الرجال ونراقب الصيادين يسحبون صيدهم»، قالت ياقوتة، والشيطنة تنتفض على أطراف فمها. «وماذا عن الذهاب إلى الشاطئ، وأن نرش بعضنا بالماء؟ أتذكرين»؟

لا! هي لن تنضم لياقوتة. ستبقى حيث هي وتضع خطة لشكل حياتها. لقد حان الوقت لفعل ذلك.

«حسناً، ماذا تظنين»؟

«لا أعرف»، قالت نورة. «الجو هادئ جداً هُنا، ساكِنٌ جداً».

زفرت نورة تنهيدة عَرَضية. «كلا، أعتقد أنني سأبقى في غرفتي فقط ... أخيط ... وربما أستلقي قليلاً».

بعد أسبوع، وصل المطر الذي طال انتظاره. ضربت الرياح العاتية حبات المطر الكبيرة بشكل جانبيّ، والتي بدورها لطخت جدران المنزل وهطلت وابلاً من الأشكال المستطيلة على الرمل التي بدت وكأنها آثار أقدام صغيرة لساق عرجاء.

أودعت نورة رأسها بين قضبان النافذة وسمحت لقطرات المطر الهاطلة أن ترش وجهها. وعلى الرغم من أنّ المطر تأخر عن موعده، فقد كان كافياً لتهدئة الرمل في فناء المنزل، كافياً ليغسل الغبار عن شجرة السدر ويشطف جدران المنزل. كانت دفقة المطر قصيرة، ولكنها كانت كافية لتحول وجوه جاسم، ولطيفة، وياقوتة إلى ما يشبهه تكشيرة وجوه القطط وهم يُشاهدون المطر من تحت القنطرة.

التقطت نورة كل ذلك من خلال نافذتها، حيث إنها بقيت ملتزمة بقرارها الذي اتخذته: ستغادر غرفتها عندما تُقرر هي ذلك. طوال الوقت، كانت هي المعزاة التي تقودها لطيفة. والآن هي مُصممة لتغيير ذلك.

ولمدة أسبوع كامل، ومُنذ أعلنت ياقوتة أن الخطر زال عنها، استجمعت نورة كُل التعنّت الذي لديها وحولته إلى قوّة. لقد كان عرض شجاعتها، لقد كان انتصارها الخاص.

أطلقت ياقوتة صرخة ثاقبة وقفزت إلى وسط الفناء. كانت تضع يديها أمام صدرها، وبدأت تدير رأسها على شكل دوائر تسبب الدُوار. تعلّق المطر بشعرها مثل قطرات الندى بينما انزلقت شيلتها إلى كتفيها.

ومع مُشاهدتها لاسترسال الفتاة العبدة على هذا النحو، لم تشعر نحوها بالحسد. بينما تستطيع ياقوتة أن تتصرّف كطفلة، فقد قررت نورة أنها لا تستطيع ذلك. كان هناك طفل ينمو داخلها، وستلد ذلك الطفل قريباً. كان بإمكانها أن تشعر باقتراب يوم الولادة، حيث يستمر بطنها في النمو والتمدد. الأُمهات يتصرفن بشكل مُختلف. الأُمهات لديهن مسؤوليات.

بقي جاسم ولطيفة تحت القنطرة يُشاهدان رقصة ياقوتة المسعورة. كانا يبتسمان ويتجاذبان أطراف الحديث مع بعضهما بهدوء. نظرت إليهم نورة لبرهة قبل أن تُغمض عينيها في وجه قطرات المطر الهاطلة. لقد جلب المطر معه التجدد. لقد جلب معه الطهارة. لقد غسل ذنوب الماضي. سيجعل المطر حياتها أفضل.

اخترق شعاع من الضوء الغيوم وانتشر على وجه نورة. وعندما فتحت عينيها، كانت ياقوتة قد أخذت تُبطئ من حركتها مع اضمحلال قطرات المطر، مُتعثّرةً بخطوات صغيرة عشوائية بينما كانت تحاول الوقوف ثابتة في عالمها الذي يدور. ثم توقّف المطر. سقطت ياقوتة على الأرض واستسلمت للسماء الدوارة.

وكان هناك طفل نورة، الذي كان يدور داخل بطنها المُتصلّد. لقد التوى وتمطى، بكسل مثل قطرة من العسل الكثيف. ومع كل حركة من حركاته، كانت نورة مُقتنعة أنه ينحت رابطاً بينهما؛ كان يُخبرها أنهما شيء واحد.

ثم ركل الطفل. صاحت نورة وهي مُبتهجة.

الفصل الرابع والأربعون

أتـى المطـر وذهـب المطـر. كان سريعـاً، ولكـن وبطريقـة مـا، ومن خـلال تلـك النوبـة القصـيرة الثمينـة، فقـد زرع بعـض الجسـارة في نـورة. طـال تأثـير المطـر، حيث بقيـت نـورة ثابتـة عـلى قرارهـا لمـدة ثلاثـة أيـام أُخـرى، بعدهـا، قـررت أنـه قـد حـان الوقـت لتثبـت وجهـة نظرهـا. دفعـت البـاب وفتحتـه واندفعـت كنسـمة إلى وسـط الفنـاء. كانـت تتـوق إلى دفء الشـمس، وطوّحـت رأسـها عاليـاً باتجـاه السـماء، مُحدّقـة في الخضـاب الأزرق الـذي كان يتقـدم بتـأنٍّ في ضـوء الصبـاح الباكـر.

«إنـه يـومٌ ذو صبـاح مُـشرق، مـا شـاء الله، ضـوء صـافٍ بعـد ذلـك المطـر البهيـج». أتـى صـوت لطيفـة مـن أحـد جوانـب المنزل. لم تكُـن نـورة قـد لاحظـت وجودهـا. اسـتدارت ورأت لطيفة تجلس في الظـل النيـليّ للقنطـرة الـذي امتـد فـوق المطبـخ ومجلـس العائلـة. «لقـد رأيتـك تختلسـين النظـر مـن خـلال النافـذة لمشـاهدة المطـر»، تابعـت لطيفـة. «لمـاذا لم تـأتي وتنضمـي إلينـا»؟

«كُنت خائفة من أن أُصاب بالزكام»، قالت نورة.

«كلا، لم يكُن ليحدث ذلك لو وقفت تحت القنطرة بجانبي، آمنة وجافة»، كان هُناك طبق معدني كبير مليء بحبيات الأرز المُغبر. «تعالي، تعالي»، قالت لطيفة، وهي تضرب على الحصيرة المصنوعة من سعف النخيل. «اجلسي بجانبي بينما أقوم بتنظيف الأرز».

عَرَجت نورة باتجاه لطيفة، وبحركة سريعة هبطت جالسة على رُكبتين مطويتين.

«لا، لا»، قالت لطيفة. «لا تنحني للأسفل بسرعة كبيرة، إذا ما جلست بهذه الوضعية فإن كل الدم سيحتبس وراء رُكبتيك. دعي الدم يتحرك بحرية». وهزت الهواء بيد ميّاسة.

ذلك الإلحاح المتواصل! أسلوب لطيفة كان يعتمد على التقريع اللطيف، من خلال لمسة حريرية ناعمة. ومع ذلك كان على نورة أن تأخذ نفساً عميقاً لتهدئ من حدة خيبتها التي أحالت خديها للون الأحمر. أرادت أن تعبس بوجهها وتمد لها لسانها. ولكنها لن تتصرف بحماقة. في النهاية كانت نورة قد قررت أن تكون ذكية؛ لذلك أرخت ساقيها وبسطتهما على الأرض.

عادت لطيفة إلى الأرز، تفصل الحصيات السوداء الصغيرة وكتل التراب عن حبيبات الأرز، التي كانت تحركها إلى أحد جوانب الطبق بضربات سريعة من سبابتها. «علينا أن نتأكد من التخلص منها كلها قبل طبخ الأرز»، قالت لطيفة، وهي

تتوقف عن العمل مُقطبة بوجه نورة. «وإلا، فإن مضغة واحدة قاسية ستعني نهاية أسناني».

تلك كانت دعوة لنورة لتنضم إليها في هذا العمل الروتيني الهادئ الذي تقوم به عادة الأم والابنة. أم كان عملاً تقوم به الزوجات؟ أياً كان نوع العمل، فإن نورة لن تقوم بالمشاركة فيه. عوضاً عن ذلك، فقد اتكأت إلى الخلف مُستندة على مرفقيها وأمالت رأسها إلى الجانب. بعدها، وبنظرة باردة جداً لأفعى كسولة، أخذت تُحدّق بلطيفة.

أعادت «المسنَّة» اهتمامها نحو طبق الأرز أمامها، حيث أخذت عيناها تستقران في أقواسٍ ساكنة. كان هُناك طمأنينة في وجهها، سلامٌ رصينٌ يأتي مع السلطة غير المشكوك فيها. بدا أن كل شيء يسير حسب طريقتها.

كلما أدامت نورة النظر إليها، زادت رغبتها في هزها، في بلبلة ثقتها بنفسها. «أتعرفين، أنت تقلقين كثيراً، أمي لطيفة»، قالت نورة. «كل ذلك الوقت، وأنت تأتين وتدلليني، ولكن كل شيء على ما يُرام. ما شاء الله، لقد كُنت آكل الدجاج الذي كُنت تُحضرينه لي كل يوم. لقد كُنت أشرب الحليب. لقد كُنت أرتاح. الطفل ينمو بشكل ممتاز. أنا مُمتازة. إنّ بطني قوي كطبل». وضربت على بطنها. «باختصار، لا يوجد ما يدعو للخوف».

قالت لطيفة: « أيّ شيء أقوله لك هو لمصلحتك أنت، لحمايتك أنت. يجب أن تكوني قد أصبحت تعرفين هذا الآن».

«ولكـن الخطـر قـد زال، أتذكريـن»؟ كان لسـان نـورة يطفـحُ سـخريةً. «أليس هـذا مـا قُلتيـه لياقوتـة؟ أليس لهـذا السبب أسـتطيع أن أغـادر غرفتـي الآن لأطـوف حيثـما أُريـد؟ لقـد زال الخطـر، ولكـن ربـما هُنـاك خطـر مـن نـوع آخـر يجب أن أحـترس منـه»؟

«لقـد زال الخطـر، لقـد زال الخطـر»، بـدأت المـرأة العجـوز تتمتـم تحت صـوت تنفسـها الـذي قادهـا أخـيراً لتبتسـم في سرّهـا. لقـد كُنـتِ دائـماً شـخصاً يطفَـح بالمغامـرة. لقـد رأيـت فيـك ذلـك منـذ البدايـة». أومـأت برأسـها وضربـت طـرف البرقـع. «كان كُل شيء في عينيــك».

«المُغامرة؟ هل ذلك ما رأيتيه في عينيّ»؟

«ذلك... وأشياء أُخرى».

كان هُنـاك مسـحة مـن المـرارة عـلى لسـان نـورة، وكان طعمهـا يبـدو كطعـم الشـاي القديـم. «أهــ؟ ومـاذا أمكنـك أن تـري أيضـاً في عينـيّ»؟ قالـت نـورة.

لم تنظـر لطيفـة للأعـلى. أبقـت عينيهـا ثابتتـين عـلى الأرز الـذي كومتـه عـلى شـكل تلّـة. «الاخـضرار الكثيـف لتانيـك العينـين، أهـ، إنهـما تُخبئـان الكثـير، الأمـر شـبيه تمامـاً بعمليـة غـلي السـكر. عندمـا تغلـين السـكر يُصبـح كثيفـاً ودبقـاً بحيـث لا يعـود يُمكنـك رؤيـة الحبيبـات الصغـيرة. بالطبـع السـكر لا يـزال موجـوداً، ولا يـزال حلـواً. ولكنـه فقـط تـم ابتلاعـه بواسـطة»، وتوقفـت، وانكمـش

جبينها بينما كانت تبحث عن الكلمة الصحيحة، «الشيء الجديد... نعم، السكر عندما يغلي يصبح كثيفاً، سيبدو مختلفاً ولكنه لا يزال هو نفسه». أومأت برأسها بخفّة، وأضاءت عيناها في نوع من التهنئة الذاتية الصامتة.

لم تكُن نورة في مزاج يسمح لها باستيعاب صور لطيفة المُنمّقة والتي كانت تدور في دوائِر. «الكثير من السكر يُمكن أن يُسبب لك الأذى». وتركت طرف لسانها يستريح بين أسنانها. كانت جاهزة للدغ.

ضحكت لطيفة ثانيةً. «ها ها ها، أنت تمتلكين الجموح داخلك يا فتاة. ولكنني سأعمل على ترويضك». نظرت إلى نورة. «قد يستغرق الأمر بعض الوقت، ولكن وفي النهاية ستصبحين حلوة مثل العسل».

كانت تتكلم بأسلوبها المُعتاد: رقة بتلة الوردة، مع لمسة الشوكة على الساق.

«لم تُخبريني ماذا رأيت في عينيّ»، قالت نورة بإصرار.

«حسناً، لست متأكدة كيف أجيب عن هذا السؤال. سأصفه لك لو استطعت؛ ولكنني رأيت التململ، وبعض التهوّر، وأشياء أُخرى؛ نعم لقد رأيت كل شيء، كل ما كُنتِ قادرة على فعله».

تحرّكت سورة الغضب داخل نورة مثل فقاعات هائجة

في قـدر مـاء يغـلي، وهـو مـا منعهـا مـن الانكـماش تحـت قطـرات كلـمات لطيفـة المُختـارة بعنايـة. لقـد تبخّـر كل خوفهـا ممـا يُمكـن أن تبـوح بـه لطيفـة. جلسـت نـورة، فتحـت شـفاهها وبـدأت الكلـمات تنسـاب منـه: «هـل تتحدثـين عـن موضـوع حمـلي»؟

لم تكُـن «المسـنَّة» لتتكلّـم أكثـر، كانـت فقـط تُعيـد أيّ حبيبـات هاربـة إلى كومـة الأرز الآخـذة في الارتفـاع.

«حملي، هل تتحدثين عن هذا الأمر»؟ قالت نورة بإلحاح.

توقفـت «المسـنَّة» لبرهـة ونظـرت للأعـلى. كانـت نظـرة مُختـصرة ولكنهـا تحمـل في جنباتهـا قـوة صفـع البـاب عنـد إغلاقـه. عندهـا فهمـت نـورة.

كان ذلـك هـو التأكيـد الـذي كانـت تبحـث عنـه؛ لقـد سـبب لهـا القشـعريرة في جسـدها. لم يكُـن هُنـاك المزيـد ليُقـال. أرادت أن تركـض عائـدة إلى غرفتهـا. أرادت أن ترتمـي عـلى سريرهـا وتدفـن وجههـا بـين ذراعيهـا، وأن تبكـي وتبكـي وتبكـي. لقـد تطلـب منهـا اسـتهلاك كل قوتهـا لتقـاوم هـذا الدافِـع. في النهايـة، قـررت أن تكـون قويـة.

ومـع ابتـلاع ريقهـا بصعوبـة، بقيـت نـورة حيـث كانـت، مسـتندة باسـتقامة عـلى ظهرهـا، تشـعر فقـط باختلاجـة بسـيطة عنـد حافـة فمهـا. كان السـكون بينهـما ثقيـلاً، قطعـه فقـط دقـات وأصـوات احتـكاكات إصبـع لطيفـة وهـي ترمـي الأوسـاخ عـن الأرز.

أخيراً، تكلّمت لطيفة. «مع وجود الجميع خارج المنزل اليوم فالجو هادئ جداً. جاسم في المتجر في ليما، شمسة غادرت، وياقوتة، حتّى تلك الحمقاء اختفت». أمالت رأسها نحو مجلس الرجال. «لا بد أنها هُناك، تجلس على الشاطئ بتكاسل». تنهدت لطيفة. «الجميع في الخارج أو إنه غادر». كانت تُحاول جهدها أن تُعيد الأرز إلى كومته. «في الخارج أو غادر». وعندما استمرت الحبيبات بالتساقط، مستنكفة عن أن تُشكل قمة لتلك الكومة، مهدتهم بضربة من يدها. «حتى حمد، غادر أيضاً».

وفي اللحظة التي شعرت فيها نورة أنها استعادت توازنها، قامت لطيفة بتكديرها مرّة أُخرى.

«غادرَ»، كررتها لطيفة. «ذَهَب»!

أحسّت نورة بشفاهها ترتعش نتيجة ضعفها. ومع ذلك، فقد أبقت نفسها قوية، لم تقل شيئاً من أجل ألاّ تقع فيما بدا أنه فخ ثانٍ.

«ألا ترغبين في معرفة إلى أين ذهب»؟ سألت لطيفة.

كان صريف صوتها حاداً كمنشار يقطع الخشب.

«كلا»، أجابت نورة، سريعاً قليلاً بعض الشيء، تماماً مثلما ترغب.

«ولِمَ أهتم»؟

ولكن لطيفة أخبرتها بكل حال. «لقد غادر إلى الهند، حجز

لنفسه رحلة وبووووو»! ونفخت لطيفة الكلمة الأخيرة، وكأن حمداً كان إعصاراً عاصفاً هبّ على المنزل وغادره ثانيةً. «لا أعرف ما الذي يُخطط لعمله هذا الأحمق. لقد أتى والده وأخبر زوجنا بأنه سوف يذهب ليجد عملاً في مكان آخر». قالت بسخرية. «إنه صبيّ جاحد، حتى إنه لم يُعلمنا بنفسه، حتى إنه لم يأت ليودعنا. وذلك بعد كل ما قدمناه له». رفعت إصبعها كما الأب يُقرّع ابنه. «ولكن انتظري فقط. سوف يعود ويتوسل ليعمل، ونحن لن نقبله». قالتها وهي تضحك بفتور.

«سينتهي به المطاف يعمل حمالاً في ليما، احمل هذه، احمل تلك. وحينها قد يُجنّ من شدة الجوع ويُصبح مثل ذلك المتسول المُريع، أتذكرينه، كل تلك الأوساخ والأمراض التي تغطي وجهه؟ والرأس يدور يدور من الجنون؟ ممم...» أومأت برأسها، حيث كان من الواضح شعورها بالرضا لتلك الحياة التي رسمتها للتو لحمد. «بالطبع، الأمر غير مهم أليس كذلك».

«بالطبع، الأمر غير مهم»، أكدت نورا، وهي متفاجئة كيف كان صوتها يبدو. ومع هذه الجاهزية المُتجددة، فقد استدارت نحو الطبق وقالت: «دعيني أُساعدك، هكذا ستنتهين أسرع».

«أههه...» عبّرت لطيفة عن ابتهاجها وأمالت رأسها إلى الجانب. «العمل معاً، هذا ما يصنع منزلاً منسجماً. كان هذا أمراً آخر رأيته في عينيك: الذكاء». أطلقت بعدها ابتسامة

فياضة لدرجة رفعت معها ارتخاء ذقنها. «أعتقد أننا يجب أن نُغادر هذا المنزل لبُرهة، أن نقوم ببعض الزيارات. من المؤكد أنّ بطنك كبير بما فيه الكفاية ليقاوم أيّ عيون غيورة يمكن أن تقع عليه. ما قولك حيال هذا الأمر»؟

«إذا كُنت تعتقدين أن الأمر مُناسب، فأنا موافقة».

«أنا أعتقد، أنا حقيقةً أعتقد ذلك»، قالت لطيفة. «لم لا نذهب غداً لزيارة صديقتي عذيجة. سيكون من المفيد لك أن تخرجي قليلاً. يُمكننا أن نذهب معاً وأن نأخذ ياقوتة معنا أيضاً. سيكون هذا الأمر رائعاً، أليس كذلك»؟

أومأت نورة برأسها وفكرت باللآلئ التي مازال يتوجب عليها أن تُعيدها. «سيكون الأمر رائعاً جداً»، قالت نورة.

الفصل الخامس والأربعون

كان عليها أن تنهض، أن تركض إلى غرفة جاسم، وأن تُعيد تلك اللآلئ حالما غادرت لطيفة وياقوتة.. ولكن وعوضاً عن ذلك، بقيت نورة مُستلقية في سريرها مُدعيةً الإرهاق، وهو كان عُذرها الذي اختلقته لعدم الانضمام لهما. ولفترة طويلة، بعد تلاشي أصواتهما في شوارع وديمة، بقيت في مكانها إلى أن غفت ودخلت في حلم تطابق الخُطا مع لطيفة.

كانت خلف لطيفة، تجول معها عبر بحر من الرمال. وبين الحين والآخر، كانت «المسنَّة» تنظر من فوق كتفها بعيون نصف مغمضة، وكأنها كانت تتأكد أن نورة تتابع اللحاق بها. كان هناك ابتسامة، أيضاً؛ كانت ابتسامة متحفظة، ومع ذلك كانت مملوءة بثقة لطيفة التقليدية بنفسها.

خطوة حذرة وراء أخرى، كانت تمشي لطيفة، كانت أقدامها تترك وراءها أثر أقدام لنورة من أجل أن تدوس عليها. أهـ لتلك الأقدام، الدائرية والسمينة، التي تقودها. وكان هناك

أقـدام نـورة، طويلـة ودقيقـة كخطـم ثعلـب، كانـت تـدوس عـلى أثـر أقـدام لطيفـة، خطـوة حمقـاء واحـدة كل مـرّة.

اسـتيقظت نـورة عـلى صـوت المـؤذّن وهـي تتصبـب عرقـاً، مُلتصقـةً بالفـراش. قاومـت الخـدر الـذي أثقـل أسـفل أطرافهـا بينـما كانـت في طريقهـا إلى الحـمام. جثمـت بجانـب الكـوز الفخـاري، وشرعـت بصـب المـاء فـوق يديهـا، ثـلاث مـرات عـلى اليـد اليُمنـى وثلاثـاً أُخـرى عـلى اليُـسرى. كانـت حركاتهـا بطيئـة وغـير متناسـقة بينـما كانـت تتوضـأ لصـلاة العـصر. أمّـا رشـقات المـاء البـارد الثلاث عـلى وجههـا فقـد تقاطـرت نحـو ذقنهـا ووصلـت إلى ثوبهـا.

يـا للطيفـة الغـادرة! والتـي بالـكاد هـي الأم الحنـون التـي تدعـي أنهـا كذلـك. كان السـم الكامـن في لسـانها يختبـئ دائـماً بـين الكلـمات الحلـوة والجمـل غـير المنتهيـة. خلّفـت الفكـرة طعـماً قبيحـاً في فـم نـورة، وكأنهـا كانـت تمضـغ صحنـاً مـن ثريـد الـرز والبصـل والسـمك والمـوز كلهـا مـع بعضهـا البعـض في لقمـة واحـدة. بصقـت نـورة وغسـلت فمهـا، ثـلاث مـرات.

وبعـد ذلـك كان حمـد، الـذي غـادر، تسـاءلت نـورة كيـف مـن الممكـن أن يشـعر المـرء بالوحـدة والارتيـاح في وقـت واحـد. أطلقـت نـورة زفـرة ضجـرة وبـدأت بصـب المـاء في آخـر ثـلاث مراحـل مـن الوضـوء عـلى قدميهـا اسـتعداداً للصـلاة: اليُمنـى أولاً، ثـم اليُـسرى.

أمسكت نورة بلمحة لظلها الطويل خلفها، يدفعها، وهي تشق طريقها إلى الباب وتدفعه ليفتح. كان الشارع فارغاً ما عدا الأصوات المألوفة التي تسرّبت عبر بيوت العريش: أصوات النساء المكتومة، بكاء رضيع أو اثنين، جلجلة القدور والمقالي، وتلك القطة اللجوجة التي تعوي سائبة في نفس الشارع الخفيّ.

خرجت واتجهت ببصرها نحو البحر. كان هُناك فتيات وصبية وديمة الصغار، يفعلون ما اعتادوا فعله في فترة ما بعد العصر من كل يوم. وبينما كانت تراقبهم يقفزون ويدورون، يسقطون ويركضون على الشاطئ، كانت الرفرفات والصرخات المفاجئة لسرب من النوارس، تطير فوق رأسها على ارتفاع خفيض، هي ما جعلها تشرع في العمل.

تبعتهم عيناها بينما كانت تطير باتجاه البحر. حينها، شاهدت الشمس تجمع آخر أشعة النهار وتعيدها إلى شكلها الدائريّ. عاجلاً، سوف تغوص الشمس في الأُفق.

صفعتها الحاجة للعجالة بشكل حاد كضربة سوط على الوجه، لقد أضاعت الكثير من الوقت. والآن بدأ ظلها يجرها بينما كانت تحث الخُطا مسرعة نحو غرفتها وسحبت جراب اللآلئ من تحت الفراش. من المطبخ، أخذت ممسحة قماشية كعذر مقبول أنها كانت تُنظف في حال ضبطها أيّاً كان، ودخلت غرفة جاسم.

وضعت اللآلئ على الأرض ونظرت للأعلى. كان الأمر سهلاً، هكذا اعتقدت. كانت المفاتيح في أعلى الخزانة، لذلك كل ما كان عليها فعله هو التقاط هذه المفاتيح، وفتح الخزانة والخزنة، ثم إعادتها لموضعها. الأمر بسيط.

طرحت الممسحة على الأرض ووضعت ثلاث تكايا، فوق بعضها البعض، بجانب الخزانة. وحالما أصبحت فوق أعلاهن، بدأ طفلها بالحراك وأنزلت يدها اليسرى إلى صرتها. بينما كانت يدها الأخرى تمسك بحافة الخزانة.

وعندما لم تتحسس وجود معدن المفاتيح، مدت يدها أبعد، وهي تكشط، وتمسد على نحو أعمى. ومع ذلك لا شيء.

رفعت نورة نفسها على أصابع قدميها لتلقي نظرة. لم تكن المفاتيح موجودة لا في الزوايا البعيدة للخزانة وليست مخبئة وراء الجِرار المزخرفة الموضوعة على كل جانب.

طردت الرعب الذي كان قد بدأ بإحكام قبضته عليها، وأطلقت عوضاً عنه جولة بحث محمومة، وهي طوال الوقت تلعن غباءها في تأخرها في إعادة اللآلئ. مدّت يديها إلى ما تحت الفراش، هزّت التكايا والوسائِد وفتّشت ما يوجد وراءها، قلبت زوايا السجادة، مع أشكالها المُسببة للدوار التي كانت مجدولة مع بعضها البعض. كل ما شعرت بوجوده هناك كان قماشاً، ونسيجاً، وحشوات. لذلك توقفت وألقت نظرة فاحصة على الغرفة بحثاً عن مواضع إخفاء أُخرى. كانت متأكدة أن المفاتيح قد جرى نقلها إلى مكان آخر لخداع اللصوص.

كان هُناك التجاويف الحائطية ذات الرفوف: وهي عبارة عن ثلاث قباب عريضة محفورة عميقاً في الجدار السميك المقابل للباب. كان يوجد فيها مختلف أنواع المزهريات والصحون المزخرفة. أزاحت كل قطعة منها بعناية، ولكن لم تكن المفاتيح موضوعة خلفها. وضعت نورة التكايا في الجنب الآخر من الغرفة وصنعت لنفسها برجاً آخر بحيث أمكنها أن تصل إلى الحواجز الجصية التزيينية فوق الباب والنوافذ. واحداً تلو الآخر، دست أصابعها في تجاويف ومنحوتات أُصص الأزهار والمربعات والمستطيلات التي كانت تشكل الحدود الهندسية. ومع ازدياد إحباطها، كانت كذلك تزداد الحركة في بطنها. كان طفلها يتمعّج ويلتوي كرمل ينسكب من يدٍ مُحكمة الإغلاق.

في النهاية، نزلت على الأرض. كان ضوء النهار يذوي، وعاجلاً كان يتحتّم عليها تشغيل الفانوس. كان عليها أن تُسرع إذا ما أرادت تفتيش غرفة لطيفة أيضاً. رتّبت غرفة جاسم بسرعة، وبينما كانت تنحني لتلتقط اللآلئ، ركل طفلها ركلة كبيرة فاجأتها وأجبرتها على الاتكاء بشدة على جانب الخزانة. سمعت الخزانة تأنّ تحت ثقلها. وسمعت شيئاً آخر، أيضاً، نقر معدن ينزلق.

استدارت عيناها من التشوّف، وبلمح البصر كانت تدفع الخزانة بكل ما أُوتيت من قوة. تزحزحت الخزانة قليلاً وانزلقت المفاتيح على الأرض.

التصق رأسها بجانب الخزانة بزاوية صعبة، بينما كانت يداها قد دخلتا في فراغ ما بين الخزانة والحائط.

شعرت نورة أن طفلها يسبح داخلها. تجاهلته، لم يكن هذا الوقت المناسب لتهدئة بهلوانياته. امتدت أصابعها بشكل متوتر. أمّا براجمها فقد تقصفت. أمسكت بالمفاتيح في النهاية.

حينها، سمعت نورة صوت ارتطام الخشب على الخشب. حبست أنفاسها وأصاخت السمع. هل كان ذلك صوت الباب وهو يُفتح؟

ومع وجود المفاتيح محبوسة في قبضتها، أسرعت لتسترق نظرة إلى الفناء. شعرت بالرضا أن باب المنزل لم يتحرّك، فعادت إلى الخزانة. ولكن طرقَ سمعها نفس الصوت ثانيةً: صرير الخشب. عادت ثانية، لتجد مرّة أُخرى أن باب المنزل مازال مُغلقاً. ارتابتها الحيرة لوهلة. إلى أن رأت بأم عينها. كان هُناك باب آخر يُفتح. حينها استحال قلبها إلى نوبة تشنج من الأجنحة المرفرفة.

كان ذلك جاسم يدفع باب المجلس ليُفتح. كان جاسم هناك يخطو إلى الفناء. كانت على وشك ان يُقبَض عليها، كانت على وشك أن توسم بأنها لصة. تعثّرت الأفكار في رأسها واحدةً تلو الأُخرى. كان جاسم سيرفع إصبعاً مُتجهّمة ويشير بها إليها لتخرج إلى الشارع.

لكن جاسماً لم يقم بذلك. كان جاسم يرفع قدمه ويخلع

صندلـه. كان يهـز الرمـل عـن حذائـه. والآن هـو يفعـل نفـس الـشيء مـع فـردة الصنـدل الأُخـرى. لم يرهـا جاسـم.

شـعرت أن المفاتيـح المعدنيـة قـد أضحـت سـاخنة، كأنهـا فحـم يـذوي، في قبضـة يدهـا مُحكمـة الإغـلاق.

كان عليها أن تُعيد اللآلئ، حالاً.

سـمعته يتهـادى ماشـياً عـبر الفنـاء بينـما كانـت تفتـح الخزانة. كان يُناديهـا عندمـا كانـت تفتـح الخزنـة، وخمّنـت أنـه قـد أصبـح بالقـرب مـن غرفتهـا. اسـتحالت أصابعهـا سـاخنة بينـما كانـت تفـك عُقـد جرابـات اللآلـئ مـع مُناداتـه عليهـا للمـرة الثانيـة. لـن تُجيـب نـداءه، سـتجيب فقـط عندمـا تُنجـز مهمتهـا. ومـن خـلال إتقـان غريـب في وسـط حالـة الرعـب التـي تعيشـها، أفرغـت اللآلـئ المسروقـة في جرابهـا الصحيـح وأقفلـت كلاً مـن الخزنـة والخزانـة.

كان قادمـاً. كان هنـاك حفيـف دشداشـته، الشـبيه بصـوت الريـح المـارّ عـبر شـجرة، بينـما كان يعـبر الفنـاء. أخـذ قلبها يـضرب بعنف. كان لا يـزال يتوجـب عليهـا إعـادة المفاتيـح إلى أعـلى الخزانة.

فُتِـح البـاب مـع صـوت نخـير جاسـم. وكانـت نـورة جاثيـة عـلى ركبتيهـا، كانـت أصابعهـا مدسوسـة في الممسـحة القماشـية، بينـما كانـت تفـرك أثـلام الكـروم المتفتحـة عـلى الخزانـة بعنـف حـوّل وجههـا إلى وجـه كالـح. كانـت مستعدة ومُسـلحة بمسـتودع مـن الأعـذار عـن سـبب وجودهـا في الغرفـة.

«مــاذا تفعلــين»؟ ســأل جاســم. كان هنــاك خريــر صدمــة وانزعــاج في صوتــه.

صوت حاد صرخ بالجواب في رأسها: «أُنَظِّف»!

ولكــن وبينــما اســتدارت لتنظــر إليــه، لم يعــد باســتطاعتها أن تنطق بــكل تلــك الأعــذار التــي خططــت لترميهــا في وجهــه. لقــد هربــت الكلــمات مــن لســانها مثــل رشّــة مــن المطــر الخفيــف حيــث شــعرت بيدهــا تضعــف وبالممســحة تســقط عــلى الأرض.

ثــم تجمــدت في مكانهــا. جثمــت في المــكان، كان إحساســها بالذنــب وضعفهــا قــد أبقياهــا متيبســة كجــذع شــجرة ذابلــة. الحركــة الوحيــدة أتــت مــن طفلهــا، وهــو يســبح بقــوة، مثــل موجــة مــن المــاء عــبر صخــور مرصوصــة بإحــكام.

«ألم تســمعيني أناديــك. ولِمَ تقومــين بأعــمال المنــزل وأنــت حامــل»؟ خطــا مُقترباً منهــا وحــدّق في الضــوء الخافــت. «انظــري إلى نفســك، مُحمــرّة وتتصببــين عرقــاً، وكأنّــك ذهبــت إلى البحــر وعُــدت راكضــةً».

لم يبــدر عنهــا أيّ رد فعــل لكــن كان عليهــا أن تتــصرف. كان جاســم عــلى وشــك أن يقــول المزيــد. هنــا نهضــت نــورة فجــأة وتوقــف هــو عــن الــكلام. بعدهــا، هجمــت عليــه بيدهــا، أمســكت يــده وأراحتهــا عــلى بطنهــا.

مُبــاشرة، حــاول أن يســحب يــده بعيــداً، لكــن نــورة أبقــت قبضتهــا مُحكمــة عليهــا إلى أن ركل الطفــل. حينهــا كان دور جاســم أن يتيبّــس في مكانــه.

كان هناك صدمة وتردد في وجهه المتوتر. نتأت حدقتا عينيه، وكأنهما على وشك أن تلتحما بعدستيّ نظارته.

«يُمكنك أن تمسح عليه»، قالت نورة، بأكثر ما تستطيع تدبره من الرِقة من خلال تنفسها الخفيف وضربات قلبها الهادرة في صدرها. «لا تقلق، لن تؤذيه. إنه قويّ. حرّك يدك إلى اليسار قليلاً».

ارتعشت أصابع جاسم بينما كانت يده تنزلق على طول طرف بطنها المستدير.

«قليلاً إلى الأسفل»، قالت وهي توجهه.

نعم، الآن زالت الصدمة والذهول عن مُحياه بينما استمرت التقلصات العنيفة في بطنها. لكن لاحظت نورة شيئاً آخر فيه أيضاً: البهجة. كانت البهجة تشع من عينيه مثل وميض القمر في سماء حالكة السواد.

«إنه يتحرك كثيراً الآن»، قالت نورة.

لم يُجبها، كان يُريد فقط أن يستكشف الحركة داخل بطنها. وبشفاه مفتوحة، كان بإمكانها رؤية لسانه يستلقي دون حراك داخل تجويف فمه. كان مأخوذاً بتلك اللحظة؟

استمرّت نورة في رسم خريطة الحركة على بطنها، موجهة جاسماً لتحريك يده إلى أسفل أو الأعلى، تحريكها إلى يمين أو يسار بطنها. «أنا لا أهتم بما يقوله أيّ شخص لي»، قالت

نـورة، «حـول مـدى صحـة هـذا الأمـر وكل الأمـور الأُخـرى. أنـا في الحقيقـة أعتقـد بأنـك يجـب أن تشـعر بالطفـل».

كانــت وبهــدوء تخلــق رابطــاً بينهــما مــن خــلال ســماحها لــه بدخـول عالمهـا الـسريّ، عـالم النسـاء الغامـض، حيـث الأمـور هُنـاك تتشـاركها النسـاء فقـط. ومـن خـلال مراقبتهـا إيـاه، أدركـت نـورة أنـه يُثمّـن هـذا الامتيـاز الـذي منحتـه إياه. وشـعرت بشـجاعة كافيـة لتُضيـف، «وفي النهايـة، إنـه طفلـك».

تـأوّه جاسـم، أمّـا نـورة فقـد سـحبت جائزتهـا التـي كانـت نفسـاً عميقـاً مـن الهـواء مـلأ رئتيهـا. لقـد تجنّبـت كارثـة مـن خـلال تفكيرهـا السريـع. لم يشـك جاسـم بـأيّ شيء. سـمحت لعينهـا بـأن تنحـرف باتجـاه الجِـرار التـي كانـت تتـوج الخزانـة. كانـت المفاتيـح تسـتلقي آمِنـة هُنـاك عنـد قاعدتهـا.

ركل الطفـل مـرّة أُخـرى. أُجفـل جاسـم، أمّـا نـورة فقـد علمـت بأنهـا قـد ربحـت جـزءاً صغـيراً مـن قلبـه.

الفصل السادس والأربعون

وضعت نورة صدفة أُخرى في الصف على طول الجدار. كان هُناك ثمانية منها، كل واحدة تمثل شهراً من شهور حملها. كانت أصدافاً انتزعتها من الجدار. مُعوجة ومُكسرة، ومُصفرة من تقادم السنين، لم تمتلك تلك الأصداف أيّ من رونق الأحجار في جبالها. لذلك قررت أن تصنع نموذجاً من نوع ما لتجعلها تبدو أكثر جاذبية. نزعت العقد الذي كان مُعلقاً في رقبتها ونظمته بين الأصداف في خط متموج، وهو التصميم الذي اتكأت إلى الخلف لتنظر إليه بإعجاب، ولكن تألّق الذهب هو ما ملأ عينيها فقط. كان العقد، وهو عبارة عن ذهب ثخين مزود بشرابة في نهايته، هدية من جاسم، إضافة إلى إسوارة تخريمة ذهبية تحوي مرجانة وردية في وسطها، كانت تجلس بسكون في معصمها.

كان جاسم مثل طفل لديه لعبة سرية، يتسلل إلى غرفتها عندما تسنح له الفرصة، يتوسل لها دائماً بعينيه أن يلمس بطنها. بالطبع، لم يكن يتوجب عليه أن يطلب، حيث كانت دائماً موافقة.

لقد كانت جرعة صغيرة من الدماثة مقابل الامتنان والدعم اللذين كانت تحصل عليهما في المقابل.

تستطيع الآن أن تسمعه يقترب من غرفتها. كان قادماً إليها مرّة أُخرى. دست العقد ثانية فوق رأسها وانتظرت. فُتح الباب مع تنهيدة، ودلف جاسم إليها جاثماً بالقرب منها. أمال رأسه ليحظى بالموافقة بينما أومأت هي رأسها.

تجعّد جبينه من شدة التركيز بينما كان يحرّك يداً حذرة باتجاه بطنها. كان يحتفظ بتقطيبة وجهه الودودة للحظة التي يكونان فيها بمفردهما. أمّا أمام لطيفة، فكان دائماً يستعيد شخصيته التقليدية.

«إنه يتحرّك الآن»، قالت نورة.

«ما شاء الله»، قال جاسم، وانتظر الصبي ليتحرّك.

«انظر كم أنا كبيرة الآن. والطفل الآن قد أصبح أكبر، أيضاً. لا أعتقد أنه يوجد حيّز كبير له بعد الآن ليتحرّك. أها، انتظر، هُناك... اخفض يدك للأسفل».

لكن جاسماً لم يكُن لديه وقت لذلك، حيث كسر عواء لطيفة المُفاجئ تركيزه. انتزع جاسم يده ونظر من فوق كتفه. كانت لطيفة قد انسلت إلى الغرفة دون أن يُلاحظها أحد، والآن أخذت تلوح له بإصبعها.

«ما الذي تظن أنك تفعله»، خاطبته مُقرّعةً، «تلمس امرأة

حُبلى بهذا الشكل؟ خزاك الله! ألا تعلم أنه لا يتوجب عليك نكز بطون النساء؟».

تفجّر الإحراج في وجه جاسم. نهض سريعاً ومتململاً. اندفعت عيناه في أرجاء الغرفة، مثل حيوان حبيس يبحث عن باب مفتوح.

أمّا نورة فقد غسلتها موجة من الذعر بينما كانت تنظر إليه. أراد أن يُغادر الغرفة دون أن يُجيب. أراد أن يهرب. قفزت نورة وتحرّكت لتصبح أمامه، لمواجهة لطيفة. «هذا ليس بالأمر الهام»، قالت موجهةً خطابها «للمسنَّة».

«تباً»!

«جُل ما كان يُريده هو أن يشعر بحركة الطفل».

«يشعر بحركة الطفل»؟ وبختها لطيفة. «هُناك أعرافٌ نتبعها. الحمل هو من عمل النساء. لا يتوجب على الرجال التدخل في هذا الأمر. لا يجب أن يكون زوجنا جزءاً منه. ماذا، لقد قررت فجأة أن تصنعي قوانينك الخاصة الآن»؟

«كان أبي يلمس بطن أمي كل يوم عندما كانت حاملاً بإخوتي». كان ذلك جواب نورة. لم ترتجّ، على الرغم من أنها كانت تختلق هذا الأمر. «لقد شهدتُ هذا الأمر ولا ضير فيه».

«ربما من حيث أتيتِ، هناك في الجبال حيث تركض الماعز بجموح»، قالت لطيفة. كان صوتها مليئاً بقرقعة الحصى على

الزجاج. «ولكن هُنا، لدينا طُرقنا الخاصة. حتى الماعز لدينا تعرف أين يجب أن تركض وأين يجب أن تمشي. حتى ماعزنا يفهم في الأصول».

«ما الضير في ذلك»؟ أصرّت نورة.

«ضير؟ حسناً...» قالت لطيفة. «حسناً... ليست هذه هي النقطة، أليس كذلك»؟ كانت لطيفة تتلعثم، وكانت نورة على وشك أن ترد، عندما قاطعها جاسم.

«توقفا، أيتها النسوة. توقفا كليكما»، قال جاسم. بقي جاسم واقفاً خلف نورة ولكنه خطا الآن ليصبح بين زوجتيه. «لا أريد أن تتجادلا وتتقاتلا كقطتين في منزلي».

«لكنها هي السبب»، قالت نورة، حيث استدارت لطيفة مبتعدة عنهما ومشت باتجاه الباب. «هي تلومني دائماً، وتُشعرني أن كل ما أقوم به خطأ».

نخرت لطيفة بصوتها وثنت ذراعيها بإحكام فوق أضلاعها. لفّت نفسها في زاوية الغرفة، وبحركة دائرية مؤلمة من رأسها، نظرت إلى الأرض. لقد كانت وضعية (أنا المسكينة)، لقد كانت وضعية (قف إلى جانبي).

«لا شيء مما أقوم به يُرضيها»، تابعت نورة.

التفت جاسم خلفاً نحو نورة وهمس، «أعرف، أعرف». ثم أخذ صوته بالارتفاع. «ليس هذه هي الطريقة التي يجب

أن تتحدثي بها عن لطيفتنا. هي أكبر منك، ويجب عليك أن تتعلمي كيف تحترمينها».

«هذا كل ما أطلبه، بعض الاحترام»، قالت لطيفة بصوت خنوع.

«الاحترام، هذا كل شيء. هل تفهمين»؟ قال جاسم وهو لايزال يُوجه كلامه لنورة لكنه كان ينظر إلى لطيفة. بعدها، تسللت يده إلى خلف ظهره وتحسست الهواء.

فهمت نورة؛ حيث كانت تؤيده. وأراد هنا أن يظهر لها بعض التقدير. لذلك دست يدها في يده. ولكنها شعرت أكثر، أكثر بكثير في قبضته الراسخة. كانت ضغطة دافئة، حمائية، مع القدر الصحيح من الضغط لجعلها تشعر أنها مميزة. «هل توافقان»؟ قال جاسم: «لا مزيد من الشجار»؟

«نحن موافقتان»، قالت لطيفة.

«نعم، نحن موافقتان»، قالت نورة.

الفصل السابع والأربعون

بالطبع، عرفت نورة أن هذا لن يكون نهاية الأمر. ستفتش لطيفة عن الرد. وأتى الرد، بعد ثلاثة أيام، مع إعلان لطيفة أن شمسة قد طلبت الطلاق وأن جاسماً قد وافق.

شهقت نورة. لقد كان ذلك خبراً مُهماً وغير متوقع على الإطلاق. كانوا قد جلسوا للتو على حصيرة الغداء، تحت القنطرة التي كانت تتدلى فوق المطبخ ومجلس العائلة، وكانوا في انتظار جاسم لينضم إليهم.

«حسناً، لم أنت مُتفاجئة»؟ سألت لطيفة، قبل أن تمد قدمها لتسحق تلك النملات الصغيرة البرتقالية التي كانت دائماً ما تصل مع رائحة الطعام. النملات التي لم تواجه الموت السريع، تستدير لتهرب مع ما تبقى من أجزاء جسدها. «كُنت واثقة من أنها ستفعل ذلك»، تابعت لطيفة كلامها. «أنت تعلمين، لقد جُرِح كبرياؤها».

بالطبع، كانت نورة تعرف أنه من المألوف أن تطلب المرأة الطلاق، لكن ما حيرها كان موافقة جاسم على هذا الأمر.

لقد مضى عامان تقريباً مُنذ أن وطئت قدماها ليما لأول مرة، ولكن الذكرى تزال واضحة كزجاج مغسول. كم كان غاضباً حينها من تخلي شمسة عنه! لقد جاش كبرياؤه الجريح مثل ماء يغلي بينما كان يحمله بين جنباته عندما كان في السوق. في طريقه إلى هناك، صب جام غضبه على رجل مخبول جاهل. لم يكُن يستلزم الأمر منه أكثر من نظرة حادة لجعل لسان شمسة الفالت من عقاله يعود ملتوياً إلى فمها، غير مؤذية كأفعى متكومة في جحر بارد. لقد أعلنها وبكل وضوح أن شمسة تنتمي إليه. ومع ذلك، كان يُطلق سراحها هكذا وبسرعة. لم يبدُ أيّ من هذه الأمور منطقياً.

التقطت لطيفة أفكارها. «إنه أمر مُثير للعجب، يجب أن أقول ذلك»، قالت لطيفة. «لماذا وافق زوجنا على ذلك»؟ سحبت قدمها بعيداً عن مجزرة النمل ومسحت الضحايا القليلة التي علقت بإصبع قدمها الكبير. «تباً! ليس علينا أن نقلق حيالها. هذا يعني طبخ كميةٍ أقل من الطعام». مدت يدها لتتناول قطعة صغيرة من الفجل، ومع إمالة برقعها، قذفتها في فمها.

كم هو قاسٍ منها أن تتكلم بهذه الطريقة! شعرت نورة أنها يجب أن تدافع عن شمسة، على الرغم من أنهما، وطيلة الأيام التي أمضياها معاً، كانتا عدوتين لبعضهما. ومع ذلك، فقد تقاسمتا شيئاً مشتركاً: هو فقد القدرة على الاختيار. ألم يُرم

بهما كلتيهما تحت نفس السقف وإلى حياة ليست من اختيارهما؟ ولكن، أليس ذلك هو قدر كل الفتيات؟ شيء ما داخل نورة، إنهُ الخواء، تمددَ بما تبقى من مساحة في بطنها حيث كانت تصارع لتجد ذكرى ودية. وعندما لم تستطع إيجاد أيّ منها، قالت، «اعتقدتُ أنكِ أحبَبتها».

«همم...» تركت لطيفة طحن أسنانها الصامت على الفجل يملأ الحيز الساكن بينهما قبل أن تتكلم. «أعتقد أن زوجنا شعر بالارتياح أنها هي التي اختارت أن تغادر بنفسها. أعني، لم كان عليها أن تبقى؟ ما الفائدة المرجوة في النهاية. أتعلمين، وعلى نقيضك، لديها عائلة غنية تريدها. على نقيضك، هي في الحقيقة لا تحتاج لأمان هذا البيت». أهة مبحوحة خرجت متباطئة من مؤخرة حنجرة لطيفة. «نعم، أعتقد أنه لا يوجد سبب لإبقائها هنا».

لا فائدة تُرجى من إبقائها؟ أخذت نورة تفكر في تحذير حمد. هل ستكون هي التالية؟ «حسناً، أعتقد أن الأمر يشبه حالتي. حالما ألِدُ هذا الصبي، لن تعودوا بحاجة إليّ بعد ذلك». هذا ما كان يعتمل في صدر نورة. فقط أدركت أن أفكارها قد سقطت خارج فمها عندما صرخت لطيفة وبدأت بقايا الفجل المتحلل بالتطاير ملطخة برقعها، وتساقطت من فمها.

«جاااااسم»! صاحت لطيفة. «تعال واسمع ما تقوله هذه المرأة الجاحدة عنا».

استحالت يدا نورة أجنحة فراشة وهي تحاول تهدئة

هيـاج «المسـنَّة» غـير المتوقـع. وطيلـة الوقـت، بقيـت نـورة تقـاوم رغبتهـا في الوصـول إلى البرقـع ونزعـه عـن وجـه لطيفـة، ورؤيـة مـا يوجـد خلفـه. هـل كان ذلـك إسـاءة حقيقـة أم.. وكـما كانـت تتوقـع، واحـدة أُخـرى مـن ألاعيـب لطيفـة للحصـول عـلى بعـض التعاطـف؟

«أخـزاكِ الله»، صاحـت لطيفـة، وهـي تـضرب بيدهـا عـلى صدرهـا. «مـاذا تظنيننـا، وحـوش؟ جااااااسـم»!

«ما الأمر»؟ صدح صوت جاسم من غرفته.

«تعـال، تعـال واسـمع مـا تظنـه نـورة بنـا»، صاحـت لطيفـة، بصـوت مـليء بعويـل أم ثـكلى.

وبينـما كان جاسـم يعـبر الفنـاء مسرعـاً، بـدأت لطيفـة تـرفّ بعينهـا بعنـف لتكـسر لمعـة نظرتهـا الحـادة. ولكـن وكـما هـي العـادة دائـماً مـع الدمـوع المُخادعـة، فقـد استغرقها الأمـر بعـض الوقـت.

«مـا الـذي حـدث»؟ طالـب جاسـم أن يعـرف. «ألم نتفـق عـلى إيقـاف صراعـات القطـط هـذه»؟

«أنـت لم تسـمع مـا قالتـه»، قالـت لطيفـة. «لقـد جرحنـي الأمـر جـداً. أنـت لم تسـمع مـا تظنـه بنـا. لقـد قالـت... لقـد قالـت...»

وتوقفـت لبرهـة، بينـما كانـت تلـك الدمعـة المرجـوّة جـداً تكـبر في زاويـة عينهـا اليُمنـى. لقـد تأخـرت تلـك الدمعـة، إلى أن عصرتهـا نحـو الخـارج مـن خـلال غمـزة قويـة مـن عينهـا.

سرى الرعب في ظهر نورة كأمواج من الحرارة اللاسعة بينما كانت تنظر إلى الرحلة المتثاقلة لدمعة لطيفة الصامتة تنساب نحو خدها وإلى الجراب الهلاليّ تحت عينها. توقفت الدمعة هناك. جفّت الدمعة هناك. على كل حال مسحتها لطيفة. «لقد قالت إننا قُساة، بحيث إننا سنرميها خارج المنزل حالما يولد الطفل»، قالت لطيفة.

«هل هذا صحيح، هل هذا ما تظنينه بنا»؟ سألها جاسم.

نوبة غضب، وحشية، شبيهة بانزلاق صخريّ، هدرت داخل نورة. يُمكن للطيفة أن تلوي أعناق الكلمات كما تشاء، ولكنها لن تَجبُن.

هُناك وفي تلك اللحظة، قررت نورة أنها هي أيضاً تستطيع أن تلوي أعناق الكلمات.

«بالطبع لا»، قالت نورة. «أنتم عائلتي، حياتي».

«وما الذي دعاك لتقولي ما قلتِه إن لم تكوني تعنيه»؟ سأل جاسم.

«إنه فقط...»، وعندها، توقفت نورة لبرهة واستجمعت كل مخاوفها، وتركتها تُغرِق عقلها. وبسرعة، بدأت عيناها بالاخضلال. الأمر سهل للغاية عندما يكون لديك سبب. «أمي لطيفة لا تفهم، تضطرب الأمور في الرأس عندما تكون المرأة حُبلى. ستشعر حينها بأنك غاضب وسعيد في نفس الوقت. ستتفوه حينها بأشياء دون أن تفكر فيها بشكل حقيقي، الكثير من الأشياء السخيفة. وحسناً، ماذا يُمكنني أن أقول»؟

لم تحتَجْ نورة أن تغمز لتعصر عينها. سقطت دمعتها الأولى ثقيلة في حجرها كقطرة ندى. ثم سقطت دمعةٌ أُخرى وأخرى. «أعني، بالطبع أنا لم أعن ما قُلته. يجب أن تصدقوني».

وبين عبراتها، التقطت نظرات لرأس لطيفة المائل. هل كانت الحيرة هي التي تختفي وراء ذلك البرقع. لم يكُن لدى نورة وقت للتفكير، حيث إنها كانت قد انغمست كلياً في هذا التكتيك الجديد من اللعب بالكلمات. لقد كانت حيلة أتقنتها لطيفة أيّما إتقان، وأخيراً حان الوقت لتلعبها نورة. «وأنا هُنا لا ألوم أمي لطيفة على تصرفها بهذا الشكل»، تابعت نورة. «كيف يُمكنها أن تعرف ما الذي يجري داخلي؟ في النهاية، هي لم تحبل من قبل أبداً».

«يكفي، يكفي، يكفي»، قال جاسم. «ليس من المناسب لك أن تنفعلي هكذا».

«نعم، يكفي، يكفي»، رددت لطيفة، كان صوتها حاداً من التململ. «ربما قد بالغتُ قليلاً في ردة فعلي. أنا لا أريدك أن تُزعجي نفسك. في النهاية أنت تحتاجين للقوة. اليوم الموعود يقترب؛ عاجلاً جداً ستحققين لجاسم أهم أحلامه، وسيكون مُمتناً لك على الدوام، وكذلك أنا».

خففت نورة من بكائها من خلال تنفسها العميق والصاخب.

لكن لطيفة لم تنته بعد. «بالطبع، حالما يأتي الصبي، ستكونين

أخيراً قادرة على الراحة. اتركي كل شيء لي. أنا سأعتني به».

كانت تتلاعب بالكلمات مرّة ثانية، لكن كانت تعقدها هذه المرّة أشد من عقدة البحار.

«لا»!

«هل ترى يا زوجي»؟ سألت لطيفة. «هذه هي مشكلتها. هي لا تثق بنا».

نخر جاسم بصوت قويّ.

«إنه طفلي»، قالت نورة، وهي متفاجئة كيف خنقتها العبرة. لقد شعرت بثقة كبيرة وهي تلعب دور الزوجة الصغيرة القلقة، الآن سرت في كامل جسدها تلك العاطفة الغريبة. أمّا وجهها! وقد كان هناك الآن دموع حقيقية تهطل عليه، مليئاً بالوخز النضحيّ لرذاذ البحر.

«انظري، لا يزال الوقت مبكراً، وسيتم الاعتناء بكل شيء»، قال جاسم.

«لا، لا، لا، انظر أنت، الأمر مختلف»، قالت نورة، وهي تأخذ جرعة مبحوحة من الهواء. «الأم تعرف دائماً ما هو الأفضل لطفلها. أمي لطيفة لم تشعر أبداً بطفل ينمو في أحشائها. لذلك هي لا تعرف. إنه... إنه»

«كم تصبحين سخيفة في بعض الأحيان»، قاطعتها لطيفة.

تابعت نورة على الرغم من تحقير لطيفة لها. «الأمر يصعب شرحه، لكن ذلك الطفل قطعة مني». بدأت حينها نورة تستعيد تنفسها المُنتظم، وقد تمكنت من التغلب قليلاً على اندفاعها.

«هو جزء منا أيضاً»، قالت لطيفة، مع هزة مُختالة من رأسها.

«نعم، ولكنه ينمو داخلي أنا»، الآن شعرت أنها مستعدةٌ كقطة أم، مستعدة لتفحّ وتخرمش. لكن جاسماً أوقفها فجأة.

«وهذا الطفل أنا من صنعه»، قال جاسم.

نظرت نورة إليه، محتارة ومُغتاظة من مقاطعته في منتصف اختبار الإرادات هذا بينها وبين لطيفة.

هزّت رأسها وتجهمت. ما الذي قاله للتو؟ ثم أصابتها الدهشة. كانت هناك لطيفة، تنظر إليه، أيضاً، كانت عيناها سوداوان وخاملتان مثل الرماد. يُمكن للطيفة أن تُفشي سرّها الآن وفي هذا المكان. وحرّكت هذه الفكرة الخوف داخل نورة مرّة أُخرى.

«ماذا»؟ قال جاسم.

نظرتا إلى الأسفل وتمتمتا بنفس الوقت، «لا شيء، لا شيء».

«حسناً، دعونا نأكل إذن»، قال جاسم، ونادى ياقوتة لتجلب الغداء.

وبينما جلسوا ينتظرون، كان صوت هديل الحمام الجاثم هو ما يقطع الصمت المُخيّم على المنزل. أثناء انتظارهم، حاولت

نـورة أن تفهـم لمـاذا، ومنـذ دقائـق فقـط، حظيـت لطيفـة بفرصـة لكشـف سرهـا ولكنهـا لم تفعـل. لمـاذا؟

وضعـت ياقوتـة الطبـق في منتصـف الحصـير. وبينـما كانـت أيديهـم تخـترق الأرز وتُعـرّي السـمك حتّـى عظامـه، بقيـت نـورة تسـلط عينـاً كعـين الصقـر عـلى لطيفـة. حاولـت أن تلتقـط تلميحـاً صغـيراً مـن عيـون «المسـنَّة»، لكـن لطيفـة أبقـت عينيهـا ثابتتـين عـلى الطبـق. شـعرت نـورة بعدهـا أن أكـبر مخاوفهـا قـد اضمحـل عندمـا أدركـت أن سرّهـا سـيبقى دائـماً سرّاً.

لم يكُـن لـدى لطيفـة النيـة أبـداً أن تبـوح بالـسر، كانـت تُهـدد بالأمـر فقـط. في النهايـة، مـاذا كانـت سـتقول؟ مـاذا تسـتطيع أن تقـول؟ والأهـم مـن هـذا كلـه، هـل سـيصدقها جاسـم؟ هكـذا قصـص! بالتأكيـد، سـينظر إليهـا جاسـم عـلى حقيقتهـا: قصـص الضغينـة والغـيرة. ألم تكُـن لطيفـة تُظهـر الكثـير مـن الغـيرة أخـيراً. الأمـور كلهـا تـؤدي إلى مُخطـط مُحكـم، مثـل حراشـف السـمكة التـي أنـزع جلدهـا الآن، فكـرت نـورة بسـعادة.

تناولـت نـورة طعامهـا بشـهية مفتوحـة. لم يكُـن الطعـام شـهياً هكـذا أبـداً. بالطبـع، مـازال هنـاك النقـاش الـذي بدأتـاه سـابقاً، هـي ولطيفـة. بقـي دون حـل. ابتسـمت عـلى أيّ حـال. عندمـا يحـين وقـت تلـك المواجهـة، سـتكون مسـتعدة لهـا.

لكن تلك المواجهة أتت في الحال، ولم تكن نورة مُستعدة لها.

خلال تناولهم لوجبتهم، كانت لطيفة تأخذ وقتها في تشكيل لقمتها الكروية التالية من الأرز التي كانت ستقحمها في فمها. ثمّ تنهّدت، مرّتين، مع تأكدها أن تبدو التنهيدة الثانية أكثر ثقلاً من الأولى. «أعتقد أنه لا فائدة من طرق الموضوع مراراً وتكراراً». أطلقت بعدها تنهيدة ثالثة، ولكن كانت هذه المرّة مملوءة بالأسى. «إنه طفلك، كلنا نعرف ذلك، فيما يتعلّق بالجزء الجسدي من الأشياء، جزء الحمل من الأشياء». أومأت برأسها وتوقفت، حيث كانت كرة الأرز جاهزة للالتهام. حرفت برقعها نحو الأعلى وأدخلت الكرة في فمها. عاد القناع إلى مكانه وبدأ يتحرك وفق إيقاع مضغاتها. «أعتقد»، تابعت لطيفة، بفم مُمتلئ «يجب علينا أن ننظر إلى الأشياء المهمة هنا، ألا توافقني الرأي يا زوجي»؟

نخر جاسم موافقاً.

«أهم شيء في هذا كله هو أنه حالما يولد الصبيّ، فإنه سينتمي لنا جميعاً، وبالتالي يُمكننا أن نمنحه جميعنا كل شيء».

فتحت نورة فمها لتعترض، لكن لطيفة قاطعتها.

«هسس... هسس اسمعيني. سنصب عليه حبنا جميعاً، يا عزيزتي. سنتقاسمه. ألا تعتقدين أن ذلك عادل، أن نتقاسمه، هممم؟ وبينما يكبر، فسيتعلّم من أبيه، جاسم، ومنّي، أكثر مما سيتعلمه منك بمفردك. في النهاية، أنت بمفردك مجرد طفلة، لا تتمتعين بالحكمة أو النِعَم التي لدينا».

«يُمكنني أن أمنحه أشياء أُخرى»، قالت نورة. «يُمكنني أن أمنحه الحب».

«نعم، نعم، نعم، بالطبع تستطيعين. ولكنني أعتقد أنّ أفضل شيء هو أنني سأكون معك دائماً بينما تمنحينه الحب، وذلك لأتأكد أن هذا الطفل يتبع الطريق القويم، الطريق الصحيح. إنّ قدمي وقدمك تصنعان نفس الآثار، أليس ذلك رائعاً»؟

أومأ جاسم برأسه وتمتم، «هذا رائع جداً».

فتحت لطيفة راحتي يديها نحو السماء: «نرجو أن يولد هذا الطفل بصحة وعافية، إن شاء الله. نرجو أن يتمتّع هذا الطفل بالحكمة، إن شاء الله، نرجو أن يتبع هذ الطفل طريق الأخلاق، إن شاء الله. نشكر الله على كل نعمائه التي منحنا إياها».

«أمين»، قال جاسم.

الفصل الثامن والأربعون

إذاً هكـذا مـا يجب أن يكـون الأمـر عليـه: هـي ولطيفـة تصنعـان نفـس آثـار الأقـدام. أليـس ذلـك مـا قالتـه لطيفـة. أليـس ذلـك مـا حلمـت بـه نـورة مُنـذ فـترة؟

حَدّقـت نـورة في سماء مـا بعـد الظهـيرة، كان هُنـاك وهـج عدائيّ مـن البيـاض الـذي بـدا أنـه امتُـصَّ في الهـواء. كانـت فقـط أصواتـاً قوقـأت صيصـان الدجـاج هـي التـي تكـسر الهـواء السـاكن. كان جاسـم قـد جلـب هـذه الصيصـان لتغذيتهـا بعـد الـولادة مـن أجـل أن تسـتعيد قوتهـا بسرعـة، وكان هُنـاك الكثـير منهـا تتراكـض خلـف السـياج الشـبكيّ.

«المطر قادم». كان هذا ما تُفكر به، ولكنها وجدت نفسها تقوله.

«المطـر»؟ هـل أنـت مجنونـة»؟ كانـت ياقوتـة قـد خرجـت للتـو مـن المطبـخ مـع حمولتهـا مـن الأطبـاق الوسـخة لتغسـلها قُـرب البئـر. «لا مطـر يـأتي في هـذا الوقـت، فقـط الحـرارة والرطوبـة».

تشممت الهواء، كان كثيفاً ويعبق برائحة البحر. «سيكون صيفاً شديد الرطوبة».

تأوّهت نورة وأخذت نفساً عميقاً ترافق مع نوبة تقلص أُخرى، لكنها لم تكن لتقول شيئاً عن ذلك؛ لأن لطيفة كانت ستندفع مسرعة إلى القابلة لتجلبها للمنزل. لقد فعلتها ثلاث مرات من قبل، وكل مرّة كان على نورة أن تستمع لجردة مفصلة عما يتوجب عليها فعله وما الذي يتوقع أن تواجهه. كان هُناك ألم واضح، وعلى الأرجح، نوبة طويلة من المخاض المُنهِك. ولكن وفي آخر مرة اندفعت فيها القابلة إلى منزلهم، ذكرت الموت أيضاً.

«الكثيرات يمُتن»، قالت حينها، وهي تفرك بطن نورة لتتفحص وضعية الطفل. «تبدأ الأمور بشكل جيد، ولكن بعد ذلك...» هزّت رأسها عند تلك المرحلة. «بعد ذلك... نفقد الأم المسكينة، ولا نعرف السبب أبداً. في النهاية، كل شيء بأمر الله». توقفت لوقت طويل قبل أن تضع حزنها جانباً لترفع رجلي نورة وتهزهما بعنف. «ولكن ليس أنتِ، إن شاء الله، ليس أنتِ. أنت شابة وقوية، وكل شيء يبدو على ما يُرام». أنزلت رجلي نورة على الأرض وقالت للطيفة. «مازال الوقت مبكراً، ليست مُستعدة بعد».

«ولكن عاجلاً»؟ سألت حينها لطيفة.

«عاجلاً جداً».

«يجب أن تأتي حالاً عندما يحين الوقت».

«حسناً، ألم أقم بذلك في كل مرّة ناديتموني؟ بالطبع، سآتي حالاً، وسأبقى هُنا، أيضاً، مثلما اتفقنا، لمدة أربعين يوماً تالية. ستحتاج للمساعدة، وخاصة أنه لا يوجد نساء أخريات في هذا المنزل يعرفن ما يجب فعله».

«تباً»!

«نعم، نعم، نعم»، قالت القابلة حينها. «قد تعتقدين أنك تعرفين ما يجب فعله. ولكنك تعرفين ذلك في رأسك فقط، ليس بيديك. متى يجب أن تُعطيها خليط البيض النيء والثوم لتسريع الولادة، متى يجب أن تجعليها تمشي ومتى يجب أن تُجلسيها على كيس من الرمل المُدفَّأ، كيف يجب أن تحضنيها، وتمسكيها، وتفركيها، وتُساندِيها...».

«حسناً، حسناً، حسناً»، قالت لطيفة حينها. «ولكن وعلى الرغم من ذلك فإني سأكون هُناك».

إذن هكذا ما يجب أن يكون الأمر عليه. لطيفة في الغرفة معهم بحيث تستطيع أن تلمس الطفل أولاً، بحيث تتحكم بمسار الأمور من البداية.

احتضنت نورة بطنها ومشت متثاقلة إلى غرفتها، وتوقفت بالقرب من مهد الطفل الخشبي الهزاز الموضوع بالقرب من سريرها.

وقد تكوّم في وسط الفراش دائرة من الرمل النظيف،

الـذي يجـب أن يُبـدل كل مـرة يتسـخ بهـا، كـما تكـدّس عنـد قاعـدة المهـد، إضافـة إلى الإزار القطنـي الطويـل، أرديـة صغـيرة بيضـاء، ثمانيــة منهــا، خاطتهــا نــورة للطفــل. نعــم كل شيء في مكانــه اســتعداداً لوصولــه.

تسلقت سريرهـا واسـترخت عـلى الفـراش، وحاولـت أن تنسـى مـاذا كان يوجـد عـلى الصنـدوق في زاويـة الغرفـة.

ولكــن مــاذا لــو كان هنــاك شيء مفقــود. وبارتيــاع مُفاجــئ، وقفــت لتتفقــد.

عـلى الأرض، حجـرٌ أسـود، لتسـوية بطنهـا بعـد الـولادة، كان موضوعــاً بجانــب كيــس مــن الرمــل لإســنادها لتأخــذ الوضــع المطلـوب أثنـاء الـولادة. بـدأت تعد المـواد الموجـودة على الصندوق. كان هُنـاك المقصـات والخيـط، المجـدول حـول نفسـه عـدة مـرات ليصبـح ثخينـاً، مـن أجـل قطـع وخياطـة الحبـل السـريّ.

كان هُنـاك بـودرة «اليـاس» المُعقمـة لتُدهـن عـلى الـصرة وطسـت المــاء مــع بعــض القطــن بجانبــه لتنظيــف الصبــي مبــاشرة بعــد الــولادة.

نعم كل شيء كان في مكانه استعداداً للولادة، حتى الملح.

انكمشــت مــن الخــوف. آه، تلــك الكتلــة مــن الملــح، بحجــم البيضــة، والتــي كانــت ســتعالج الفجاجــة داخــل أحشــائها بعــد الــولادة مبــاشرة. ألمهــا الحــارق! غلبهــا تعــب مُفاجــئ وقفلــت عائــدة بضعــف إلى سريرهــا.

الفصل التاسع والأربعون

كانت عالقة في حُلم. غاصت قدماها عميقاً بينما كانت تصارعُ لصعود تلةٍ كبيرةٍ في صحراء واسعة من الكُثبان الرملية الذهبية المتموجة. وكلما أسرعت في الصعود، انتقل الرمل أعمق حول كاحليها، وقد حبست تلك اللمسات الحانية المخملية ربلتي ساقيها إلى أن استسلمت من جرّاء الإرهاق.

حينها، لمحت سمكة الرمل على قمة التلة، ارتفع رأسها نحو السماء، مُستقبلاً كُل الشمس. لم تَفُصْ، فقط بقيت حيث كانت. في النهاية، إنه المكان الذي تنتمي إليه.

ثم اهتزّت الأرض حولها. الخبطات الساحقة لشخص مرّ بجانبها مسرعاً، رجل أو امرأة، لم تستطع أن تُميّز، لأن هذا الشخص كان مكسواً بطبقات من القماش متجهاً في طريقه إلى سمكة الرمل.

استجمعت قوتها وسحبت إحدى قدميها. ثم سحبت الأُخرى، وتابعت طريقها نحو الأعلى، وعلى نحو مُفاجئ أصبحت

نشيطة للغاية ومُتحفّزة للغاية، مُنطلقة على رؤس أصابعها فوق الجرف المُنحدر. وطيلة الوقت، كانت تُديم النظر إلى أقدام ذلك الشخص، المُترعة بالنكد، تقترب من سمكة الرمل.

هي كانت تبكي، وسمكة الرمل أيضاً كانت تبكي.

ارتفعت القدم وهبطت مُحَطِّمَةً نحو الأسفل. لكن سمكة الرمل كانت قد اختفت، تاركة وراءها أثر دوران جسمها على الرمل. وعلى مسافة قريبة، عادت وظهرت.

سمكة الرمل كانت تبكي. هي كانت تبكي.

رُفِعَت القدم عالياً مرّة أُخرى، ظلّ فوق رأسها. غاصت ثانية، تلوي جسدها، وتُحس بالتواء آخر داخلها. لكن الرجفة كانت فوقها وتخترق الرمل نحوها.

هي كانت تبكي. هي كانت تبكي.

مدت ذراعيها وركلت رجليها، وسبحت أعمق وأعمق، إلى أن لم تعد تستطيع السباحة أكثر من ذلك. كل الدموع كانت تُكَتِّلُ الرمل، مُحولةً إياه إلى كُتل من الوحل.

وحلٌ فطير، وحلٌ لزج، وحلٌ ثقيل.

هي كانت تبكي، مُخضلّة ومُبللة. نزّ البلل من عيونها، وجهها، جسمها. البلل كان في كل مكان.

استفاقت نورة وهي ترتعش، كان رأسها لا يزال سديمياً ومُثقلاً بالنُعاس، مقطوعة النفس من ذلك الحُلم المُوحِش.

كان الجو هادئاً جداً، ساكِناً جداً، مُعتماً جداً، ما عدا اللهب المُتلاشي للفانوس المُعلّق على مسمار في الحائِط. صريخ طائر «المينا» كسر دوار رأسها. طائر صباحيّ في الليل؟ حاولت أن تستجمع المنطق فيما يحدث عندما سمعته يُرفرف بعيداً، وأضاء الغرفة ضوء صاعقة. كانت هناك بقعة ماء لزجة.

كان الأمر يحدث. إنه قادم..

أرسلت الفكرة اختلاجات في جسمها كتشنّج فلعيّ استحوذ عليها من الداخل. السماء الهادرة ابتلعت صرختها.

كان المطر قادماً. كان قادماً.

تلاشى الألم. لهثت لتتنفّس، لكن رأسها كان طافحاً بالخوف من معرفة أن الانقباضة التالية ستكون أسوأ. لماذا هي وحدها؟ أين هي لطيفة؟ ماذا يجب أن تفعل؟ أين هي القابلة؟ ماذا قالت؟

«امشي، امشي، امشي»!

نزلت نورة من السرير مُتعثرة، فقط لتنحني نحو الأمام والأسفل، سرت موجة نَكِدَةٌ أُخرى خلال جسمها. هل كانت هذه إشارة لبداية حياة أم لنهاية حياة؟ ماذا قالت القابلة؟ «كله بيد الله، أعشت أم متِّ». هل ستموت؟

لم يكُن هناك وقت للتفكير. لقد بدأ مخاضها إثر خطوة مسعورة، متسارعاً مع اندفاعة العاصفة الرعدية.

جلست القُرفصاء. ما الذي قالته تلك القابلة؟ «اجلسي،

اجلسي، اجلسي على الكيس وانتظريني»! لم يكُن هُناك وقت للإمساك بالكيس، لذلك أمسكت بعمود السرير وأصبحت شيئاً واحداً مع الغيوم المتفجرة.

زأرت مع العاصفة، أعولت مع الريح، صرخت مع ضربات الرعد. هطلت دموعها مثل وابل حبات المطر، وعندما نزل البَرَد وضرب السقف، أشار ذلك إلى آخر مرحلة من الولادة.

تالياً، لم تعد تستطيع التفكير بعد ذلك.

الفصل الخمسون

الجو هادئ الآن. «كم هدأتَ بسرعة». توقفتْ، وألقتْ

نظرةً فوق كتفها، عبر الباب، على نوبة الرعب في الفناء. كانت الفوانيس تتأرجح كأسماك صفراء لامعة على سطح بحر أسود. كان هُناك حُفر أقدام مُلئت بالحُطام وحُثالة الرمل النديّ. كانوا يمشون في دوائر، جيئةً وذهاباً، بأصوات يحدوها الإلحاح: قلق في صوت جاسم، اهتياج في صوت لطيفة، جنون في صوت ياقوتة.

«ما الذي يجب أن نفعله؟ ما الذي يتوجب فعله أولاً»؟ قالت لطيفة.

انكفأت نورة عائدة إلى طفلها. «هل تسمعها؟ تلك هي من اقتحمت الغرفة دون استئذان بعد لحظات فقط من ولادتك».

مسحت لتسوي الشعر الأسود المنكوش ووجهت قطعة القطن المبتلة حول الوجه، على طول فمه المُخرخر كالنبع وإلى

انخفاضـات هاتـين العينـين، اللتـين تُصارعـان لتبقيـا مفتوحتـين.

«هـل رأيتهـا»؟

«القابلة، علينا أن نعمل لنُحضر القابلة حالاً»! صرخت لطيفة.

«هـل تذكرهـا؟ هـل رأيـت كيـف اندفعـت للداخـل، وقفـت هُنـاك وهـي لا تعـرف مـاذا تفعـل، قبـل أن تهـرب ثانيـةً»؟ لقـد أرادت أن تلمسـك قبـلي. ولكنهـا وصلـت متأخـرةً جـداً. لقـد لَمَسْـتُكَ أولاً، تذكـر ذلـك».

«علينا أن ننتظر إلى أن يهدأ هذا المطر قليلاً»، قال جاسم.

«ووووو»، أخـذت ياقوتـة تبكـي. «سـتموت إن لم نُـسرع، سـيموت الطفـل».

«لا تستمع لهـم»، همسـت نـورة لطفلهـا. «لـن يحـدث لـك شيء. أنـت مُبـارَك، مـا شـاء الله، أنـت مُبارَك». مسـحت عـلى قـدم الوليد، كان صبيـاً، بآخـر قطعـة قطـن، كانـت يدهـا لا تـزال ترتجـف وهـي تقـوم بهـذه المهمـة الحساسـة. كـم كان هشـاً: تلـك البقعـة الطريـة في قمـة رأسـه، التنفّسُ المُتسـارع في بطنـه، التجعّـد في عمـوده الفقـري، الأوصـال الصغـيرة التـي لا تتوقـف عـن الحركـة، تلـك الأصابـع المرتعشـة التـي كانـت قـد أخـذت تتلمـس الهـواء. كيـف اسـتطاعت أن تتدبـر موضـوع مسـحه لتنظيفـه دون أن تؤذيـه؟ ومـرّة أُخـرى، كيـف اسـتطاعت أن تتدبـر كل ذلـك؟

ربـما كان الأمـر بسـبب تلـك العاصفـة الواهبـة للحيـاة. كانـت لا تـزال تسـتطيع رؤيـة الومضـات السـاطعة للضـوء. كانـت لا

تـزال تسـتطيع أن تسـمع زمجـرة السـماء السـوداء، قصـف الرعـد، صـوت حسـيس المطـر، وأخـيراً، قعقعـة الـبَرَد. طـاردت كل تلـك الأصـوات الخـوف مـن داخلهـا. لقـد انفتحـت السـماء عندمـا يئـسَ الجميـع مـن نعمـة المطـر. لقـد انفتحـت السـماء مـن أجلهـا ورمـت دِلاءً مـن الأمـل والآمـال. لقـد عجّلـت العاصفـة الرعديـة مـن ولادتهـا مـن خـلال إيقاعهـا التسـارعيّ. كـم كانـت تلـك العاصفـة مُلِحّـة، كـم كانـت تلـك العاصفـة عجولـة! وفي النهايـة، أتـت العاصفـة لغـرض واحـد فقـط: لتكـون شريكتهـا في الـولادة. الآن فقـط بـدأت العاصفـة تنحـسر لتصبـح رذاذاً خفيفـاً.

ولِمَ تبقى العاصفة أطول من ذلك حالما تنتهي مهمتها؟

غشـاها إرهـاق ولكنهـا تخلّـت عنـه بمحـض إرادتهـا. «أنـت مُبـارَك»، همسـت نـورة ثانيـة وبـدأت بتأمـين الحمايـة لـه مـن خـلال لفافـة القطـن الطويلـة. «لـن تواجـهَ مـا كان عـليّ مواجهتـه. لـن ترتكـب أخطائـي نفسـها». حـاول الصبـيّ أن يرفـع أحـد جفنيـه الناعسـين، ونجـح في فتحـه نصـف فتحـة قبـل أن يستسـلم وهـو يتثـاءب. «اصـبر عـليّ قليـلاً فقـط، وسـأضعك لتنـام».

ثـم كان هُنـاك نقـاش في الخـارج، ولكـن نـورة لم تسـتطلع الأمـر هـذه المـرّة.

«اذهبي الآن»، لطيفة تأمر ياقوتة.

«كلاا!»، صرخـت ياقوتـة، وتخيّلـت نـورة تلـك الشـفاه المُكتنـزة تضيقـان لتُصبحـا حلقـة رخـوة.

«لقد دثرتكَ الآن بشكل كامل». رفعت نورة الصبيّ وخطت بلطف إلى المهد.

«أنا أقول، اذهبي وأحضريها. نُريدها هُنا في الحال»!

«هل تسمعها. إنها هي ثانية. يجب أن تكون حريصاً معها. هُناك أمر يجب أن تعرفه أنها تُحب اللعب بالكلمات. لقد تعلمتُ أن أفعل ذلك، ويتوجب عليك أنت أن تتعلم ذلك أيضاً في القريب العاجل».

«لن أذهب للخارج في الظلام، يا أمي لطيفة»، قالت ياقوتة باكيةً. «سيخطفني البدو... ولن تريني بعدها ثانية»!

«أنا سأذهب». كان ذلك جاسماً.

«لا تكُن سخيفاً. هذا عمل النساء، هذا شأن النساء. ياقوتة ستذهب».

«أنا لن أذهب» قالت ياقوتة باكيةً.

«بل ستذهبين».

«لا تستمع لهم. يجب عليك أن تتعلم شيئاً منذ البداية وهو أنهم في النهاية ماهرون في الكلام فقط». هزّت طفلها بين ذراعيها، وأخذت تُغني بلطف، «هذا كل ما في الأمر. كلام فحسب، كلام فقط، كلام فحسب».

«الصبيّ، الصبيّ، ما الذي يحدث مع الصبيّ»؟ صرخت لطيفة. «أحضروا القابلة! أحضروا مجبر العظام»!

«اهدئي»، قال جاسم. «سأساعدك لآخذك إلى غرفتك،

وبعدها سأذهب مع ياقوتة - لكي لا يخطفها أحد وأجلب الاثنين إلى هُنا».

«اسمعني»، دمدمت نورة، بينما كانت تضعه في المهد. «في النهاية، هذه الحياة هي الأفضل بالنسبة لك».

تحرّك الطفل وغرغر.

«هوهو يا الدهدوه...».

غنت نورة بصوت دافئ ودعته إلى النوم.

«هواه.. هواه..».

شكر وتقدير

قبل أي بداية أبتهل إلى المولى القدير أن يرحم ويغفر لوالدي محمد عبدالخالق قرقاش وعمتي آمنة - طيب الله ثراهما - حيث كانا السند والمرجع لكثير من المعلومات وصور الماضي الجميل. وأتوقف للحظات لأقدم عظيم امتناني وتقديري لوالدتي الغالية مريم، التي لا تمتلك مهارات الخياطة والتطريز فحسب، بل وأيضاً مستويات من الحكمة والبصيرة النافذة والشخصية القيادية والمثال الأعلى لنا كأسرة وعائلة.

وأنا محظوظة أيضاً بإخوتي الثلاثة، سمير وأنور وشهاب، حيث يغمرني طيب خلقهم وحبهم لي؛ فهم السند والعون وزوجاتهم سعاد وسيما وليس اللواتي غدون أخوات لي ليس كمثلهن أخوات.

وكل تقديري لصديقي الوفي رفيق درب العمل علي خليفة، الذي كان معي منذ البداية عندما كانت الرواية مجرد فكرة؛ إذ كان سعيداً بتوجيهي بإضاءاته الملهمة وسرعة بديهته على جميع

مسودات المخطوطة منذ سطورها وفقراتها الأولى وحتى النسخة المنقحة النهائية.

كما أعبر عن تقديري وامتناني لكل أولئك الذين فتحوا قلوبهم ليمنحوني إحساساً أصيلاً بأساليب الحياة في الماضي بهذه المنطقة. كما أود أن أشكر ابنة وحفيدة أحد تجار اللؤلؤ، السيدة مي بنت محمد القيزي وفاطمة بنت خليفة القيزي على ودهما وذكرياتهما الصادقة، ولن أنسى أبداً مريم الهاشمي على مشاركتها لي في التفاصيل المضنية للولادات في الماضي.

كما أنوه بحرارة بجدتي المسماة تحبباً ماما «هنتين»، أو أمي الثانية التي قصت علي في طفولتي حكايات ثمينة كالجواهر، فعلى الرغم من وفاتها - رحمها الله - فإن حكاياتها عند النوم عن الجن والساحرات والحب والزواج لاتزال حية في ذهني.

وأنا مدينة أيضاً لصديقتي ميمي رعد، ولينا متى، اللتين وقعتا في حب بطلة قصتي على الفور. أشكرهما على ملاحظاتهما القيّمة ومثابرتهما وكل الوقت الذي قضتاه في تمحيص كل التفاصيل.

وأقدم امتناني إلى وكيلي في لبنان، إميل خوري، على إيمانه بهذه الرواية وتعريفي إلى عائلة هاربر كولينز التي كانت بمنتهى اللطف بإشرافها ودعمها.

كما أتقدم بتقديري المخلص إلى محررتي، ستيفاني فريزر، على إرشادها الاحترافي وملاحظاتها المتبصرة.

وشكري موجه أيضاً إلى علي جابر على حماسه المؤثر، وإلى سامر حمزة، وعلياء الخالدي، وسوزان احتشام، وأيلين مهرة، ومايك ميرولا، ومونيكا دانيالز، وكوكب يوسف بن حافظ، على الوقت الذي قضوه في قراءة المسودات الأولى للرواية، وتكرمهم بملاحظاتهم.

ختاماً، أنا ممتنة لجميع أولاد وبنات إخوتي وأخواتي: علي، ومحمد، وعمر، وأحمد، ومريم، ونورة، وثريا، وفيّ، ومها، وجود، ومنصور. أشكركم جميعاً على الأوقات التي منحتموني إياها وكانت استراحات أنا بأمسّ الحاجة إليها أثناء عملي بالرواية.

كلمات الشكر موصولة لشركة قنديل للطباعة والنشر والتوزيع للمجهود الكبير المبذول في ترجمة هذه الرواية الحرفية والتفاني في نقل المعاني من اللغة الإنكليزية وتعريبها بما حافظ على الروح الأصلية للأحداث والترابط الروائي.

كما أشكر الأستاذ غالب المصري على مجهوده في نقل إحساسه اللغوي خلال ترجمته لرواية «سمكة الرمل» له كل الشكر والتقدير.

مها قرقاش

ولـدتُ في دبي مـن أسرة بـارزة في قطـاع الأعـمال، لأبويـن كانـا يؤمنـان دائـماً بالمعرفـة والخـبرة، وبحـس قـوي بالحيـاة، وهـي العنـاصر الحيويـة للإنجـاز الشـخصي. لم يتم الحديـث عـن هـذه القيم، بـل تـم فهمهـا واسـتيعابها مـع كل عـام مـن النمـو، وهـي قيـم سـاعدتني كثـيراً عندمـا كنـت أدرس في أمريـكا، وبعـد ذلـك بأعوام، في لندن.

كانـت أمريـكا تجربـة مثيرة للدهشـة والإعجـاب. لـدى وصـولي هنـاك لأول مـرة أدهشـتني سـعتها وامتدادهـا؛ فشـوارعها تبـدو ممتـدة بـلا نهايـة، ومواقـف السيارات تحت الأرض تعطيـك انطباعاً بالشـؤم (بـلا ريـب؛ لأن جميـع الأفـلام التـي شـاهدتها كانـت تصورهـا عـلى أنهـا أنسـب الأماكـن لتنفيـذ جرائـم القتـل). وممـا حـيرني أن الأطفـال ينـادون آباءهـم كـما لـو أنهـم أنـداد أو زمـلاء لهـم، وأن المعلمـين كانـوا يصرون عـلى التخـلي عـن الرسـميات مـن اسـتخدام كلمـة سـيد (Sir) أو سـيدة (Ma,am)، وعـلى أن أناديهـم بالاسـم المبـاشر (جـون، مـاري، ...) كـما لـو أننـا كنـا أصدقـاء

حميمين. شعرت أن الأمر المعقول هو رفض هذا الأسلوب الجديد من ترك الكلفة، ونتيجة لذلك عانيت الصدمة الثقافية خلال السنة الأولى، ولم أدرك مدى حماقة موقفي إلا في السنة الثانية، وبدأت أغير أسلوبي، مفترضة أن التأقلم - ولو مؤقتاً - هو أمر جيد دائماً. ومنذ ذلك الوقت وأنا أتدبّر أمري جيداً، حتى إنني ندمت لمغادرتي أمريكا حيث كونت صداقات رائعة وحظيت بمدرسين مميزين علموني أن أفكر وأعبر عن نفسي.

بعد أن حصلت على شهادتي الجامعية في مجال التلفزيون، عدت إلى دبي، والتحقت مباشرة بدائرة إعلام دبي لممارسة اهتمامي في الأفلام الوثائقية التي تبقى حتى هذا اليوم مصادر جديرة بالملاحظة. كان ذلك مجالاً وفر لي فرصاً للسفر على نطاق واسع، وفتح لي أبواباً عديدة. فقد أخرجت عدداً من الأفلام الوثائقية التي بقيت إلى هذا اليوم مصادر جديرة بالاهتمام في مختلف جوانب الثقافة الإماراتية، وأثناء إنتاج هذه البرامج سافرت إلى جميع مناطق الإمارات، وخضت تجارب أقل ما يقال عنها إنها قيّمة. قمت بتصوير نساء أكبر سناً يجمعن بين المهارة والسرعة في العمل، وهن يضفرن شعر فتاة صغيرة على هيئة أجنحة لتشكيل قصة الشعر التقليدية «شونجي»، وتتبعت رحالة وحيداً وجمله في وسط صحراء خالية، وهو يلقي قصيدة «الطريق» التي تتابع أبياتها وقع حوافر الجمل أثناء سيره، ويمضي ساعات الوحدة الطويلة وسط الكثبان الرملية،

كما سجلت لمجموعة من الموسيقيين يقومون بتجميع طبل تقليدي، ويغنون معاً بينما يشدون الجلد فوق إطار الطبل.

كان العمل في هذه الأفلام الوثائقية مشابهاً لتأليف هذا الكتاب من حيث إن هذا الجهد جعلني أشارك في عملية طويلة ومفصلة منحتني بعد إتمامها شعوراً داخلياً بالرضا وخبرة واسعة.

كان مشروعي التالي مختلفاً عن الأفلام الوثائقية؛ إذ كان برنامجاً تلفزيونياً ثقافياً تألف من تحقيقات طويلة عن الفن والثقافة والطبيعة وأشخاص ومجتمعات فريدة من جميع أنحاء العالم. كان فريقنا صغيراً، ونتيجة لذلك فقد انتهى بي الأمر، ليس إلى الإخراج فحسب، بل أيضاً إلى البحث وكتابة السيناريوهات والعرض. وقد استمر بث البرنامج على مدى خمسة مواسم، حيث تم فيه إجراء تحقيقات عن موضوعات مثل علم الأيورفيدا الهندي القديم، ورجل اشترى فردوساً تمثل في جزيرة في سيشل عام 1962 مقابل عشرة آلاف جنيه استرليني فقط، ونبات القات الذي يحتل قلب الحياة الاجتماعية في اليمن ويؤدي إلى حالة من النشوة والإثارة عند مضغه وتخزينه في زاوية الفم.

تطلب مني هذا البرنامج أن أزور أكثر من أربعين بلداً، تركت جميعها في ذهني انطباعات لا تقدر بثمن، وما زلت أستطيع أن أتتبع جمال سينيا في إثيوبيا، وأستنشق عطر الفجر

الأصيل في قاع العالم في نيوزيلندا، وأحس بالقوة المدوية للنيل وهو يقتحم وادياً عرضه ستة أمتار في متنزه شلالات مورشيسون الوطني بأوغندا، وأذكر بإعجاب منظر صقور ساكر وبيريجرين وهي تحلق فوق جبال هندوكوش الشامخة في باكستان، وذلك كجزء من برنامج حكومة دولة الإمارات العربية المتحدة الذي يهدف إلى زيادة عددها في البراري. لقد أسهمت هذه الرحلات التي قمت بها في شحذ تفكيري وتعزيز رغبتي في سبر وتعلم المزيد.

ماضٍ عزيز على قلبي

ولدت فكرة هذا الكتاب في ذهني قبل وقت طويل من البدء في تأليفه. كانت هناك السماء المفتوحة الواسعة، ومياه الخليج المالحة، وأشعة الشمس الحارقة، ومركب - كان مركب «دهو» شراعياً للغوص على اللؤلؤ، ثم قادتني تخيلاتي إلى وضع شخصيات على متنه. فكرت ببطل شاب على ظهر هذا المركب الشراعي، والمشقات التي يتحملها، والمآثر التي سينجزها، والأمل الذي يسكن في قلبه.

تاريخياً، كان غواصو اللؤلؤ يعيشون حياة قاسية؛ ففي رحلات الغوص، كانوا يمضون شهوراً على ظهر مركب «الدهو» المكتظ بالغواصين تحت أشعة الشمس الحارقة،

وكانـوا لا يأكلـون إلا القليـل. ونتيجـة لغوصهـم باسـتمرار ونقـص الفيتامينـات، كانـت تسـوء حالتهـم الصحيـة، بـما فيهـا صحـة العينـين والأذنـين والرئتـين. وكان معظمهـم يأخـذون سـلفاً مـن صاحـب المركـب لكـي يعيلـوا أسرهـم أثنـاء غيابهـم في البحـر، فـإذا كان مـا اصطـادوه مـن لؤلـؤ لا يغطـي السـلفة فإنهـم يصبحـون مدينـين لصاحـب المركـب عنـد بدايـة الموسـم التـالي، إذ كان مـن المفـترض أن يحصلـوا عـلى سـلفة أخـرى. وكلـما اكتشـفت المزيـد، ازدادت قناعتـي بجعـل صيـد اللؤلـؤ خلفيـة لقصتـي.

بـدأت فـترة مـن البحـث المكثـف، حيـث سـجلت جميـع التفاصيـل الدقيقـة التـي شـعرت أن مـن الـضروري تضمينهـا في الروايـة. وعندمـا قابلـت غواصـين مـا زالـوا عـلى قيـد الحيـاة، فوجئـت بأنهـم غـير حريصـين عـلى المشـاركة في مشـاعرهم حـول تلـك الأيـام القاسـية. قـال لي أحـد الرجـال الكبـار في السـن، ممـن أصـاب عيونهـم المـرض: «كانـت تلـك الأيـام مـلأى بالبـؤس، وأفضّـل أن أنسـاها».

مهـما يكـن، فقـد شـعرت أن لـدي مـن المـادة مـا يكفـي لـتأليف كتـاب رائـع، وبـدأت بالكتابـة بشـغف كبـير، واسـتغرق الأمـر سـتة أشـهر لألاحـظ أن قصتـي لا تحـرز تقدمـاً. لم تكـن ثمـة منعطفـات في الحبكـة، ولم تكـن هنـاك صفـات لشـخصياتي تجعلهـا حيـة في الذاكـرة، وتحـول مشروعـي إلى كتـاب مرجعـي مفصـل - وأضيـف أنـه سـهل التنـاول جـداً - للمهتمـين بمهنـة صيـد اللؤلـؤ. أمـا

تلك الفصول العشرون الأولى، التي استمتعت كثيراً بكتابتها، فقد ذهبت مباشرة إلى سلة المهملات حينما تبين لي أنها تفتقر إلى عنصر أساسي، تمثل في معرفة تفصيلية من نوع شخصي.

وبعد بعض التفكير، شعرت أنه سيكون أكثر إثارة للاهتمام أن أسرد القصة من خلال عيني فتاة، وليس أي امرأة. تنشأ نورة، بطلة روايتي، وتترعرع في عزلة، بعيدة عن الثقافة والتهذيب والمدنية. وبعد أن أقمت هذه الخلفية، طرحت السؤال التالي: ماذا سيحدث إن اضطرت هذه الفتاة الخالية البال والمعتمدة على نفسها إلى أن تعيش حياة مملوءة بالقيود؟ وجاء الجواب في عدد من الاحتمالات التي غدت أساس هذه الرواية.

مرت دولة الإمارات العربية المتحدة بمراحل من التحول السريع واللافت. والواقع أن التغير طرأ على هذه الدولة الفتيّة بسرعة كبيرة تركت لنا - نحن الإماراتيين - وقتاً قليلاً لا يكفي لتأمله. ذلك ما جعلني أقرر أن أضع روايتي في الماضي، واخترت خمسينيات القرن الماضي؛ لأنها الحقبة التي اتضح فيها أن أسلوب الحياة القديم لن يلبث أن يزول.

لم تتراجع مهنة صيد اللؤلؤ - التي اعتمدت عليها مجتمعات الخليج العربي - إلا في ثلاثينيات القرن العشرين، مع حدوث الكساد الاقتصادي العالمي، واكتشاف اليابانيين للؤلؤ الصناعي. وبحلول الخمسينيات من ذلك القرن، اتضح أن صناعة اللؤلؤ لن تنتعش، باستثناء بعض التجار المغامرين الذين أصروا على

القيام «برحلة غوص أخرى»، وراقب أهل المنطقة وانتظروا ليروا أين سيؤول بهم النفط الأسود الذي سمعوا عنه، وما هو التغير الذي سيسفر عنه.

أتى النفط معه بالفرص والرخاء والتعليم والرعاية الصحية، فيما يمكن وصفه بالتحول الكبير، وهو انغماس في الحداثة وضع الناس فيها الماضي بسرعة وراء ظهورهم وتطلعوا نحو المستقبل. واليوم تعد الإمارات العربية المتحدة من أكثر الدول جاذبية للعيش فيها؛ فهي ملاذ ضريبي، وتتميز ببنية تحتية مثيرة للإعجاب، كما أن أسلوب الحياة مريح، والسكان من أمم شتى. وهي تمتلك سجلاً تحسد عليه في توافر الأمن. ونتيجة لذلك، فإن المقيمين فيها من 190 جنسية يعتبرون دولة الإمارات وطناً لهم.

مع بروز كل هذه التطورات ومظاهر التقدم، شهد أسلوب الحياة تغيرات سريعة، ولا سيما في مدينتي دبي. فالجيل الجديد من الشباب والشابات يتبع وتيرة مختلفة في حياتهم اليومية الحافلة الآن بالفرص، والواعدة بمستقبل باهر، والمتميزة بالتقدم والرقي. ويبدو أنه لا يوجد وقت للتفكير مليّاً في الماضي؛ تلك الحياة الأخرى التي عاشها أجدادهم. ولكن تجاهلها سيكون خسارة كبرى. لم يعبر أحد عن هذا الشعور كما عبر عنه المغفور له بإذن الله – رئيسنا الوالد المؤسس، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، طيب الله ثراه: «إن التاريخ سلسلة متصلة

من الأحداث، وما الحاضر إلا امتداد للماضي، ومن لا يعرف ماضيه لا يستطيع أن يعيش حاضره ومستقبله».

تاريخياً، تعتبر الثقافة الإماراتية ثقافة شفهية؛ فقد انتقلت تقاليدنا وأحاسيسنا وأخلاقنا من جيل إلى الجيل التالي عن طريق رواية القصص والشعر. ولذلك فإن فقدان التفاصيل الدقيقة عن أساليب حياتنا السابقة بوفاة الذين عاشوها يمثل خطورة كبرى. واليوم نجد أنه لم يتم تسجيل ما يكفي عن ماضينا، وما يتم عرضه وتوثيقه في المتاحف عبر البلاد يعطي حقائق وليس روايات شخصية.

لحسن الحظ أن عملي مخرجة أفلام، متخصصة في الوثائقيات، منحني فرصة لدخول المجتمعات التي تم تصويرها في الكتاب. ولكي أصور الأجواء في سنوات الحرمان تلك قبل الثروة التي جاءت مع النفط، أجريتُ مقابلات في غاية الدقة مع العديد من كبار السن الذين تشكل ذاكرتهم كثيراً مما ورد وصفه في الكتاب. فالنساء هن اللواتي يملكن أكثر الحكايات تأثيراً، وبما أنني أنا امرأة إماراتية، فقد فتحن قلوبهن لي، ولم يمطن اللثام عن التفاصيل الدقيقة لحياتهن اليومية فحسب، بل أيضاً عن آمالهن ورغباتهن، ومخاوفهن وتطلعاتهن. كان بعض مَن أجريت مقابلات معهم من أفراد عائلتي، ومنهم والداي وعمتي. وأثناء عملية جمع المعلومات تبين لي أنه لا يكفي أن تكون قادراً على تصور حياتهم، بل يجب أن أكون قادرة على رؤية ذلك العالم وشمه وسماعه وتذوقه ولمسه.

عندما أردت تأليف هذا الكتاب، قضيت وقتاً طويلاً أبحث في فن العمارة وبنية المدن، والغوص على اللؤلؤ، ومراكب «الدهو» الشراعية العربية، وطرق التجارة العربية، والأزياء النسائية، والأقمشة، والمجوهرات، والمكياج، وتقنيات الخياطة. أما فيما يتعلق بالأماكن، فقد استكشفت طبوغرافية الأرض، وسافرت إلى البيوت المهجورة المبنية في أعالي الجبال، فضلاً عن هياكل المنازل بجوار البحر. أردت بذلك أن أنقل إلى القارئ إحساساً حقيقياً بالمحيط. وعلى الرغم من أن التعبير عن ذلك كان بسيطاً ومتاحاً، فقد سعيت إلى أن أصور جدب المشهد الطبيعي الخارجي، حيث كان يتم تحمل الحر والقحط، والاحتفال بالمطر.

إنني أشعر أن «سمكة الرمل» تمثل قراءة جذابة من حيث كونها وصفاً لزمن وأسلوب حياة محدودين جداً، يمتزج بمشاعر كونية، وبفهم للحب والغيرة والصداقة والبقاء. لم أكن مهتمة بالتدبير الكلي للأشياء في العالم الأكبر، بل بالأحرى بشريحة من الحياة، ومدى حجمها الذي يلوح في ذهن بطلتي في الرواية. كان هدفي أن أوفر جواً عاطفياً للرواية، من خلال إظهار ما يجري من خلال المرشِّح العاطفي لدى نورة؛ فهي زوجة ثالثة عالقة في بيت الخطط والمكائد. أردت للقارئ أن يتفاعل وأن يدخل في رأس نورة، ويرى العالم بالطريقة التي تراها هي.

إن الرواية هي رحلة نورة إلى اكتشاف الذات. فعالمها الصغير في البيت المجاور للبحر يعتمد على تعقيدات المحادثة: ما تقول ومالا تقول، الكلمات الحلوة التي تحمل نوايا سيئة، والألعاب النفسية التي يتم أداؤها على المستويات الأساسية. كذلك تعتبر خطواتها نحو الحميمية مع حمد لعوباً تماماً في البداية، ولكنها في الوقت نفسه خطيرة، حيث تخيم ظلال هلاك وشيك على كل تصرف من تصرفاتها.

على الرغم من جمال نورة وذكائها وتوقدها، فإنها بطلة من نوع مختلف، فهي محدودة في اختياراتها، ولا تملك فرصاً، وبالتالي سيكون من غير الواقعي أن نمنحها طموحات كبرى. ويكفي في وضعها الذي يتسم بالفقر المدقع أن تكون قادرة على التأقلم، وهذا ليس بطولياً بالمعايير الغربية، ولكنها استطاعت من خلال التكيف والتأقلم أن تكسب اليد العليا، وتكسب معارك صغيرة في خضم العلاقات المتغيرة في الأسرة التي غدت جزءاً منها.

تحت شمس كهرمانية صفراء

كان ثمة وقت كنت ترى فيه الرمال يتغير لونها وقوامها بمجرد سفرك مسافات قصيرة. لقد تغير هذا الآن؛ فقد تطورت دبي لتصبح مدينة مثيرة تجتذب الزوار من جميع أنحاء العالم، فهم يأتون لأجل المنتجعات الفخمة، والمطاعم

العصرية، ومراكز التسوق الكبرى. وغالباً يكون هناك الكثير لتفعله بحيث يكون من السهل أن تغفل عن ثقافة دبي، وما وراءها.

دبي

خور دبي

خور دبي لسان بحري، كان العنصر الرئيس الذي قام عليه المركز التجاري لدبي. وقد ارتكزت صناعة اللؤلؤ وتجارته مع الهند وأفريقيا بصورة أساسية على الحملات في ذلك الخور. وهو يقسم مدينة دبي إلى شقين هما: ديرة وبر دبي. وقد استخدم الناس العبرة، وهي زورق صغير بالمجاذيف، يعبر من جانب إلى آخر، وهو تقليد مستمر حتى الآن. وعلى الرغم من أن القوارب الآن أصبحت مزودة بمحركات فإن العبرة تبقى أفضل طريقة للاستمتاع بنبض المدينة ونشاطها.

منطقة الفهيدي التاريخية

تعد منطقة الفهيدي أحد أحياء دبي التاريخية الساحرة، حيث تتصل أقدم مدن المدينة مع بعضها على شكل صفوف، يعود تاريخها إلى تسعينيات القرن التاسع عشر، وقد بناها الموسرون من سكان دبي. وتتكون البيوت من طابقين، وهي مصممة لتقاوم الحر والمناخ الرطب. ويرتفع من كل بيت براجيل لافتة للنظر. البرجيل هو برج للرياح وهو طريقة بارعة للتهوية،

حيث يستقبل الرياح من أي اتجاه هبت وينزلها إلى داخل البيت، ويسرعها بمقدار يصل حتى خمسة أضعاف، وذلك حسب عمق وارتفاع البرج.

بيت الشيخ سعيد آل مكتوم

يعود تاريخ بناء بيت الشيخ سعيد آل مكتوم إلى عام 1896، وهو ليس مجرد سكن لحاكم دبي السابق، ولكنه كان أيضاً مقراً للحكومة المحلية، ومكان تصريف الأمور السياسية والاجتماعية. ويتميز هذا الصرح التاريخي بأسقفه العالية المقببة، ومداخله المقنطرة، وبروزات النوافذ المنحوتة. وهو يضم الآن تشكيلة رائعة من صور دبي القديمة.

المدرسة الأحمدية

يعود تاريخ بنائها إلى عام 1912، وتعتبر المدرسة شبه الرسمية الأولى في دبي، وتنتظم غرفها الواسعة تحت رواق مسقوف، بينما تتوسط المبنى باحة رملية كانت مسرحاً للطابور الصباحي، وملعباً للطلاب. وتقع المدرسة الأحمدية في ديرة، وتبقى لصيقة بأفئدة الذين درسوا فيها جميعاً.

سوق الذهب

تعرض في محلاته عقود وأقراط وأساور ذهبية. ويقع في قلب ديرة، ويتألف من أكثر من ثلاثمائة بائع تجزئة يتعاملون

حصرياً بالمجوهرات. وقد نمت التجارة في شوارعه الضيقة أثناء أربعينيات القرن الماضي نتيجة لسياسات دبي التجارية الحرة، التي شجعت أصحاب المشاريع الريادية من الهند وإيران على إقامة متاجرهم. وتشير بعض الإحصاءات اليوم إلى وجود أكثر من 52 طناً من الذهب في السوق في أي وقت من الأوقات.

متحف اللؤلؤ - بنك الإمارات دبي الوطني

هو عبارة عن تشكيلة لا يمكن تفويت مشاهدتها، حيث توجد أكبر مجموعة في العالم من اللآلئ الطبيعية في أكوام تحت الزجاج في مبنى مقر البنك الوطني، وتعود ملكية اللآلئ إلى المرحوم سلطان العويس، وهو رجل أعمال وشاعر ومحسن، وهبها إلى شعب الإمارات تحت عهدة البنك. وكانت أمنيته أن تكون اللآلئ متاحة لتذكر الناس بحياة الناس قبل اكتشاف النفط. ويمكن مشاهدة بعض أندر اللآلئ ذات الاستدارة والبريق الرائع.

ما وراء دبي

أبوظبي: جامع الشيخ زايد الكبير

يعتبر جامع الشيخ زايد الكبير ثالث أكبر مسجد في العالم، وقد أُطلق على المسجد اسم مؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة ورئيسها الأول المغفور له بإذن الله، الشيخ زايد بن

سلطان آل نهيان، طيب الله ثراه. ويحتضن المسجد قبر المغفور له بإذن الله، الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، ويتسع الجامع لـ 40 ألف مصل، وقد سجل بعض الأرقام العالمية. يحوي المسجد أكبر سجادة في العالم، وقد قام نحو 1200 حرفيّ إيراني بحياكتها يدوياً، حيث تتكون من أكثر من مليونَيْ عقدة، وتزن 54 طناً. تميز المسجد بمجموعة من الصفات المعمارية التي تجعله إحدى أروع التحف المعمارية على مستوى العالم، حيث يضم مجموعة من المآذن السامقة والقباب الكبرى وكلها مكسوة بالرخام الأبيض المتألق.

الشارقة: بيت النابودة

ليس بيت النابودة في الشارقة بيتاً عادياً، ويدل حجمه وفخامة تصميمه على أنه يعود إلى أسرة ثرية. ويحتوي على أعمدة ذات قواعد من الغرانيت من الهند، والخشب من زنجبار. كما تصور غرف البيت نمط البيوت في الخليج العربي، فهي طويلة ومستطيلة الشكل، وذات أسقف عالية، ويتبع عرضها طول عوارض السقف، أما النوافذ فهي صغيرة بحيث تسمح بدخول القدر المناسب من النور، وتمنع دخول الحرارة الزائدة. وهو بيت جميل، يتصف بالأناقة والبساطة، ومصدر بهجة للزائرين.

ليوا

تقع واحة ليوا في طرف الربع الخالي، وهي بعيدة ولكنها جديرة بالزيارة للاستمتاع بالهدوء في واحدة من أجمل الواحات الصحراوية في العالم، حيث تتصف بالسعة والعمق، وتسمى ليوا صحراء الصحارى، حيث ترتفع الكثبان الرملية ذات الألوان المختلفة مثل الجبال، وهي شديدة الانحدار.

قرية شيص

إن أفضل وقت لزيارة الجبال في الإمارات هو بعد هطول الأمطار، حيث يغسل المطر الغبار وتزدان الأرض بالألوان الزاهية من أحمر وبني وبنفسجي. ويخترق الجبال في الفجيرة طريق محاط بطبيعة ساحرة ووديان عميقة وبساتين النخيل، ينتهي عند قرية ساحرة الجمال تسمى شيص، يعيش فيها مجتمع صغير في عزلة على مصاطب وشرفات ضيقة ذات جدران حجرية تهب عليها نسمات منعشة. والذي يضفي الخصوصية على هذا المكان هو المناظر الطبيعية وتوافر المياه من ينابيع طبيعية.

كلمة المترجم

سمكة الرمل رواية جمعت بين التراث العربي الإماراتي الأصيل، والتصوير الحي الدقيق لماضٍ عريق، من خلال شخصيات مثّلت البيئة والمرحلة الزمنية التي وجدت فيها، وذلك بلغة أدبية، وأسلوب راقٍ، إن دل على شيء فإنما يدل على قدرة المؤلفة الفائقة وحسها الأدبي المرهف، وتمكنها من اللغة التي تكتب فيها. ولعل عملي مترجماً يعتمد قبل كل شيء على فهم النص المترجَم، ثم القدرة على صياغته باللغة المستهدفة بأسلوب رصين يسعى قدر الإمكان للاقتراب من أسلوب المؤلف؛ وقد شكل هذا تحدياً لا أدعي أنني برعت فيه، وإن بذلت ما أمكنني من الجهد. ولكن الذي أود التنويه به هنا أنني أثناء ترجمة «سمكة الرمل» شدّني جمال أسلوب المؤلفة مها قرقاش، وقدرتها اللغوية، وتصويرها الرائع، والتفاصيل التي تدل على خبرة وتمكن من أجواء الرواية وشخصياتها والبيئة الزمانية والمكانية وكأنها عايشتها بالفعل.

وقد استمتعت أثناء ترجمتها بتتبع أحداثها وصورها

وتسلسل أحداثها وحبكتها، وأستشهد هنا بقول زميل أديب اطلع على الرواية، فقال لي: «هذه قصة شكسبيرية وتحتاج لترجمتها إلى مترجم شكسبيري».

أود هنا أن أحيي المؤلفة مها قرقاش، وأشكرها على تعاونها في إيضاح بعض المصطلحات المحلية، كما أتقدَّم بالشكر إلى «قنديل للطباعة والنشر والتوزيع»، لجهودها في إخراج هذا العمل الرائع.